

تَفْسِيرُ
التَّبْيَانِ

لِشَيْخِ الطَّائِفَةِ الْهَوَاسِيِّ نُسَيْرِ

٣٨٥ - ٤٦٠ هـ

المجلد الثامن

تَحْقِيقٌ وَتَصْحِيحٌ
أَحْمَدُ مَبْدِيَّ قُصَيْرُ الْقَائِلِي

مَكْتَبَةُ الْأَمِينِ
النجف الأشرف

مطبعة النعمان - النجف

١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م

تفسير التبصرة

لشيخ الطائفة الطوسي قدس سره

٣٨٥ - ٤٦٠ هـ

المجلد الثامن

تحقيق وتصحيح
أحمد حبيب قصير القاملي

مكتبة الأمين

النجف الأشرف

١٣٨٢ - ١٩٦٣

طبعة النعمان - النجف الأشرف

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطہ بدیل < mktba.net

سورة الشعراء

قال قتادة هي مكية . وقيل أربع آيات منها مدنية من قوله
« والشعراء الى آخرها » وهي مثنان وسبع وعشرون آية في الكوفي
والمدني الاول وست في البصري والمدني الآخر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طَسَمَ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ
نَفْسَكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ۝

ثلاث آيات في الكوفي خاصة . واثنان في الباقي . ولم يعد « طسم » آية إلا
أهل الكوفة .

قرأ حمزة والكسائي وخلف ويحيى والعلمي « طسم ، وطس » بامالة الطاء
فيهما . الباقلون بالتفخيم ، وأظهر - النون من هجاء سين عند الميم - حمزة وأبو
جعفر إلا أن أبا جعفر يقطع الحروف . الباقلون يخفونها قال ابوا علي الفارسي :
تبيين النون من (طسم) على قراءة حمزة هو الوجه ، لأن حروف الهجاء في
تقدير الانفصال والانقطاع مما بعدها ، وإذا ثبت ذلك وجب أن تبيين النون

لأنها تخفى اذا اتصلت بحرف من حروف الفم ، فاذا لم يتصل بها ، لم يكن هناك ما يوجب إخفاؤها . ووجه إخفائها مع هذه الحروف أن همزة الوصل قد وصلت ولم تقطع ، وهمزة الوصل إنما تذهب في الدرج فكما سقطت همزة الوصل ، وهي لا تسقط إلا في الدرج مع هذه الحروف في (الف لام ميم) الله ، كذلك لا تبين النون ، ويقدر فيها الاتصال بما قبلها ، ولا يقدر الانفصال .

قيل إنما عد (طسم) آية ، ولم يعد (طس) لأن (طس) تشبه الاسم المفرد ، نحو (قاييل ، وهاييل) وليس كذلك (طسم) . ووجه الشبه بالزنة أن أوله لا يشبه حروف الزيادة التي هي حروف المد واللين ، نحو (يس) وليس شيء على وزن المفرد يعد إلا (ياسين) لأن الياء تشبه حروف الزيادة فقد رجع الى انه ليس على زنة المفرد . وقد بينا فيما مضى معاني هذه الحروف المقطعة في أول سورة البقرة ، فلا نطول باعاده . وقد بينا قول من قال . إنها اسماء السور . وقال قتادة والضحاك : ان (طسم ، وطس) اسم من اسماء القرآن . وقوله « تلك آيات الكتاب المبين » إنما أشار به (تلك) الى ما ليس بحاضر لأنه متوقع ، فهو كالحاضر بحضور المعنى للنفس ، وتقديره : تلك الآيات آيات الكتاب . وقيل ! تلك الآيات التي وعدتم بها هي القرآن . وقيل : ان « تلك » بمعنى (هذا) ومعنى (الكتاب) القرآن ، ووصفه بأنه (المبين) لأن به تبيين الأحكام ، لأن اليمان اظمأر المعنى للنفس بما يتميز به عن غيره ، وهو مأخوذ من الينونة ، وهي التفرقة بين الشيء وغيره . فالمتبين الذي يبين الحق من الباطل . وسمي أيضاً فرقاناً ، لأنه يفرق بين الحق والباطل .

وقوله « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » قيل فيه قولاً : الأول - قال ابن عباس وقتادة : معناه لعلك قاتل نفسك . والثاني قال ابن زيد : مخرج

نفسك من جسدك . والبغع القتل ، قال ذو الرمة :

الا أيهذا الباخع الوجد نفسه لشيء نحتة عن يديه المقادر (١)

وقال ابن عباس معنى « أن لا يكونوا مؤمنين » فيه أي في القرآن وقال
الفراء موضع (أن) نصب بـ (باخع) ، لان (أن) جزاء ، كانه قال : ان لم
يكونوا مؤمنين فانت قاتل نفسك ، فلما كان ماضياً نصب (ان) كما تقول :
اتيك (أن) تأتيني ، ولولم يكن ماضياً لقلت : آتيتك ان تأتني ، ولو كانت مجزومة
مع كسر (ان) كان جائزاً ، ومثله ﴿ لا يجر منكم شأن قوم أن ﴾ (٢) بالفتح
والكسر .

قوله تعالى :

﴿ إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا

خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحدثٍ إِلَّا كَانُوا

عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ (٥) آيتان بلاخلاف .

لما بين الله تعالى حرص النبي (ص) على إيمان قومه ، واجتهاده بهم حتى
كاد أن يقتل نفسه تأسفاً على تركهم الايمان ، أخبره بأنه قادر على أن ينزل عليهم
آية ودلالة من السماء تظل اعناقهم لها خاضعة بأن تلجئهم الى الايمان ،
لكن ذلك نقيض الغرض بالتكليف ، لأنه تعالى لو فعل ذلك ، لما استحقوا ثواباً
ولا مدحاً ، لأن الملجأ لا يستحق الثواب والمدح على فعله ، لأنه بحكم المفعول
فيه . وقيل : المراد بالاعناق الرؤساء . وقال قتادة : المعنى لا يلوي أحد منهم

(١) شرح ألفية ابن مالك (المنادي) ٢٢٤ (٢) سورة ٥ المائد آية ٣

عنقه الى معصية . وقيل في وجه جمع « خاضعين » بالياء والنون وهو صفة (الاعناق) والاعناق لا تعقل ، وهذا الجمع يختص بمن يعقل قيل فيه أربعة اقوال :

احدها - فظل اصحاب الاعناق لها خاضعين ، وحذف المضاف ، واقام المضاف اليه مقامه لدلالة الكلام عليه .

الثاني - انه أراد بالاعناق الرؤساء والجماعات ، كما يقال جاءه عنق من الناس أي جماعة .

الثالث - ان يكون على الاقحام . قال ابو عبيدة ، والبرد « خاضعين » من صفة الهاء والميم ، في قوله « اعناقهم » كما قال جرير :

أرى مرّ السنين أخذت مني كما أخذ السرار من الهلال (١)
فعلى هذا يكون ترك الاعناق وأخبر عن الهاء والميم ، وتقديره فظلوا خاضعين لها والاعناق مقحمة .

الرابع - أنهم - ذكرت بصفة من يعقل لما نسب اليها ما يكون من العقلاء كما قال الشاعر :

تمزرتها والديك يدعو صياحه إذا ما بنوا نعش دنوا فتصوّبوا (٢)
ويروي نادى صياحه . ثم اخبر تعالى عن هؤلاء الكفار الذين تأسف النبي (ص) على عدولهم عن ايمانهم انه ليس بأتيمهم ذكر من الرحمن يعني القرآن . كما قال تعالى « انّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون » (٣) وقال « إن

(١) ديرانه « دار بيروت » ٣٤١ (٢) قائله النابغة الجعدي . اللسان (نعش)

(٣) سورة ١٥ الحجر آية ٩

هو إلا ذكر وقرآن مبين » (١) ووصفه بأنه محدث ، ولذلك جره ، لأنه صفة
 لـ (ذكر) . وقوله « إلا كانوا عنه معرضين » أي يتولون عنه ولا ينظرون فيه .
 قال الفراء : إنما قال « فظلت » ولم يقل « فتظل » لأنه يجوز أن يعطف على
 مجزوم الجزاء بـ (فعل) لأن الجزاء يصلح في موضع (فعل ، يفعل) وفي موضع
 (يفعل ، فعل) لأنك تقول : إن زرتني زرتك وإن تزرتني أزرك ، والمعنى واحد
 قوله تعالى :

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٦) أَوْ لَمْ
 يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ
 فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
 الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩) أربع آيات بلاخلاف .

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار الذين وصفهم بأنهم كذبوا بآيات الله
 وجحدوا رسوله وأنه سيأتيهم فيما بعد ، يعني يوم القيامة « أخبار ما كانوا به
 يستهزون » وإنما خص المكذب باتيان الأنباء ، مع أنها تأتي المصدق والمكذب ،
 من حيث أن المكذب يعلم بها بعد أن كان جاهلاً . والمصدق كان عالماً بها ،
 فلذلك حسن وعيد المكذب بها ، لأن حاله يتغير إلى الحسرة والندم . والاستهزاء
 السخرية ، وهو طلب الله بما عند الطالب صغير القدر .

ثم قال « أو لم يروا » هؤلاء الكفار « إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل
 زوج كريم » من أنواع النبات ، فيستدلوا على توحيده ، بأن يعلموا أن ذلك

لا يقدر عليه غيره ، ولا يتأتى من سواه ، ممن هو قادر بقدرة . لأنه لو تأتى من غيره لتأتى منا لأنقادرون أيضاً بقدرة ، فلما استحال منا علمنا استحالة ذلك ممن يجري مجرانا ، فاذا الفاعل لذلك مخالف لنا ، وأنه قادر لنفسه .

ثم اخبر تعالى ان فيما ذكره من انبات النبات من كل زوج كريم ، لدلالة لمن يستدل بها ، ومن يتمكن من ذلك ، وإن أكثر الكفار لا يصدقون بذلك ، ولا يعترفون به عناداً وتقليداً لاسلافهم ، وحباً للراحة ، وهرباً من مشقة التكليف ومعنى « كل زوج كريم » يعني مما يأكل الناس والانعام ، في قول مجاهد . وقيل : من الشيء ومشاكله في الانتفاع به . وقيل : من كل زوج كريم من انواع تكرم عند أهلها . وقيل : من كل نوع معه قرينه من أبيض وأحمر وأصفر . وحلو وحامض ، وروائح وغير ذلك مختلفة . ثم قال « وإن ربك » يا محمد « هو العزيز » الغني القادر الذي لا يعجز ولا يغلب « الرحيم » أي المنعم على عباده بأنواع النعم التي ذكرها .

قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ
فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢)
وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ (١٣) وَلَهُمْ
عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ (١٤) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ « ويضيق صدري ، ولا ينطلق لساني » بالنصب يعقوب ، عطفاً على « ان يكذبون » الباقون - بالرفع - عطفاً على « أخاف » ويجوز أن يكون على

الاستئناف . والمعنى : واني يضيق صدري .

يقول الله تعالى لنبيه محمد (ص) واذكر يا محمد الوقت الذي نادى فيه ربك - الذي خلقك - موسى ، ومعناه قال له : يا موسى ، بأن اتت القوم الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي . ثم بين : من القوم الموصوفون بهذه الصفة ؟ بان قال ﴿ قوم فرعون ﴾ وهو عطف بيان ﴿ ألا يتقون ﴾ وإنما قال بإلياء ، لأنه على الحكاية . وتقديره : فقل لهم : ألا تتقون ، ومثله ﴿ قل للذين كفروا سيغلبون ﴾ (٥) بإلياء . والتاء . ولو قرئ بالتاء كان جائزاً ، والتقوى مجانبة القبائح بفعل المحاسن : اتقى الله يتقيه اتقاء أي اتقى عقابه بطاعته بدلا من معصيته ، واصله صرف الأمر بحاجز بين الصارف وبينه .

ثم حكى ما قال موسى وجوابه ، فانه قال يا ﴿ رب اني أخاف أن يكذبون ﴾ ولا يقبلون مني . والخوف انزعاج النفس بتوقع الضرر ، ونقيضه الأمن وهو سكون النفس الى خلوص النفع ، ونظير الخوف الفرع والذعر والجزع . والتكذيب تصوير الخبر كاذباً باضافة الكذب اليه ، كذبه تكديباً وأكذبه إكذاباً والكذب تقيض الصدق ، والكذب كله قبيح ، والتكذيب على وجهين : فتكذيب الصادق قبيح ، وتكذيب الكاذب حسن .

وقوله « ويضيق صدري ولا ينطلق لساني » حكاية أيضاً عما قال موسى ، وضيق الصدر غم يمنع من سلوك المعاني في النفس ، لأنه يمنع منه كما يمنع ضيق الطريق من السلوك فيه . وقوله « ولا ينطلق لساني » أي لا ينبعث بالكلام

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٢

﴿ ج ٨ م ٢ من التبيان ﴾

وقد يتعذر ذلك لآفة في اللسان ، وقد يتعذر لضيق الصدر . وغروب المعاني التي تطلب الكلام . وقوله « فارسل الى هارون » يعني لمعاوتي ، كما يقال : إذانزات بنا نازلة أرسلنا اليك أي لتعيننا . وقيل : انما طلب المعاونة حرصاً على القيام بالطاعة . « ولا ينطلق لساني » للعقدة التي كانت فيه . قال الجبائي : لم يسأل موسى ذلك إلا بعد أن أذن الله تعالى له في ذلك ، لان الانبياء لا يسألون الله إلا ما يؤذن لهم في مسألته .

وقوله « ولهم علي ذنب » يعني قتل القبطي الذي قتله موسى حين استصرخ به واحداً من أصحابه من بني اسرائيل - ذكره مجاهد وقتادة - وقوله « فأخاف أن يقتلون » بدل ذلك المقتول .

قوله تعالى

﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ (١٥) فَأْتِيَا
فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسَلَ مَعَنَا بَنِي
إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكُنَا فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ
سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩)
قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿ (٢٠) ست آيات .

هذا خطاب من الله تعالى جواباً لموسى عما حكاه عنه ﴿ قال كلا ﴾ لا يقتلونك ﴿ فاذهبَا ﴾ ومعنى (كلا) زجر أي لا يكون ذلك ، ولا يقتلونك ﴿ فاذهبَا ﴾ أمر لموسى وهارون على ما اقترحه موسى فاجيب اليه ﴿ فاذهبَا بآياتنا ﴾ أي

بأدلتنا ومعجزاتنا التي خصكم الله بها ، ﴿ وإنا معكم مستمعون ﴾ أي نحن نحفظكم ونحن سامعون ما يجري بينكم ، فهو (مستمع) في موضع (سامع) لأن الاستماع طلب السمع بالأصغاء إليه ، وذلك لا يجوز عليه تعالى ، وإنما قال بهذا اللفظ ، لأنه أبلغ في الصفة ، وأشد في التعظيم - والله تعالى سامع بما يغني عن مذكر مستمع - لينبئ عن هذا المعنى ، ووصفه بسامع يغني عن سماع الجماعة التي يقع سماعهم معاونة وإنما قال (مستمعون) بلفظ الجمع بناء على قوله ﴿ إنا ﴾ وأمرها بأن يأتياء فرعون وأن يقولوا له ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ أرسلنا الله اليك لندعوك الى عبادته ، وترك الاشرار به ، وإنما قال ﴿ رسول ﴾ على التوحيد ، وهو للثنين ، لأن المعنى ان كل واحد منا رسول رب العالمين ، وقد يكون الرسول في معنى الجمع قال الهذلي :

الكني اليها وخير الرسو ل أعلمهم بنواحي الخبر (١)

أي وخير الرسل . وقيل : إنه في موضع رسالة ، فكما يقع المصدر موقع الصفة كذلك تقع الصفة موقع المصدر . والارسال جعل الشيء ماضياً في الامر ، ومثله الاطلاق والبعث ، وانشد في ذلك :

لقد كذب الواشون ما بحث عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول (٢)
أي برسالة ، وقال الآخر :

ألا من مبلغ عني خفافا رسولا بيت أهلك منتهاها (٣)

فأنشده تأنيث الرسالة . وقوله « أن ارسل معنا بني اسرائيل » أي أمرك الله بأن تطلق صراح بني اسرائيل ليجيشوا معنا ، وفي الكلام حذف وتقديره : إنهما مضيا الى فرعون ، وقالاه ما أمرهم الله به

(١) تفسير القرطبي ١٣ / ٩٣ (٢) مر هذا البيت في ١ / ٣٦٨

(٣) قاله عباس بن مرداس تفسير الطبري ١٩ / ٣٨ والقرطبي ١٣ / ٩٤

فقال فرعون لموسى « ألم نربك فينا وليداً » فالترية تنشئة الشيء . حالا بعد حال : رباه يرييه ، ومثله نماء ينميه نماء . وقوله « وليداً » أي حين كنت طفلاً صغيراً « ولبت فينا من عمرك سنين » أي اقتص سنين كثيرة عندنا ، ومكثت . وفى (عمر) ثلاث لغات - ضم الميم وإسكانها مع ضم العين ، وفتح العين وسكون الميم . ومنه قوله « لعمرك » (١) ، وعمر الإنسان بالفتح لا غير ، وفى القسم أيضاً بالفتح لا غير .

وقوله « وفعلت فعلتك التي فعلت » يعني قتلتك القبطي . وقرأ الشعبي « فعلتك » بكسر الفاء مثل الجلسة والركبة ، وهو شاذ لا يقرأ به . وقوله « وانت من الكافرين » قيل في معناه قولان :

أحدهما - قال ابن زيد أنت من الجاحدين لنعمتنا .

الثاني - قال السدي أراد كنت على ديننا هذا الذي تعييه كافراً بالله .

وقال الحسن : وأنت من الكافرين أي في أني إهلك . وقيل : من الكافرين لحق تربيتي ، فقال له موسى (ع) فى الجواب عن ذلك « فعلتها » يعني قتل القبطي « وأنا من الضالين » قال قوم : يعني من الضالين أي من الجاهلين بأنها تبلغ القتل . وقال الجبائي « وأنا من الضالين » عن العلم بان ذلك يؤدي الى قتله . وقال قوم : معناه « وأنا من الضالين » عن طريق الصواب ، لأنني ما تعمده . وانما وقع مني خطأ ، كما يرمى انسان طائراً فيصيب انساناً .

قوله تعالى :

﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفْتُكُمْ ۖ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي

مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمْعُونَ (٢٥) خمس آيات بلاخلاف .

يقول الله تعالى حاكياً عن موسى أنه قال لفرعون : إني فررت منكم لما خفتكم ، فافترار الذهاب على وجه التحرز من الادراك ، ومثله الهرب : فرّ يفر فراراً ، ومنه يفر أي يضحك ، لانه يباعد بين شفّتيه مباعدة الفرار .

وقوله « فوهب لي ربي حكماً » فالهبة الصلة بالنائل . وهب له يهب هبة فهو واهب ، واستوهبه كذا إذا سأله هبته ، وتواهبوا ما بينهم إذا اسقطوها عنهم على جهة الهبة . والحكم العلم بما تدعو اليه الحكمة ، وهو الذي وهبه الله تعالى لموسى من التوراة . والعلم بالحلال والحرام وسائر الاحكام . والخبر عما يدعو اليه الحكم ايضاً يسمى حكماً . والحكم - ههنا - أراد به النبوة - في قول جماعة من المفسرين - وقوله « وجعلني من المرسلين » أي جعلني الله نبياً من جملة الانبياء .

وقوله « وتلك نعمة تمنها عليّ أن عبدت بني اسرائيل » قيل في معناه قولان :

احدهما - ان اتخذاك بني اسرائيل عبيداً قد أحبط ذلك ، وإن كانت نعمة عليّ .

الثاني - إنك لما ظلمت بني اسرائيل ولم تظلمني عددتهم - نعمة عليّ ؟

وقيل قول ثالث - انه لا يوثق بأنها نعمة منك مع ظلمك بني اسرائيل في تعبيدهم ، وفي كل ذلك دلالة وحجة عليه ، وتقريع له .
ويجوز في ﴿ أن ﴾ النصب بمعنى لتعبيدك بني اسرائيل ، والرفع بالرد على النعمة أي على تعبيدك بني اسرائيل . والتعبيد اتخاذ الانسان أو غيره عبداً تقول عبده وأعبده بمعنى واحد ، قال الشاعر :

علام يعبدني قومي وقد كثرت فيهم أباعر ما شاءوا وعبدان (١)
وقال الجبائي بين أنه ليس لفرعون عليه نعمة ، لان الذي تولى تربيته أمه وغيرها من بني اسرائيل بأمر فرعون لما استعبدهم . وقال الحسن : أراد أخذت أموال بني اسرائيل ، واتخذتهم عبيداً فأنتفتحت عليّ من أموالهم . فاراد أن لا يسوغه ما امتن به عليه . وقال قوم : أراد أو تلك نعمة؟ أمستفهاماً واسقط حرف الاستفهام .

وقوله تعالى ﴿ قال فرعون وما رب العالمين ﴾ حكاية من الله أن فرعون قال لموسى أي شيء رب العالمين الذي تدعوني الى عبادته ، لان هذا القول من فرعون يدل على ان موسى كان دعاه الى طاعة الله وعبادته . وقيل : ان فرعون عجب من حوله من جواب موسى ، لانه طلب منه أي أجناس الاجسام هو؟ جهلا منه بما ينبغي أن يسأل عنه، فقال موسى في جوابه « رب السموات والارض وما بينهما » أي رب العالمين هو الذي اخترع السموات والارض وخلقهما ، وخلق ما بينهما من الحيوان والجماد والنبات « إن كنتم موقنين » بذلك مصدقين به فقال فرعون - عند ذلك - لمن حوله من أصحابه « ألا تستمعون » أي ألا تصغون اليه ، وتفهمون ما يقول معجباً لهم من قوله، حين عجز عن محاورته ومجاوبته .

قوله تعالى:

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ
الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا
بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَنْ أَتَّخِذَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ
مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣٠) خمس
آيات بلا خلاف .

قال لما قال فرعون لمن حوله « ألا تستمعون » الى قول موسى فانه
يقول ربه رب العالمين الذي خلق السموات والارض وما بينهما ! معجبا
لهم من قوله ، قال موسى « ربكم » الذي خلقكم ويملك تدبيركم وخلق
آباءكم الاولين ، وملك تدبيرهم ، وتدير جميع الخلق . والاول الكائن قبل غيره
والآخر الكائن بعد غيره ، والكائن على صفة اول في كونه على تلك الصفة ، نحو
الاول في دخول الدار ، فقال فرعون - عند ذلك حين لم يجد جوابا لكلام موسى -
لقومه « إن رسولكم الذي ارسل اليكم لجنون » يموه عليهم ، اني اسأله عن ماهية
رب العالمين فيجيبني عن غير ذلك ، كما يفعل الجنون . والجنون داء يعتري النفس
يغطي على العقل ، وأصله الستر من قولهم : جنه الليل وأجنه إذا ستره بظلمته
والجنة البستان الذي يجنه الشجر ، فقال موسى عند ذلك ان الذي ذكرته انه
« ربكم ورب آبائكم الاولين » . . . « هو رب المشرق والمغرب » فالمشرق
الموضع الذي تطلع منه الشمس ، والمغرب الموضع الذي تغرب فيه الشمس يقال :

شرقت الشمس شروقاً إذا طلعت ، وأشرقت إشراقاً إذا أضاءت وصفت .
 « وما بينهما إن كنتم تعقلون » ذلك وتندبرونه ، فلما طال على فرعون الاحتجاج
 من موسى تهدده « قال لئن اتخذت الهاً غيري » يعني معبوداً سواي
 « لا جعلتك » من المسجونين أي محبوساً من جملة المحبسين ، فقال له موسى
 « أولو جثتك بشيء مبین » يعني بمعجزة تدل على صحة ما ادعيت به تبينني من غيري
 والمعنى ان جثتك بشيء يدل على صدقي تحبسني ؟ !

قوله تعالى :

﴿ قَالَ فَاتِّبِعْ بِهٖ اِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ (٣١) فَاَلْقٰٓى عَصَاهُ
 فَاِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِيْنٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَاِذَا هِيَ بَيْضَاۗءُ لِلنّٰظِرِيْنَ (٣٣)
 قَالَ لِلْمَلَأِ حُوْلَةٌ اِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيْمٌ (٣٤) يُرِيْدُ اَنْ يُخْرِجَكُمۡ
 مِنْ اَرْضِكُمۡ بِسِحْرِهٖ فَمَاذَا تَاْمُرُوْنَ (٣٥) قَالُوْا اَرْجِهْ وَاَخَاهُ وَاَبْعَثْ
 فِى الْمَدَاۤئِنِ حَاشِرِيْنَ (٣٦) يٰٓاُتُوْا۟ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيْمٍ (٣٧) فَجُمِعَ
 السّٰحِرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُوْمٍ (٣٨) وَقِيْلَ لِلنّٰسِ هَلْ اَنْتُمْ
 مُّجْتَمِعُوْنَ (٣٩) لَعَلَّآ نَتَّبِعُ السّٰحِرَةَ اِنْ كَانُوْا هُمُ الْغَالِبِيْنَ (٤٠) ﴾
 عشر آيات بلا خلاف .

لما قال موسى لفرعون « أولو جثتك بشيء مبین قال » فرعون « فات به
 إن كنت من الصادقين » أي هات ما ادعيت به من المعجزة إن كنت صادقاً

« فألقى عصاه » حينئذ موسى « فاذا هي ثعبان ممين » وهي الحية العظيمة، ومنه المشعب وهو المجرى الواسع، وانشعب الماء انشعاباً إذا جرى باتساع، ومنه الثعبان لأنه يجري باتساع لعظمه. وفي قلب العصا حية دلالتان :

إحداها - دلالة على الله تعالى، لانه مما لا يقدر عليه إلا هو، وليس مما يلتبس بإيجاب الطبائع، لأنه اختراع، للانقلاب في الحال.

والثاني - دلالة على النبوة بموافقة الدعوة مع رجوعها الى حالتها الاولى لما قبض عليها. وقيل : الثعبان الحية الذكر، ووصفه تعالى العصا - ههنا - بأنها صارت مثل الثعبان، لا ينافي قوله « كأنها جان » من وجوه :

احدها - انه تعالى لم يقل، فاذا هي جان، كما وصفها بأنها ثعبان، وانما شبهها بالجان، ولا يجوز أن تكون مثله على كل حال.

والثاني - انه وصفها بالثعبان في عظمها، وبالجان في سرعة حركتها، فكأنها مع كبرها في صفة الجان لسرعة الحركة، وذلك أبلغ في الاعجاز.

وثالثها - انه أراد أنها صارت مثل الجان في أول حالها، ثم تدرجت الى ان صارت مثل الثعبان، وذلك ايضاً أبلغ في باب الاعجاز.

ورابعها - ان الحالين مختلفان، لأن احدهما كانت حين ألقى موسى فصارت العصا كالثعبان، والحالة الأخرى حين أوحى الله اليه وناداه من الشجرة.

ومعنى (ميمين) قال ابن عباس: انه ثعبان لاشبهة فيه. وقيل: معناه ممين وجه الحجة به. وروي أنها غرزت ذنبها في الارض ورفعت رأسها نحو الميل الى السماء، ثم انحطت فجعلت رأس فرعون بين ناييها، وجعلت تقول: مرني بما شئت،

(ج ٨ م ٣ من التبيان)

فناداه فرعون أسألك بالذي أرسلك لما أخذتها ، فأخذها ، فعادت عصاً ، كما كانت - ذكره ابن عباس ، والمنهال - .

وقوله « ونزع يده » أي أخرجها من جيبه أو من كمه على ما روي . ويجوز أن يكون المراد حسر عن ذراعه ، والمعنى أنه نزعها عن اللباس التي كان عليها . والنزع إخراج الشيء مما كان متصلاً به ، وملاًبساً له .

وقوله « فاذا هي بيضاء » يعني بياضاً نورياً كالشمس في إشراقها - (لناظرين) إليها من غير برص ، فقال فرعون عند ذلك لأشراف قومه الذين حوله (إن هذا) يعني موسى (لساحر عليم) أي عالم بالسحر والحيل (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره) قيل معناه يريد أن يخرج عبيدكم بني إسرائيل قهراً . ويحتمل أن يكون أراد يخرجكم من دياركم ويتغلب عليكم (فماذا تأمرون) في تأديبه ، وإنما شاور قومه في ذلك مع أنه كان يقول لهم : انه إله ، لأنه يجوز أن يكون ذهب عليه وعلى قومه أن الاله لا يجوز أن يشاور غيره ، كما ذهب عليهم أن الاله لا يكون جسماً محتاجاً ، فاعتقدوا إلهيته لما دعاهم إليها مع ظهور حاجته التي لا اشكال فيها ، فقال لفرعون اشراف قومه الذين استشارهم « أرجه واخاه » أي أخرهما ، فالارجاء التأخير ، تقول : أرجأت الأمر أرجئه إرجاء ، وهم المرجئة ، لأنهم قالوا بتأخير حكم الفساق في لزوم العقاب . وقيل : إنما أشاروا بتأخيره ولم يشيروا بقتله ، لأنهم رأوا أن الناس يفتنون به ان قتل ، وإن السحرة اذا قاومته زال ذلك الافتتان ، وكان له حينئذ عذر في قتله أو حبسه بحسب ما يراه .

وقوله « وابعث في المدن حاشرين » أي ارسل حاشرين يحشرون الناس من جميع البلدان . فالحشر السوق من جهات مختلفة الى مكان واحد ،

حشره يحشره حشراً، فهو حاشر والشيء محشور، وانحشر الناس الى مكان إذا اجتمعوا اليه. والسحر لطف الحيلة حتى يتوهم المموه عليه أنه حقيقة. وقوله ﴿يأتوك﴾ أي يجيئك ﴿بكل سحر﴾ مبالغة فيمن يعمل بالسحر ﴿عليم﴾ أي عالم بالسحر، وفي الكلام حذف، لان تقديره إنه انفذ الحاشرين في الدائن وانهم حشروهم ﴿فجمع السحرة﴾ على ما قالوه ﴿لميقات يوم معلوم﴾ لوقت يوم بعينه اختاروه وعينوه ﴿وقيل للناس هل انتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة﴾ ان غلبوا موسى، فالغلبة الاستملاء بالقوة: غلبه يغلبه غلبة إذا قهره، وتغلب تغلباً وغالبه مغالبة وتغالباً تغالباً، وقد يوصف المستعلي على غيره بالحجة بأنه غلبه.

قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَأَجْرَ إِيْن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ إِذَا كَانَ الِْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) آيات بلا خلاف .

قرأ حفص « تلقف » بتخفيف القاف ، الباقون - بتشديدها - إلا أن البزي وابن فليح وقنبل شددوا التاء . قال ابو علي : من خفف القاف ، فهو الوجه ، لأن من شدها يريد تلقف ، فادغم ، وانما أدغم ، لأنه يلزمه إذا ابتداء

على هذه القراءة أن يجتلب همزة الوصل ، وهمزة الوصل لا تدخل على الافعال المضارعة ، كما لا تدخل على اسماء الفاعلين .

حكى الله تعالى أن السحرة لما حشروهم الى فرعون وحضروا بين يديه قالوا له « أئن لنا لأجرآ ان كنا نحن الغالين » اي هل لنا أجر جزاء على غلبنا اياه ان غلبناه . ومن قرأ على الخبر « إن لنا » أراد انهم لتيقنهم بالأجر أخبروا بذلك . والاول أقوى لقوله « قال نعم » وذلك جواب الاستفهام . والاجر الجزاء على العمل بالخير . والجزاء على الشر يسمى عقاباً ، ولذلك اذا دعي لانسان قيل : آجرك الله . والمعنى أئن لنا لأجرآ عند الملك؟ والغالب الذي يعلو على غيره الذي يمنع في نفسه بما يصير اليه في قبضة ، فالله غالب كل شيء بمعنى أنه عال عليه لدخوله في مقدوره ، لا يمكنه الخروج منه . فقال لهم فرعون في جواب ذلك : « نعم » لكم على ذلك الأجر الجزيل « وانكم » مع ما تعطون من الجزاء « اذألمن المقربين » . والمقرب المدني من مجلس الكرامة ، واختصاصه بها . ثم حكى ما قال موسى للسحرة ، فانه قال لهم « ألقوا ما أنتم ملقون » وهذا بصورة الأمر والمراد به التحدي ، والمعنى اطرحوا ما انتم ملقوه « فalcوا حبالهم وعصيهم » أي طرحت السحرة ما كان معهم من السحر من الحبال والعصي التي سحروها وموهوا بأنها تسعى وتحرك . وقيل : انهم جعلوا فيها زيقاً ، وطرحوها في الشمس ، فلما حيت بالشمس تحرك الزيق ، لانه إذا حي من شأنه أن يصعد فتحركت لذلك الحبال والعصي ، فظن الناظرون أنها تتحرك . وقالوا حين طرحوها ما معهم « بعزة فرعون » والعزة القوة التي يتمتع بها من لحاق الضيم بعلو منزلتها ، وهذا القول قسم منهم وإن كان غير مبرور « إنا لنحن الغالبون » لموسى فيما أتى به « قالق » عند ذلك « موسى عصاه فاذا هي تلقف ما بأفكون »

أي تناولت العصا ما موّهوا به في احدى مدة من الزمان ، والتلف تناول الشيء بالقم بسرعة ، تقول : تلفت تلفاً والتفت التفافاً واستلف استلقافاً . ومعنى (ما يافكون) ما يوهمون الانقلاب زوراً وبهتاناً . وقيل كان عدد السحرة اثني عشر ألفاً وكلهم أقرّ بالحق عند آية موسى ،

قوله تعالى :

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤٩) لَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَنْتُمْ مُسَوِّغُونَ (٥٠) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ (٥١) ست آيات .

قرأ أهل الكوفة لإحفاصاً وروح «أأمنت» بهمزتين مخففتين على الاستفهام. وروى حفص وورش ورويس بهمزة واحدة على الخبر. الباقرن بهمزتين الأولى مخففة والثانية ملينة . ولم يفصل أحد بين الهمزتين بألف. وقد بينا نظائره فيما تقدم في الاعراف. حكى الله تعالى أن السحرة لما بهرهم ما أظهره موسى (ع) من قلب العصا حية وتلفها جميع ما اتعبوا نفوسهم فيه علموا أن ذلك من فعل الله ، وأن احداً من البشر لا يقدر عليه فآمنوا عند ذلك ، وأذعنوا للحق وخروا ساجدين لله شكراً على ما أنعم به عليهم ووقفهم للإيمان ، وأنهم قالوا عند ذلك «آمنا» وصدقنا «رب العالمين» الذي خلق الخلق كلهم ، الذي هو «رب موسى وهارون» وإنما

خص رب موسى وهارون بالذكر دون غيرها ، وان كان رب كل شيء ، للبيان عن المعنى الذي دعا الى ربوبيته موسى وهارون ، لأن الجبال كانوا يعتقدون ربوبية فرعون ، فكان إخلاصهم على خلاف ما يقوله الأغبياء ، والمعنى الذي ألقاهم ساجدين قيل فيه قولان :

احدهما - إن الحق الذي عرفوه القاهم ساجدين .

الثاني - انهم ألقوا نفوسهم ساجدين لما عرفوا من صحة الدعاء الى الدين . فقال عند ذلك فرعون مهدداً لهم « أأمنتم له » أي صدقتم له فيما يدعو اليه منكراً عليهم « قبل أن آذن لكم » في تصديقكم . ثم قال « إنه لكبيركم » أي استاذكم وعالمكم « الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون » فيما بعد ما افعله بكم جزاء على تصديقكم إياه ، ودخلت اللام في الكلام تأكيداً ، ثم فسر ذلك ، فقال « لا قطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف » يعني قطع اليد من جانب ، والرجل من الجانب الآخر كقطع الرجل اليسرى واليد اليمنى « ولا صلبنكم » مع ذلك « أجمعين » على الجذوع ، ولا أترك واحداً منكم ، لا تتناله عقوبتي ، فقالوا له في الجواب عن ذلك « لا ضير » أي لا ضرر علينا بما تفعله يقال : ضره يضره ضراراً ، وضاره يضير ضيراً ، وضاره يضره ضرراً لغة قليلة . وقوله « انا الى ربنا منقلبون » أي مصيرنا الى ثواب الله لا يضرنا ما تفعله بنا . وقال الجبائي : في الآية دلالة على ان للانسان أن يظهر الحق وإن خاف القتل . وقال الحسن : لم يصل فرعون إلى قتل أحد منهم ولا قطعه . وقال قوم : أول من قطع الايدي والارجل فرعون .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَاَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ

الْمُؤْمِنِينَ (٥٢) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْنَا فَتَّبِعُونَ (٥٣)
 فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٤) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ
 قَلِيلُونَ (٥٥) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَاثُظُونَ (٥٦) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ (٥٧)
 فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٨) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٩)
 كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ (٦٠) فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦١﴾
 عشر آيات بلا خلاف .

قرأ أهل الكوفة وابن عامر إلا الحلواني « حاذرون » بألف ، الباقون
 بغير ألف . من قرأ بالالف قال : هو مثل شرب ، فهو شارب ، وحذر فهو
 حاذر . وقيل : رجل حاذر فيما يستقبل ، وليس حاذراً في الوقت ، فإذا كان
 الحذر له لازماً قيل رجل حذر مثل سؤال وسائل ، وطمع وطامع ، وكان يجوز
 ضم الذال لأنهم يقولون : حذر وحذر - بكسر الذال وضمها - مثل يقط ويقظ
 وفطن وفطن .

وقرأ عبد الله بن السائب « حادرون » بالذال - المهملة - بمعنى نحن أقوىاء
 غلاظ الاجسام ، يقولون : رجل حادر أى سمين ، وعين حدره بدره إذا كانت
 واسعة عظيمة المقلة ، قال امرؤ القيس :

وعين لها حدره بدره شقت مآقيهما من آخر (١)

وقيل الفرق بين الحاذر والحذر أن الحاذر الفاعل للحذر ، أن يناله مكروه والحذر

المطبوع على الحذر وقيل . « حاذرون » مؤدون في السلاح أى ذؤوا أداة من السلاح المستعدون للحروب من عدو ، والحذر اجتناب الشيء خوفاً منه ، حذر حذراً ، فهو حاذر وحذره تحذيراً ، وتحذر تحذراً وحاذره محاذرة وحذاراً .

اخبر الله تعالى عن السحرة انهم حين آمنوا وقالوا لفرعون : لا ضرر علينا بما تفعل بنا ، لا نا منقلبنا الى الله وثوابه ، قالوا « إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا » أى ما فعلنا من السحر وغيره ، لأننا كنا اول من صدق بموسى وأقر بنبوته ، وبما دعا اليه من توحيد الله ونفي التشبيه عنه ممن كان يعمل بالسحر . وقيل : انهم اول من آمن عند تلك الآية . ومن قال : هم اول من آمن من قومه فقد غلط ، لأن بني اسرائيل كانوا آمنوا به . ولو كسرت الهمزة من (إن) على الشرط كان جائزاً . والطمع طلب النفس للخير الذى يقدر فيها انه يكون . ومثله الأمل والرجاء والخطايا جمع خطيئة ، وهي الزوال عن الاستقامة المؤدية الى الثواب .

ثم حكى تعالى انه أوحى الى موسى ، وامره بأن يسري بعباد الله الذين آمنوا به ، ويخرجوا من بلد فرعون ، وهم بنوا إسرائيل المقرون بنبوته ، يقال سرى وأسرى لغتان ، فمن قطع الهمزة قال : هو من اسرى يسرى ، ومن وصلها فمن سرى يسرى . واعلمهم أن فرعون وجنوده يتبعونهم ، ويخرجون في طلبهم وتبع واتبع لغتان .

ثم حكى أيضاً ان فرعون ارسل برسله في المدائن حاشرين يحشرون الناس اليه الذين هم جنوده ، وقيل : انه حشر جنده من المدائن التي حوله ليقبضوا على موسى وقومه ، لما ساروا بأمر الله (عز وجل) فلما حضروا عنده ، قال لهم « إن هؤلاء » يعني أصحاب موسى « لشردمة قليلون » والشردمة العصبية

الباقية من عصب كثيرة ، وشرذمة كل شيء بقية القليلة ، ومنه قول الراجز :

جاء الشتاء وقيصي اخلاق
شراذم يضحك منه التواق (١)

وقال عبد الله بن مسعود : الشرذمة الذين قلبهم فرعون من بني اسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً ، وانما استقلهم ، لأنه كان على مقدمته سبعة آلاف الف على ما قال بعض المفسرين . ثم قال « وانهم » مع قلتهم « لنا لغائظون » أي يغيظوننا بمخالفتهم إيانا ، ويقال : جمع قليل وقليلون ، كما يقال حي واحد، وواحدون .

ثم اخبر تعالى عن فرعون أنه قال لجنده « انا لجميع حذرون » منهم قد استعددنا لقتالهم .

ثم اخبر تعالى عن كيفية إهلاكهم بأن قال « فاخرجناهم » يعني فرعون وقومه « من جنات » وهي البساتين التي تجنحها الاشجار « وعيون » جارية فيها « وكنوز » يعني اموال لهم مخبئة بعضها على بعض في مواضع غامضة من الارض ومنه كنز التمر وغيره مما يعبا بعضه على بعض « ومقام كريم » فالمقام الموضع الذي يقيمون فيه . ويجوز أن يكون مصدراً و « الكريم » هو الحقيقي باعطاء الخير الجزيل ، لأنه اهل للكرم ، وهي صفة تعظيم في المدح : كرم كرمًا واكمه إكرامًا ، وتكرم تكرمًا . وقيل : للمقام الكريم المنابر . وقيل مجالس الامراء والرؤساء ! التي كان يحف بها الاتباع .

ثم قال تعالى « كذلك » أي مثل ذلك أي كما وصفنا لك اخبارهم « واورثناها بني اسرائيل » أي نعم آل فرعون بأن اهلكنا آل فرعون وملكنا ديارهم واملأناهم

(١) مر تخريجه في ٦ / ٣٢٨

(ج ٨ م ٤ من التبيان)

لبنى اسرائيل . والارث تركة الماضي ممن هلك لمن بقي . وقيل صار ذلك في ايدي بني اسرائيل في ايام داود وغيره . وقال الحسن : رجع بنو اسرائيل الى مصر بعد اهلاك فرعون وقومه .

وقوله « فاتبعوهم مشرقين » معناه تبعوا اثرهم وقت اشراق الشمس وظهور ضوئها وصفائه . وقيل معناه مصبحين ، ويقال : اتبع فلان فلاناً وتبعه اذا اقتفى اثره - لغتان - .

قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا تَرَأَ الْجَمْعَانِ قَالِ اصْحَابُ مُوسَى اِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦٢) ﴾

قَالَ كَلَّا اِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٣) فَأَوْحَيْنَا اِلَى مُوسَى اَنْ

اَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٤)

وَاَزَلْنَا ثَمَّ الْاٰخَرِينَ (٦٥) وَاُنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ اَجْمَعِينَ (٦٦)

ثُمَّ اَغْرَقْنَا الْاٰخَرِينَ (٦٧) اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَاٰيَةً وَمَا كَانَ اَكْثَرُهُمْ

مُؤْمِنِينَ (٦٨) وَاِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيْزُ الرَّحِيْمُ (٦٩) وَاَتْلُ عَلَيْنَا

نَبَأًا اِبْرٰهِيْمَ (٧٠) اِذْ قَالَ لِاَبِيْهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُوْنَ ﴿ (٧١) عَشْر

آيات بلاخلاف .

قرأ حفص « معي ربي » بفتح الياء ، وكذلك في جميع القرآن . الباقون

بسكونها ، فمن سكن ذهب الى التخفيف ، ومن فتح فعلى أصل الكلمة لان الاسم

على حرف واحد ، فقراءته - بالفتح - ان كان متصلاً بكلمة على حرفين .

وكان اصحاب موسى فزعوا من فرعون أن يلحقهم وحذروا موسى ، فقالوا « انا لمدركون » فقال لهم موسى (ع) - ثقة بالله - « كلا » ليس كما تقولون « ان معي ربي سيهدين » وقرأ الاعرج « لمدركون » مفتعلون ، من الادراك وادغم التاء في الدال . قال الفراء : دركت دراكًا وادركت ادراكًا بمعنى واحد ، مثل حفرت واخفرت ، بمعنى واحد .

وقرأ حمزة وحده « تراء الجمعان » بالامالة . الباقون بالتفخيم على وزن . (تراعى) لأنه تفاعل من الرؤية ، وهو فعل ماض موحد ، وليس مثني ، لأنه فعل متقدم على الاسم ، ولو كان مثني لقال تراءوا ووقف حمزة « تراءى » بكسر الراء ممدود قليلا ، لأن من شرطه ترك الهمزة في الوقف ، فترك الهمزة التي آخر الألف ، كأنه يريد بها ، فلذلك مد قليلا . ووقف الكسائي « تراءى » اى بالامالة على وزن تراعى ، وتنادى . الباقون وقفوا بألفين على الأصل . وكذلك جميع ما في القرآن مثل « أنشأنا هن انشاء » (١) و ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ (٢) كل ذلك يقفون بالمد بألفين . وحمزة يقف على الف واحدة . وإذا كانت الهمزة للتأنيث أسقطت الهمزة في الوقف عند الجميع نحو ﴿ بيضاء ﴾ (٣)

(١) سورة ٥٦ الواقعة آية ٣٥

﴿ ٢ ﴾ سورة ٢ البقرة آية ٢٢ و سورة ١٣ الرعد آية ١٩ وسورة ١٤ ابراهيم آية ٣٢ وسورة ١٦ النحل آية ٦٥ وسورة ٢٠ طه آية ٥٣ وسورة ٢٢ الحج آية ٦٣ وسورة ٣٥ فاطر آية ٢٧ وسورة ٣٩ الزمر آية ٢١

﴿ ٣ ﴾ سورة ٧ الاعراف آية ١٠٧ وسورة ٢٠ طه آية ٢٢ وسورة ٢٦ الشعراء آية ٣٣ وسورة ٢٧ النمل آية ١٢ وسورة ٢٨ القصص آية ٣٢ وسورة ٣٧ الصافات آية ٤٦

﴿ إنها بقرة صفراء ﴾ (١) و ﴿ الاخلاء ﴾ (٢) فيشم الضمة في موضع الرفع ولا يشم الفتحة في موضع النصب .

اخبر الله تعالى انه ﴿ لما تراء الجمعان ﴾ جمع فرعون وجمع موسى أى تقابلا بحيث يرى كل واحد منهما صاحبه ، ويقال : تراء نارهما أى تقابلا ، وانما جاز ثنية الجمع ، لانه يقع عليه صفة التوحيد ، فتقول : هذا جمع واحد ، ولا يجوز ثنية مسلمين ، لانه لا يقع عليه صفة التوحيد ، لانه على خلاف صفة التوحيد . ﴿ قال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ أى للمحقون . فالادراك اللاحق ، وادركته بصري اذا رأيت ، وادرك فتادة الحسن أى لحقه ، وادرك الزرع اذا لحق ببلوغه ، وادرك الغلام اذا بلغ ، وادركت القدر إذا انضجت ، فقال لهم : موسى « كلا » ليس الامر على ذلك « إن معي ربي » بنصره إياي « سيهدين » أي سيدلني على طريق النجاة من فرعون وقومه . كما وعدني ، لأن الانبياء لا يخبرون بما لا دليل عليه من جهة العقل او السمع .

وقوله « فأوحينا اليه أن اضرب بعصاك البحر » أي امرناه بضرب البحر بعصاه . وقيل : هو بحر قلزم الذي يسلك الناس فيه من اليمن ومكة الى مصر ، وفيه حلف ، لان تقديره فاضرب البحر « فانفلق » وقيل : انه صار فيه اثنا عشر طريقاً لكل سبط طريق « فكان كل فرق كالطود العظيم » فالطود الجبل ، قال الأسود بن يعفر النهشلي :

حلوا بأنقرة يحيش عليهم ماء الفرات يجي . من اطواد (٣)

(١) سورة ٢ البقرة آية ٦٩ (٢) سورة ٤٣ الزخرف آية ٦٢
 (٣) تفسير القرطبي ١٣ / ١٠٧ والطبري ١٩ / ٤٦ والاسان (نقر) وروايته
 نزلوا بأنقرة يسيل عليهم ماء الفرات يجي . من اطواد

وقوله « وأزلفنا ثم الآخرين » قال ابن عباس وقتادة : معناه قربنا الى البحر فرعون ، ومنه قوله « وأزلفت الجنة للمتقين » (١) أي قربت وادنيت قال المعجاج :

ناج طواه الأين مما وجفا طي الليالي زلفاً فزلفاً

سمارة الهلال حتى احقوقفا (٢)

أي منزله يقرب من منزله ، ومنه قيل ليلة المزدلفة . وقال ابو عبيدة : معنى أزلفنا جمعنا ، وليلة مزدلفة ليلة جمع ، والمعنى قربنا قوم فرعون الى البحر كما يسرنا لبني اسرائيل سلوك البحر وكان ذلك سبب قربهم منهم حتى اقتحموه وقيل : معناه قربناهم الى المنية لمحبيهم وقت هلاكهم قال الشاعر :

وكل يوم مضى او ليلة سلفت فيها النفوس الى الاجال تزدلف (٣)

وانجينا موسى ومن معه يعني بني اسرائيل أنجيناهم جميعهم من الهلاك والغرق « ثم اغرقنا الباقين » من فرعون وأصحابه . وقال تعالى « إن في ذلك » يعني في فلق البحر فرقاً ، وانجاء موسى من البحر ، وإغراق قوم فرعون ، لدلالة واضحة على توحيد الله وصفاته التي لا يشاركه فيها أحد .

ثم اخبر تعالى ان « اكثرهم لا يؤمنون » ولا يستدلون به بسوء اختيارهم كما يسبق في علمه . فالآخر - بفتح الخاء - الثاني من اثنين قسيم (احد) كقولك نجاة الله أحدهما ، وغرق الآخر ، والآخر - بكسر الخاء - هو الثاني قسيم الأول كقولك نجاة الأول وهلاك الآخر . وقيل : معنى « وما كان اكثرهم مؤمنين » ان الناس مع هذا البرهان الظاهر ، والسلطان القاهر ، بالامر المعجز

الذي لا يقدر عليه أحد غير الله ، ما آمن أكثرهم ، فلا تستنكر أيها المحق استنكار استيحاش من قعودهم عن الحق الذي تأتيتهم به ، وتدلهم عليه ، فقد جروا على عادة أسلافهم ، في انكار الحق وقبول الباطل .

وقوله « وإن ربك هو العزيز الرحيم » أي هو القادر الذي لا يمكن معارضته في أمره ، وهو مع ذلك رحيم بخلقه . وفي ذلك غاية الحث على طلب الخير من جهة الموصوف بهما . ثم قال لنبيه (ص) « واتل » يا محمد على قومك « نبأ إبراهيم » أي خبره ، حين « قال لأبيه وقومه ما » الذي « تعبدون » من دون الله ؟ ! يعني أي شيء معبودكم على وجه الانكار عليهم ، لأنهم كانوا يعبدون الأصنام .

قوله تعالى :

﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَاكِفِينَ (٧٢) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ إِلَّا قَدُمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (٨٠) تسع آيات بلا خلاف .

حكى الله تعالى ما أجاب به قوم إبراهيم حين قال لهم إبراهيم « ما تعبدون » ؟ فانهم « قالوا نعبد أصناماً فنظّل لها عاكفين » أي مقيمين مداومين على عبادتها

يقال : عكف عكوفاً ، فهو عاكف ، واعتكف اعتكافاً . قال ابن عباس : معناه فنزل لها مصلين . وقيل : في وجه دخول الشبهة عليهم في عبادة الاصنام أشياء : احدها - انهم اعتقدوا أنها تقربهم الى الله زلفى كما يتقرب بتقويل بساط الملك اليه .

ومنها - أنهم اتخذوا هياكل النجوم ليحفظوا بتوجه العبادة الى هياكلها ، كما يفعل بالهند .

ومنها - ارتباط عبادة الله بصورة يرى منها .

ومنها - انهم توهموا خاصية في عبادة الصنم يحظى بها ، كالخاصية في حجر المغناطيس .

والشبهة الكبرى العامة في ذلك تقليد الذين دخلت عليهم الشبهة ، ولذلك « قالوا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » ولم يحتجوا بشيء سوى التقليد ، الذي هو قبيح في العقول . والعبادة خضوع بالقلب في أعلى مراتب الخضوع ، فلا تستحق إلا بأصول النعم وبما كان في أعلى المراتب من الانسان ، فكل من عبد غير الله ، فهو جاهل بموجب العبادة ، كافر لنعم الله ، لان من حقه إخلاص العبادة له .

فقال لهم ابراهيم (ع) « هل يسمعونكم » هذه الاصنام التي تعبدونها إذا دعوتهموها ! أي هل يسمعون أصواتكم ، لان اجسامهم لا تسمع « او ينفعونكم » بشيء من المنافع « او يضرون » بشيء من المضار . وانما قال ذلك ، لان من لا يملك النفع والضرر ، لا تحسن عبادته ، لانها ضرب من الشكر ، ولا يستحق الشكر إلا بالنعم ، فمن لا يصح منه الانعام يقبح شكره ، ومن قبح شكره قبحت عبادته . فقالوا عند ذلك « وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » أحالوا على مجرد

التقليد . فقال لهم ابراهيم منكر آ عليهم التقليد « أفرايتم ما كنتم تعبدون » من الاصنام « أنتم » الآن « . وآباؤكم الاقدمون » المتقدمون ، فالأقدم الموجود قبل غيره ، ومثله الأول والأسبق . والقادم وجود الشيء لا الى أول ثم قال ابراهيم « فانهم » عدو لي يعني الاصنام جمعها جمع العقلاء ، لما وصفها بالعداوة التي تكون من العقلاء ، لان الاصنام كالعدو في الصورة بعبادتها ، ويجوز أن يكون ، لانه كان منهم من لا يعبد إلا الله مع عبادة الاصنام فغلب ما يعقل ولذلك استثناه ، فقال « إلا رب العالمين » لأنه استثناء من جميع المعبودين ، وعلى الوجه الأول يكون الاستثناء منقطعاً وتكون (إلا) بمعنى لكن ثم وصف رب العالمين فقال : هو « الذي خلقتني » واخرجني من العدم الى الوجود « فهو يهدين » لان هداية الخلق الى الرشاد أمر يجل ، فلا يكون إلا ممن خلق الخلق كأنه قيل من يهديك ؟ ومن يسد خلعتك بما يطعمك ويسقيك ؟ ومن إذا مرضت يشفيك ؟ فقال - دالا بالمعلوم على المجهول « الذي خلقتني » فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقيني » بمعنى أنه يزرقني ما يوصلني الى ما فيه صلاحي « وإذا مرضت فهو يشفين » بان يفعل ما يحفظ بدني ويصح جسمي ويرزقني ما يوصلني اليه .

قوله تعالى

﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَأَغْفِرْ لَأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي

يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) تسع آيات بلا خلاف .

حكى الله تعالى عن ابراهيم (ع) أنه قال بعد قوله : إن الله الذي يشفيه إذا مرض « والذي يميتني » بعد أن كنت حياً « ثم يحييني » أي يحييني بعد أن اكون ميتاً يوم القيامة ﴿ والذي أطعم ان يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾ أي يوم الجزاء . وهذا انقطاع منه (ع) الى الله دون أن يكون له خطيئة يحتاج ان تغفر له يوم القيامة ، لان عندنا أن القبائح كلها لا تقع منهم (ع) ، وعند المعتزلة الصغار التي تقع منهم محبطة ، فليس شيء منها بمغفور يحتاج ان يغفر لهم يوم القيامة . وقيل : إن الطمع - ههنا - بمعنى العلم دون الرجاء وكذلك في قوله ﴿ انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا ﴾ (١) كما ان الظن يكون بمعنى العلم . وقيل : ان ذلك خرج مخرج التلطف في الدعاء بذكر ما يتيقن انه كائن ، كما انه إذا جاء العلم على المظاهرة في الحجاج وذكر بالظن .

ثم حكى انه سأل الله تعالى فقال ﴿ رب هب لي حكماً ﴾ والحكم بيان الشيء على ما تقتضيه الحكمة ، فسأل ذلك ابراهيم ، من حيث كان طريقاً للعلم بالأمر . وقوله ﴿ والحقني بالصالحين ﴾ معناه افعل بي من اللطف ما يؤديني الى الصلاح . والاجتماع مع النبيين في الثواب . وفي ذلك دلالة على عظم شأن الصلاح وصلاح العبد هو الاستقامة على ما أمر الله به ودعا اليه .

وقوله ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾ أي ثناء حسناً في آخر الامم ، فأجاب

الله تعالى دعاءه ، لأن اليهود يقررون بنبوته ، وكذلك النصارى ، وأكثر الأمم .
وقيل : معنى « واجعل لي لسان صدق في الآخرين » أي اجعل من ولدي من يقوم بالحق ، ويدعو الى الله ، وهو محمد (ص) ثم سأله أن يجعله « من ورثة جنة النعيم » بأن يفعل معه من اللطاف ما يختار عنده الطاعات ، لأن الجنة لا يثاب فيها إلا بالاستحقاق . ثم قال « ولا تخزني يوم يبعثون » أي لا تفضخني بذنب ، ولا تعيرني يوم يحشر الخلائق . و (الحزي) الفضيحة والتعير بالذنب بما يردع النفس ، يقال : خزي خزيًا . وأخزاه الله إخزاء ، وهذا موقف خزي . وهذا الدعاء منه (ع) إنقطاع منه الى الله تعالى ، لانا قد بينا أن القبائح لا تقع من الانبياء على حال .

ثم وصف اليوم الذي يبعث فيه الخلائق بأنه « يوم لا ينفع » فيه « مال » فيفادي به الانسان نفسه من العقاب « ولا » ينفع « بنون » ينصرونه « إلا من أتى » أي وإنما ينفع من يأتي « الله بقلب سليم » أي سليم من الفساد والمعاصي ، إنما خص القلب بالسلامة ، لانه إذا سلم القلب سلم سائر الجوارح من الفساد ، من حيث أن الفساد بالجراحة لا يكون إلا عن قصد بالقلب الفاسد فان اجتمع مع ذلك جهل ، فقد عدم السلامة من جهتين ، وقيل : سلامة القلب سلامة الجوارح ، لانه يكون خاليًا من الاصرار على الذنب .

وحكى انه سأل الله تعالى أن يغفر لأبيه ، وذكر انه من الضالين ، قالوا : إنما سأل الله أن يغفر له يوم القيامة بشرط تقتضيه الحكمة . وهو أن يتوب قبل موته ، فلما تبين انه عدو لله تبرأ منه ، ووصفه بأنه ضال يدل على أنه كافر ، كفر جهل لا كفر عناد . وقيل : انه إنما دعا لأبيه لموعدة وعده بها ، لأنه كان يطعمه سرًا في الإيمان فوعده بالاستغفار ، فلما تبين انه كان عن نفاق تبرأ منه . وقال الحسن : عاب الله

تعالى من فعل ابراهيم في قوله « إلا قول ابراهيم لآبيه لا استغفرن لك » بعد قوله « قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه » (١). وليس الأمر على ما قاله . ونحن نبين الوجه في هذه الآية إذا انتهينا إليها إن شاء الله . وعند أصحابنا ان أباه الذي استغفر له ، كان جده لأمه ، لان آباء النبي (ص) الى آدم كلهم مؤمنون موحدون - بأدلة ليس هذا موضع ذكرها ، والدلالة عليها .

قوله تعالى :

﴿ وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُذِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) ست آيات .

معنى « وازلفت الجنة للمتقين » قربت لهم ليدخلوها « وبرزت الجحيم للغاوين » أي أظهرت الجحيم للعاملين بالغواية وتركهم الرشاد ، يقال : برز يبرز بروزاً ، وأبرزه إبرازاً ، وبرزه تبريزاً ، وبارزه مبارزة ، وتبارزا تبارزاً . وفي رؤية الانسان آلات العذاب التي أعدت لهم عذاب عظيم ، وألم جسيم للقلب فبروز الجحيم للغاوين بهذه الصفة ، و (الغاوي) العامل بما يوجب الخيبة من الثواب : غوي الرجل يغوي غيماً وغواية ، وأغواه غيره إغواء ، واستغواه استغواء واصله الخيبة قال الشاعر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لأنما (١)
ثم اخبر أنه يقال لهم ، يعني للغاوين على وجه التوبيخ لهم والتقريع « أين ما
كنتم تعبدون من دون الله » وإنما ونحوها بلفظ الاستفهام ، لأنه لا جواب لهم
عن ذلك إلا بما فيه فضيحتهم ، كقولك أينما كنت تعبد من دون الله؟ لا يخلصك
من عقابه « هل ينصرونكم » ويدفعون عنكم العقاب في هذا اليوم « أوينتصرون »
لكم إذا عوقبتم ! ، فمن عبدها ، فهو الغاوي في عبادته ، لا يملك رفع الضرر عن
نفسه ، ولا عن عابده مع أنه لاحق به . ثم قال « فكبكوا فيها » ومعناه كبوا
إلا انه ضوعف ، كما قال « بريح صرصر » (٢) أي صر . وقيل : جمعوا بطرح بعضهم
على بعض - عن ابن عباس - وقال مجاهد : هووا « هم والغاون » أي وكب
الغاون معهم ، وكب معهم « جنود ابليس » أي من اتبعه من ولده ، وولد آدم .
وقال ابو عبيدة (كبكبوا) معناه طرحوا فيها بعضهم على بعض جماعة جماعة .
وقال المبرد : نكسوا فيها من قولهم : كبه الله لوجهه .

قوله تعالى :

﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ (٩٧) إِذْ تُسَوِّىْكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا
الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١)
فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا

(١) مر تخریجه فی ٣١٢/٢ و ٣٩١/٤ و ٥٤٨/٥ و ٦/٢٣٦

(٢) سورة ٦٩ الحاقة آية ٦

كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)

تسع آيات بلاخلاف •

يقول الله تعالى مخبراً عن هؤلاء الكفار أنهم إذا حصلوا في الجحيم «مختصمون» والاختصاص منازعة كل واحد منهم صاحبه بما فيه إنكار عليه واغلاظ له : يقال : اختصاصي الأمر اختصاصاً ، وتخصاً تخصماً ، وخاصته مخصصة . ويقول بعضهم لبعض «تالله إن كنا في ضلال مبين» قال الزجاج : معناه ما كنا إلا في ضلال مبين . وقال غيره : اللام لام الابتداء التي تدخل في خبر (ان) و (إن) هذه هي الخفيفة من الثقيلة ، ويلزمها اللام في خبرها ، فرقاً بينها ، وبين (ان) التي للجحد ، وتقديره تالله إن كنا في ضلال مبين في الحال التي سويناكم - مخاطبون كل معبود من دون الله - «برب العالمين» الذي خلق الخلق ، في توجيه العبادة اليكم . والتسوية اعطاء أحد الشيئين مثل ما يعطى الآخر ، ومثله المعادلة والموازنة . والمراد - هنا - الشركة في العبادة .

ثم قال ﴿ وما أضلنا إلا المجرمون ﴾ بأن دعونا إلى الضلال فتبعناهم ، وقبلنا منهم . ثم يقولون ﴿ فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ أي لو كان لنا شفيع لسأل في أمرنا أو صديق لدفع عنا ، فقد آيس الكفار من شافع ، وإنما يقولون ذلك إذا رأوا جماعة من فساق أهل الملة يشفع فيهم ، ويسقط عنهم العقاب ويخرجون من النار ، يتلفون على مثل ذلك ، ويتحسرون عليه . والصديق هو الصاحب الذي يصدق المودة ، وصدق المودة اخلاصها من شائب الفساد . و (الحميم) القريب الذي يحمي بغضب صاحبه ، والحميم هو الحامي ، ومنه الحمى . وأحم الله ذلك من لقاءه : أي ادناه ، بمعنى جعله كالذي بلغ بنصحه إياه ، وحم

كذا أي قدر .

ثم اخبر تعالى أنهم يتمنون فيقولون « فلو أن لنا كرة » أي رجعة إلى دار التكليف « فنكون من المؤمنين » وإنما جاز التمني بـ (لو) ، لأنه للتقدير ، كما أن التمني بـ (ليت) مثل ذلك لتقدير المعنى ، إلا أن التقدير بـ (لو) لموجب غيره والتقدير بـ (ليت) للامتناع بالمقدر ، وإنما جاز جواب التمني ، لأن المعنى متصور بالتمني غير أنه إذا كان بالفاء ، فهو نصب ، فلذلك نصب (فنكون) لأن الفاء إذا صرفت عن العطف أضمر معها (ان) للاشعار بالصرف .

ثم قال تعالى « ان في ذلك لآية » أي ان فيما قصصناه ، وذكرناه لدلالة القلن نظريها واعتبر بها ، لكن أكثرهم لا يعتبرون بها ، ولا يؤمنون بها ، وأخبر « إن ربك » يا محمد « هو العزيز الرحيم » وإنما جمع بين الصفتين : العزيز والرحيم ، ليرغب في طلب ما عند الله أتم الترغيب من حيث هو عظيم الرحمة واسع المقدور ، منيع من معاجزة غيره . وقيل في وجه اخبارهم بأنهم يكونون مؤمنين لو ردوا إلى دار التكليف قولان :

أحدهما - أنهم يخبرون عن عزمهم ، لأن الله تعالى قد أخبر عنهم أنهم « لو ردوا اعدوا لما نهوا عنه » (١) ولا يجوز - ان يكونوا مع رفع التكليف وكال عقولهم وحصول المعارف الضرورية - ان يكذبوا ، لانهم ملجئون إلى ترك القبيح بأن يخلق الله فيهم العلم الضروري ، انهم لو راموا القبيح لمنعوا من ذلك ، ولولا ذلك لكانوا مغررين بالقبيح وذلك لا يجوز .

والثاني - ان يكون ذلك القول منهم قبل دخولهم النار ، وقبل ان يصيروا ملجئين . والاول أقوى .

قوله تعالى:

﴿كَذَّبَ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ
نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ (١١٠) ست آيات بلاخلاف .

يقول الله تعالى مخبراً عن قوم نوح أنهم كذبوا الذين أرسلهم الله بالنبوة .
وانما كذبوهم جميعهم ، لانهم كذبوا كل من دعا الى توحيد الله ، وخلع عبادة
الاصنام من مضي من الرسل ، وغيرهم من يأتي . وقال الحسن : لانهم بتكذيبهم
نوحاً مكذبون من جاء بعده من المرسلين . ولو لم يكن قبله نبي مرسل . وقال
الجبائي : كذبوا من أرسل قبله . وانما قال « كذبت » بالتأنيث ، والقوم مذكر
لأنه بمعنى جماعة قوم نوح .

ثم بين انهم انما كذبوه حين « قال لهم اني رسول » من قبل الله تعالى
« أمين » على رسالته ، والامين الذي يؤدي الأمانة وضده الخائن ، وقد أدى
نوح الأمانة في أداء الرسالة ، والنصيحة لهم ، فلذلك وصفه الله بأنه (أمين) .
وانما سماه بأنه (أخوهم) لأنه كان منهم في النسب ، وذكر ذلك ، لانهم به آنس
والى إجابته أقرب فيما ينبغي أن يكونوا عليه ، وهم قد صدفوا عنه « ألا تتقون »
الله باجتنب معاصيه منكر بهذا القول عليهم ، وانما جاء الانكار بحرف الاستفهام
لانهم لاجواب لهم عن ذلك إلا بما فيه فضيحتهم ، لانهم : ان قالوا لانتقي ما يؤدنا
الى الهلاك هتكوا نفوسهم وخرجوا عن عداد العقلاء . وان قالوا ! بل نتقيه

لزمهم ترك عبادة الاصنام .

ثم قال لهم « فاتقوا الله » واجتنبوا معاصيه وافعلوا طاعاته « واطيعون » فيما أمركم به ، وأدعواكم اليه . ثم قال لهم ﴿ وما أسألكم عليه ﴾ على ما أدعواكم اليه . ﴿ من أجر ﴾ فيصرفكم ذلك عن الايمان ، لأنه ليس أجري ، وثوابي ﴿ الا على رب العالمين ﴾ الذي خلق جميع الخلائق ، ثم كرر عليهم قوله ﴿ فاتقوا الله واطيعون ﴾ لاختلاف المعنى فيه ، لان التقدير ، فاتقوا الله واطيعوني لاني رسول أمين ، واتقوا الله واطيعوني لاني لا أسألكم أجراً عليه فتخافون ثلم أموالكم . والطاعة اجابة الداعي بموافقة ارادته مع كون الداعي فوقه ، فالرتبة معتبرة . قوله تعالى :

﴿ قَالُوا أَنْتُمْ مِنْكُمْ كَلَّ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذِبُونَ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٢٢) اثنتا عشرة آية بلاخلاف .

قرأ يعقوب ﴿ واتباعك ﴾ على الجمع . الباقون ﴿ واتبعت ﴾ على الفعل الماضي
قال الزجاج : من قرأ على الجمع فقراءته جيدة ، لأن الواو (واو) الحال ، وأكثر
ما يدخل على الاسماء . تقول جئتكم وأصحابك بنو فلان ، وقد يقولون :
وصحبك بنو فلان ، وأكثر ما يستعملونه مع (قد) في الفعل .

حكى الله تعالى عن قوم نوح أنهم قالوا لنوح حين دعاهم الى الله وخوفهم
من معصيته : انصدقك فيما تدعونا اليه وقد اتبعك الارذلون ؟ ! يعني السفلة
واوضاع الناس . والردل الوضع ، وتقويض الرذيلة الفضيلة وجمعه الرذائل .
وقيل : انهم نسبوه الى صناعات دنيئة ، كالحياكة والحجامة . وانهم مع ذلك
اهل نفاق ورذالة ، فأنفوا من اتباعه لما اتبعوه هؤلاء . ولم يجوز نوح أن يقبل
قول هؤلاء فيهم ، لانهم كفار يعادونهم ، فلا تقبل شهادتهم . ويجوز أيضاً ان
يكونوا لما آمنوا تابوا من قبيح ما عملوا ، لأن الايمان يجب الخطايا ، ويرحب
الافلاع عنها . ولم يجوز استصلاح هؤلاء باقصاء من آمن ، كما لا يجوز استصلاحهم
بفعل الظلم ، لان في ذلك اذلالا للمؤمنين ، وذلك ظلم لهم ، لا يجوز أن يفعل
بأهل الايمان ، لأنه قبيح .

ومن قرأ - على الجمع - أراد ان الذين اتبعوك هم الارذلون .
ومن قرأ على الفعل أراد : تبعك من هذه صفته .

فقال لهم نوح (ع) : لم أطردكم « وما علمي بما كانوا يعملون » فيما مضى ، لاني
ما كلفت ذلك ، وانما أمرت بأن ادعوهم الى الله ، وقد اجابوني اليه ، وليس
حسابهم الا على ربي الذي خلقني وخلقهم لو علمتم ذلك وشعرتهموه ، وليس أنا
بطارد المؤمنين ، لاني لست الا نذيراً مخوفاً من معصية الله مبين لطاعته .
﴿ ج ٨ م ٦ من التبيان ﴾

داع اليه .

و (الطرد) ابعاد الشيء على وجه التنفير ، طرده يطرده ، واطرده جعله طريداً ، واطرد في الباب استمر في الذهاب كالطريد ، وطارده مطاردة وطراداً . فقال له قومه عند ذلك ﴿ لئن لم تنته ﴾ وترجع عما تقوله ، وتدعو اليه ﴿ يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ بالحجارة ، وقيل : من المرجومين بالشتم ، فالرجم الرمي بالحجارة ، ولا يقال للرمي بالقوس رجم ، ويسمى المشتوم مرجوماً ، لانه يرمى بما يذم به . والانتهاه بلوغ الحد من غير مجاوزة إلى ما وقع عنه النهي ، وأصل النهاية بلوغ الحد ، والنهي الغدير ، لانتهاه الماء اليه .

فقال نوح عند ذلك يا رب ﴿ إن قومي كذبون ﴾ وإنما قال ذلك مع أن الله تعالى عالم بأنهم كذوبه ، لانه كالملة فيما جاء بعده ، فكأنه قال ﴿ افتح بيني وبينهم فتحاً ﴾ لانهم كذبوني ، إلا انه جاء بصيغة الخبر دون صيغة العلة . وإذا كان على معنى العلة حسن أن يأتي بما يعلمه المتكلم والمخاطب . ومعنى ﴿ افتح بيني وبينهم فتحاً ﴾ احكم بيننا بالفعل الذي فيه نجاتنا ، وهلاك عدونا وعامل كل واحد منا بما يستحقه ، يقال للحاكم : الفتح ، لانه يفتح وجه الأمر بالحكم الفصل ، ويتقرر به الأمر على أداء الحق ، فقال الله تعالى له محمداً له « فأنجيناه ومن معه » من المؤمنين ﴿ في الفلك ﴾ يعني السفن ، يقال شحنة يشحنه شحناً فهو شاحن إذا ملأه بما يسد خلأه ، وشحن الثغر بالرجال . ومنه الشحنه ، قال الشاعر ، في الفتح بمعنى الحكم :

ألا ابلغ بني عصم رسولا فاني من فتاحكم غني (١)

والفلك السفن يقع على الواحد والجمع . ثم اخبر تعالى انه لما أنجى نوحاً

وأصحابه أغرق الباقين من الكفار بعد ذلك ، وأهلكهم .
ثم قال تعالى : إن فيما أخبرنا به من قصة نوح وإهلاك قومه لآية واضحة
على توحيد الله ، وإن كان أكثرهم لا يؤمنون ، ولا يعتبرون به . وقيل : إن
قوله ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ في عدة مواضع ليس بتكرير
وإنما هو ذكر آية في قصة نوح ، وما كان من شأنه مع قومه بعد ذكر آية فيما كان
من قصة إبراهيم وقومه ، وذكر قصة موسى وفرعون فيما مضى ، فبين أنه إنما
ذكر ذلك لما فيه من الآية الباهرة ، وكرر ﴿ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾
لأن المعنى أنه ﴿ العزيز ﴾ في الانتقام من فرعون وقومه ﴿ الرحيم ﴾ في نجاة
موسى ومن معه من بني إسرائيل ، وذكر - هنا - ﴿ العزيز ﴾ في إهلاك قوم
نوح بالغرق الذي طبق الأرض ﴿ الرحيم ﴾ في إنجائه نوحاً ومن معه في الفلك .
والعزيز القادر الذي تتعذر مما نعتة لعظم مقدوراته ، فصفة (عزيز) وإن
رجعت الى معنى قادر ، فمن هذا الوجه ترجع ، ولا يوصف بالعزيز مطلقاً إلا
الله ، لأنها تفيد معنى قادر ، ولا يقدر أحد على مما نعتة . والله تعالى قادر أن
يمنع كل قادر سواه . ومعنى وصفه بأنه عزيز مبالغة من ثلاثة أوجه : أحدها -
لأنه بزنة (فعيل) . والثاني - أنه لا يوصف به مطلقاً سواه . والثالث - لما فيه
من التعريف بالالف والام .

قوله تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ

أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ

وَأَطِيعُونَ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٣١) ﴿ تسع آيات بلاخلاف

اخبر الله تعالى عن عاد - وقيل: هم قبيلة - انهم كذبوا من أرسلهم الله حين قال لهم أخوهم هود . قال الحسن : كان أخاهم من النسب دون الدين ﴿ ألا تتقون ﴾ الله باجتناب معاصيه الى قوله ﴿ رب العالمين ﴾ وقد فسرنا نظائره . وقوله « تبنون بكل ريع آية » فالبناء وضع ساف على ساف الى حيث ينتهي . والريع الارتفاع من الارض ، وجمعه أرياع وريعة قال ذو الرمة :

طراق الخوافي مشرق فوق ربيعة ندى ليلة في ريشه يترقق (٢)

ومنه الريع في الطعام ، وهي الزيادة والنماء قال الاعشى :

وبهما فقر تجاوزتها إذا خبّ في ريعها ألها

وفيه لغتان - فتح الراء ، وكسرهما - بمعنى المكان المرتفع ، قال الفراء فيه لغتان ﴿ ريع ، وراع ﴾ مثل زير ، وزار ، قال أبو عبيدة هو الطريق بين الجبلين في ارتفاع . وقيل : هو الفج الواسع ، وقال قتادة : معناه بكل آية طريق أي علامة « تعبثون » تلعبون ، في قول ابن عباس . وقوله « وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » قال المؤرج : لعلكم تخلدون : كأنكم تخلدون - بلغة قريش - وقال

الفراء : معناه كيما تخلدون . قال مجاهد : المصانع أراد بها حصوناً مشيدة . وقال قتادة : مأخذ الماء ، وهو جمع مصنع ، ويقال مصنعة لكل بناء . وقيل : إنهم كانوا يبنون بالمكان المرتفع البناء العالي ، ليدلوا بذلك على أنفسهم ، وزيادة قوتهم وايضا خروا بذلك غيرهم من الناس ، وكانوا جاوزوا في إيجاد المصانع إلى الاسواق فنهوا عن ذلك ، وقال الزجاج : المصانع المباني « لعلمكم تخلدون » معناه تفعلون ذلك لكي تبقوا فيها مؤبدين « وإذا بطشتم بطشتم جبارين » فالبطش العسف قتلا بالسيف وضرباً بالسوط - في قول ابن عباس - والجبار العالي على غيره بعظم سلطانه ، وهو في صفة الله تعالى مدح ، وفي صفة غيره ذم ، فاذا قيل للعبد جبار فمعناه انه يتكلف الجبرية . والجبار في النحل ما فات اليد ، وقال الحسن : بطش الجبرية هو المبارزة من غير ثبوت ولا توقف ، فذمهم الله بذلك ، ونهاهم هود فقال « اتقوا الله » باجتنب معاصيه و « اطيعوني » فيما أدعوكم اليه ، ولم يكن هذا القول تكراراً من هود لأنه متعلق بغير ما تعلق به الأول ، لان الأول معناه ، فاتقوا الله في تكذيب الرسل ، واطيعوني فيما أدعوكم اليه من اخلاص عبادته ، والثاني فاتقوا الله في ترك معاصيه في بطش الجبارين وعمل اللاهين واطيعوني في ذلك الأمر الذي دعوتكم اليه .

قوله تعالى :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَغُرُفٍ (١٣٤) إِنْ نِيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنْ

الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ
بِمُعَذِّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠)
تسع آيات بلا خلاف .

قرأ « خلق الأولين » - بفتح الخاء - ابن كثير وابن عمرو والكسائي وأبو
جعفر. الباقر - بضم الخاء ، واللام - فمن قرأ - بفتح الخاء - أراد : ليس هذا إلا
اختلاق الأولين - في قول ابن مسعود - ومن ضم الخاء واللام : أراد ليس
هذا الاعادة الأولين ، في أنهم كانوا يحيون ويموتون . وقال بعضهم : المعنى في
« خلق الأولين » خلق أجسامهم ، وانكروا أن يكون المعنى إلا كذب الأولين
لأنهم يقولون « ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين » (١) . وليس الامر على ما ظنه
لأنهم قد سمعوا بالدعاء الى الدين ، وكانوا عندهم كذابين ، فلذلك قال « كذبت
عاد المرسلين » (٢) وقال « إن هذا إلا اساطير الأولين » (٣) . وانما قالوا
« ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين » أي ما سمعنا أنهم صدقوا بشيء منه ، أو
ذكروا آية حق وصواب ، بل قالوا باطل ، وخطأ .

حكى الله تعالى عن هود أنه قال لقومه واتقوا معاصي الله الذي أمدكم بالذي

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٢٤ وسورة ٢٨ القصص آية ٣٦

(٢) آية ١٢٣ من هذه السورة

(٣) سورة ٦ الانعام آية ٢٥ وسورة ٨ الانفال آية ٣١ وسورة ٢٣

المؤمنون آية ٨٤ وسورة ٢٧ النمل آية ٦٨

تعملون من انواع نعمه ، فالامداد اتباع الثاني ما قبله شيئاً بعد شيء ، على انتظام
فهؤلاء امدهم الله بالمال وبالبنين ، يعني المذكور من الأولاد ، وبالانعام من الابل
والبقر والغنم ، والبساتين التي فيها شجر تحتها عيون جارية فيها ، فأقامهم رزقهم
على إدرار . فالعيون ينابيع ماء تخرج من باطن الأرض ، ثم تجري على ظاهرها
وعين الماء مشبه بعين الحيوان في استدارته وتردد الماء إلا انه جامد في عيون
الحيوان يتردد بالشعاع .

ثم قال لهم « اني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم » يعني يوم القيامة ، وللعظيم
هو الموصوف بالعظم ، وفيه مبالغة مثل ما أعظمه لعظم ما فيه من الاهوال .
ثم حكى ما ألبابه بهجومه ، فانهم قالوا له : « سواء علينا أوعظت أم لم
تكن من الواعظين » وإنما لم يقل سواء علينا أوعظت أم لم تعظ ، ليتشاكل
رؤس الآي ، ومعناه إنا لسنا نقبل منك ما تقوله : سواء علينا وعظك وارتفاعه
والوعظ حث بما فيه تليين القلب ، لا تقياد الى الحق ، والوعظ زجر عما لا يجوز
فعله . ومعنى « سواء » أي كل واحد من الأمرين مثل الآخر ، حصول
الوعظ وارتفاعه .

ثم قالوا : ليس هذا الذي تدعوه « إلا خلق الأولين » أي كذبهم ،
فيمن فتح الخاء . والاعادة الأولين وخلقهم . والخلق المصدر من قواك : خلق
الله العباد خلقاً . والخلق المخلوق من قولهم : يعلم هذا من خلق الناس . قال
الفرأ : يقولون هذه الاحاديث : خلق يعنون المختلقة . قال والقراءة بضم الخاء
أحب إلي ، لأنها تتضمن المعنيين . والخلق الاختلاق ، وهو افتعال الكذب
على التقدير الذي يروى الحق .

ثم اخبروا : إنا لسنا بمعذبين على خلاف ما تدعونا اليه ، على ما تدعيه

« فكذبوه » يعني هوداً « فأهلكناهم إن في ذلك لآية » الى آخر القصة .
وقد فسرناه .

قوله تعالى

﴿ كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ
أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى
رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هُمْنَا أَمِينٌ (١٤٦) فِي
جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنَحُّتُونَ
مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٥٠) ﴾

عشر آيات بلاخلاف .

قرأ ابن كثير وابو عمرو « فرهين » بغير الف . الباقون « فارهين » بألف .
حكى الله تعالى عن قوم صالح ، وهم (ثمود) أنهم كذبوا المرسلين ، ولم
يصدقوهم فيما دعوهم اليه من توحيد الله وخلع الانداد وترك عبادة الاصنام ، حتى قال
لهم أخوهم في النسب صالح ، وهو النبي المبعوث اليهم « ألا تتقون » الله باجتنب
معصيته وترك عبادة من سواه « اني لكم رسول أمين » فالأمين هو الذي
استودع الشيء على من أمن منه الخيانة ، فالرسول بهذه الصفة ، لأنه يؤدي
الرسالة ، كما حملها من غير تغيير لها ، ولا زيادة ، ولا نقصان .

ثم أمرهم فقال « فائقوا » عقاب « الله » باجتنب معاصيه « واطيعون »
 فيما ادعوكم اليه ، ولست اسألكم على ما ادعوكم اليه اجرا فيصرفكم عن القبول
 لانه ليس أجري وثوابي في ذلك إلا على رب العالمين الذي خلق الخلق . ثم
 قال لهم يا قوم « اتركوا فيما ههنا آمين » منكرآ عليهم ، فان ما هم فيه من
 النعم لا تبقى عليهم ، وانها تزول عنهم وأن أمنهم سيؤول الى الخوف . والامن
 سكون النفس الى السلامة ، وهو نقيض الخوف . وقد يكون أمناً مع العلم
 بالسلامة ، ومع الظن القوي .

ثم حدد نعمهم التي كانوا فيها ، فقال انتم « في جنات » وهي البساتين التي
 يستورها الشجر . « وعيون » جارية « وزروع » وهو جمع زرع وهو نبات من
 الحب الذي يبذر في الارض : زرعه أي بذره في الارض كما يزرع البذر
 فالبذر المبدد في الارض على وجه مخصوص يسمى زرعاً « ونخل طلعها هيضم »
 فالهضم اللطيف في جسمه ، ومنه هضم الحشا أي لطيف الحشا ، ومنه هضمه
 حقه : إذا ما نقصه ، لأنه لطف جسمه ينقصه ، ومنه هضم الطعام إذا لطف
 واستحال الى مشاكلة البدن . وقال ابن عباس : معنى « هضم » أي قد بلغ
 وانبغ . وقال الضحاك : ضمير يكون بعضه بعضاً . وقال عكرمة : هو الرطب
 اللين ، وقال مجاهد : هو الذي إذا مس تفتت . وقال أبو عبيدة والزجاج ،
 والفراء : هو المتداخل بعضه في بعض .

وقوله « وتنتحون من الجبال بيوتاً فارهين » قال ابن عباس : معناه حاذقين
 وقال ابن عباس ايضاً (فرهين) أشربين بطرين . وقال الضحاك : معناه عليين .
 وقال ابن زيد : الفره القوي . وقيل : هو الفرح المرح ، كما قال الشاعر :
 ﴿ ج ٨ م ٧ من التليان ﴾

لأستكين إذا ما ازمة أزمتم ولن تراني بخير فاره اللب (١)
 أي مرح اللب . وقيل : فاره وفره مثل حاذق وحذق . والفاره النافذ
 في الصنعة بين الفراهة كحاذق بين الحذق ، وعبد فاره نافذ في الأمور .
 ثم قال لهم « اتقوا الله » في ترك عبادته والاشراك به واجتنبوا معاصيه
 « واطيعون » فيما أدعوكم اليه .
 قوله تعالى :

﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي
 الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣)
 مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ
 هَذِهِ نَاقَةٌ إِنِّي أَشَرُّكُمْ شَرْبًا وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ
 فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا
 نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
 أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩) ﴾
 تسع آيات بلا خلاف .

حكى الله تعالى أن صالحاً قال لقومه « لا تطيعوا أمر المسرفين » وهم الذين
 تجاوزوا الحد بالبعد من الحق . وقيل غنى بالمسرفين : تسعة رهط من ثمود، كانوا

يفسدون في الارض ولا يصلحون ، فنهاهم الله على لسان صالح عن اتباعهم .
وقال « الذين يفسدون في الارض » بان يفعلوا فيها المعاصي ، ويرتكبوا القبائح
« ولا يصلحون » أي لا يفعلون شيئاً من الافعال الحسنة .

فقالوا له في الجواب عن ذلك « انما أنت من السحريين » والمسحر : هو
الذي قد سحر مرة بعد مرة ، حتى يختل عقله ويضطرب رأيه . والسحر حيلة
توهم قلب الحقيقة ، وقال مجاهد : معناه من المسحورين . وقال ابن عباس : من
الخلوقين ، لانه يذهب الى انه يخترع على أمر يخفى كخفاء السحر . وقيل :
معناه انك ممن له سحر أي رثة ، ومنه قولهم أنتفخ سحره قال لييد :

فان تسلينا فيم نحن فانهما عصافير من هذا الانام المسحر (١)

أي المعلن بالطعام والشراب ، على أمر يخفى كخفاء السحر .

ثم قالوا له « ما أنت إلا بشر مثلنا » أي ليس أنت إلا مخلوقاً مثلنا ،
فلن تتبعك ونقبل منك ، وقالوا له « فأت بآية » أي معجزة تدل على صدقك
« إن كنت من » جملة « الصادقين » في دعواك ، فقال لهم « هذه ناقة » وهي
التي أخرجها الله من الصخرة عشراء ترعو على ما أقترحوا « لها شرب » أي
حظ من الماء ، قال الشاعر :

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقته حمالة في غصون ذات اوقال (٢)
أي لم يمنع حظها من الماء و (الشرب) - بفتح الشين وضمتها وكسرها -
تكون مصادراً ، على ما قاله الفراء والزجاج ، وكانوا سألوا أن يخرج لهم من

(١) مر تخريجہ فی ١ / ٣٧٢ و ٦ / ٤٨٥

(٢) السان (وقد) وروايته :

لم يمنع الشرب منها غير أن أهتفت حمالة في سحق ذات اوقال

الجليل ثاقبة عشراء فاخرجها الله حاملاً كما سألوها ، ووضعت بعد فصيلاً ، وكانت غطيمة الخلق جداً . ثم قال لهم صالح « ولا تمسوها » يعني الثاقبة « بسوء » أي بضر تشعر به ، فالسوء هو الضرر الذي يشعر به صاحبه ، لأنه يسوء وقوعه ، فاذا ضره من حيث لا يشعر به لم يكن قد ساءه ، لكنه عرضه لما يسوؤه .
وقوله « فيأخذكم عذاب يوم عظيم » معناه إنكم إن مستم هذه بسوء أخذكم عذاب يوم عظيم ، أي الصيحة التي أخذتهم .

ثم أخبر فقال « فمقروها » أي انهم خالفوه وعقروا الثاقبة . فالحقر قطع الشيء من بدن الحي ، فاذا كثر انتفت معه الحياة ، وإن قل لم تنطف . والمراد - هنا - انهم نحروها . وقيل : انهم عقروها ، لأنها كانت تضيق المرعى على مواشيهم . وقيل : كانت تضيق الماء عليهم ، ولما عقروها رأوا آثار العذاب فيه جداً ، ولم يتوبوا من كفرهم ، وطلبوا صالحاً ليقتلوه ، فنجاه الله ومن معه من المؤمنين . ثم جاءتهم الصيحة بالعذاب ، فوقع لجميعهم الإهلاك ، ولو كانوا ندموا على الحقيقة ، واقلعوا عن الكفر ، لما أهلكهم الله .

ثم قال تعالى إن فيما أخبرنا به وفعلناه بقوم صالح من إهلاكهم ، لدلالة واضحة لمن اعتبر بها ، لكن أكثرهم لا يؤمنون « وإن ربك » يا محمد « هو العزيز » أي العزيز في انتقامه « الرحيم » بمن آمن من خلقه به .

قوله تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ

لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ

وَأَطِيعُونَ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)

ست عشرة آية بلا خلاف .

حكى الله تعالى عن قوم لوط أنهم كذبوا الرسل الذين بعثهم الله ، بترك الاشراك به وإخلاص العبادة له ، حين « قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون » الله فتجنبوا معاصيه والاشراك به ، وانه قال لهم « اني لكم رسول أمين » وقد فسرناه . واخبارهم عن نفسه بأنه رسول أمين مدح له ، وذلك جائز في الرسول كما يجوز أن يخبر عن نفسه بأنه رسول الله ، وانما جاز أن يخبر بذلك لقيام الدلالة على عصمته من القبحات . وغيره لا يجوز أن يخبر بذلك عن نفسه لجواز

الخطأ عليه .

واخبر ايضاً انه قال لهم « فاتقوا الله » واجتنبوا معاصيه « واطيعون »
 فيما أمركم به وأدعوكم اليه ولست اسألكم على ما أوذيه اليكم وأدعوكم اليه ،
 أجرآ ، ولا ثواباً ، لانه ليس أجري إلا على الله الذي خلق العالمين ، وانما
 حكى الله تعالى دعوة الانبياء بصغية واحدة ، ولفظ واحد إشعاراً بأن الحق
 الذي يأتي به الرسل ، ويدعون اليه واحد من اتقاء الله تعالى وإجتناّب معاصيه
 واخلاص عبادته ، وطاعة رسله ، وأن أنبياء الله لا يكونون إلا أمناء لله ، وانه
 لايجوز على واحد منهم أن يأخذ الأجر على رسالته ، لما في ذلك من التنفير عن
 قبول قولهم ، والمصير اليه الى تصديقهم . ثم قال لهم منكرآ عليهم « أتأتون
 الذكران من العالمين » ؟! يعني من جملة الخلائق « وتذرون ما خلق لكم ربكم
 من أزواجكم » أي وتتركون ما خلقه لكم من الازواج والنساء ، وتذرون
 استغني في ماضيه بـ (ترك) ولا يستعمل إلا في ضرورة الشعر . والزوجة
 المرأة التي وقع عليها العقد بالنكاح الصحيح ، يقال : زوجة وزوج ، قال الله
 تعالى « اسكن انت وزوجك الجنة » (١) .

ثم قال لهم منكرآ عليهم « بل انتم قوم عادون » أي خارجون عن
 الحق بعيدون عنه . والعادي والظالم والجائر نظائر ، والعادي من العدوان .
 وقد يكون من العدو ، وهو الاسراع في السعي ، فقال له قومه في جوابه « لئن
 لم تنته » وترجع عما تقوله « يالوط » وتدعونا اليه وتنهانا عنه « لتكونن من
 المخرجين » أي نخرجك من بيننا وعن بلدنا . فقال لهم لوط عند ذلك « إني
 لعملكم من القالين » يعني من المبغضين : قلاه يقلبه إذا أبغضه .

ثم دعا لوط ربه فقال « رب نجني واهلي مما يعملون » أي من عاقبة ما يعملونه ، وهو العذاب النازل لهم فأجاب الله دعاءه وقال « فنجيناه واهله اجمعين » يعني من العذاب الذي وقع بهم . وقد يجوز أن يكون أراد النجاة من نفس عملهم ، بأن يفعل لهم من اللطف ما يجنبون مثل أفعالهم ، وتكون النجاة من العذاب النازل بهم تبعاً لذلك . واستثنى من جملة أهله الذين نجاهم « عجوزاً » فانه أهلكها . وقيل : انها كانت امرأة لوط تدل قومه على اضيافه « في الغابرين » يعني الباقين . فيمن هلك من قوم لوط ، لانه قيل : هلكت هي فيما بعد مع من خرج عن القرية بما أمطر الله عليهم من الحجارة . وقيل أهلكو بالحسف ، وقيل بالاثفالك وهو الانقلاب . ثم أمطر على من كان غائباً منهم عن القرية من السماء حجارة قال الشاعر في الغابر :

فما ونا محمد مذ أن غفر له الاله ما مضى وما غبر (١)

وقال الشاعر :

لا تكسع الشول باغبارها - انك لا تدري من الناتج (٢)

فأغبارها بقية لبنها في اخلافها ، والغابر الباقي في قلة ، كالتراب الذي يذهب بالكنس ، ويبقى غباره : غبر يغبر ، فهو غابر ، وغبر الحص بقيته . وغبر من الغبار تغييراً ، وتغير تغبراً . والعجوز المرأة التي قد أعجزها الكبر عن أمور كثيرة ، ومثله الكيرة والمسننة .

وقوله « ثم دمرنا الآخرين » فالتدمير هو الاهلاك بأهوال الأمور ، دمره تدميراً ، ومثله تبره تتييراً ، ودمر عليه يدمر دماً إذا هجم عليه بالمكروه

والدلمس الهالك .

وقوله « وامطرنا عليهم مطراً » فالامطار الاتيان بالقطر العام من السماء ، وشبه به امطارا الحجلة والاهلاك بالامطار عقاب اتي النكران من العالمين « فساء مطر المنذرين » سماء (سوء) وإن كان حسناً ، لانه كان فيه هلاك القوم . ثم قال « إن في ذلك لآية » أي دلالة « وما كان اكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم » وقد فسرناه .

قوله تعالى :

(كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولَى (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨))

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١) ست عشرة آية بلا خلاف.

قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر « أصحاب الأيكة » على أنه اسم المدينة معرفة لا ينصرف . قال أبو علي الفارسي : الأجود أن يكون ذلك على تخفيف الهمزة ، مثل لجر ونصبه يضمف ، لأنه يكون نصب حرف الاعراب في موضع الجر ، مع لام التعريف ، وذلك لا يجوز . وحجة من قرأ بذلك أنه في المصحف بلا ألف . وقالوا هو اسم المدينة بعينها . الباقون « أصحاب الأيكة » بالألف واللام مطلقاً مضافاً . ومثله الخلاف في ص . وقرأ أبو حفص « كسفاً » بفتح السين - ههنا - وفي (سبأ) . الباقون باسكانها .

حكى الله تعالى أن قوم شعيب ، وهم أصحاب الأيكة كذبوا المرسلين في دعائهم الى خلع الانداد وإخلاص العبادة لله . والأيكة الغميضة ذات الشجر الملتف . وجمعه الأيكة ، قال النابغة الذبياني :

تجلو بقادمتي حمامة أيكة برداً أسف لشاته بالأمم (١)

وقال ابن عباس وابن زيد : أصحاب الأيكة هم أهل مدين . وإنما قال « إذ قال لهم شعيب » ولم يقل أخوهم كما قال في سائر من تقدم من الانبياء . لأنه لم يكن منهم في النسب ، وسائر من تقدم كانوا منهم في النسب ، إلا موسى

(١) ديوانه (دار بيروت) ٤٠

(ج ٨ م ٨ من التبيان)

فانه كان من بني اسرائيل ، وكانوا هم قبطاً ولم يسمه الله بأنه أخوهم . ثم حكى عن شعيب انه قال لقومه مثل ما قاله سائر الانبياء وقد فسرناه .

ثم قال لهم « اوفوا الكيل » أي اعطوا الواجب وافيًا غير ناقص ويدخل الوفاء في الكيل والذرع والعدد ، يقال : أوفى يوفي إيفاء ووفاء . ونهاهم أن يكونوا من الخسرين ، فالخسر المعرض للخسران في رأس المال بالنقصان أخسر يخسر إخساراً إذا جمعه يخسر في ماله ، وخسر هو يخسر خسراً وأخسره نقيض أربحه . وأمرهم أن يزنوا بالقسطاس المستقيم ، فالوزن وضع شي بآزاء المعيار ، لما يظهر منزلته منه في ثقل المقدار إما بالزيادة أو النقصان أو التساوي . والقسطاس العدل في التقويم على المقدار ، وهو على وزن (قرطاط) وجمعه قساطيس . وقال الحسن : القسطاس القبان . وقال غيره هو الميزان . وقال قوم هو العدل والسواء . ذكره ابو عبيدة .

ثم قال لهم « ولا تبخسوا الناس اشياءهم » أي لا تنقصوها ، « ولا تعثوا في الأرض مفسدين » قال قوم : لا تعثوا فيها بالمعاصي . وقال سعيد ابن المسيب : معناه لا تفسدوا فيها بعد اصلاحها . وقال ابو عبيدة : عثا يعثا عثواً وهو أشد الفساد بالخراب . وقال غيره : عثا يعثوا عثواً ، وعثا يعيث عيثاً . ثم قال لهم « واتقوا الذي خلقكم » وأوجدكم بعد العدم « والجبلة الأولين » فالجبلة الخليقة التي طبع عليها الشيء . - بكسر الجيم - وقيل ايضاً بضمها ويسقطون الهاء ايضاً فيخففون . ومنه قوله « ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً » (١) وقال ابو ذؤيب :

منايا يقربن الختوف لاهلها جهاراً ويستمتعن بالانس الجبل (١)
ومعناه اتقوا خليفة الأولين في عبادة غير الله والاشراك معه ، فهو عطف
على (الذي) فيها ، ولا يجوز أن يكون منصوباً بـ « خلقكم » لأن الله تعالى لم يخلق
كفرهم ، ولا ضلالهم ، وإن جعلته منصوباً بـ « خلقكم » على أن يكون
المعنى اتقوا الله الذي خلقكم وخلق الخلق الأولين ، كان جائزاً ، واخلصوا
العبادة لله . فقالوا في الجواب له « إنما انت من المسحرين » وقد فسرناه .
« وما أنت إلا بشر مثلنا ، أي مخلوقاً من الناس مثلنا ، ولست بملك
حتى يكون لك فضل علينا . والبشر هو الانسان ، والانسان مشتق من الانس
ووزنه (فعليان) والاصل إنسيان غير أنه حذف منه الياء ، فلما صغر رد الى
أصله ، فقيل : انسيان . والبشر من البشارة الظاهرة . والمثل والشبه واحد .
« وإن نظنك لمن الكاذبين » معناه إنا نحسبك كاذباً من جملة الكاذبين .
و (إن) هي الخففة من الثقيلة . ولذلك دخلت اللام في الخبر . ثم قالوا له : إن
كنت صادقاً ومحققاً في دعواك « فاسقط علينا كسفاً من السماء » أي قطعاً - في
قول ابن عباس - وهو جمع كسفة ، ومثله ثمرة وتمر ، فقال لهم في الجواب عن
ذلك « ربي أعلم بما تعملون » ومعناه إنه إن كان في معلومه أنه : متى بquam انكم
تتوبون أو يتوب تائب منكم ، لم يقطعكم بالعذاب ، وإن كان في معلومه
أنه لا يفلح واحد منكم ، فسيأتيكم عذاب الاستئصال .
ثم قال تعالى « فكذبوه » يعني قوم شعيب كذبوا شعيباً ، فعاقبهم الله بعذاب
يوم الظلة ، وهي سحابة رفعت لهم ، فلما خرجوا اليها طلبوا لبردها من شدة
ما أصابهم من الحر مطرت عليهم ناراً فاحرقتهم ، فهؤلاء أصحاب الظلة ، وهم

غير أهل مدين - في قول قتادة - قال : أرسل شعيب الى أمّتين .
 « إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم »
 وقد فسرناه وانما كر ، « وإن ربك هو العزيز الرحيم » للبيان عن انه رحيم
 بخلقه عزيز في انتقامه من الكفار .

قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ
 الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ
 عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوْ لَمْ يَكُنْ
 لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمُهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى
 بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩)
 كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ
 يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢)
 فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤)
 أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا
 يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) ﴾ ست

عشرة آية بلاخلاف .

قرأ ابن عامر واهل الكوفة الا حفصاً ويعقوب « نزل » به بتشديد الزاي وفتحها ﴿ الروح الامين ﴾ بالنصب فيهما ، الباكون بالتخفيف والرفع فيهما .
 وقرأ ابن عامر ﴿ أو لم تكن ﴾ بالتاء ﴿ آية ﴾ بالرفع . الباكون بالياء ونصب ﴿ آية ﴾ من شدد الزاي ، فلقوله « فانه نزل على قلبك باذن الله » (١) ﴿ وانه لتنزيل رب العالمين ﴾ ومن خفف ، فلان التنزيل فعل الله ، وهذا فعل جبرائيل ، يقال : نزل الله جبرائيل ، ونزل جبرائيل . فاما قوله ﴿ فانه نزله على قلبك باذن الله مصداقاً ﴾ بالتشديد ، فلا أجل حذف الباء ، لانك تقول نزلت به وأنزلته . ومن شدد فانه أضاف الفعل الى الله .
 ومن خفف أضاف الفعل الى جبرائيل (ع) ومن قرأ ﴿ أو لم تكن ﴾ بالتاء ورفع ﴿ آية ﴾ جعلها اسم (كان) وخبره ﴿ أن يعلمه ﴾ لأن (ان) مع الفعل بمنزلة المصدر ، وتقديره : أو لم تكن لهم آية معجزة ودلالة ظاهرة علم بني اسرائيل بمحمد في الكتب . يعني كتب الانبياء (ع) قبله أنه نبي ، وأن هذا القرآن من عند الله ، لكنه لما جاءهم ما عرفوه على بصيرة كفروا به . ومن قرأ بالياء ونصب (آية) جعلها خبر (كان) واسمه (أن يعلمه) وهو الاقوى في العربية ، لان (آية) نكرة ، و (أن يعلمه) معرفة ، وإذا اجتمعت معرفة ونكرة اختير أن يكون المعرفة اسم (كان) والنكرة خبرها ، وسيبويه لا يجيز غير ذلك إلا في ضرورة الشعر كقول حسان :

كأن سبيته من بيت رأس يكون مزاجها غسل وماء (٢)

من بيت رأس معناه من بيت رئيس ، فسمى السيد رأساً ، قال عمرو

ابن كلثوم .

برأس من بني جشم بن عمرو (١)

وبيت رأس بيت بالشام ، تتخذ فيه الخور . والهاء في قوله « نزله ٠٠٠ » وإنه لتنزيل « كناية عن القرآن في قول قتادة . وصفه الله تعالى أنه تنزيل من رب العالمين الذي خلق الخلائق . ووصفه بأنه تنزيل من رب العالمين ، تشريف له وتعظيم لشأنه . ثم قال « نزل به الروح الامين » من خفف أسند الفعل الى جبرائيل ، ولذلك رفعه . ومن ثقل أسنده الى الله تعالى ، ونصب ﴿ الروح الامين ﴾ على أنه مفعول به . والروح الامين جبرائيل (ع) . واء ما قال ﴿ على قلبك ﴾ لأنه بقلبه يحفظه فكانه المنزل عليه . و (الروح الامين) جبرائيل (ع) في قول ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك وابن جريج . ووصف بأنه (روح) من ثلاثة وجوه :

احدها - انه تحيا به الأرواح بما ينزل من البركات .

الثاني - لان جسمه روحاني .

الثالث - ان الحياة عليه أغلب ، فكانه روح كله .

وقوله ﴿ على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ أي انزل هذا القرآن على قلبك لتخوف به الناس وتنذرهم . ثم عاد الى وصفه فقال ﴿ وإنه لفي زبر الاولين ﴾ ومعناه إن ذكر القرآن في كتب الاولين على وجه البشارة به ، لا لأن الله أنزله على غير محمد (ص) . وواحد (الزبر) زبور ، وهي الكتب ، تقول : زبرت الكتاب أزره زبراً إذا كتبتة . واصله الجمع ، ومنه الزبرة الكتبة ، لانها مجتمعة . ثم قال تعالى ﴿ أولم يكن لهم آية ﴾ اي دلالة في علم بني اسرائيل واضحة

(١) ملحق ديوان امرئ القيس - جابر عمرو بن كلثوم ٢٢٦ وروايته :

برأس من بني جشم بن بكر ندق به السهم - بولة والحزونا

على صحة أمره . ومن حيث أن مجيئه على ما تقدمت البشارة به بجميع أوصافه لا يكون إلا من جهة علام الغيوب . وقيل : من علماء بني اسرائيل عبد الله ابن سلام - في قول ابن مسعود وابن عباس ومجاهد - ثم قال « ولو نزلناه » يعني القرآن « على بعض الأعجمين » قيل : معناه على أعجم من البهائم أو غيره ما آمنوا به - ذكره عبد الله بن مطيع - وقيل : معناه « لو نزلناه على » رجل اعجم اللسان ما آمنوا به ولتكبروا عليه ، لأنه من غيرهم ، وأن المعجزة تفارقه ، وفي ذلك تسلية للنبي (ص) حين لم يؤمنوا به ، ولم يقبلوا منه . وتقيض الاعجم الفصيح ، والاعجم الذي يتمتع لسانه من العربية . والعجمي تقيض العربي ، وهو نسبة الولادة ، قال الشاعر :

من وائل لاحي يعدهم من سوقة عرب ولا عجم (١)
وإذا قيل أعجمي ، فهو منسوب الى أنه من الأعجمين الذين لا يفصحون
كما قال العجاج :

والدهر بالانسان دواني (٢)

فنسبه الى أنه من الدوارين بالانسان .

وقوله « كذلك سلكناه في قلوب المجرمين » فالهاء كناية عن القرآن . ومعناه أقررناه في قلوبهم باخطاره بياهم لتقوم به الحجة عليهم ، والله لطف يوصل به المعنى في الدليل الى القلب . فمن فكر فيه أدرك الحق به . ومن أعرض عنه كان كمن عرف الحق وترك العمل به في لزوم الحجة عليه .

والفرق بين من ادرك الحق لسلوكه في القلب ، وبين من ادرك الحق بالاضطرار اليه في القلب ، أن الاضطرار اليه يوجد الثقة به ، فيكون صاحبه عالماً به . واما

بسلوكه ، فيكون مع الشك فيه .

وقال الحسن وابن جريج ، وابن زيد : كذلك « سلكناه » أي الكفر .
ولا وجه لذلك ، لأنه لم يجر ذكره ، ولا حجة فيه وإنما الحجة في القرآن
واخطاره بالبال ، فهو أحسن في التأويل .

وقوله « لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم » اخبار منه تعالى عن قوم
من الكفار أنهم يموتون على كفرهم : بأنهم لا يؤمنون حتى يشاهدوا العذاب
المؤلم ، فيصبرون عند ذلك ملجئين الى الايمان ، ومعنى « حتى يروا العذاب »
أي حتى يشاهدوا أسبابه من نيران مؤججة لهم يساقون اليها ، لا يردّهم عنها
شيء . ويحتمل حتى يعلموه في حال حلوله بهم علم ملابسته لهم .

ثم قال تعالى « فيأتيهم بغتة » ومعناه : إن العذاب الذي يتوقعونه
ويستعجلونه يجيئهم فجأة . والبغته حصول الأمر العظيم الشأن من غير توقع
بتقديم الاسباب ، وقيل البغته الفجأة . والبادرة ، بغته الأمر يبعثه بغتاً وبغته
قال الشاعر :

وافضع شيء حين يفجؤك البغت (١)

وإنه الأمر بغتة تقيض أناة عن تقدمه « وهم لا يشعرون » أي لا يعلمون
والشعور هو العلم بما يلطف ، لطف الشعر .

ثم اخبر تعالى انه إذا جاءهم العذاب بغتة قالوا « هل نحن منظرون » أي
مؤخرون ، فقال الله تعالى « افيعدنا بنا يستعجلون » على وجه التوبيخ لهم والانكار
عليهم . ثم قال لنبيه (ص) « افرأيت » يا محمد « إن متعناهم سنين ثم جاءهم
ما كانوا يوعدون » به من العذاب « ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون » . معناه

انه لم يغن عنهم ما كانوا يمتعون ، لا زديادهم من الآثام ، واكتسابهم من الاجرام ، أي أي شيء يغني عنهم ما يمتعون به من النعم ، لانه فان كله ، والاغناء عن الشيء صرف المكروه عنه بما يكفي عن غيره . والغنى به تقيض الغنى عنه ، فالاغناء عنه الصرف عنه ، والاغناء به الصرف به ، والامتناع احضار النفس ما فيه اللذة بادراك الحاسة ، يقال : أمتعه بالرياحين والطيب ، وامتنعه بالنزه والبساتين ، وامتنعه بالمال والبنين ، وامتنعه بالحديث الطريف الطريف .

قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا كَمَا مُنْذِرُونَ ﴾ (٢٠٨) ذِكْرِي وَمَا
كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنْزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي
لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ كَمَعْزُولُونَ (٢١٢)
فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ
عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦)
وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرِيكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨)
وَتَقْلُبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ (٢٢٠)
إثنتا عشرة آية في المكي والمدني الآخر ، وثلاث عشرة آية فيما عداه . عدوا
(ج ٨ م ٩ من التبيان)

« الشياطين » ولم يعدها الأول .

يقول الله تعالى « وما أهلكنا من » أهل « قرية » بالعذاب الذي أنزلناه عليهم فيما مضى من الأمم السالفة ﴿ الا ﴾ وكان ﴿ لها منذرون ﴾ يخوفونهم بالله ويحذرونهم معاصيه . وقوله « ذكرى » وما كنا ظالمين « معناه ذاك الذي قصصناه من إنزال العذاب بالأمم الخالية « ذكرى » لكم تتعظون بها . ثم بين أن ذلك كان عدلا ، ليكون أشد في الزجر ، وإن الله تعالى لم يكن ظالماً لاحد . وموضع « ذكرى » يجوز أن يكون نصبا بالانذار ، ويجوز أن يكون رفعا بالاستئناف على ذلك (ذكرى) . والذكرى : هو إظهار المعنى للنفس تقول : ذكرته ذكرى .

وبين أن ذلك ليس مما ينزل به الشياطين ويغفون به الخلق ، بل هو وحي من الله تعالى . ثم بين أنه ليس ينبغي للشياطين أنزال ذلك . وانهم لا يستطيعون على ذلك . ومعنى ينبغي لك كذا يطلب منك فعله في مقتضى العقل ، فتقول : ينبغي لك أن تختار الحسن على القبيح ، ولا ينبغي لك أن تختار القبيح على الحسن . واصله من البغية التي هي الطلب ، وقرا الحسن و « ما تنزلت به الشياطين » بالواو ، ظنا منه أنه مثل (المسلمين) . وهذا لحن بلا خلاف ، لانه جمع تكسير شيطان وشياطين . والاستطاعة هي القدرة التي ينطاع بها الفعل للجارحة . ثم قال : « انهم » يعني الشياطين « عن السمع لمعزولون » وقيل : معناه إنهم عن استراق السمع من السماء لمعزولون . وقيل : عن سماع القرآن - في قول قتادة - لمعزولون معناه منحون . فالعزل تنحية الشيء عن الموضع الى خلافه ، وهو ان يزيله عن أمر الى نقيضه ، كما قال الشاعر :

عزل الامير بالامير المبدل (١)

وانما لم ينبغ لهم ذاك لحراسة المعجزة عن أن تنموه بالباطل ، لأن الله إذا أراد أن يدل بها على صدق الصادق أخلصها بمثل هذه الحراسة ، حتى تصح الدلالة .

ثم نهى نبيه (ص) والمراد به المكلفين ، فقال « ولا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذنين » وتقديره انك إن دعوت معه إلهاً آخر كنت من المعذنين . ثم امره أن ينذر عشيرته الأقربين قيل : انما خص في الذكر انذار عشيرته الاقربين ، لانه يبدأ بهم ، ثم الذين يلونهم ، كما قال تعالى « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » (٢) لان ذلك هو الذي يقتضيه حسن التدبير : الترتيب . ويحتمل أن يكون انذرهم بالافصاح عن قبيح ما هم عليه وعظم ما يؤدي اليه من غير تليين بالقول يقتضي تسهيل الأمر لما يدعو اليه مقارنة العشيرة ، بأن من نزل بهم الاغلاظ في هذا الباب أذلهم . وقيل : ذكر عشيرتك الأقربين أي عرفهم إنك لا تغني عنهم من الله شيئاً إن عصوه . وقيل : انما خص عشيرته الاقربين لانه يمكنه أن يجمعهم ثم ينذرهم ، وقد فعل (ص) ذلك . والقصة بذلك مشهورة فانه روي أنه أمر (ص) علياً بأن يصنع طعاماً ثم دعا عليه بني عبد مناف وأطعمهم الطعام . ثم قال لهم : أيكم يؤازرني على هذا الأمر يكن وزيرني وأخي ووصي ، فلم يجبه أحد إلا علي (ع) والقصة في ذلك معروفة .

ثم أمره (ص) بأن يخفض جناحه للمؤمنين الذين اتبعوه ، ومعناه أن جانبك وتواضع لهم ، وحسن أخلاقك معهم - ذكره ابن زيد - ثم قال « فان عصوك ، يعني أقاربك بعد انذارك إياهم وخالفوك فيما تدعوهم اليه الى

ما يكرهه الله ، فقل لهم «أي برىء مما تعملون» أي من أعمالكم القبيحة وعبادتكم للاصنام . والبراءة المباحدة من النصره عند الحاجة ، فاذا برىء من عملهم فقد تباغذ من النصره لهم او الموالاته . ثم أمره أن يتوكل على العزيز الرحيم ومعناه أن يفوض أمره الى من يدبره . والتوكل على الله من الايمان ، لانه أمر به ، وحث عليه « على العزيز الرحيم » يعني القادر الذي لا يغالب ، ولا يعازي الكبير الرحمة الواسع النعمة على خلقه « الذي يراك » يا محمد « حين تقوم وتقبلك في الساجدين » أي تصرفك في المصلين بالركوع والسجود والقيام والقعود - في قول ابن عباس وقتادة - وفي رواية أخرى عن ابن عباس : إن معناه إنه أخرجك من نبي الى نبي حين أخرجك نبياً . وقيل : معناه يراك حين تصلي وحده ، وحين تصلي في جماعة . وقال قوم من اصحابنا : إنه أراد قلبه من آدم الى آية عبد الله في ظهور الموحدين ، لم يكن فيهم من يسجد لغير الله .

والرؤية - ههنا - هي ادراك البصر ، دون رؤية القلب ، لان (رأيت) بمعنى علمت ، لا يتعدى الى مفعول واحد ، فهي من رؤية البصر ، ثم قال « إنه هو السميع العليم » أي يسمع ما تتلو في صلاتك ، العليم بما تضرع فيها في قلبك . وقيل معنى « وتوكل على العزيز الرحيم » ليظهرك على كيد أعدائك الذين عصوك فيما أمرتهم به . وقرأ ابن عامر ونافع « فتوكل » بالفاء ، لانها في مصاحف أهل المدينة والشام كذلك . الباقر بالواو ، وكذلك هو في مصاحفهم . والتوكل على الله : هو أن يقطع العبد جميع أماله من المخلوقين إلا منه تعالى ، ويقطع رغبته من كل احد إلا اليه ، فاذا كان كذلك رزقه الله من حيث لا يحتسب .

قوله تعالى :

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) نَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ (٢٢٧)

سجع آيات بلاخلاف .

لما اخبر الله تعالى أن القرآن ليس مما تنزل به الشياطين ، وأنه وحي من الله تعالى على نبيه ، نبه خلقه على من تنزل الشياطين عليه بقوله « هل انبئكم » أي هل أخبركم « على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفَّاكٍ أَثِيمٍ » أي كذاب أَثِيمٍ ، وقال مجاهد : الأفَّاك الكذاب ومعناه الكثير الكذب ، والقلب للخبر من جهة الصدق الى الكذب ، وأصله الانقلاب من المؤتفكات وهي المنقلبات . والانباء الاخبار بما فيه من الغيوب وعظم الشأن ، ومنه قولهم : لهذا الامر نبأ ومنه اشتق وصف الرسول بأنه نبي بعظم شأن ما أتى به من الوحي من الله . والآثم الفاعل للقيح : أثم يأثم إنما إذا ارتكب القبيح ، وتأثم إذا ترك الآثم مثل تحوب إذا ترك الحوب ، وأثم تأثيماً إذا نسبته الى الآثم ، ثم قال « يلقون »

السمع ، أي يلقون ما يسمعون باستراق السمع الى كل افك أيشم - في قول مجاهد - ثم اخبر تعالى أن أكثرهم كاذبون فيما يلقونه اليهم .

وقوله « والشعراء يتبعهم الغاؤون » قال الحسن : هم الذين يسترقون السمع ويلقونه الى الكهنة . وقال إنما يأخذون أخباراً عن الوحي « انهم عن السمع لمعزولون » أي عن سمع الوحي . وقيل : ان الشعراء المراد به القصاص الذين يكذبون في قصصهم ويقولون ما يخطر ببالهم .

وقوله « ألم تر انهم في كل واد يهيمون » أي هم لما يغلب عليهم من الهوى كالهائم على وجهه في كل واد يعن له ، وليس هذا من صفة من عليه السكينة والوقار ومن هو موصوف بالحلم والعقل . والمعنى أنهم يخوضون في كل فن من الكلام والمعاني التي يعن لهم ويريدونه . وقال ابن عباس وقتادة : معناه في كل لغو يخوضون ! يمدحون ويذمون ، يعنون الباطل . وقال الجبائي : معناه يصفون الى ما يلقيه الشيطان اليهم على جهة الوسوسة لما يدعوهم اليه من الكفر والضلال . وقيل : انما صار الأغلب على الشعراء الغي باتباع الهوى ، لان الذي يتلو الشعر - في الأكثر - العشاق ولذلك يقبح التشبيب . مع أن الشاعر يمدح للصلة ويهجو على جهة الحمية . فيدعوه ذلك الى الكذب ، ووصف الانسان بما ليس فيه من الفضائل والبرذائل .

وقرأ نافع « يتبعهم » بتخفيف التاء من تبعه إذا اقتفى أثره ، يقال تبع فلاناً إذا سار في أثره واتبعه لحقه . الباؤون : بالتشديد من الاتباع ، ومعناها واحد . والآية قيل نزلت في الشعراء الذين هجوا رسول الله (ص) والمؤمنين ، وهي تتناول كل شاعر يكذب في شعره - ذكره الفراء - وقيل : انها نزلت في ابن الزبيري وأمثاله .

ثم اخبر ان هؤلاء الشعراء يقولون ويحثون على اشياء لا يفعلونها هم ، وينهون عن اشياء يرتكبونها ، ثم استثنى من جملتهم الذين آمنوا منهم و عملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً ، فأجتنبوا معاصيهه ، وانتصروا - لنفوسهم في الدين - من الذين ظلموهم . وقيل : أراد الشعراء الذين ردوا على المشركين هجاءهم للمؤمنين ، فانتصروا بذلك للنبي والمؤمنين ، ثم هدد الظالمين ، فقال « وسيعلم الذين ظلموا » نفوسهم « أي منقلب ينقلبون » أي أي منصرف ينصرفون اليه لأن منصرفهم الى النار، نعوذ بالله منها. وقيل أراد الذين ظلموا نفوسهم بقول الشعر الباطل من هجو النبي والمؤمنين ، ومن يكذب في شعره .

وقوله « أي منقلب ينقلبون » نصب (أي) بـ (ينقلبون) ولا يجوز أن ان يكون منصوباً بـ (سيعلم) ، لأن أياً لا يعمل فيها ما قبلها ، لأن الاستفهام له صدر الكلام حتى ينفصل من الخبر بذلك .

٢٧ - سورة النمل

مكية بلا خلاف وهي خمس وتسعون آية حجازي واربع وتسعون آية
نصري وشامي وثلاث وتسعون آية في عدد الكوفيين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَى
لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَتًا
لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ
فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَسِرُونَ (٥)﴾ خمس آيات بلا خلاف .

قد بينا معنا الحروف التي في أوائل السور فيما تقدم بمالا نحتاج معه إلى
إعادته ، وقد بينا قول من قال إنها أسماء للسور . وقال قوم « طس » اسم من
أسماء القرآن .

وقوله « تلك » إشارة إلى ما وعدوا بمجيئه من القرآن . وقيل ان « تلك »

﴿ ج ٨ م ١٠ من التبيان ﴾

بمعنى (هذا) وآيات القرآن هي القرآن ، وإنما أضافها إليه ، كما قال « انه لحق اليقين » (١) . والقرآن والكتاب معناها واحد ، ووصفه بالوصفين ليفيد أنه مما يظهر بالقراءة ، ويظهر بالكتابة ، وهو بمنزلة الناطق بما فيه من الامرين جميعاً وذلك يبطل قول من قال: ان كلام الله شيء واحد لا يتصرف بالقراءة والكتابة . ووصفه بأنه مبين تشبيهه له بالناطق بكذا ، وإذا وصفه بأنه بيان جرى مجرى وصفه له بالنطق بكذا في ظهور المعنى به للنفس . والبيان هو الدلالة التي تبين بها الاشياء . والمبين المظهر ، وحكم القرآن الموعظة بما فيها من الترهيب والحيجة الداعية الى الحق الصارفة عن الباطل ، وأحكام الشريعة التي فيها مكارم الاخلاق ومحاسن الافعال ، والمصلحة فيما يجب من حق النعمة لله تعالى ما يؤدي الى الثواب ويؤمن من العقاب ، ثم وصفه بأنه « هدى وبشرى للمؤمنين » وموضع « هدى » نصب على الحال ، وتقديره هادياً ومبشراً ، ويجوز أن يكون رفعاً على تقدير هو « هدى وبشرى للمؤمنين » والمعنى ان ما فيه من البيان والبرهان يهديهم الى الحق ، وما لهم في وجه كونه معجزاً الذي فيه من اللطف ما يؤديهم الى الثواب ويشرهم بالجنة .

ثم وصف المؤمنين الذين بشرهم القرآن بأنهم « الذين يقيمون الصلاة » بحدودها ويدومون على أوقاتها ويخرجون ما يجب عليهم من الزكاة في أموالهم الى مستحقها ، وهم مع ذلك يوقنون بالآخرة ، ويصدقون بها . ثم وصف تعالى من خالف ذلك ولم يصدق بالآخرة ، فقال « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم اعمالهم فهم يعمهون » قيل في معناه قولان :

احدهما - قال الحسن والجبائي : زينا لهم اعمالهم التي أمرناهم بها ، فهم

يتحذرون بالذهاب عنها .

الثاني - زيناهم أعمالهم بخلقنا فيهم شهوة القبيح الداعية لهم الى فعل المعاصي
ليجتنبوا المشتبه « فهم يسمهون » عن هذا المعنى أي يتحذرون بالذهاب عنها .
ثم اخبر تعالى ان من وصفه بذلك لهم « سوء العذاب » ووصفه بأنه سوء
لما فيه من الألم و « هم في الآخرة هم الاخسرون » لانهم يخسرون الثواب
ويحصل لهم بدلا منه العقاب فهو اخسر صفقة تكون :

قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) إِذْ قَالَ
مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَشِيرٍ
بَشِيرٍ قَبْسٍ كَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ
مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَى
إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ
كَأَنَّهُاجَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ
لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي
غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١) ست آيات بلاخلاف .

قرأ أهل الكوفة « بشهاب قبس » منون غير مضاف جعلوا (قبساً) صفة

للشهاب على تقدير منور . الباقون بالاضافة على تقدير (نار)

يقول الله تعالى مخاطباً لنبيه محمد صلى الله عليه وآله « انك » يا محمد « لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » أي انك لتعطى لأن الملك يلقيه اليه من قبل الله تعالى ، من عند حكيم بصير بالصواب من الخطاء في تدبير الامور بما يستحق به التعظيم . وقد يفيد (الحكيم) العامل بالصواب المحكم للامور المتقن لها . وعليم بمعنى عالم إلا أن فيه مبالغة . وقال الرماني هو مثل سامع وسميع ، فوصفنا له بأنه عالم يفيد أن له معلوماً ، كما أن وصفه بأنه سامع يفيد بأن له مسموعاً ، ووصفه بأنه عليم يفيد أنه متى صح معلومه . فهو عليم به ، كما أن (سميعاً) يفيد أنه متى وجد مسموع لابد أن يكون سامعاً .

وقوله « إذ قال موسى لا اله » قال الزجاج : العامل في إذ (اذكر) وهو منصوب به . وقال غيره : هو منصوب بـ (عليم) اذ قال اني آنست ناراً . فالإيناس الاحساس بالشيء من جهة ما يؤنس . آنست كذا ، أو نسه إيناساً وما آنست به ، فقد أحسست به ، مع سكون نفسك اليه « سآتيكم منها بنجر » يعني بن يدل على الطريق ويهذبنا اليه ، لانه كان قد ضل « أو آتيكم بشهاب قبس » قيل : لانهم كانوا قد أصابهم البرد ، وكان شتاء فلذلك طلب ناراً . والشهاب نور كالعمود من النار ، وجمعه شهب . وقيل للكوكب الذي يمتد وينقض شهاب ، وجمعه شهب ، وكل نور يمتد مثل العمود يسمى شهاباً ، والقبس القطعة من النار قال الشاعر :

في كفه صعدة مثقفة فيها سنان كشعلة القبس (١)

ومنه قيل اقتبس النار اقتباساً أي أخذ منها شعلة ، واقتبس منه علماً أي اخذ منه نوراً يستضيء به كما يستضيء بالنار « لعلمكم تصطلون » معناه ، لكي

تصطلوا . ومعناه لتدفثوا ، والاصطلاء التدفث بالنار ، وصلى النار يصلي صلا إذا لزمها ، فاصله اللزوم . وقيل الصلاة منه للزوم الدعاء فيها . والمصلي الثاني بعد السابق للزومه صلو السابق . وإنما قال لا مراته « لعل آتيكم » لأنه أقامها مقام الجماعة في الانس بها والسكون اليها في الامكنة الموحشة . ويجوز أن يكون على طريق الكناية على هذا التأويل .

وقوله « فلما جاءها » معناه جاء النار « نودي أن بورك من في النار ومن حولها » وقيل في معناه قولان :

احدهما - بورك نور الله الذي في النار ، وحسن ذلك ، لأنه ظهر لموسى بآياته وكلامه من النار . في قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة والحسن . الثاني - الملائكة الذين وكلهم الله بها على ما يقتضيه . « ومن حولها » - في قول أبي علي الجبائي - ولا خلاف أن الذين حولها هم الملائكة الذين وكلوا بها . و « سبحان الله رب العالمين » .

وقوله « ان بورك » يحتمل أن يكون نصباً على نودي موسى بأن بورك . ويحتمل الرفع على نودي البركة ، والبركة ثبوت الخير النامي بالشيء . قال الفراء العرب تقول : بارك الله ، وبورك فيك .

وقوله « انه انا الله العزيز الحكيم » معناه ان الله قال لموسى ان الذي يكلمك هو الله العزيز القادر الذي لا يغالب ، الحكيم في افعاله ، المنزه من القبائح . قال الفراء : الهاء في قوله « انه » عماد ، ويسمى بالبصريون إضمار الشأن والقصة . ثم أراد أن يبين له دلالة يعلم بها صحة النداء ، فقال « والحق عصاك » من يدك ، وفي الكلام حذف ، وهو أنه التقي عصاه وصارت حية « فلما رآها تهتز كأنها جان » وهي الحية الصغيرة مشتق من الاجتنان ، وهو الاستتار ، وقال

الفراء : هي حية بين الصغيرة والكبيرة ، قال المراجع :

يرفعهن بالليل إذا ما أسدفا أعناق جان وهاماً رجفاً (١)

ووصف العصا في هذا الموضع « كأنها جان » وفي الشعراء بأنها ثعبان ، وهي الحية الكبيرة ، لأنها جمعت صفة الجان في اهتزازه وسرعة حركته مع أنه ثعبان في عظمه ، ولذلك هاله فـ « ولى مدبراً » . وقيل إنها أول شيء صارت جاناً ثم تدرجت الى ان صارت ثعباناً ، وهم يشاهدونها ، وذلك أعظم في الاعجاز . وقيل : ان الحاليين مختلفان ، لان الحال التي صارت فيها جاناً هي الحال التي خاطبـه الله في أول ما بعثه نبياً ، والحال التي صارت ثعباناً هي الحال التي لقي فرعون فيها . فلا تنافي بينهما على حال .

وقوله « ولم يعقب » معناه ولم يرجع - في قول قتادة - وقال الجبائي معناه لم يرجع على عقبيه . والمعاقبة ذهاب واحد ومجيء آخر على وجه المناوبة ، وإنما ولى منها موسى بالبشرية ، لا انه شك في كونها معجزة له ولا يضره ذلك .

وقوله « يا موسى لا تخف » نداء من الله تعالى لموسى وتسكين منه ، ونهي له عن الخوف . وقال له انك مرسل و « لا يخاف لدي الرسلون » لانهم لا يفعلون قبيحاً ، ولا يخلون بواجب ، فيخافون عقابه عليه ، بل هم منزهون عن جميع ذلك .

وقوله « إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء » صورته صورة الاستثناء ، وهو منقطع عن الاول وتقديره لكن من ظلم نفسه بفعل القبيح ، ثم بدل حسناً بعد سوء ، بأن تاب من القبيح ، وفعل الحسن ، فانه يغفر له . وقال قوم :

(١) تفسير الطبري ١٩/٧٦ وروايته :

يرقلن بالليل اذا ما رجفاً أعناق جان وهاماً رجفاً

هو استثناء متصل وأراد من فعل صغيرة من الانبياء . فعلى هذا يكون الاستثناء متصلاً - ذكره الحسن - وهذا تأويل بعيد ، لان صاحب الصغيرة لا خوف عليه أيضاً لوقوعها مكفرة . والاستثناء وقع من المرسلين الذين لا يخافون ، فالأول هو الصحيح .

وقوله « ثم بدل حسناً بعد سوء » معناه قدم على ما فعله من القبيح ، وتاب منه وعزم على أن لا يعود الى مثله في القبيح ، فان من تلك صورته ، قارب الله يغفر له ويستر عليه لانه رحيم . وقيل : المعنى « لا يخاف لدي المرسلون » انما الخوف على من سواهم « إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء » قال الجبائي : في الآية دلالة على انه يسمى الحسن حسناً قبل وجوده وبعد تقضيه ، وكذلك القبيح ، وهذا انما يجوز على ضرب من المجاز ، دون الحقيقة ، لان كون الشيء حسناً او قبيحاً بقيد حدوثه على وجه لا يصح في حال عدمه ، وانما سمي بذلك بتقدير أنه متى وجد كان ذلك ، وقال قوم « إلا » بمعنى الواو ، فكأنه قال اني لا يخاف لدي المرسلون ، ولا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء ، فاني أغفر له .

قوله تعالى :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي
تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢)
فَلَمَّا جَاءَ تَهُمَ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَعَلُوا
بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُفْسِدِينَ (١٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ (٥١) أَرْبَع
آيات بلاخلاف .

امر الله تعالى موسى (ع) أن يدخل يده في جيبه . وقيل : أراد كفه .
وقيل : ثيابه « تخرج بيضاء من غير سوء » يعني من غير برص . وقال المبرد :
السوء إذا اطلق يراد به البرص ، وإذا وصل بشيء ، فهو كلما يسوء ، قال :
وتقديره كأن هاتين مع بقية الآيات تسع آيات . والتقدير ادخل يدك في جيبك
فان ذلك مع إلقاءك العصا ، وما بعد ذلك من الآيات تسع آيات ، كما يقال
جاء فلان في جمع كثير ، وهو احد ذلك الجمع . وقيل : إن معنى (في) من .
وقال ابن مسعود : اتى موسى فرعون وعليه جبة صوف . وقال مجاهد كان كها
الى بعض يده .

وقوله « الى فرعون » تقديره مرسل الى فرعون وقومه في تسع آيات .
وحذف كما قال الشاعر :

رأتني بخيلها فصدت مخافة وفي الخيل دعاء الفؤاد فروق (١)
اي رأتني مقبلا بخيلها . ثم اخبر تعالى عن فرعون وقومه بأنهم « كانوا قومًا
فاسفين » والآيات التسع التي كانت لموسى (ع) : قلب العصا حية . واليد
البيضاء . والجراد . والقمل . والضفادع ، والدم . والبحر وانفلاقه . ورفع
الطور فوق رؤسهم . وانفجار الحجر اثنتا عشرة عينا . وقيل : بدل البحر

والجبل الطوفان والطمس . ذكره ابن زيد .

ثم اخبر تعالى عن فرعون وقومه أنه لما جاءتهم آيات الله ودلائله مبصرة .
وقيل في معنى مبصرة قولان :

احدهما - انها تبصر الصواب من الخطأ ، يقال أبصرته وبصرته بمعنى
واحد ، كقولك أ كفرتك وكفرتك ، وأكذبتك وكذبتك .

الثاني - مبصرة للحق من الباطل ، فهي تهدي اليه كأنها تراه . قالوا
عند ذلك إن هذه الآيات « سحر مبین » أي ظاهر .

ثم قال « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » والمعنى انهم عرفوها
وعلموها بقلوبهم ، لكنهم جحدوا بها بالسنتهم طلباً للعلو والتكبر ، ففي ذلك
دلالة على أنهم كانوا مماندين إذ جحدوا ما عرفوا . وقال الرماني : لا تدل على
ذاك ، لان معرفتهم كانت بوقوعها على الحقيقة . فأما الاستدلال على أنها
من فعل الله ومن قبله ليدل بها على صدق من أعطاها إياه فبعد العلم بوقوعها .
وقال ابو عبيدة : الباء زائدة ، والمعنى وجحدوها ، كما قال المعراج :

نضرب بالسيف ونرجوا بالفرح (١)

وقيل انهم جحدوا ما دلت عليه من تصديق الرسول ، كما تقول كذبت
به أي بما جاء به .

ثم قال تعالى لنبيه محمد (ص) « فانظر » يا محمد ﴿ كيف كان عاقبة
المفسدين ﴾ لان الله أهلكهم وغرقهم ودمر عليهم .

ثم اخبر تعالى بأنه اعطى داود وسليمان علماً من عنده ، وانها قالا الحمد لله

(١) قد مر في ١١٨/٢ من هذا الكتاب

﴿ ج ٨ م ١١ من التبيان ﴾

الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ، بأن جعلنا أنبياء واختارنا من بين الخلائق . والعلم الذي أوتياه قيل : هو علم الاحكام . وقيل : هو العلم بمنطق الطير ، وكلام البهائم .

قوله تعالى :

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَنَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١٩) أربع آيات بلا خلاف .

اخبار الله تعالى أن سليمان ورث داود . واختلفوا فيما ورث منه ، فقال أصحابنا إنه ورث المال والعلم . وقال مخالفونا : انه ورث العلم ، لقوله (ص) نحن معاشر الانبياء لا نورث .

وحقيقة الميراث هو انتقال تركة الماضي بموته الى الثاني من ذوي قرابته .
وحقيقة ذلك في الاعيان ، فاذا قيل ذلك في العلم كمن مجازاً . وقولهم : العلماء
ورثة الأنبياء ، لما قلنا . والخبر المروي عن النبي (ص) خبر واحد ، لا يجوز
أن يخص به عموم القرآن ولا نسيجه به .

وقال بعضهم : إن داود كان له تسعة عشر ولداً ذكوراً وورثه سليمان
خاصة ، فدل على أنه إنما ورثه العلم والنبوة ، فخير واحد لا يلتفت اليه .
وقوله ﴿ يا أيها الناس علمنا منطق الطير ﴾ أي فهمنا معاني منطقها وما فهم
به بعضها عن بعض ، قال المبرد : والعرب تسمي كل ميين عن نفسه ناطقاً ومتكلماً
قال رؤبة :

لو انني اوتيت علم الحكل علم سليمان كلام النمل (١)
وقال الرماني ﴿ منطق الطير ﴾ صوت يتفاهم به معانيها على صيغة واحدة ،
بخلاف منطق الناس إذ هو صوت يتفاهمون به معانيهم على صيغ مختلفة ، لذلك
لم تفهم عنها مع طول مصاحبتها ، ولم تفهم هي عنها ، لأن افهامها مقصورة على
تلك الامور المخصوصة ، ولما جعل سليمان يفهم عنها ، كان قد علم منطقها .
وقوله ﴿ واوتينا من كل شيء ﴾ لفظ لفظ العموم ، والمراد به الخصوص
لانه لم يؤت اشياء كثيرة . وقيل : المعنى ﴿ واوتينا من كل شيء ﴾ يطلبه
طالب الحاجة اليه وانتفاعه به ، ويحتمل أن يكون المراد ﴿ واوتينا من كل شيء ﴾
علماً وتسخييراً في كل ما يصلح أن يكون معلوماً لنا ومسخرأ ، غير ان مخرجه
مخرج العموم أبلغ وأحسن .

ثم اخبر ان سليمان كان قد قال هذا القول : إن هذا هو الفضل الظاهر . اعترافاً

بنعم الله عليه . ويحتمل أن يكون ذلك اخباراً من الله بأن ما ذكره هو الفضل
الظاهر . وقيل : معناه وأعطينا من كل شيء من الخيرات .

وقوله « وحشر لسليمان جنوده » أي جمع له من كل جهة جنوده « من الجن
والانس والطير » قال محمد بن كعب القرطبي : كان عسكره مئة فرسخ، خمسة وعشرون
من الانس، وخمسة وعشرون من الجن، وخمسة وعشرون من الطير، وخمسة وعشرون
من الوحش ، وقوله « فهم يوزعون » معناه قال ابن عباس : يمنع أولهم على آخرهم
وقال ابن زيد : يساقون . وقال الحسن : معناه يتقدمون . وقول ابن عباس
أقوى ، لانه من قولهم : وزعه من الظلم إذا منعه من ذلك وكفه ، قال النابغة :
على حين عانت المشيب على الصبي وقلت الماء أصح والشيب وازع (١)

ويقولون لا بد للسلطان من وازعة أي يمنع الناس عنه ، وقال الشاعر :
لم يزع الهوى إذ لم توات بلى وسلوت عن طلب العتاة (٢)

وقيل : معنى يوزعون يمنعون ان نزلوا عن مراتبهم بالجمع مرة ، وبالتفريق
أخرى ، حتى يتقدموا في مسيرهم . والايضاع المنع من الذهاب ، فانما منع
أول الجنود على آخرهم ليتلاحقوا ، ولا يتفرقوا ، كما تقدم الجيوش اذا كثرت
بمثل ذلك . وقوله « حتى اتوا على واد النمل » معناه سار سليمان وجنوده حتى
بلغوا واديا فيه النمل و « قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم
سليمان وجنوده وهم لا يشعرون » قيل : كانت معرفة النمل بسليمان على
طريق المعجزة الخارقة للعادة له (ع) على غيره . وهذا غير لازم لانه لا يتمتع ان تعرف
البهيمة هذا الضرب كما تعرف كثيراً مما فيه نفعها وضررها فمن معرفة النملة انها تكسر
الحبة بقطعتين لثلاث تنبت ، الا الكربة فانها تكسر ها باربع قطع ، لانه تنبت إذا

كسرت بقطعتين، فمن هداها الى هذا هو الذي يهديها الى ما يحطمها مما لا يحطمها.
وقيل : جعل لها منطق تفهم به المعاني ، لانه يفهم به المعاني كما تفهم به ، كالفهم
وبكما الفرح قال الشاعر :

عجبت لها أنى تكون غناؤها فصيحاً ولم تغفر بمنطقها (١)

وقيل : انه ظهر من النملة امارات من الرجوع الى بيتها خوفاً من حطم
جنود سليمان إياها ، فاعلم به سليمان انها تحرزت ، فعبر عن ذلك بالقول مجازاً
كما قال الشاعر :

امتلاً الحوض وقال قطني مهلا رويداً قد ملأت بطني (٢)

ولم يكن هناك قول من الحوض . ويقولون : عينك تشهد بسهرك ،
ويريدون بذلك امارات السهر التي تظهر في العين ، وقوله « لا يحطمنكم سليمان » أي
يكسر نكم بأن يطأكم عسكره « وهم لا يشعرون » أي لا يعلمون بوطئكم ، فلما فهم
سليمان هذا « تبسم ضاحكاً من قولها . وقال رب أو زغني » أي الهمني ما يمنع من
ذهاب الشكر غني بما أنعمت به علي وعلى والدي ، ووقفني « ان اعمل صالحاً
ترضاه وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين » كالانبياء ومن يجري مجراهم ممن
يعمل الاعمال الصالحة ولا يرتكب شيئاً من القبائح . وقال ابن زيد : معنى في
عبادك مع عبادك .

قوله تعالى :

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ أَمْ كَانَ مِنْ

الْغَائِبِينَ (٢٠) لَا عَذَابَ لَهُمْ وَلَا عَذَابَ شَدِيداً أَوْ لَا ذَبْحَهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي
بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ
بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ أُمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ
وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا
يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ
فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي
يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا
تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦)

سبع آيات بلاخلاف .

قرأ ابن كثير « أولياؤني سلطان مين » بنونين الأولى مشددة مفتوحة
والثانية مكسورة. الباقون بنون واحدة مشددة مكسورة . وقرأ « مكث » عاصم
وروح - بفتح الكاف - الباقون بضمها ، وهما لغتان . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو
« من سبأ نبأ » غير مصروف . الباقون مصروفاً ، منوناً .

من لم يصرفه فلا نه معرفة ومؤنث ، لأنه قيل : ان (سبأ) حي من احياء اليمن . وقيل :
هو اسم أهم . وقد قال الزجاج : (سبأ) مدينة تعرف بمأرب من اليمن ، وبينها
وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام ، فاذا صرفته - فعلى البلد ، وإذا لم تصرفه ، فعلى
المدينة . وقيل : من صرفه جعله اسماً للمكان ، ومن لم يصرفه جعله اسماً للبقعة ،

قال جرير :

الواردون وتيمق ذوي سبأ قد عض أعتاقهم جلد الجواميس (١)
وقال آخر في ترك صرفه :

من سبأ الحاضرين مأرب اذ يبنون من دون سيده العرما (٢)
وقرأ الكسائي وابو جعفر ورويس « ألا يا اسجدوا » بتخفيف (ألا) .
الباقون « ألا يسجدوا » مشددة . وجه قراءة الكسائي أنه جعل (ألا) للتنبيه
(يا) هؤلاء على حذف المنادي « اسجدوا » على الامر ، قال الأخطل :

ألا يا اسلمي يا هند هند بني بدر وإن كان حيانا عدى آخر الدهر (٣)
أي ألا يا هند . وقرأ ابن مسعود « هلا » وذلك يقوى قراءة من قرأ
بالتخفيف . ومن قرأ بالتشديد فمعناه وزين لهم الشيطان ضلالتهم لئلا يسجدوا
لله ، وشاهد الأول قول الشاعر :

ألا اسلمي يا دارمي على البلى ولا زال منهلا بجر عائك القطر (٤)
وقال العجاج :

يا دار سلمى يا اسلمي ثم اسلمي عن سمسم أو عن يمين سمسم
اخبر الله سبحانه عن سليمان أنه « تفقد الطير ، فقال مالي لا أرى الهدهد »
فيل كان سبب تفقده الهدهد أنه احتاج اليه في سيره ليدله على الماء ، لأنه يقال :
انه يري الماء في بطن الأرض . كما نراه في القارورة - وذكره ابن عباس - وقال
وهب بن منية : كان تفقده إياه لاخلاله بنوبته . وقيل : كان سبب تفقده أن
الطير كانت تظله من الشمس ، فلما أخل الهدهد بمكانه بان بطولع الشمس عليه

(١) من تخرجه انظر ٣٨٨ / ٦ (٢) تفسير القرطبي ١٣ / ١٨١

(٣) تفسير الطبري ١٩ / ٨٤٦ (٤) تفسير القرطبي ١٣ / ١٨٧

وقوله « أم كان من الغائبين » معنى (أم) بل . وقيل : معناه أناخر عصياناً « أم كان من الغائبين » لعذر وحاجة . ثم قال « لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحه أو ليأتيني بسلطان مبین » وهذا وعيد منه للهدهد أنه متى لم يأت سليمان بحجة ظاهرة في تأخره يفعل به أحد ما قاله ، عقوبة له على عصيانه . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك : تعذيب الهدهد نتف ريشه وطرحه في الشمس .

قوله « فكث غير بعيد » أي لبث غير بعيد ، وفي ماضيه لغتان - فتح الكاف وضمها - ثم جاء سليمان ، فقال معتذراً عن تأخره ، وإخلاله بموضعه « أحطت بما لم تحط به » أي علمت ما لم تعلم ، وعلم الإحاطة هو أن يعلمه من جميع جهاته التي يمكن أن يعلم عليها تشبيهاً بالسور المحيط بما فيه . ثم قال له « وجئتك من سبأ » يا سليمان يا نبي الله « نبأ » و (سبأ) مدينة أو قبيلة على ما بيناه .

وروي عن النبي (ص) أن (سبأ) رجل واحد له عشرة من العرب فتيا من ستة وتشاء أربعة ، فالذين تشاء موا : لحم ، وجذام ، وغسان ، وعاملة . والذين تيا منوا : كندة ، والاشعرون ، والازد ، ومذحج ، وحير ، وانمار . ومن الانمار خشم وبجيلة .

وقوله « نبأ يقين » أي بخبر لا شك فيه ، وأنه يحتاج الى معرفته ، لما فيه من الإصلاح لقوم قد تلاعب بهم الشيطان في ذلك ، فعذره عند ذلك سليمان [. وقيل : عذر الهدهد بما أخبره بما يحبه لما فيه من الأجر وإصلاح الملك الذي وهبه الله] (١) ثم شرح الخبر فقال « إني وجدت امرأة تملكهم » وتتصرف فيهم بحيث لا يعترض عليها أحد ومع ذلك « أوتيت من كل شيء » أي

(١) ما بين القوسين كان في المطبوعة متأخراً عن مكانه اسطرأ

أعطيت كل شيء ، لفظه لفظ العموم والمراد به المبالغة في كثرة ما أوتيت من نعم الدنيا وسعة الملك . وقيل : انها أوتيت كل شيء يؤتى الملوك ، والعرش العظيم سرير كريم معمول من ذهب وقوائمه من لؤلؤ وجوهر - في قول ابن عباس - ثم اخبر انه وجدها ﴿ وقومها يسجدون للشمس من دون الله ﴾ وأن الشيطان زين ذاك لهم فهم لا يهتدون الى سبيل الحق والتوحيد واخلص العبادة لله تعالى .

ثم قال الهدد على وجه التوبيخ والتهجين لفعلهم ﴿ ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبأ في السموات والارض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ والخبء هو الخبوء ، وهو ما أحاط به غيره حتى منع من إدراكه . وضع المصدر موضع الصفة خبأته اخبأته خبأ . وما يوجده الله ويخرجه من العدم الى الوجود فهو بهذه المنزلة فخبء السماء الامطار والرياح ، وخبء الارض الاشجار والنبات ﴿ ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ فن قرأ بالتاء جعله للمخاطبين . ومن قرأ بالياء فللغائبين . والخبء والخفاء نظائر ، وقيل الخبء الغيب ، وهو كل ما غاب عن الادراك .

وقوله ﴿ فهم لا يهتدون ﴾ دليل على أن المعارف ليست ضرورة ، لانه اراد لا يهتدون الى دين الله . وقال الجبائي : لم يكن الهدد عارفاً بالله وإنما أخبر بذلك ، كما يخبر مرأهقوا صبياننا ، لأنه لا تكليف عليهم ولا تكيف إلا على الملائكة والجن والانس ، وهذا الذي ذكره خلاف الظاهر ، لأن الاحتجاج الذي حكاه الله عن الهدد احتجاج عارف بالله وبما يجوز عليه وما لا يجوز ، لانه قال ﴿ وجدها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ﴾ ولا يجوز أن يفرق بين الحق في السجود لله وبين الباطل الذي هو السجود للشمس ، وان احدهما حسن ﴿ ج ٨ م ١٢ من التبيان ﴾

والآخر قبيح إلا من كان عارفاً بالله وبما يجوز عليه وبما لا يجوز ، وذلك ينافي حال الصبيان ، ثم نسب تزوين عملهم الى الشيطان ، وهذا قول من عرفه وعرف ما يجوز عليه في عبده ، وأن القبيح لا يجوز عليه ، ثم جكى أنه قال إن الشيطان صدهم عن السبيل : الحق باغوائهم ، وانهم مع هذا الصد لا يبتدون الى الحق من توحيد الله وعبده .

وقال ابو عبد الله البصري في بعض المواضع : إن الهدهد كان رجلاً من البشر اسمه هدهد ، ولم يكن من الطير وهذا غلط لأن الله تعالى قال « وتفقّد » يعني سليمان تفقد « الطير فقال مالي لا أرى الهدهد » فكيف يحمل ذلك على انه اسم رجل ؟ ! إن هذا من بعيد الأقوال . وقال الفراء : من قرأ « ألا » بالتخفيف ، فهو موضع سجود ، ومن ثقل ، فلا ينبغي أن يكون موضع سجود . وقد يجوز السجود على مخالفة تزوين الشيطان . ومعنى « ويعلم ما يخفون وما يعلنون » أي ما يسرون في نفوسهم ، وما يظهرونه . وقرأ الكسائي وحفص « ماتخفون وماتعلنون » بالتاء فيهما على الخطاب . الباقر بالبهاء على الخبر .

ثم اخبر فقال « الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم » الى ههنا تمام حكاية ما قاله الهدهد . و (العرش) سرير الملك الذي عظمه الله ورفع فوق السموات السبع وجعل الملائكة تحف به وترفع أعمال العباد اليه ، وتنشأ البركات من جهته فهو عظيم الشأن ، كما وصفه تعالى .

قوله تعالى :

﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧)
 إِذْ هَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَاَلْقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا

يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْٓءِ إِنِّي أَتْلُوْٓ كِتَابٍ
كَرِيْمٍ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمٍ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠)
أَلَا تَعْلَمُوْا عَلَيَّ وَأُتُوْنِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ خمس آيات بلا خلاف .

لما سمع سليمان ما اعتذر به الهدهد في تأخره بما قصه الله تعالى وذكرناه قال عند ذلك « سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين » في قولك الذي أخبرتنا به فأجازيك بحسب ذلك . وإنا لم يقل : أصدقت أم كذبت ، وقال : أم كنت من الكاذبين ، لأنه أليق في الخطاب ، لأنه قد يكون من الكاذبين بالليل اليهم وقد يكون منهم بالقرابة التي بينه وبينهم . وقد يكون منهم بأن يكذب كما كذبوا ومثل ذلك في الخطاب ولينه قولهم : ليس الأمر على ما تقول ، فهو ألبن من كذبت ، لأنه قد يكون ليس كما تقول من جهة الغلط الذي لا يوصف بالصدق ولا بالكذب .

ثم أمر سليمان الهدهد بأن يذهب بكتابه الذي كتبه له وأشار إليه بقوله « هذا فألقه اليهم ثم تولى عنهم فانظر ماذا يرجعون » وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، وتقديره فألقه اليهم فانظر ماذا يرجعون ، ثم تولا عنهم ، وهذا لا يحتاج إليه ، لأن الكلام صحيح على ما هو عليه من الترتيب . والمعنى فألقه اليهم ثم تولى عنهم قريبا منهم ، فانظر ماذا يرجعون - على ما قال وهب بن منية وغيره - فانهم قالوا معنى « تولى عنهم » استتر عنهم ، وفي الكلام حذف ، لأن تقديره فمضى الهدهد بالكتاب . وألقاه اليهم ، فلما رأته قالت لقومها « يا أيها الملأ » وهم أشرف أصحابها « إني ألقى إلي كتاب كريم » ومعنى كريم أنه حقيق بأن

يوصل الخير العظيم من جهته ، فلما رأت آثار ذلك في كتاب سليمان وصفته بأنه كريم . وقيل : أرادت بـ (كريم) انه من كريم طبيعه الانس والجن والطير . والهاء في قوله « انه من سليمان » كناية عن الكتاب ، والهاء في قوله « وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » كناية عما في الكتاب . وقيل : إنه كان مختوماً ، فلذلك وصفته بأنه كريم .

وقوله « بسم الله الرحمن الرحيم » حكاية ما قالته على المعنى باللغة العربية ، وإن كانت لم تقل هي بهذا اللفظ . والحكاية على ثلاثة اوجه : حكاية على المعنى فقط ، وحكاية على اللفظ فقط من غير أن يعلم معناه . وحكاية على اللفظ والمعنى وهو الأصل في الحكاية التي لا يجوز العدول عنها إلا بقرينة . وموضع « ان لا تعلوا » يجوز أن يكون رفعاً بالبدل من (كتاب) ويحتمل النصب على معنى بأن لا تعلوا ، والعلو على الشيء طلب القهر له بما يكون به بحسب سلطانه « لا تعلوا علي » أي لا تطلبوا تلك الحال ، فانكم لا تنالونها مني ، ﴿ وأتوني مسلمين ﴾ يحتمل وجهين :

احدهما - واتوني مؤمنين بالله ورسوله .

الثاني - مستسلمين لأمرى فيما أَدْعُوكم اليه فاني لا أَدْعُو إلا الى الحق .

قوله تعالى :

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْاْ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً

أَمْراً حَتَّىٰ تَشْهَدُوْا ۚ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةً وَأُولَا بَأْسٍ شَدِيدٍ*

وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا

دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤)
وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾
خمس آيات حجازي وأربع فيما عداه . عدد الحجازيون شديد رأس آية ولم
يعده الباقون .

حكى الله تعالى ان المرأة لما وقفت على كتاب سليمان ، ووصفته بأنه كتاب
كريم ، وعرفتهم ما فيه قانت لأشراف قومها ﴿ افتوني في أمري ﴾ اي أشيروا
علي والفتيا هو الحكم بما هو صواب بدلا من الخطأ ، وهو الحكم بما يعمل عليه
كما يسأل العامي العالم ليعمل على ما يحبيه به ، ثم قالت لهم لم أكن أقطع أمراً
ولا أفصل حكماً دونكم ولا أعمل به ﴿ حتى تشهدون ﴾ وتعابنوه . وهذا ملاطفة
منها لقومها في الاستشارة منهم فيما يعمل عليه ، فقالوا لها في الجواب عن ذلك
انا ﴿ نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ﴾ أي أصحاب قدرة وأصحاب بأس
أي شجاعة شديدة ﴿ والأمر اليك فانظري ماذا تأمرين ﴾ ما الذي تأمرينا به
لنمثله ، وهذا القول منهم فيه عرض القتال عليها إن أرادت ، فقالت لهم في
الجواب ﴿ ان الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ﴾ فكونوا على حذر من ذلك
﴿ وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ قيل بأن يستعبدوهم ، فقال الله تعالى تصديقاً لهذا
القول ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ قال ابن عباس: إنما يفعلون ذلك إذا دخلوها عنوة .
ثم حكى انها قالت ﴿ إني مرسله اليهم بهدية ﴾ فأذنوا للأمر في ذلك لانظر ما
عند القوم فيما يلتمسون من خير أو شر . وقيل إنها ارسلت بجوار وغلان
على زي واحد . فقالت ان ميز بينهم ورد الهدية وأبأ إلا المتابعة ، فهو نبي
وإن قبل الهدية . فانما هو من الملوك . وعندنا ما يرضيه - ذكره ابن عباس -

وقيل : أنها أرسلت إليه بلينة من ذهب فأمر سليمان أن تطرح بين أرجل الدواب وسراقينها استهانة بذلك .

قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أْتَمِدُونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتِيَنِي اللَّهُ خَيْرَ
مِمَّا آتَيْتُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهِدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ (٣٦) إِرْجِعْ إِلَيْهِمْ
فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قَبْلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ
صَاغِرُونَ ﴾ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْأَيْتُكُمْ يَأْتِيَنِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ
يَأْتِيَنِي مُسْلِمِينَ ﴾ (٣٨) قَالَ عَفَرْتُ مِنْ الْجِنَّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ
أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ
عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ
فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ
أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي
غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (٤٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ حمزة ويعقوب « أتمدوني » بنون واحدة مشددة على الادغام وياه ثابتة

في الوصل والوقف . الباقون بنونين .

أخبر الله تعالى إن الهدية التي أفذت بها المرأة، لما وصلت إليه ، قال لموصلها

« أتمدوتني بجال » والامداد الحاق الثاني بالأول ، والثالث بالثاني الى حيث ينتهي . والمعنى لست أرغب في المال الذي تمدونني به ، وإنما أرغب في الايمان الذي دعوتكم اليه والاذعان بالطاعة لله ورسوله . ثم قال « فما آتاني الله خير مما آتاكم » بالتمكين من المال الذي لي أضعافه واضعاف أضعافه الى ما شئت منه . ثم قال لهم « بل أنتم بهديتكم تفرحون » أي ما يهدي إليكم ، لا نكم أهل مفاخرة في الدنيا ومكاثرة . وقيل بهديتكم التي اهديتموها الي تفرحون .

والهدية العطية على جهة الملاطفة من غير مثابة ، تهدى هدية ، لانها تساق الى صاحبها على هداية ، فالاصل الهداية وهي الدلالة على طريق الرشاد . ثم حكى ما قال سليمان لرسولها الذي حمل الهدية « ارجع اليهم » وقل لهم « فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها » أي لا طاقة لهم بهم ولا يقدرول على مقاومتهم « ولنخرجهم منها أذلة وهم صاغرون » فالذليل هو الناقص القوة في نفسه بما لا يمكنه أن يدفع غيره عن نفسه . والصاغر هو الذليل الصغير القدر للهيئ ، يدل على معنى التحقير بشيئين ، ونقيض الذليل العزيز وجمعه أعزة ، وجمع الذليل أذلة .

ثم حكى تعالى أن سليمان قال لا شراف عسكريه وأماثلة جنده « أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين » فاختلفوا في الوقت الذي قال سليمان « أيكم يأتيني بعرشها » فقال قوم قال ذاك حين جاءه الهدهد بالخبر ، وهو الوقت الأول لأنه يبين به صدق الهدهد من كذبه ، ثم كتب الكتاب بعد . في قول ابن عباس - وقال وهب بن منية : إنما قال ذلك بعد مجيء الرسل بالهدية .

واختلفوا في السبب الذي لأجله خص بالطلب فقيل لانه أعجيبته صفته فأحب أن يراه ، وكان من ذهب وقوائمه مكلل من جوهر ، على ما ذكره قتادة . وقال

ابن زيد : لأنه أحب أن يعاينها ويختبر عقلها إذا رأته اثبتته أم تنكره . وقيل : ليرىها قدرة الله في معجزة ، يأتي بها في عرشها .

واختلفوا في معنى « مسلمين » فقال ابن عباس : معناه طائعين مستسلمين وقال ابن جريج : هو من الاسلام الذي هو دين الله الذي أمر به عباده .

ثم حكى تعالى انه أجاب سليمان عفريت من الجن . ومعنى عفريت ما رد قوي داهية ، يقال : عفريت وعفريه ، ويجمع عفاريت وعفاري . قال سيبويه : هو مأخوذ من العفر . والمعنى كل شديد في مذهبه من الدهاء والذكارة والنجابة يقال : رجل عفريه نفريه على وزن (زينة) لواحد الزبانية ،

وقوله « انا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك » أي من مجلسك الذي تقضي فيه - في قول قتادة - « وإني عليه » يعني على الاتيان به في هذه المدة « لقوي أمين » وفي ذلك دلالة على بطلان قول من يقول : القدرة تتبع الفعل لأنه أخبر انه قوي عليه ، ولم يجيء بعد بالعرش . وقال ابن عباس : « أمين » على فرج المرأة . فقل عند ذلك « الذي عنده علم من الكتاب » قال ابن عباس و قتادة : هو رجل من الانس ، كان عنده علم بإسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب . وقيل : يا إلهنا وإله كل شيء يا ذا الجلال والاكرام ، وقال الجبائي : الذي عنده علم من الكتاب سليمان (ع) . وقال ذلك للعفريت ليريه نعمة الله عليه . والمشهور عند المفسرين هو الأول . وقد ذكر أن إسمه اصف بن برخيا . وقيل : هو الخضر . وقال مجاهد : اسمه أسطوع . وقال قتادة : اسمه مليخا . وقوله « انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك » قيل في معناه قولان :

احدهما - قال مجاهد : إن ذلك على وجه المبالغة في السرعة .

الثاني - قال قتادة : معناه قبل أن يرجع اليك ما يراه طرفك . وقيل :

قبل ان يرجع طرفك خاسئاً إذا فتحتها وادمت فتحها . وقيل : قبل أن تفتحها وتطبقها . وقيل : حمل العرش من مأرب الى الشام في مقدار رجوع البصر . وقيل : شقت عنه الارض فظهر . وقيل يجوز أن يكون الله اعده ثم اوجده في الثاني بلا فصل بدعاء الذي عنده علم من الكتاب ، وكان مستجاب الدعوة إذا دعا باسم الله الأعظم . ويكون ذلك معجزة له . وقال قوم : كان ذلك معجزة سليمان . وفي الكلام حذف ، لان تقديره « أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك » فأتاه به « فلما رآه » سليمان « مستقراً عنده قال » معترفاً بنعم الله عليه « هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر » أي أشكر على نعمه أم أجحدها .

ثم قال سليمان « ومن شكر فانما يشكر لنفسه » لأن ثواب ذلك يعود عليه ومن جحد نعم الله فانما يضر نفسه ، لأن عقاب ذلك يحل به « فان الله غني عن شكره وعن كل شيء . » « كريم » في انعامه على خلقه .
وقرأ ابو عمرو وزايد وعاصم - في رواية حفص - ﴿ فما أتاني الله ﴾ - بفتح الياء - في الوصل . الباقيون « فما آتان » بغير ياء في الوصل .

قوله تعالى :

﴿ قَالَ نَكُرُّوا لَهَا عَرَشَهَا نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ لَهَا أَهْكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَذَّابٌ هُوَ وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ

﴿ ج ٨ م ١٣ من التبيان ﴾

تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا
ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا
قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ * قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي
وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَنِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى
ثَمُودَ أَنْ خُذُوا صَاحِبَكُمْ وَاعْبُدُوا اللَّهَ فَأَذَاهُمْ فَريقانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥)

خمس آيات عند الكل ما عدا الكوفي ، فانها في عدده ست آيات عد ﴿قوارير﴾
آية . ولم يعده الباقر .

حكى الله تعالى ان سليمان أمر ان ينكروا لها عرشها ، وهو أن يغيره الى
حال تنكره اذا رآته اراد بذلك اعتبار عقلها على ما قيل . والجحد الانكار : جحد
العلم بصحة الشيء ، وتقيضه الاقرار ، والتنكير تغيير حال الشيء الى حال ينكرها
صاحبها إذا رآها .

وقوله « ننظر اتهدي أم تكون من الذين لا يهتدون » بيان من سليمان
ان الغرض بتنكير عرشها ننظر اتهدي بذلك أم تكون من الذين لا يهتدون
الى طريق الرشده ، فلما جاءت المرأة ، قال لها سليمان « أهكذا عرشك » فقالت
في الجواب كأنه هو ، ولم تقطع عليه ، لما رأت من تغير احواله . فقال سليمان
« واوتينا العلم من قبلها » قال مجاهد : هو من قول سليمان « وكنا مسلمين »
اي مؤمنين بالله مستسلمين له . وقال الجبائي : هو من كلام قوم سليمان (ع) .
ثم اخبر تعالى فقال « وصددها ما كانت تعبد من دون الله » ومنعها

منه وتقديره وصدها سليمان عما كانت تعبد من دون الله ، ومنعها منه « انها كانت من قوم كافرين » بنعم الله عليهم عابدين مع الله غيره . وقال الفراء : يجوز ان يكون المراد صدها عن عبادة ما كانت تعبد من دون الله من الشمس انها كانت من قوم كافرين يعبدون الشمس ، فنشأت على ذلك . وكسر (انها) على الاستئناف ، ولو نصب على معنى ، لأنها جاز .

ثم حكى بأنه قيل لها « ادخلي الصرح » فالصرح هو الموضع المنبسط المنكشف من غير سقف ، ومنه قولهم : صرح بالأمر اذا افصح به ، ولم يكن عنه . والتصريح خلاف التعريض ، وفلان يكذب صراحاً من هذا . « فلما رأته حسبته لجة » يعني ان المرأة لما رأت الصرح ظنته لجة ، واللجة معظم الماء . ومنه لجج البحر خلاف الساحل . ومنه لج في الأمر اذا بالغ بالدخول فيه « وكشفت عن ساقها » ظناً منها انها تريد ان تخوض الماء . وقيل : ان سليمان اجرى الماء تحت الصرح الذي هو كهيئة السطح . وقيل : الصرح صحن الدار يقال صرحة الدار ، وراحة الدار ، وقاعة الدار ، وقارة الدار كله بمعنى صحن الدار . وقيل صرح القصر ، قال الشاعر :

بين نعام بناء الرجال تشبه اعلامهن الصروح (١)

وقال ابو عبيدة : كل بناء من زجاج او صخر او غير ذلك موثق ، فهو صرح ، ومنه « يا هامان ابن لي صرحاً » (٢) وقيل : انه اراد ان يختبر عقلها . وقيل : لأنهم كانوا قالوا : إن ساقها مثل ساق الحمار برجل حمار ، لأنها من ولد بين الانس والجن ، لأنه قيل : ان الجن خافت ان يتزوج بها سليمان ،

(١) تفسير القرطبي ١٣ / ٢٠٩ والطبري ٢٠ / ٤١

(٢) سورة ٤٠ المؤمن آية ٣٦

فقالوا ذلك لينفروا عنها ، فلما امتحن ذلك وجده على خلاف ما قيل فيه .
وقيل : انه كان قيل : ان على ساقها شعراً ، فلما كشفته بان الشعر فساء ذلك
واستشار الجن في ذلك ، فعملوا له النورة والزرنيخ . وقيل : انه اول من
اتخذ له ذلك . وقيل : انما فعل ذلك ليربها عظيم آيات الله لتسلم وتهندي الى
دين الله .

ثم قال لها : « انه صرح بمرد من قوارير » فالمرء المملس ، ومنه الأمرء .
وشجرة مرءاء ملساء لا ورق عليها ، والمارد الخارج عن الحق المملس منه .
فقلت عند ذلك يا رب « اني ظلمت نفسي » بما ارتكب من المعاصي بعبادة
غيرك « واسلمت » الآن « مع سليمان لله رب العالمين » الذي خلق الخلق .
وقيل : انها لما اسلمت تزوجها سليمان (ع) .

ثم اخبر تعالى انه ارسل « الى ثمود اخاهم صالحاً » يعني في النسب ، لانه كان
منهم « ان اعبدوا الله » موضع (ان) نصب ، وتقديره ارسلناه بان اعبدوا
الله ، وحده فلا شريك له « فاذا هم فريقان يختصمون » يعني منهم مؤمن بصالح
ومنهم كافر به ، في قول مجاهد .

قوله تعالى :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا
تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا أَطِيعُوا نَا بِكَ وَبِمَنْ
مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ
فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) ﴾

قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا
مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكِرُوا مَكْرًا وَمَكْرُونا مَكْرًا
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ خمس آيات بلا خلاف .

قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿ لتبيته وأهله ثم لتقولن ﴾ بالتاء فيهما جميعاً .
الباقون بالنون ، وقرأ مجاهد بالياء . وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ مهلك ﴾ بفتح
الميم واللام ، وفي رواية حفص - بفتح الميم وكسر اللام - الباقون - بضم الميم
وفتح اللام - قال أبو علي : من قرأ بضم الميم احتمل امرين :

أحدهما - أراد المصدر من إهلاك أهله أي لم نشهد أهلاكهم .

الثاني - ان يكون المراد لم نشهد موضع إهلاكهم .

وقراءة حفص أيضاً تحتل أمرين :

أحدهما - ما شهدنا موضع هلاكهم .

والثاني - المصدر أي ما شهدنا هلاكهم . وقراءة أبي بكر معناها المصدر .

لما أخبر الله تعالى أنه أرسل صالحاً إلى قومه ، وأنهم كانوا فريقين ، مسلم
وكافر ، يخاصم بعضهم بعضاً ، قال لهم صالح ﴿ يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل
الحسنة ﴾ فلا تستعجلوا طلب التعجيل ، وهو الاتيان به قبل وقته . وكان هؤلاء
الجهال إذا خوفوا بالعقاب قالوا ، على جهة الإنكار لصحته متي هو ؟ وهلا
يأتينا به ؟ ، فقال لهم صالح ﴿ لم تستعجلون ﴾ ذلك ! قال مجاهد . يعني العذاب
قبل الرحمة ، والسيئة - ههنا - المراد بها العقاب سماها سيئة لما فيها من الآلام
ولأنها جزاء على الأفعال السيئة ، لان السيئة هي الخصلة التي تسوء صاحبها حين

يحبذها . والسيئة ايضاً هي الفعل القبيح الذي ، لا يجوز افعالها فعلها ، وتقيضها الحسنة . فقال لهم ﴿ لولا تستغفرون الله ﴾ ومعناه هلا تسألون الله الغفران به بدلا من استعجال العقاب ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ وإنما خرجت (لولا) الى معنى (هلا) لأنها كانت لامتناع الشيء لكون غيره ، كقولك : لولا زيد لا تبتك ، فخرجت الى الانكار ، لامتناع الشيء لفساد سببه فقال ﴿ لولا تستغفرون الله ﴾ منه . ثم اخبر بما اجابوه ، لانهم قالوا ﴿ اطيرنا بك وبمعنى معك ﴾ أي وبمن هو على دينك ، فالتطير التشاؤم ، وهو نسبة الشؤم الى الشيء على ما يأتي به الطير من ناحية اليد اليسرى وهو البارج ، والسائح هو اتيانها من جهة اليد اليمنى . واصل : (اطيرنا) تطيرنا ، دخلت فيه ألف الوصل ، لما سكنت الطاء للدغام ، فقال لهم صالح ﴿ طأركم عند الله ﴾ أي الشيء الذي تحذرونه بالتطير ﴿ عند الله ﴾ لانه القادر على عقابكم بما أنتم عليه من الكفر . والمعنى - في قول ابن عباس - معاقبتكم عند الله . ثم قال لهم : ليس ذلك للتشاؤم والتطير ﴿ بل انتم قوم تفتنون ﴾ فالفتنة - ههنا - قولهم ما زين لهم من الباطل . ثم اخبر تعالى أنه « كان في المدينة » التي بعث الله منها صالحاً « تسعة رهط يفسدون في الأرض » أي يفعلون فيها المعاصي « ولا يصلحون » أي لا يفعلون الطاعات .

وقوله « قالوا تقاسموا بالله » قيل في معناه قولان :

أحدهما - قالوا متقاسمين إلا انه يحذف منه قد .

والآخر - انه أمر ، وليس بفعل ماض . « لنبيته وأهله » حكاية أنهم

قالوا : ﴿ لنبيته ﴾ فمن قرأ بالنون اراد إنا نفعل بهم ذلك ليلا . ومن قرأ بالتاء ، فعلي انه خاطب بعضهم بعضاً بذلك . والمعنى انهم تحالفوا : لنطرقنهم ليلا ،

يقال لكل عمل بالليل تبين ، ومنه قوله ﴿ إذ يبيتون مالا يرضى من القول ﴾ (١)
وانشد ابو عبيدة :

اتوني فلم ارض ما بيتوا وكانوا اتوني بامر نكر
لانكح امهم منذراً وهل ينكح العبد حر (٢)

وقال ابن اسحاق انهم لما اتوا صالحاً لتبنيته ، دفعتهم الملائكة بالحجارة ،
﴿ ثم لنقولون لوليه ﴾ معناه انهم قالوا اذا قال لنا وليه وناصره : من فعل هذا
قلنا له ﴿ ما شهدنا مهلك اهله ﴾ فمن ضم الميم اراد ما راينا اهلاكه . ومن
فتح الميم اراد مكان هلاكهم او اهلاكهم يريد المصدر ﴿ وانا لصادقون ﴾ في
هذا القول .

ثم اخبر تعالى انهم « مكروا » بهذا القول « ومكرنا » نحن ايضاً مكرأ
بأن جازيناهم على مكرهم وجعلنا وباله عليهم فانا اهلكناهم عن آخرهم . وقيل :
ان الله ارسل عليهم صخرة اهلكتهم . ويحتمل أن يكون المعنى في « مكرنا » انا
انجيناه المؤمنين بالمكر بالكفار بكل ما يقدر عليهم من الاضرار بهم ، والجائهم
الى الايمان . وانما نسبه الى نفسه لما كان بأمره .

قوله تعالى :

﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ اَنَا دَمَّرْنَا هُمْ وَقَوْمَهُمْ
أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا اِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْ نَّجِيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)

وَلَوْطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤)
 أَتُنْكُمُ اللَّتَاءُتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
 تَجْهَلُونَ ﴿ (٥٥) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ أهل الكوفة ويعقوب « أنا دمرناهم » بفتح الالف . الباقون بكسرها
 ومن فتح احتمل وجهين :

احدهما - النصب على البدل من (كيف) و (كيف) نصب بـ (انظر) .
 والثاني - ان يكون (كيف) في موضع الحال و (دمرنا) خبر (كان)
 وتلخيصه ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أي عاقبة امرهم التدمير . وقيل : هو
 نصب بتقدير بأننا ، فلما حذف الباء نصب ، وقال الكسائي : هو في موضع الجر .
 ويحتمل الرفع أيضاً على البدل من (عاقبة) . ويحتمل أيضاً على الجواب ، كأنه قيل :
 ما كان عاقبة أمرهم ؟ فقيل : تدميرنا لهم .

يقول الله تعالى لنبيه (ص) « انظر » يا محمد وفكر « كيف كان عاقبة مكرهم ،
 أي هؤلاء الكفار الذين كفروا ودمرناهم . والعاقبة الحال التي يؤدي إليها البادي .
 تقول : اعقبني هذا الدواء صحة . وأعقب هذا الطعام الردي . مرضاً ، وكذلك
 المعاصي تعقب النار . وقيل : ان بيوتهم هذه المذكورة بوادي القرى موضع بين
 الشام والمدينة . والمكر الأخذ بالحيلة للايقاع في بلية ، فلما مكر أولئك الكفار
 بصالح (ع) ليقتلوه ، ومن آمن ولم يتم مكرهم ، وأدى مكرهم الى هلاكهم وتدميرهم
 والتدمير التقطيع بالعذاب ، فدمر الله قوم صالح بأن قطعهم بعذاب الاستئصال
 في الدنيا قبل الآخرة ، فلم يبق لهم باقية .

ثم اخبر تعالى ان بيوت أولئك الكفار « خاوية » أي خالية فارغسة وكان رسهم أن يكونوا فيها ويأوون اليها ، فلما أهلكهم الله ، صاروا عبرة لمن نظر اليها واعتبر بها ، وقيل هذه البيوت المذكورة بوادي القرى .

وقوله « وانجيننا الذين آمنوا وكانوا يتقون » الخبر منه تعطى انه انجى وخلص المؤمنين من قوم صالح لانهم كانوا يتقون معاصي الله ، خوفا من عقابه ، فالاتقاء الامتناع من البلاء بما يرد عن صاحبه ان ينزل به . والتقى هو العامل بما يتقى عنه العقب . وقيل : ان الله تعالى دمر التسعة الرهط الذين يفسدون في الارض وقومهم ،

وقوله « ولوطاً إذ قال لقومه » يحتمل امرين :

احدهما - نصب (لوطاً) بتقدير وأرسلنا لوطاً . الثاني - واذا ذكر لوطاً حين قال لقومه منكراً عليهم افعالهم « اتأتون الفاحشة » يعني الخصلة القبيحة الشنيعة ، الظاهرة القبح ، وهي اتيانهم الذكران في أدبارهم « وانتم تبصرون » أي تعلمون أنها فاحشة . وقيل معناه : « وانتم تبصرون » أي يرى بعضكم من بعض ان ذلك عتوا وتمرداً . ثم بين الفاحشة التي كانوا يفعلونها بقوله « أنتم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء » التي خلقهن الله لكم . ثم اخبر تعالى عن لوط انه قال لهم « بل أنتم قوم تجهلون » أي تفعلون أفعال الجهال لجهلكم بمواقع نعم الله سبحانه وتعالى عليكم .

قوله تعالى :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ

(ج ٨ م ٨٤ من التبيان)

قَرَيْتَكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ
 قَدَّرْنَا هَا مِنْ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ
 الْمُنْذِرِينَ (٥٨) قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى
 اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ
 لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ
 أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾

خمس آيات بلاخلاف .

نصب (جواب قومه) بأنه خبر (كان) واسمها (أن قالوا) ولا يجوز
 وقع جواب - ههنا - لأن ما بعد الايجاب وما قبلها نفي ، والنفي أحق بالخبر
 من الايجاب ، ومثله « ما كان حجبتهم إلا قالوا » (١) .

اخبار الله تعالى عن قوم لوط حين قال لهم لوط ما تقدم ذكره ، منكرآ
 عليهم انه لم يكن لهم جواب عن ذلك ، بل عدلوا إلى أن قالوا ، بعضهم لبعض
 اخرجوا لوطاً ومن تبعه « من قريتكم » فانهم « أناس يتطهرون » أي يتطهرون
 عن عملكم في إتيان الذكران . من العالمين إذ تأمروهم ، ويتنزهون عن ذلك ، فلا
 تجاوروهم وهذه صفتهم - وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة - فأخبر الله
 تعالى أنه أهلك هؤلاء القوم بأجمعهم وأنجى لوطاً وأهله الذين آمنوا به من

ذلك الهلاك واستثنى من جملة أهله امرأته ، واخبر انه « قدرناها من الغابرين » أي جعلها من الغابرين لأن جرمها على مقدار جرمهم ، فلما كان تقديرها كتقديرهم في الاشرأك بالله جرت مجراهم في انزال العذاب بهم . وقيل : « قدرناها » أي بما كتبنا إنها من الغابرين ، واخبر تعالى انه أمطر عليهم مطراً . قال الحسن : أمطرت الحجارة على من خرج من المدينة ، وخسف المدينة باهلها ، فهم يهوون الى يوم القيامة « فساء مطر المندرين » وهم الذين أبلغهم لوط النذارة ، وأعلمهم بموضع المخافة ليتقوها ، فخالفوا ذلك . ونقيض النذارة البشارة ، وهي الاعلام بموضع الأمن ليجتبي ، والنذير البشير ينذر بالنار ويبشر بالجنة .

ثم قال لنبيه محمد (ص) قل يا محمد « الحمد لله » شكراً على نعمه بأن وفقنا للايمان « وسلام على عباده الذين اصطفى » يعني اجتباهم ، الله واختارهم يقال : صفا يصفو صفاء ، وأصفاه بكذا إصفاء ، واصطفاه اصطفاً ، ويصفي تصفياً وصفاء وتصفية ، وصافاه مصافاة .

وقوله « أما يشركون » من قرأ - بالتاء - وجهه الى انه خطاب لهم . ومن قرأ - بالياء - فعلى الخبر . وقوله « آله خير أما » معناه خير لنا منا لأنفسا ، ولفظ أفعل لا يدخل إلا بين شيئين يشتركان في حكم ويفضل أحدهما على صاحبه ، وما يعبدون من دون الله لاخير فيه . قال ابو علي : يجوز أن يقع ذلك في الخير الذي لا شرف فيه ، والشر الذي لاخير فيه . وإن كان يتوهم بعض الجهال الأمر على خلاف ما هو به ، فتقول : هذا الخير خير من الشر . وانكر على من خالف هذا . واجاز قوم من اهل اللغة ذلك على ما مضى القول فيه في غير موضع . ثم قال لهم : أمني الذي « خلق السموات والارض » بأن انشأها واختراعها

« وَاَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » يعني غيثاً ومطراً « فَأَنْبَتْنَا بِهِ » بذلك الماء « حَدَائِقَ » وهي جمع حديقة ، وهي البستان إذا كان عليه حائط يحوطه « ذات بهجة » انما وصف (الحدائق) بلفظ الواحد في قوله « ذات » لان معناه جماعة ذات بهجة . وقيل : الحديقة البستان الذي فيه النخل ، و (البهجة) منظر حسن ابتهج به إذا سر .

ثم قال « مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرَهَا » أي لم تكونوا تقدر على انبات شجر الحديقة ، لان الله تعالى هو القادر عليه لا غيره . ثم قال منكرآ عليهم « أَلَيْسَ اللَّهُ بِقَادِرٍ عَلَى ذَلِكَ » . ثم قال « بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ » بالله غيره لجهلهم . وقيل : يعدلون عن الحق . ومعنى الآية التنبيه على أن من قدر على انبات الحدائق ذات الشجر واخراج الشجر باكرام الثمار ، يجب اخلاص العبادة له ، وإن من عدل الى الاشرار به كافر بهذه النعمة الخفية .

قوله تعالى :

﴿ أَمِنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرُ هِمًّا لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمْ مِنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِقَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمْ مِنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمْ مِنْ ﴾

يَبْدُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَهٌ
 مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُلْ لَا يَعْلَمُ
 مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ
 يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ خمس آيات بلاخلاف .

قرأ أهل البصرة وعاصم « عما يشركون » بالياء . الباقون بالتاء . وقرأ
 أبو عمرو وهشام وروح « قليلا ما يذكرون » بالياء . الباقون بالتاء . من قرأ
 بالياء في الموضعين جملة للمخاطبين ومن قرأ بالتاء فإلى الغائبين .

يقول الله تعالى منيباً على مواقع نعمه على خلقه، ممتناً بها عليهم بأن قال « أمن »
 الذي « جعل الأرض قراراً » بأن أسكنها للاستقرار عليها ، وامكن التصرف
 عليها ، فمن جعلها كذلك لمصالح عباده بها على ما يحتاجون إليه منها عالم حكيم ،
 وهو أولى بالعبادة من الأصنام « وجعل خلالها أنهاراً » يعني خلال الأرض وهي
 المسالك في نواحيها « أنهاراً » جمع نهر وهي المجرى الواسع من مجاري الماء ،
 واصله الاتساع ، فمنه النهار لاتساع ضيائه ، ومنه انهار الدم إذا جرى ، كالنهر
 « وجعل لها رواسي » يعني الجبال الثابتة ، رست ترسو رسواً إذا ثبتت فلم
 تهرح من مكانها كالسفينة وغيرها ، ومنه المراسي .

وقوله « وجعل بين البحرين حاجزاً » فالحاجز هو المانع بين الشيئين ، أن
 يختلط أحدهما بالآخر ، وقد يكون ذلك بكف كل واحد منهما عن صاحبه . وفي
 ذلك دلالة على امكان كف النار عن الحطب ، حتى لا تحرقه ولا تسخنه كما كف
 الماء المالح عن الاختلاط بالعذب . ثم قال « أله مع الله » يقدر على ذلك ،

تبكيتم لهم على الاشراك به . ثم قال « بل أكثرهم لا يعلمون » حقيقة ما ذكرناه لعدولهم عن النظر في الدلالة المؤدية اليه . وقيل « بل أكثرهم لا يعلمون » ما لهم وعليهم في العبادة إن اخلصوها ، او اشركوا فيها .

ثم قال « أم من يجيب المضطر إذا دعاه » فاجابة دعاء المضطر هو فعل ما دعا به ، لأجل طلبه ، وذلك لا يكون إلا من قادر عليه مختار له ، لانه يقع على ما دعا به الداعي « ويكشف السوء » يعني الآلام يصرفها عنكم « ويجعلكم خلفاء الارض » أي يجعل أهل كل عصر يخلفون العصر الاول « أإله مع الله » يقدر على ذلك ثم قال « قليلاً ما تذكرون » أي تفكرون قليلاً بما قلناه ونبهنا عليه . ثم قال « أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر » بما نصب لكم من الدلالات التي تستدلون بها ، من الكواكب وغيرها ﴿ ومن ﴾ الذي ﴿ يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴾ يعني بين يدي المطر والغيث .

ومن قرأ بالنون أراد ملقحات . وقيل : معناه منتشرة . ومن قرأ بالباء أراد مبشرات بالمطر .

ثم نزه نفسه عن الاشراك به واتخاذ إله معه فقال ﴿ تعالى عما يشركون ﴾ ثم قال ﴿ أم من يبدؤ الخلق ثم يعيده ﴾ يبدؤهم بأن يخلقهم ابتداءً ، ثم يعيدهم بعد أن يميتهم ، ويعيدهم الى ما كانوا عليه ﴿ ومن يرزقكم من السماء والارض ﴾ من السماء بالغيث والمطر ، ومن الارض بالنبات وانواع الثمار ﴿ أإله مع الله ﴾ يقدر على ذلك ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ وحثكم ﴿ ان كنتم صادقين ﴾ في قولكم محققين في الاشراك معه ، فإذا لم تقدروا على اقامة البرهان على ذلك ، فاعلموا انه لا إله معه ، ولا يستحق العبادة سواء ، لان كل ما يكون حقاً من أمر الدين لا بد أن يكون عليه دلالة وبرهان .

ثم قال لنبيه (ص) ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ لا يعلم من في السموات والارض الغيب إلا الله ﴾ يعني الغائب عن الخلق لا يعلم به إلا الله تعالى أو من أعلمه الله ، ثم أخبر انهم لا يشعرون متى يبعثون ويحشرون يوم القيامة .

قوله تعالى:

﴿ بَلْ أَدَارِكْ عَلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾ (٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (٧٠) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ ابن كثير ، وأهل البصرة بل « أدراك » بقطع الهمزة، يقال : تدارك زيد أمره وأدراك بمعنى واحد . ومثله « إنا لمدركون » (١) وقد شدد الاعمرج وروى السموني - بكسر اللام - ووصل الهمزة وتشديد الدال من غير ألف . الباقيون « بل ادراك » بمعنى تتابع علمهم وتلاحق حتى كمل . والمعنى بل ادراك في الآخرة أي حين لم ينفعهم اليقين مع شكهم في الدنيا - على ما ذكره ابن عباس - وقيل : انه قرأ « بلى ادراك » وادراك العلم لحاق الحال التي يظهر فيها

معلومه ، ففي الآخرة يظهر الحق بما يرى من الأمور التي من شأنها أن يقع عندها علم بمقتضى ما يحدث من عظم الأمور وقيل : معنى « بل » هنا (هل) فكأنه قال : هل ادراك علمهم ، ومعناه انهم لا يعلمون الآخرة « بل هم في شك منها » ومن شدد الدال قال أصله تدارك فأدغموا التاء في الدال وقلبوا ألف الوصل . وقرأ اهل المدينة « إذا » على الخبر . الباقرن بهمزتين على الاستفهام ، ويحقق الهمزتين ابن عامر وأهل الكوفة وروح ، إلا أن هشاماً يفصل بينهما بالف ، وابن كثير وابو عمرو ورويس يخففون الأولى ويلينون الثانية . ويفصل بينهما بالف أبو عمرو ، واما « اثنا » فقراءته على الخبر ، وزاد فيه نوناً ابن عامر والكسائي . الباقرن بهمزتين وخففهما عاصم وحمزة وخلف وروح . الباقرن يخففون الأولى ويلينون الثانية ، ويفصل بينهما بالف أهل المدينة إلا ورشاً ، وابو عمرو . وقد مضى تعليل هذه القراءات فيما مضى .

لما اخبر الله تعالى عن الكفار أنهم لا يشعرون متى يحشرون يوم القيامة وانهم ساءخرون في ذلك ، أخبر انهم يعلمون حقيقة ذلك يوم القيامة حين يبعثهم الله ، وإنه لا ينفعهم علمهم في ذلك الوقت مع شكهم في دار الدنيا . وأخبر انهم في شك من البعث في دار الدنيا ، وأنهم عمون عن معرفة حقيقته . وهو جمع (عمى) وشبه جهلهم بذلك بالعمى ، لان كل واحد منها يمنع بوجوده من ادراك الشيء على ما هو به ، لأن الجهل مضاد العلم ، والعمى منافي للرؤية .

ثم حكى عن الكفار انهم قالوا متعجبين من البعث والنشور « أئذا كنا تراباً » ويكون « آباؤنا » تراباً ايضاً « ائنا نخرجون » من قبورنا ومبعوثون ، يقولون ذلك مستهزئين منكرين . ثم اخبر انهم يحلفون ويقولون « لقد وعدنا هذا » البعث « نحن » فيما مضى وكذلك وعده « آباؤنا » ولم نعرف حقيقة

ذلك ، ثم حكى انهم يقولون ليس « هذا إلا اساطير الاولين » وانما اشتبه عليهم النشأة الثانية لطول المدة في النشأة الاولى على مجرى العادة ، ولو نظروا في أن من أجرى هذه العادة حكيم ، وانه قادر على نقض العادة ، كما قدر على اجرائها لزالَت شبهتهم .

ثم امر نبيه (ص) ان يقول لهم « سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين » لأنهم يرون آثار آبائهم وكيف أهلكهم الله وخرب ديارهم كما د و تمود وغيرهم ، فيعلمون عند ذلك صحة ما قلناه ، ولا يأمنوا أن يحل بهم مثل ما حل بهم .

ثم نهى نبيه (ص) ان يحزن عليهم ويتأسف على تركهم الايمان وأن لا يكون في ضيق نفسه « مما يعمرون » ، فان وبال مكرهم عائد عليهم .

قوله تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٧١) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمِمَّا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿ (٧٥) خمس آيات بلا خلاف .

حكى الله تعالى عن هؤلاء الكفار أنهم « يقولون متى هذا الوعد » الذي
توعدنا به « ان كنتم صادقين » في اخباركم بذلك في البعث والنشور ، والوعد
من الحكيم على ضربين :
احدهما - ان يكون مقيداً بوقت ، فاذا جاء ذلك الوقت فلا بد أن يفعل
فيه ما وعد به .

والثاني - ان يكون مطلقاً غير موقت إلا انه لا بد أن يكون معلوماً لعلام
الغيوب الوقت الذي يفعل فيه الموعود به ، فاذا كان ذلك الوقت معلقاً بزمان
تعين عليه الفعل في ذلك الوقت ، فلا بد للموعود به من وقت ، وإن لم يذكر
مع الوعد .

ثم امر نبيه (ص) ان يقول لهم « عسى ان يكون ردف لكم بعض الذي
تستعجلون » فعسى من الله واجبة ، والمعنى ان الذي وعدكم الله به لا بد أن
يردفكم ، والردف الكائن بعد الأول قريباً منه . والفرق بينه وبين التابع أن في
التابع معنى الطلب لموافقة الأول ، وترادف إذا تلاحق ، تلاحقاً مرادفاً ، واردفه
اردافاً . ومعنى « ردف لكم » قرب منكم ودنا - في قول ابن عباس - وقيل :
تبع لكم . والاستعجال طلب الأمر قبل وقته ، فهؤلاء الجهال طلبوا العذاب قبل
وقته تكديماً به . وقد أقام الله عليهم الحجة فيه . و (ردف) من الافعال التي
تتعدى بحرف وبغير حرف ، كما قال الشاعر :

فقلت لها الحاجات تطرحن بالفتى وهم يعناني معنأ ركائبه (١)

وقيل : ان الباء انما دخلت للتعدية . وقيل : انما دخلت لما كان معنى تطرحن
ترمين ، وكذلك لما كان معنى « ردف لكم » دنا ، قال « لكم » قال المبرد : معناه

ردفكم واللام زائدة . وقيل « بعض الذي تستعجلون » يوم بدر . وقيل : عذاب القبر .

ثم قال « وإن ربك لدو فضل على الناس » والفضل الزيادة على ما للعبد بما يوجبه الشكر ، فالعدل حق العبد . والفضل فيه واقع من الله لا محالة إلا أنه على ما يصح وتقتضيه الحكمة .

ثم اخبر ان « أكثر الناس لا يشكرون » الله على نعمه بل يكفرونه . ثم قال لنبيه (ص) « وإن ربك » يا محمد « ليعلم ما تكن صدورهم » أي ما تخفيه صدورهم ، يقال : كنت الشيء في نفسي ، وأكنته إذا سترته في نفسك ، فهو مكن ومكنون لغتان . قال الرماني : الاكنا ان جعل الشيء بحيث لا يلحقه أذى لما نفع يصد عنه « وما يعلنون » أي يعلم ما يظهرونه ايضاً . ثم قال « وما من غائبة في السماء والارض » أي ليس شيء يغيب علمه عن أهل السماء والارض « إلا » ويبينها الله « في كتاب مبين » وهو الكتاب المحفوظ . وقال الحسن : الغائبة القيامة . وقال النقاش : ما غاب عنهم من عذاب السماء والارض . وقيل : هو ما أخفاه الانسان عن قلبه وعينه . وقال البلخي : معنى « في كتاب مبين » أي هو محفوظ لا ينساه كما يقول القائل : أفعالك عندي مكنونة أي محفوظة .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ

رَبِّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى
وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) خمس

آيات بلاخلاف .

قرأ ابن كثير « ولا يسمع » بياء مفتوحة وفتح الميم « الصم » بالرفع .
ومثله في الروم . الباقيون « تسمع » بالتاء وكسر الميم « الصم » بالنصب ، فوجه
قراءة ابن كثير انه أضاف الفعل الى الصم ، فلذلك رفعه . ووجه قراءة الباقيين
أنهم أضافوا الفعل الى النبي (ص) وجعلوا الصم مفعولاً ثانياً .

أخبر الله تعالى أن هذا القرآن الذي أنزله على نبيه محمد (ص) « يقص على
بني اسرائيل أكثر » الاشياء التي اختلفوا فيها الكفار . والقصص كلام يتلو
بعضه بعضاً فيما ينبي . عن المعنى ، ومن اجاب غيره عما سأل لم يقل له انه يقص
لانه اقتصر على مقدار ما يقتضيه السؤال . والاختلاف ذهاب كل واحد الى
خلاف ما ذهب اليه صاحبه . والاختلاف ايضاً امتناع احد الشيئين أن يسد
مسد صاحبه فيما يرجع الى ذاته . واختلاف بني اسرائيل نحو اختلافهم في المسيح
حتى قالت اليهود فيه ما قالت ، وكذبت بنبوته . وقالت النصارى ما قالت
من نبوته ، ووجوب إلهيته ، وكتلاف اليهود في نسخ الشريعة ، فأجازهم قوم
في غير التوراة وأباه آخرون ، فلم يجيزوا النسخ أصلاً ، واعتقدوا أنه بدأ .
وكتلافهم في المعجز ، فقال بعضهم : لا يكون إلا بما لا يدخل تحت مقدور
العباد . وقال آخرون : قد يكون إلا أنه ما يعلم أنه لا يمكن العباد الاتيان به ،

وكاختلافهم في صفة البشر به في التوراة ، فقال بعضهم : هو يوشع بن نون . وقال آخرون : بل هو منتظر لم يأت بعد . وكل ذلك قد دل القرآن على الحق فيه . وقيل : قد بين القرآن اختلافهم في من سلف من الأنبياء . وقيل : ان بني اسرائيل اختلفوا حتى لعن بعضهم بعضاً كالاسماعينية والعنانية والسامرة .

ثم وصف تعالى القرآن بـ « انه لهدى ورحمة للمؤمنين » معناه انه يبان للحق فيما وقع الاختلاف فيه من بني اسرائيل وغيرهم إذا رجعوا اليه علموا مفهومه ، وانه من عند حكيم ، لا يقول إلا بالحق ، فالهدى الدلالة على طريق الحق الذي من سلكه اداه الى الفوز بالنعيم في جنة الخلد ، فالقرآن هدى من هذا الوجه ، ورحمة للمؤمنين في تأديته الى ما فيه من مرضات الله تعالى .

ثم خاطب نبيه (ص) فقال ﴿ ان ربك ﴾ يا محمد ﴿ يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم ﴾ أي العزيز في انتقامه من المبطلين العليم بالحق المبين منهم من المبطل . وقيل : العليم بصحة ما يقضي به العزيز بما لا يمكن رد قضائه ، فهو يقضي بين المختلفين بما لا يمكن أن يرد ولا يلتبس بغير الحق .

وفي الآية تسليية للمحققين الذين خولفوا في أمر الدين ، لان أمرهم يؤول الى ان يحكم بينهم رب العالمين بما لا يمكن دفعه ولا تلييسه .

ثم خاطب بينه (ص) فقال ﴿ فتوكل على الله ﴾ يا محمد ﴿ انك على الحق المبين ﴾ الظاهر المبين في ما تدعو اليه . ثم شبه الكفار بالموتى الذين لا يسمعون ما يقال لهم ، وبالصم الذين لا يدركون دعاء من يدعوهم ، من حيث انهم لم ينتفعوا بدعائه ولم يصيروا الى ما دعاهم اليه ، فقال ﴿ انك ﴾ يا محمد ﴿ لا تسمع الموتى ﴾ لأن ذلك محال ﴿ ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولو مدبرين ﴾ أي اعرضوا عن دعائك ولم يلتفتوا اليه ولم يفكروا في ما تدعوهم اليه ، فهؤلاء الكفار بترك الفكر في ما يدعوهم

إليه النبي (ص) بمنزلة الموقى الذين لا يسمعون ، وبمنزلة الصم الذين لا يدركون الأصوات .

قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعَمِيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٨١) وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ (٨٥) خمس آيات بلاخلاف

قرأ حمزة « تهدي » بالتاء مفتوحة وبسكون الهاء « العمي » بنصب الياء . ويقف على « تهدي » بالياء . الباقيون « بهاد » بباء مكسورة وبالف بعد الهاء ، وخفض الياء من « العمي » على الإضافة في الموضعين . فقراءة حمزة تفيد الفعل المضارع . وقراءة الباقيين اسم الفاعل .

يقول الله تعالى لنبيه لست يا محمد تهدي العمي عن ضلالتهم . والهادي هو الذي يدعو غيره إلى الحق ويرشده إليه . وقد يدعو بالنطق بأن يقول : هو صواب وقد يدعو إليه بأن يبين أنه صواب ، فإنه ينبغي أن يعمل عليه ويعتقد صحته .

والضلالة الذهاب عن طريق الصواب وهو الهلاك بالذهاب عنه . وإنما شبه الله تعالى الكفار بأنهم عمي ، لأنهم من حيث لم يهتدوا الى الحق ، ولم يصيروا اليه فكأنهم عمي ، وإنما نفى أن يهديهم الى الحق بأن يحملهم عليه أو يجبرهم عليه ، ولم ينتف أن يكون هادياً لهم بالدعاء اليه ، وبين لهم الحق فيه .

وقوله « ان تسمع إلا من يؤمن بآياتنا » معناه لا تسمع إلا من يطلب الحق بالنظر في آياتنا ولا يلبث أن يسلم ، لأن الدلائل تظهر له ، وعقله يخاضع له حتى يقول بالحق ويعتقده . وإنما قال انه يسمع المؤمنين ، من حيث أنهم الذين ينتفعون به ويسلمون له .

وقوله « وإذا وقع القول عليهم » قال قتادة : معناه وجب الغضب عليهم . وقال مجاهد : حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون . وقيل : معناه إذا وقع القول عليهم بأنهم قد صاروا الى منزلة من لا يفلح أحد منهم ولا أحد بسببهم ، أخذوا حينئذ بمنادي العقاب باظهار البراءة منهم . وقال ابن عمر ، وعطية : إذا لم يأمر الناس بالمعروف وينهوا عن المنكر تخرج الدابة . وقيل : انها تخرج من بين الصفا والمروة . وروى محمد بن كعب القرطبي عن علي (عليه السلام) انه سئل عن الدابة ، فقال : (اما والله ما لها ذنب وإن لها حية) وفي هذا القول منه (ع) إشارة الى انه من ابن آدم . وقال ابن عباس : دابة من دواب الله لها رغب وریش لها أربعة قوائم . وقال ابن عمر : انها تخرج حتى يبلغ رأسها النسيم ، فيراها جميع الخلق . ومعنى « تكلمهم » قيل فيه قولان :

احدهما - تكلمهم بما يسوؤهم من انهم صأرون الى النار ، من الكلام بلسان الآدميين الذي يفهمونه ويعرفون معناه ، فتخاطب واحداً واحداً ، فتقول له : يا مؤمن يا كافر . وقيل « تكلمهم » بأن الناس كانوا باياتنا لا يوقنون »

أي بهذا القول . ذكره ابن مسعود .

الثاني - تكلمهم من الكلام . وقيل إنها تكتب على جبين الكافر أنه كافر وعلى جبين المؤمن أنه مؤمن . وروي ذلك عن النبي (ص) .
ثم قال « ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون » واستدل به قوم على صحة الرجعة في الدنيا ، لأنه قال : من كل أمة ، وهي للتبويض فدل على ان هناك يوماً يحشر فيه قوم دون قوم ، لأن يوم القيامة يحشر فيه الناس عامة ، كما قال « وحشرناهم فلم تغادر منهم احداً » (١) . ومن حمل الآية على أن المراد باليوم يوم القيامة قال : إن (من) زائدة ، والتقدير ويوم نحشر كل أمة فوجاً أي فوجاً فوجاً من الذين كذبوا بآيات الله ولقاء الآخرة « فهم يوزعون » أي يجمعون . وقال ابن عباس : معناه يدفعون . وقيل : يساقون . وقيل : يوقف أولهم على آخرهم .

وقوله « ووقع القول عليهم بما ظلموا » أي صاروا الى منزلة من لا يفلح احد منهم ، ولا احد بسببهم ، « فهم » في ذلك الوقت « لا ينطقون » بكلام ينتفعون به . ويجوز أن يكون المراد « لا ينطقون » أصلاً لعظم ما يروونه ويشاهدونه من أهوال القيامة .

وقرأ اهل الكوفة « تكلمهم أن الناس » بفتح الالف ، لان ابن مسعود قرأ « بأن الناس » فلما سقطت الباء نصبوا (أن) . الباقيون بالكسر على الاستثناف . وروي عن ابن عباس « تكلمهم » مخففاً أي تسمهم وتجرحهم تقول العرب كلمت زيداً إذا جرحته . وقد يقال ايضاً بالتشديد من الجراح ، ولا يقال في الكلام إلا بالتشديد .

قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ
 فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ
 أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ
 السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا
 تَفْعَلُونَ (٨٨) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ
 آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ
 يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ
 الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ
 الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي
 لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ
 لِلَّهِ سِيرُ يَكُمُ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٣)

ثمان آيات بلاخلاف .

قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص عن عاصم « وكل أتوه » مقصورة على وزن (فلوه) الباقون « آتوه » ممدودة ومضمومة التاء على وزن ﴿ فلوه ﴾ وقرأ أهل الكوفة ﴿ من فزع ﴾ منونا ﴿ يومئذ ﴾ بفتح الميم . الباقون بغير تنوين على الإضافة إلاورشافانه نصب الميم من ﴿ يومئذ ﴾ مع الإضافة . ووجه هذه القراءة انه جعل (يوم) مع (إذ) كلاسـم الواحد ، لان إضافة (يوم) الى (إذ) ليست محضة ، لان الحروف لا يضاف اليها ، ولا الى الافعال ، وانما أجازوا في اسماء الزمان الإضافة الى الحروف والى الافعال نحو : هذا يوم ينفع ، لما خص وكثر ، وقرأ أهل البصرة وابن كثير وابو بكر الإيحيى والداجوني عن ابن ذكوان ﴿ يفعلون ﴾ بالياء ، الباقون بالتاء . وقرأ أهل المدينة وابن عامر ويعقوب ﴿ عما تعملون ﴾ بالتاء . الباقون بالياء .

يقول الله تعالى منها خلقه على وجه الاعتبار والتنبيه على النظر بالفكر يجعله تعالى الليل ليسكن فيه خلقه ، من الحيوان من الحركات ، لأن من جعل الشيء لما يصلح له من الانتفاع ، فأنما ذلك باختياره دون الطبع ، وما يجري مجراه بما ليس مختار ، ففي ذلك بطلان قول كل مخالف فيه . وقوله ﴿ والنهار مبصر ﴾ يحتمل أمرين :

أحدهما - أنه جعل النهار ذا إِبصار ، كما قال ﴿ عيشة راضية ﴾ (١) أي ذات رضا ، وكما قال المناطقة :

كليني لهم يا أمية فاصب (٢)

أي لهم ذي نصب .

(١) سورة ٦٩ الحاقة آية ٢١ وسورة ١٠١ الزلزال آية ٢

(٢) من تخرجه في ٩/٩٥ ، ٣٢٩

الثاني - لأنه يريك الاشياء كما يراها من يبصرها بالنور الذي تجلى عنها
فثقل هو كقول جرير :

لقد لمتنا يأأم غيلان في السمرى ونمت وما ليل المطي بنائم (١)
امي بالذي ينام فيه . ثم قال ﴿ ان في ذلك لآيات ﴾ يعني دلالات
واضعات لقوم يصدقون بالله وبتوحيده . وقوله ﴿ ويوم ينفخ في الصور ﴾
منصوب بتقدير : واذكر ﴿ يوم ينفخ في الصور ﴾ أي وفاءك يوم ينفخ في
الصور ، يعني قوله ﴿ وقع القول عليهم بما ظلموا يوم ينفخ في الصور ﴾
ويجوز أن يكون على حذف الجواب ، وتقديره وثكون البشارة الثانية يوم
ينفخ في الصور . وقيل : تقديره ويوم ينفخ في الصور يفرع ، لان المعنى إذا
نفخ في الصور فزع إلا أنه لما جاء الثاني بالفاء اغنى عن (يفعل) لأنها ترتب .
وقال الحسن وقتادة : الصور صور الخلق . وقال مجاهد : هو قرن كالبوق
ينفخ فيه . وقيل : النفخة الأولى نفخة الفزع . والثانية نفخة الصعق ، والثالثة
نفخة القيام لرب العالمين .

وقيل : معنى ﴿ فزع من في السموات ومن في الارض ﴾ من شدة
الاسراع والاجابة ، يقال : فزعت اليك في كذا إذا أسرعت الى ندائه في معونتك .
وقيل : هو ضد الأمن ، وهو الأولى . وقيل : وجه النفخ في الصور أنه على
تصور ضرب البوق الاجتماع على السير الى أرض الجزاء بالحال التي تعرف في
دار الدنيا . ومن ذهب الى أنه جمع صورة قال : المعنى نفخ الأرواح في
الاجساد بردها الى حال الحياة التي كانت عليها . وقوله ﴿ إلا من شاء الله ﴾
روى في الخبر أن الشهداء من جملة الخلق لا يفرعون ذلك اليوم . وقيل :

﴿إلا من شاء الله﴾ يعني من الملائكة الذين يثبت الله قلوبهم . وقيل : اسرافيل هو النافخ في الصور بأمر الله تعالى . ثم قال ﴿ وكل أتوه داخرين ﴾ معناه إن جميع الخلق جاؤا لله داخرين أي صاغرين . فمن قصر ، حمله على أنهم أتوه أي جاؤه . ومن مدّ ، حمله على أنهم جاؤوه على وزن (فاعلوه) . ولفظة (كل) ههنا معرفة ، لأنها قطعت عن الأضافة ، كما قطع قوله ﴿ من قبل ومن بعد ﴾ (١) إلا أنه لم يبين ، لأنه قطع عن متمكن التمكن التام . وليس كذلك ﴿ من قبل ومن بعد ﴾ لأنه كان ظرفاً لا يدخله الرفع .

وقوله ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ﴾ قال ابن عباس : تحسبها قائمة وهي تسير سيراً حثيثاً سريعاً قال النابغة الجعدي :

ناز عن مثل الطود يحسب أنهم وقوف لحاح والركاب تهملج (٢)

أي من أجل كثرتهم وإلتفافهم يحسب أنهم وقوف ، فكذلك الجبال . وقوله ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾ نصب (صنع الله) بما دل عليه ما تقدم من الكلام من قوله ﴿ تمر مر السحاب ﴾ فكأنه قال : صنع الله صنع الذي أتقن كل شيء إلا أنه أظهر اسم الله في الثاني ، لأنه لم يذكر في الأول وإنما دل عليه . والاتقان حسن إتيان . وقوله ﴿ إنه خير بما تفعلون ﴾ أي علم بأفعالهم فيجازيهم بحسبها على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب .

ثم بين كيفية الجزاء ، فقال ﴿ من جاء بالحسنة ﴾ يعني بالخصلة الحسنة ﴿ فله خير منها ﴾ أي خير يصيبه منها . وقيل : فله أفضل منها في عظم النفع لأن له بقيمتها وبالوعد الذي وعده الله بها كأنه قال : من أتى بالحسنة التي هي الايمان والتوحيد والطاعة لله يوم القيامة يكون آمناً لا يفزع كما يفزع الكفار

والفساق . وقيل : هم من فزع الموت في الدنيا آمنون في الآخرة . وقيل : من فزع يوم القيامة في الجنة آمنون . ثم قال ﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ يعني بالمعصية الكبيرة التي هي مثل الكفر والشرك ، وما جرى مجراها . وقال جميع المفسرين : إن السيئة - ههنا - الشرك ، فإن الله تعالى يكبه على وجهه في النار . ويقال : كبه واكبه إذا نكسه ، ويقال لهم ﴿ هل تجزون ﴾ بهذا العقاب ﴿ إلا ﴾ مكافأة لما كنتم تفعلون وتعملون في دار التكليف من المعاصي .

ثم قال لنبيه ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة ﴾ يعني مكة - في قول ابن عباس - وقال غيره : منى ، أي أمرت بعبادة رب هذه البلدة لم أؤمر بعبادة سواه ﴿ التي حرمها ﴾ وقيل : معنى (حرمها) عظم حرمتها من أن يسفك دم حرام فيها أو يظلم أحدها أو يصطاد صيدها أو يخلى خلاؤها وقيل : حرمها حتى أمن الوحش فيها ، فلا يعدو الكلب على الغزال ، ولا على الطير ولو خرج من الحرم لنفر أشد النفور ، فذكر لهذه الآية في الحرم ﴿ وله كل شيء ﴾ أي يملك كل شيء بالتصرف فيه على وجه يريده ويختاره ، وليس لأحد منعه منه ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ الذين يسلمون بتوحيده وإخلاص العبادة له مستسلمين له ﴿ وأمرت أن أتلو القرآن ﴾ عليكم وادعواكم إلى ما فيه ﴿ فمن اهتدى ﴾ إلى الحق والعمل بما فيه ﴿ فأنما يهتدي لنفسه ﴾ لأن جزاء ذلك وثوابه يصل إليه دون غيره ﴿ ومن ضل ﴾ عنه وجار ولم يعمل بما فيه ولم يهتد إلى الحق ﴿ فقل ﴾ له يا محمد ﴿ إنما أنا من المنذرين ﴾ الذين يخوفون بعقاب الله من معاصيه ، ويدعون إلى طاعته . وفي ذلك دلالة على فساد قول المجبرة الذين يقولون : إن الله يخلق الإيمان والهداية والكفر والضلالة .

ثم امر نبيه (ص) بأن يقول ﴿ الحمد لله ﴾ اعترافاً بنعمه ﴿ سيرىكم

آياته ﴿ يعني دلالاته التي ليس يمكنكم جردها . وقال الحسن : معناه يريكم آياته في الآخرة فتعرفون انها على ما قال في الدنيا . وقيل : يركم في الدنيا ما ترون من الآيات في السماء والارض ، فتعرفونها أنها حق . ذكره مجاهد . ثم قال وليس ربك يا محمد ﴿ بغافل عما تعملون ﴾ من قرأ بالياء يعني عما يفعله المشركون . و ﴿ قرأ بالتاء ، فعلى تقدير : قل لهم : ليس ربكم بغافل عما تعملونه بل هو عالم بجميع ذلك فيجازيكم عليه ، وفي ذلك غاية التهديد .

٢٨ - سورة القصص

مكية في قول قتادة والحسن وعطاء وعكرمة ومجاهد ليس فيها ناسخ ولا منسوخ
وقال ابن عباس آية منها نزلت بالمدينة وقيل بالجحفة وهي
قوله « ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد »
وهي ثمانون وثمان آيات بلا خلاف في جملتها واختلفوا في
رأس آيتين سأذكرها عند كتابتها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسم (١) تلك آيات الكتاب المبين (٢) نتلو عليك
من نبي موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون (٣) إن فرعون
علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح
أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين (٤) ونريد أن
نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم
الوارثين ﴾ (٥) .

خمس آيات كوفي وأربع فيما عداه . عد الكوفي « طسم » آية ولم يعددها الباقون .
قد بينا معنى هذه الحروف في أوائل السور في عدة مواضع ، فلا
فائدة في إعادته ، وقويناقول من قال : إنها أسماء للسور .

وقوله « تلك آيات الكتاب » أي تلك آيات الكتاب التي وعدتم بانزالها . وقيل .
معناه هذا القرآن هو الكتاب المبين - ذكره الحسن - وقيل : في معنى « المبين »
قولان : أحدهما - قال قوم : المبين أنه من عند الله . وقال قتادة : المبين الرشد
من الغي . والمبين هو اليقين أيضاً . وأضاف الآيات الى الكتاب ، وهي الكتاب
كما قال « انه لحق القين » (١) .

ثم خاطب نبيه (ص) فقال « نتلو عليك » يا محمد طرفاً من اخبار « موسى
وفرعون بالحق » على حقيقة البيان وهو اظهار المعنى للنفس بما تميزه من غيره
مشتق من أبنت كذا من كذا إذا فصلته منه . والبرهان إظهار المعنى للنفس بما
يدعو الى أنه حق مما هو حق في نفسه . والتلاوة الاثنيان بالثاني بعد الأول في
القراءة بما بتلوه تلاوة ، فهو تال لمقدم ، والمقدم والتالي مثل الأول والثاني .
والنبا الخبر عما هو أعظم شأنًا من غيره . والحق هو ما يدعو اليه العقل ،
ونقيضه الباطل ، وهو ما صرف عنه العقل .

وقوله « لقوم يؤمنون » معناه إنا نتلو عليك هذه الأخبار لقوم يصدقون
بالله ، وبما أنزل عليك ، لانهم المنتفعون به ، والايمان الصديق بفعل ما يؤمن
من العقاب .

ثم اخبر تعالى فقال « ان فرعون علا في الارض » أي تجبر وبغى - في

قول قتادة وغيره - ببغية واستعباده بني إسرائيل ، وقتل أولادهم . وقيل : بقره وادعائه الربوبية . وقيل : بشدة سلطانه « وجعل اهلها شيعاً » أي قوماً « يستضعف طائفة منهم » فيستعبدهم و« يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم » أي يستبيح بناتهم فلا يقتلن ، وقيل : إنه كان يأمر باخراج أحيائهن الذي فيه الولد والأول هو الصحيح .

ثم اخبر تعالى وحكم بأن فرعون « كان من المنسدين » في الارض والعالمين بمعاصي الله . ثم وعد تعالى فقال « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض » وهو عطف على قوله « يستضعف طائفة منهم » ونحن نريد أن نمن . وقال قتادة : يعنى من بني اسرائيل « ونجعلهم أئمة » يقتدى بهم « ونجعلهم الوارثين » لمن تقدمهم من قوم فرعون .

وروى قوم من أصحابنا أن الآية نزلت في شأن المهدي (ع) وأن الله تعالى يمن عليه بعد أن استضعف . ويجعله إماماً مكملاً ، ويورثه ما كان في أيدي الظلمة .

قال السدي : إن فرعون رأى في منامه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وترك بني اسرائيل فسأل علماء قومه ، فقالوا : يخرج من هذا البلد رجل يكون هلاك مصر على يده ، فأمر بذبح آبائهم واستحياء نساءهم ، وأسرع الموت في شيوخ بني إسرائيل ، فقالت القبط لفرعون : ان شيوخ بني إسرائيل قد فنوا ، وصغارهم قد قتلتهم ، فاستبقهم لعلنا وخدمتنا ، فأمرهم أن يستحيوا في عام ، ويقتلوا في عام ، فولد في عام الاستحياء هارون ، وولد في عام القتل موسى ، قال الضحاك : عاش فرعون ﴿ ج ٨ م ١٧ من التبيان ﴾

أربع مئة سنة ، وكان قصيراً وسيماً ، وهو أول من خضب بالسواد . وعاش موسى مئة وعشرين سنة . وقيل : ان فرعون كان من أهل الاصطخر .

قوله تعالى :

﴿ وَنُمكنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فرعونَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمَ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ (٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَاذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فرعونَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فرعونَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فرعونَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ (١٠) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ أهل الكوفة إلا عاصماً « وحزنًا » بضم الحاء ، واسكان الزاي .
الباقون بفتحهما ، وهما لغتان . يقال : حزن وحزن مثل نجل ونجل . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً « ويرى فرعون وهامان » بالياء ورفع (فرعون ، وهامان)
باسناد الرؤية اليهما . الباقر بالنون ، ونصب (فرعون وهامان) باسناد النعل
الى الله ، وكونهما مفعولين .

لما أخبر الله تعالى أنه يريد أن يمن على الذين استضعفوا في الأرض ويجعلهم أئمة ، أخبر في هذه الآية أنه يريد أن يمكنهم في الأرض ، والتمكين هو فعل جميع ما لا يصح الفعل ولا يحصل إلا معه : من القدرة والآلة واللفظ وغير ذلك . وقال الرماني : اللطف لا يدخل في التمكين ، لأنه لو دخل فيه لكان من لا لطف له لم يكن ممكناً ، ولكن يقال : أنه من باب إزاحة العلة . ثم بين أنه تعالى « يري فرعون وهامان وجنودهما منهم » يعني من بني إسرائيل « ما كانوا يحذرون » من زوال ملكهم على يد رجل من بني إسرائيل ، ولذلك ذبح فرعون أبناءهم . ومن قال : ان الآية في شأن المهدي (ع) حمل فرعون وهامان على فرعون هذه الأمة وهامانها ، والكنياية في « منهم » عائدة على أنصار المهدي (ع) قالوا : وهذه أولى ، لأنه بلفظ الاستقبال ، لأن في أوله النون أو الياء على اختلاف القراءتين وهما للمضارعة .

والحذر توفي ما فيه المضرة ، فهؤلاء الذين طلبوا الحذر في غير وجهه ، اذ قتلوا الاطفال ظلماً لأجله ، ولو طلبوه بالرجوع الى الله ، ودعائه ليكشف عنهم لكانوا طالبين له من وجهه .

وقوله « وأوحينا الى أم موسى » أي ألهمناها ، وقذفنا في قلبها ، وليس بوحى نوم ، ولا نبوة - في قول قتادة وغيره - وقال الجبائي : كان الوحي رؤيا منام عبر عنه مؤمن به من علماء بني إسرائيل . وقوله « أن ارضعيه » أي ألهمناها إرضاع موسى « فاذا خفت عليه فألقيه في اليم » فالخوف توقع ضرر لا يؤمن به . وقال الزجاج : معنى « وأوحينا الى أم موسى » أعلمناها ، وقوله « فألقيه في اليم » أمر من الله تعالى لأم موسى أنها إذا خافت على موسى من فرعون أن ترضعه وتطرحه في اليم . واليم البحر ، ويعني به النيل « ولا تخافي ولا تحزني » نهي من الله تعالى

لها من الخوف والحزن ، فانه تعالى أراد أن ينزل خوف أم موسى بما وعدها الله من سلامته على أعظم الأمور في القائه في البحر الذي هو سبب الهلاك في ظاهر التقدير ، لولا لطف الله تعالى بحفظه حتى يردّه الى أمه . ووعدّها بأنّه يردّه عليها بقوله « انا رادوه اليك » ووعدّها أيضاً بأن يجعله من جملة الانبياء المرسلين بقوله « وجاعلوه من المرسلين » .

ثم اخبر ان آل فرعون التقطوه ، وفي الكلام حذف ، لان تقديره ان أم موسى طرحتّه في البحر ومضى في البحر الى أن بلغ قصر فرعون فالتقطه آل فرعون . والالتقاط هو اصابة الشيء من غير طلب ، ومنه اللقطة قال الراجز :
ومنهل وردته التقطاطا لم ألق اذ وردته فراطاً (١)

وقوله « ليكون لهم عدواً وحزناً » اللام لام العاقبة ، لأنهم لم يلتقطوه لأن يصير لهم عدواً وحزناً ، بل التقطوه ليكون قرة عين لهم ، ومثله قول الشاعر :
لدوا للموت وابنوا للخراب (٢)

ومنّه قوله « ولقد ذرأنا لجنهم كثيراً » (٣) . ثم اخبر تعالى « إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين » عاصين لله في أفعالهم ، ثم حكى تعالى أن امرأة فرعون لما جيء بموسى اليها ورأته وعطف الله بقلبها عليه جاءت به الى فرعون ، وقالت « قرة عين لي ولك » أي قرة عين هذا الولد لي ولك « لا تقتلوه عسى ان ينفعنا أو نتخذه ولداً » إذا ربيناه وكبر « وهم لا يشعرون » بأن هلاكهم على يديه ، في قول قتادة .

ثم قال « وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً » قال ابن عباس وقتادة والضحاك :

(١) تفسير الطبري ٢٠ / ١٩ والقرطبي ١٣ / ٢٥٢

(٢) مر في ٣ / ٦٠ و ٥ / ٤٣ (٣) سورة ٧ الاعراف آية ١٢٨

معناه فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى . وقال الحسن وابن زيد وابن اسحاق : فارغاً من وحيانا بنسيانه ، فانها نسيتم ما وعدها الله به . وقيل : فارغاً من الحزن لعلها بأن ابنها ناج سكوناً الى ما وعد الله وقبلت به . وقوله « إن كادت لتبدي به » قال ابن عباس وقتادة والسدي : معناه كادت لتبدي بذكر موسى . وتقول : يا ابنه . وقيل : ان كادت لتبدي بالوحي . وقوله « لولا أن ربطنا على قلبها » فالربط على القلب تقويته على الأمر حتى لا يخرج منه الى ما لا يجوز ، وجواب (لولا) محذوف ، وتقديره لولا أن ربطنا على قلبها لأظهرته . وقوله « لتكون من المؤمنين » معناه فعلنا ذلك بها لتكون من جملة المؤمنين المصدقين بتوحيد الله وعدله .

قوله تعالى :

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ

هَذَا مِنْ شَيْعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شَيْعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ
عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ
مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ خمس آيات بلاخلاف .

حكى الله تعالى عن أم موسى أنها قالت لأخت موسى : قصيه أي اتبعي
آثره ، يقال قصه يقصه قصاً إذ اتبع أثره ، ومنه القصص ، لانه حديث يتبع
بعضه بعضاً يتبع الثاني للاول ، والاقتصاص اتباع الجاني في الأخذ بمثل جنابته
في النفس .

« فبصرت به عن جنب » معنى (فبصرت به) رآته ، وهو لا يتعدى
إلا بحرف الجر . والرؤية تتعدى بنفسها ، وقال مجاهد : معناه عن بعد ، ومثله
أبصرته عن جنابة قال الاعشى :

أَتَيْتُ حَرِيثًا زَائِرًا عَنْ جَنَابَةٍ فَكَانَ حَرِيثٌ عَنْ عَطَائِي جَامِدًا (١)

أي عن بعد ، وقيل : معنى « عن جنب » عن مكان جنب ، وهو الجانب
لأن الجنب صفة وقعت موقع الموصوف لظهور معناه ، وكان ذلك احسن واوجز
« وهم لا يشعرون » قال قتادة : معناه وآل فرعون لا يشعرون انها اخته .

وقوله « وحرمناء عليه الواضع » وهي جمع مرضعة ومعناه منعناه منهن وبفضناهن
اليه ، فكان ذلك كالمنع والنهي ، لا أن هناك نهياً عن الفعل ، قال الشاعر :
جاءت لتصرعني فقلت لها اقصري اني امرء صرعي عليك حرام (٢)
اي ممتنع فاني فارس امنعك من ذلك ، ومثله قولهم : فلان حرم على

نفسه كذا بالامتناع منه ، كالامتناع بالانهي . وقوله « من قبل » أي من قبل رده على أمه « فقالت هل أدلكم على اهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون » معناه يضمنونه برضائه والقيام عليه ، وينصحونه في ذلك ، فقيل لأخته من أين قلت : انهم ناصحون له أعرفت أهله ، فقالت : إنما عنيت ناصحون للملك . والنصح اخلاص العمل من شائب الفساد ، وهو تقيض النفس : نصح ينصح نصحاً ، فهو ناصح في عمله ، وناصح في نفسه في توبته إذا اخلصها . وقوله « فرددناه الى أمه كي تقرر عينها ولا تحزن » قيل : إن فرعون سأل أمه كيف يرتضع منك ، ولم يرتضع من غيرك ؟ قالت : لأنني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا اكاد أؤتي بصبي إلا ارتضع مني . وبين تعالى انه إنما فعل ذلك « كي تقرر عينها » يعني عين أمه ، فرده عليها « ولتعلم ان وعد الله حق » لا بد من كونه . ثم قال « ولكن اكثروهم » أي الخلق « لا يعلمون » حقيقة ما يراد بهم . وقيل : من قوم فرعون ما علمته أم موسى ، ومن لطيف تدبير الله تسخير فرعون لعدوه حتى تولى تربيته .

وقوله « ولما بلغ أشده واستوى » قال قتادة : أشده ثلاث وثلاثون سنة ، واستوائه اربعون سنة . وقيل استواء قوته ﴿ آتيناه ﴾ يعني أعطيناه ﴿ حكماً وعلماً ﴾ قال السدي : يعني النبوة . وقال عكرمة : يعني العقل . وقال مجاهد : الفرقان . والحكم الخبر بما تدعو اليه الحكمة . والمعنى علمناه من الحكمة ما تقتضي المصلحة ، وواوحينا اليه بذلك . ثم قال : ومثل ما فعلنا به نجزي أيضاً من فعل الاحسان . وفعل الطاعات والافعال الحسنة .

ثم اخبر تعالى ان موسى ﴿ دخل المدينة ﴾ يعني مصر ، وقيل : غيرها ﴿ على حين غفلة من اهلها ﴾ قيل : إنه كان وقت القائلة . وقيل : لأنهم

غفلوا عن ذكره لبعده عهدهم به . وقيل : انه كان يوم عيد لهم قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم . وقوله ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه ﴾ قال مجاهد : يعني من شيعته إنه كان اسرائيلياً ، والآخر إنه كان قبطياً . وقال ابن اسحاق : كان احدهما مسلماً ، والآخر كافراً ﴿ فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ﴾ أى استنصره لينصره ﴿ فوكزه موسى ﴾ أى دفع في صدره ، وجميع كفه (ولكزه) مثل وكزه ولهزه ﴿ ففضى عليه ﴾ أى مات ، فقال عند ذلك موسى ﴿ هذا من عمل الشيطان ﴾ أى من اغوائه حتى زدت من الايقاع به ، وإن لم اقصد قتله . وقيل : ان الكناية عن المقتول ، فكأنه قال : ان المقتول من عمل الشيطان اي عمله عمل الشيطان . ثم وصف الشيطان بأنه ﴿ عدو ﴾ للبشر ظاهر العداوة . وقوله ﴿ هذا من شيعته وهذا من عدوه ﴾ إشارة الى الرجلين اللذين احدهما من شيعة موسى ، والآخر من عدوه إنما هو على وجه الحكاية للحاضر إذا نظر اليهما الناظر قال هذا من شيعته وهذا من عدوه .

قوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطَشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ

يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ (١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَائِكَةَ آمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَيَّ نِي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ خمس آيات بلا خلاف .

حكى الله تعالى عن موسى أنه حين قتل القبطي يدم على ذلك وقال يا « رب إني ظلمت نفسي » بقتله . وسأله : ان يغفر له ، فحكى الله تعالى أنه « غفر له » . لأن الله هو الغفور « لعباده » الرحيم . بهم المنعم عليهم . وعند أصحابنا أن قتله القبطي لم يكن قبيحاً ، وكان الله أمره بقتله ، لكن كان الأولى تأخيرها إلى وقت آخر لضرب من المصلحة ، فلما قدم قتله كان ترك الأولى والافضل ، فاستغفر من ذلك لأنه فعل قبيحاً . وقال جماعة : ان ذلك كان منه صغيرة غير انها وقعت مكفرة لم يثبت عليها عقاب ، ويكون قوله « رب إني ظلمت نفسي » على الوجه الأول أي بخصت نفسي حقها . بأن لم أفعل ما كنت أستحق به ثواباً زائداً . وعلى المذهب الثاني مذهب من يقول بالموازنة يقول : لأنه نقص من ثوابه ، وكان بذلك ظالماً لنفسه . فأما من قال : إن ذلك كان كبيرة منه وظلماً فخارج عما نحن فيه ، لأن ادلة العقل دلت على أن الأنبياء لا يجوز عليهم شيء من القبائح ، لا كبيرها ولا صغيرها . ومن قال : إنه كان ذلك صغيرة ، قال : كان دفعه له المؤدي إلى القتل صغيرة ، لا أنه قصد القتل وكان صغيرة .

وقوله « قال رب بما أنعمت علي فلن اكون ظهيراً للمجرمين » معناه إن أنعمت علي فلن اكون ، فهو مشبه بجواب الجزاء ، ولذلك دخلت الفاء في الجواب ، وإذا وقع الانعام قيل لما أنعمت ، فلن اكون ، لأنها في كلا الموضعين تدل على أن الثاني وقع من أجل الاول . ويحتمل أن يكون ذلك قسماً من موسى بنعم الله عليه ، بمغفرته ، وفنون نعمه بأن لا يكون معيناً على خطيئة ، ولا يكون ظهيراً . والظهير المعين لغيره بما به يصير كالظهور له الذي يحميه من عدوه .

وقوله « فأصبح في المدينة خائفاً يترقب » معناه إن موسى أصبح خائفاً من قتل القبطي ، يترقب الأخبار - في قول ابن عباس - والترقب التوقع . وقوله « فاذا الذي استنصره بالأمس يستصره » يعني رأى من كان استنصره بالأمس ، بأن طلب نصرته على عدوه « يستصره » أي يطلب نصرته ايضاً . وقيل : يطلب الصراخ على العدو بما يردعه عن الايقاع بمن قد تعرض له « قال له موسى انك لغوي مبين » أي عادل عن الرشد ، ظاهر الغواية ، ومعناه انك لغوي في قتالك من لا تطيق دفع شره عنك ، من أصحاب فرعون ، خائب فيما تقدر أن تفعله .

وقوله « فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما » قيل : إن موسى هم أن يدفع العدو عن نفسه وعن صاحبه ، ويبطش به « قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسك بالأمس » قال الحسن : هو من قول الفرعوني ، لأنه كان قد اشتهر أمر القتل بالأمس أنه قتله بعض بني إسرائيل . وقال ابن عباس واكثر اهل العلم انه من قول الأسرائيلي ، لأنه قال له موسى انك لغوي مبين ، خاف على نفسه فظن أنه يريد الايقاع به ، فقال ما قال . وقوله « إن تريد إلا أن تكون جباراً في الارض » أي لست تريد بقتل من قتلته

بالأُمس إلا أن تكون جباراً متكبراً في الأرض « وما تريد » أي ولست تريد
« أن تكون من » جملة « المصلحين » .

وقوله « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى » قيل هو مؤمن آل فرعون
« قال يا موسى ان الملائكة يأتون بك ليقتلوك » أي يأمر بعضهم بعضاً بقتلك .
وقيل : يأتون معناه يرتأون ، قال نمر بن تولب :

أرى الناس قد احدثوا شيمة وفي كل حادثه يؤتمر (١)
أي يرتاء ، وقال آخر :

ما تأتمر فينا فام - رك في يمينك أو شمالك

فقوله « فاخرج اني لك من الناصحين » حكاية ما قال الرجل لموسى ، وانه
ناصح له بقوله ، يحذره من اعدائه . وقال الزجاج : وقوله « اني لك » ليست
من صلة « الناصحين » لان الصلة لا تقدم على الموصول ، لكن تقديره : اني من
الناصحين الذين ينصحون لك ، يقال : نصحت لك ونصحتك ، والاول اكثر .

قوله تعالى :

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴾ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي
سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ
يَسْتَقُونَ (٢٢) وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا
قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى

لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ
 فَقِيرٌ (٢٤). فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي
 يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ
 الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) .

خمس آيات كوفي، وست فيما عداه ، عد الكل « يسقون » آية إلا الكوفيين
 فانهم عدوها وما بعدها الى « كبير » آية . قرأ ابو عمرو ، وابن عامر ، وابو
 جعفر « حتى يصدر » بفتح الياء وضم الدال . الباقيون - بضم الياء وكسر الدال -
 والصدر الانصراف عن الماء : صدر يصدر صدراً وأصدره غيره إصداراً ، ومنه
 والصدر ، لان التدبير يصدر عنه ، والمصدر لان الافعال تصدر عنه . فمن فتح الياء
 أسند الفعل الى الرعاء ، ومن ضمه أراد اصدارهم عنه ومواشيهم .

حكى الله تعالى ان موسى لما انذرهم مؤمن آل فرعون ، وأن اشراف قومه ورؤساءهم
 قد ائتمروا على قتله ، وأمره بالخروج من المدينة خرج (ع) « خائفاً يترقب »
 أي يطلب ما يكون ويتوقعه ، والترقب طلب ما يكون من المعنى على حفظه
 للعمل عليه ، ومثله التوقع وهو طلب ما يقع من الأمور متى يكون . وقال قتادة :
 وخرج منها خائفاً من قتله النفس يترقب الطلب . وقيل خرج بغير زاد و كان
 لا يأكل الاحشاش الصحراء الى أن بلغ ماء مدين .

وقوله « قال رب نجني من القوم الظالمين » حكاية ما دعا به موسى ربه ،
 وانه سأله أن يخلصه من القوم الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالله ، وذلك
 يدل على أن خوفه كان من القتل .

وقوله: «ولما توجه تلقاء مدين» فالتوجه - صرف الوجه - الى جهة من الجهات، ويقال: هذا المعنى يتوجه الى كذا أي هو كالطالب له بصرف وجهه اليه، وتلقاء الشيء، حذاء، ويقال: فعل ذلك من تلقاء نفسه أي من حذاء داعي نفسه، و (مدين) لا ينصرف، لأنه اسم بلدة معروفة، قال الشاعر:

رهبان مدين لو رأوك تنزلوا
والعصم من شعف العقول الغادر (١).

الشعف أعلى الجبل، والغادر الكثير. وقال ابن عباس: بين مصر ومدين ثمان ليال، نحو ما بين الكوفة والبصرة.

وقوله: «عسى ربي أن يهديني سواء السبيل» حكاية ما قال موسى في توجهه، فإنه قال: عسى أن يدلني ربي على سواء السبيل، وهو وسط الطريق المؤدي الى النجاة، لأن الأخذ يميناً وشمالاً يبعد عن طريق الصواب، ويقرب منه لزوم الوسط على السنين، فهذا هو المسعى في الهداية، وقال الشاعر:

حتى اغيب في سواء الملحد

أي في وسطه، وقال عطاء: عرضت له أربع طرق لم يدر أيها يسلك، فقال ما قال: ثم أخذ طريق مدين حتى ورد على شعيب، وهو قول عكرمة. ثم حكى تعالى أن موسى لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة، يعني جماعة من الناس يسقونهم: بها هم ويستسقون الماء من البئر «ووجد من دونهم» يعني دون الناس «امراتين تذودان» أي يحبسان غنهما ويمنعانها من الورد الى الماء يقال: ذاد شاته وإبله عن الشيء، يذودها ذوداً إذا حبسها عنه بمنعها منه، قال سويد بن كراع:

أبيت على باب القوا في مكاننا . أذود بها سر بآمن الوحش شرعاً (١)
وقال الآخر :

وقد سلبت عصاك بنو تميم فما تدري بأي عصا تذود (٢)
وقال الفراء : لا يقال : ذدت الناس ، وإنما قالوا ذلك في الغنم والابل ،
وقال قتادة : كانتا تذودان الناس عن شائهما . وقال السدي : تحبسان غنمهما
فقال لهما موسى « ما خطبكما » أي ما شأنكما ؟ في قول ابن اسحاق ، قال الراجز :
يا عجبا ما خطبه وخطبي (٣)

والخطب الأمر الذي فيه تفخيم ، ومنه الخطبة ، لأنها في الأمر المعظم ،
ومن ذلك خطبة النكاح والخطاب ، كل ذلك فيه معنى العظم . فأجابناه بأننا
لا نسقي غنمنا حتى يصدر الرعاء وواحد الرعاء راع ، ويجمع أيضاً رعاة ورعياناً ،
والمعنى اننا لانسقي حتى ينصرف الرعاء - فيمن فتح اليا - أو يصرفون غنمهم - فيمن
ضم اليا - لأننا لا قوة بنا على الاسقاء ، وإنما ننتظر فضول الماء في الحوض - في
قول ابن عباس وقتادة وابن اسحاق - « وابونا شيخ كبير » لا يقدر على أن يتولى
ذلك بنفسه . وقوله « فسقى لهما » قال شريح : رفع لهما حجراً عن بئر لا يقدر
على رفعه إلا عشرة رجال ثم استقى لهما . وقال ابن اسحاق : إنه زحم الناس
عن الماء حتى آخرهم عنه حتى سقى لهما . وقوله « ثم تولى الى الظل فقال رباني
لما أنزلت الي من خير فقير » معناه إني الى ما أنزلت فاللام بمعنى الى ، و (ما)
بمعنى الذي وما بعده من صلته و (لما) متعلق بقوله (فقير) وتقديره أي فقير

(١) تفسير الطبري ٢٠ / ٣٣ والقرطبي ١٣ / ٢٦٦

(٢) تفسير الطبري ٢٠ / ٣٣ والقرطبي ١٣ / ٢٦٨

(٣) قاله رؤبة . تفسير القرطبي ١٣ / ٢٦٨ والطبري ٢٠ / ٣٣

الى ما أنزلت الي من خير . قال ابن عباس : أدرك موسى جزع شديد ، فقال « رب إني لما أنزلت الي من خير فقير » وفي الكلام حذف ، لان التقدير إن المرأتين عادتا الى أبيهما وشكرتا فعله ، فقال أبوها لاحداها ادعية لي لأجزيه على فعله « فجاءت احداها تمشي على استحياء » قيل : معناه متسترة بكم درعها أو قميصها ، فقالت له « ان ابي يدعوك » ليكافيك على ما سقيت لنا وإن موسى مشى معها حتى وصل اليه « وقص عليه القصص » من اخباره وما مر عليه ، فقال له الشيخ « لا تخف نجوت من القوم الظالمين » قال ابن عباس معناه ليس لفرعون سلطان بأرضنا . وقيل : كان الشيخ أبوها شعيباً (ع) وقال الحسن : بل كان رجلاً مسلماً على دين شعيب اخذ الدين عنه ، وشعيب مات قبل ذلك ، وقال قوم : انه كان ابن اخي شعيب (ع) .

قوله تعالى :

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتُكْحِكَ بِإِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ

أَمْكُثُوا إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ
لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَيْهَا تُوَدِّي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ
فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنَّ يَامُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ
الْعَالَمِينَ (٣٠) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ عاصم (جذوة) بفتح الجيم ، وقرأ حمزة وخلف بضمها ، الباقر - بكسر
الجيم - وفيه ثلاث لغات - فتح الجيم وضمها وكسرها . والكسر أكثر
وافصح . والجذوة القطعة الغليظة من الحطب فيها النار ، وهي مثل الحزمة من
أصل الشجر ، وجمعها جذى قال الشاعر :

كانت حوالب ليلي يلتمسن لها جزل الجذى غير خوار ولا ذعر (١)
وقال قتادة : الجذوة الشعلة من النار . حكى الله تعالى أن إحدى المراتين
قالت لايها « يا أبت استأجره » والاستئجار طلب الاجارة ، وهي العقد على
أمر بالمعاوضة ، يقال : أجره أجراً ، وآجره إجارة . واستأجره استئجاراً
ومنه الاجير ، والماجور . والأجر الثواب ، وهو الجزاء على الخير . ثم حكى
أنها قالت لايها « ان خير من استأجرت القوي الأمين » قال قتادة : عرفت
قوته بأنه سقى الماشية بدلو واحد ، وعرفت أمانته بغض طرفه ، وأمره إياها بأن
تمشي خلفه . والقوي العظيم المقدور ، ومنه وصف لله تعالى بأنه القوي
العزیز ، وأصل القوة شدة القتل من قوي الحبل ، وهي طاقاته التي يقتل عليها ،
ثم نقل الى معنى القدرة على الفعل . والأمانة خاصة للتأدية على ما يلزم فيها ،

وهي ضد الحياة، والثقة مثل الأمانة.

ثم حكى ما قال أبو المراتين لموسى (ع)، فانه قال له «إني أريد أن
انكحك إحدى ابنتي هاتين» أي أزوجك إحداها، فلا نكاح عقد ولي المرأة
على غيره الزوجية، وهو تزويجه إياها، والنكاح تزوج الرجل المرأة، يقال
نكحها نكاحاً إذا تزوجها. وقوله «على أن تأجرني ثماني حجج» معناه على
أن تجعل أجري على تزويجي إياك ابنتي رعي ما شيتي ثماني سنين، لأنه جعل
صداق ابنته هذا الذي عقد عليه، وجعل الزيادة على المدة إليه الخيار فيها،
فلذلك قال «فإن أتممت عشر آفن عندك» أي هبة منك غير واجب عليك.
ثم أخبر أنه قال «وما أريد أن أشتق عليك» بأن الزمك عشر سنين «ستجدني»
فيما بعد ﴿ان شاء الله من﴾ جملة ﴿الصلحين﴾ الذين يفعلون الخيرات، وتعليق
الصلاح بمشيئة الله في الآية يحتمل أمرين:

أحدهما - أن يريد بها الصلاح في الدنيا من صحة الجسم وتمام القوة، فإن
الله تعالى يجوز أن يفعل بأنبيائه أمراضاً امتحاناً لهم ولطفاً، فلذلك قال إن
شاء الله.

والثاني - أن يكون أراد أن شاء الله تبقيتي، لانه يجوز أن يحترمه الله فلا
يفعل الصلاح الديني، فلذلك علقه بمشيئة الله. ويحتمل أن يكون ذلك لاتفاق
الكلام، ولا يكون خبراً قاطعاً، فلا يكون بمشيئة الله شرط في فعل الصلاح
وقال ابن عباس: أن موسى قضى أتما الأجلين وأوفاهما، وقيل: أنه كان
جعل لموسى كل سحلة تولد على خلاف شبه أمها فأوحى الله (عز وجل) إلى
موسى أن الق عصاك في الماء فولدت كلهن خلاف شبههن. وقيل: جعل له كل
﴿ج ٨ م ١٩ من التبيان﴾

بلقاء فولدن كلهن بقاء.

ثم حكى تعالى ان موسى قال له ﴿ ذلك بيني وبينك ايما الأجلين قضيت فلا عدوان علي ﴾ أي لا تعدي علي لاني مخير في ذلك ﴿ والله على ما نقول وكيل ﴾ أي كاف وحسيب ، وقيل : انه من قول الشيخ ، ثم حكى تعالى ان موسى لما قضى الأجل تسلم زوجته وسار بها الى أن ﴿ آتس من جانب الطور نارا ﴾ اي ابصر امرأ يؤنس بمثله ، والطور الجبل قال المعجاج :

آتس جربان فضاء فانكدر داني جناحيه من الطور فمر (١)

فلما رأى ذلك قال لأهله : البثوا مكانكم ، فاني ابصرت نارا ، فامضي نحوها ﴿ لعلني آتيكم منها بخبر ﴾ يعرف منه الطريق ، فانه روي انه كان قد ضل عن الطريق ﴿ او جذوة من النار ﴾ اي قطعة من الحطب غليظة فيها النار ، وقيل الجذوة الشعلة من النار ، لكي تصطلوا بها . وقيل : انهما كانا وجدا البرد ، فلذلك قال ما قال .

ثم حكى تعالى ان موسى لما اتى النار بان قرب منها ﴿ نوذي من شاطيء الواد الأيمن ﴾ اي من جانبه وهو الشط ، ويجمع شواطيء وشطانا ﴿ من البقعة المباركة ﴾ يقال : بقعة وبقعة بالضم والفتح ، وجمعه بتاع ، ووصفها بأنها مباركة لأنه كلم الله فيها موسى ﴿ من الشجرة ﴾ قيل ان الكلام والنداء سمعه موسى من ناحية الشجرة ، لأن الله تعالى فعل الكلام فيها لا أن الله تعالى كان في الشجرة ، لانه لا يحويه مكان ، ولا يحل في جسم ، فتعالى الله عن ذلك « أن يا موسى » أي ناداه بان قال له يا موسى ﴿ اني أنا الله رب العالمين ﴾

(١) تفسير الطبري ٢٠ / ٤٠ وروايته « آتس جربان قض » ، وقدمر قسم

من هذا الرجز في ١ / ٢٨٦ و ٧ / ٣٥٨

الذي خلقت جميع الخلائق وأخرجتهم من العدم الى الوجود .

قوله تعالى :

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا
وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١)
أَسْلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمُ إِلَيْكَ
جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ
وَمَلَائِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ
نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا
فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ
سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا
بِأَيِّ تَمَنَاءَ أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ (٣٥) خمس آيات بلاخلاف

قرأ ﴿ من الرهب ﴾ بفتح الراء والهاء - ابن كثير ونافع و ابو جعفر و ابو عمرو . الباقون - بضم الراء وسكون الهاء - إلا حفصاً ، فانه قرأ - بفتح الراء وسكون الهاء - وقرأ ابن كثير و ابو عمرو ﴿ فذانك ﴾ مشددة النون . الباقون بالتخفيف . وقرأ نافع ﴿ رداً ﴾ بفتح الدال من غير همز منوناً . وقرأه ابو جعفر بالف بعد الدال من غير همز وغير تنوين . الباقون بسكون الدال وبعدها همزة مفتوحة منونة . وقرأ عاصم و حمزة ﴿ يصدقني ﴾ بضم القاف .

الباقون بالجزم .

الرهب والرهب لغتان مثل النهر والنهر ، والسمع والسمع . وقيل في تشديد ﴿ ذانك ﴾ ثلاثة اقوال ! احدها - للتوكيد ، الثاني - للفرق بين النون التي تسقط للاضافة . وبين هذه النون . الثالث - للفرق بين بنية الاسم المتمكن وغير المتمكن . وروي عن ابن كثير انه قرأ ﴿ فذانيك ﴾ قال ابو علي : وجه ذلك انه أبدل من احدى النونين ياء ، كما قالوا : تظنيت وتظننت . ومن جزم ﴿ يصدقني ﴾ جعله جواباً للامر وفيه معنى الشرط . وتقديره : إن ارسلته صدقني ومن رفع جعله صفة للنكرة . وتقديره رداء مصداقاً لي . وقال مقاتل : الرهب الكم ، ويقال وضعت الشيء في رهي اي في كمي ، ذكر الشعبي انه سمع ذلك من العرب . ومن شدد ﴿ ذانك ﴾ جعله تثنية (ذلك) ومن خفف جعله تثنية (ذاك) .

اخبر الله تعالى انه لما قال لموسى ﴿ اني انا الله رب العالمين ﴾ أمره ايضاً ان يلقي عصاه ، وانه القاها أي طرحها واخرجها من يده الى الارض فانقلبت باذن الله ثعباناً عظيماً ﴿ تهتز ﴾ باذن الله ﴿ كأنها جان ﴾ في سرعة حركته ، وشدة اهتزازة ، فعلم موسى عند ذلك ان الذي سمعه من الكلام صادر من الله ، وان الله هو المكلم له دون غيره ، لأن ذلك إنما يعلمه بضرب من الاستدلال . وقوله ﴿ ولى مدبراً ، ولم يعقب ﴾ اي لم يرجع ، اي خاف بطبع البشرية وتأخر عنها ولم يقف ، فقال الله تعالى له ﴿ يا موسى اقبل ولا تخف انك من الآمنين ﴾ من ضررها . والعصا عود من خشب كالعمود ، وفي انقلابه حية دليل على ان الجواهر من جنس واحد ، لأنه لا حال ابعد الى الحيوان من حال الخشب . وما جرى مجراه من الجماد ، وذلك يقتضي صحة قلب الأبيض الى

حال الاسود ، والاهتزاز شدة الاضطراب في الحركة ، والحيوان له حركة تدل عليه إذا رأي عليها لا يشك في انه حيوان بها . وهي التصرف بالنفس من غير ربح ، ولا سبب يولد التصرف مع كونه على البنية الحيوانية . وقيل : ان الله امره ان يدخل يده في فيها ، ففعل فعادت عصاً كما كانت . ثم امره الله ان يسلك يده في جيبه ، أي بأن يدخلها فيه ، وكانت سمرة شديدة السمرة فلما اخرجها خرجت بيضاء نقية ﴿ من غير سوء ﴾ أي من غير برص .

وقوله ﴿ واضمم اليك جناحك ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : يعني يدك ﴿ من الرهب ﴾ يعني من الرعب ، والفرق الذي لحقه لأجل الحية - في قول مجاهد ، وقتادة - وقال قوم : ان معناه امر له بالعزم على ما اريد له مما امر به ، وحثه على الجد فيه ، ويمنعه ذلك من الخوف الذي لحقه ، ولا يستعظم ذلك ، فيكون ذلك مانعاً مما امر به ، كما قال ﴿ سنشد عضدك بأخيك ﴾ ولم يرد خلاف الحل فكذلك الضم ليس يراد به الضم المزيل للفرجة . ومثله قول الشاعر :

اشدد حيازيمك الموت فان الموت لافيك ولا تجزع من الموت إذا حل يواديك (١)
وانما يريد تاهب له . ثم قال « فذا نك » يعني قلب العصا حية واخراج اليد البيضاء « برهانان » أي دليلان ، واضحان من الله في ارسالك الى فرعون واشراف قومه .

ثم اخبر تعالى أن فرعون وقومه « كانوا قوماً فاسقين » خارجين من طاعة الله الى معاصيه . ثم حكى تعالى ما قال موسى ، فانه قال يا رب « اني قتلت منهم نفساً » يعني القبطي الذي وكره ففضى عليه « فأخاف ان يقتلوني » بدله .

وقال أيضاً « وأخي هارون هو أفصح مني لساناً » لأن موسى كان في لسانه عقدة ولم يكن كذلك هارون ، وسأل الله تعالى أن يرسل هارون معه « رده آ » أي عوناً ، والرده العون الذي يدفع السوء عن صاحبه ، ومنه رده الشيء . يردأه ردأه أي فهو ردىء ، فالرد المعين في دفع الردا عن صاحبه . ويقال : ردأته اردأه رده آ إذا أعنته . و اردأته أيضاً لغتان . وقوله « يصدقني » من جزمه جعله جواباً للامر ، ومن رفعه جعله صفة للنكرة ، وتقديره رده آ مصداقاً « إني أخاف أن يكذبون » في ادعاء النبوة والرسالة . وقيل : ان موسى ما سأل ذلك إلا باذن الله ، لانه لا يجوز ان يسأل نبي أن يرسل معه إنساناً آخر نبياً ، وهو لا يعلم أنه يصلح لذلك ، فلا يجاب اليه ، فان ذلك ينفر عنه . فقال الله تعالى « سنشد عضدك باخيك » أي سنقويك به بأن نقرنه اليك في الرسالة لنقوي بعضكما ببعض . « ونجعل لك سلطاناً » يعني حجة وقوة ، وهي التي كانت لهما بالعصا . والسلطان القوة التي يدفع بها على الأمر . والسلطان الحجة الظاهرة ، وتقديره ونجعل لك سلطاناً ثابتاً « فلا يصلون اليكما » فيه تقديم وتأخير .

ثم قال تعالى « فلا يصلون اليكما » يعني فرعون ، وقومه لا يتمكنون من قتلكما ، ولا أذاكما ، ثم قال « بآياتنا » أي بحججنا وبراهيننا « انما ومن اتبعكما » من بني إسرائيل وغيرهم « الغالبون » لفرعون ، فعلى هذا يكون « أنما » مبتدأ ، « ومن اتبعكما » عطفاً عليه « والغالبون » خبره « وبآياتنا » متعلق بقوله « الغالبون » . وعلى الوجه الآخر يكون « بآياتنا » متعلقاً بقوله « ويجعل لك سلطاناً بآياتنا » قال الزجاج : يجوز أن يكون « بآياتنا » متعلقاً بقوله « فلا يصلون اليكما » بآياتنا وحججنا ، وكل ذلك محتمل .

قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أُطْعَمُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَأَسْتَكَبرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بَغْيَ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤٠) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ ابن كثير « قال موسى » بلا واو ، وكذلك هو في مصاحف أهل مكة . الباقر - بالواو - وكذلك هو في المصاحف .

وقرأ أهل الكوفة إلا عاصمًا « من يكون » بالياء . الباقر بالتاء .

من قرأ بالياء فلأن تأنيث العاقبة ليس بحقيقي . ومن قرأ بالتاء ، فلأن لفظه مؤنث . وتقدير الكلام إن موسى مضى إلى فرعون « فلما جاءهم موسى بآياتنا » أي حججنا « بينات » أي ظاهرات « قالوا » يعني فرعون وقومه ليس « هذا » الذي يدعيه « إلا سحر مفترى » أي مخلوق مفتعل . والفرق

بين (لو) و (لما) أن (لو) لتقدير وقوع الثاني بالاول ، و (لما) للإيجاب في وقوع الثاني بالاول. وقولك: ولو جاءهم موسى بآياتنا قالوا، ليس فيه دليل انهم قالوا وفي (لما) دليل على أنهم قالوا عقيب مجيء الآيات. وقوله ﴿ سحر مقترى ﴾ اي سحر مختلف لم يبين على اصل صحيح ، لأنه حيلة موهم خلاف الحقيقة ، فوصفوا الآيات بالسحر والاختلاق ، على هذا المعنى جهلا منهم وذهاباً عن الصواب.

وقوله ﴿ ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين ﴾ أي لم نسمع ما يدعيه ويدعو اليه في آبائنا الذين كانوا قبلنا ، وانما قالوا ﴿ ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين ﴾ مع شهرة قصة قوم نوح وصالح وغيرهم من النبيين الذين دعوا الى توحيد الله واخلاص عبادته لأحد امرين :

احدهما - للفترة التي دخلت بين الوقتين وطول الزمان جحدوا أن تقوم به حجته ،

والآخر - إن آباءهم ما صدقوا بشيء من ذلك ، ولا دانوا به ، ووجه الشبهة في أنهم ما سمعوا بهذا في آبائهم الاولين أنهم الكثير الذين لو كان حقاً لأدركوه ، لأنه لا يجوز أن يدرك الحق إلا نقص في العقل والرأي ، ولا يدركه الافضل منهما ، وهذا غلط ، لأن ما طريقه الاستدلال قد يصيبه من سلك طريقه ولا يصيبه من لم يسلك طريقه .

ثم حكى ما قال موسى بأنه قال ﴿ ربي اعلم بمن جاء بالهدى ﴾ أي بالدين الواضح والحق المبين من عنده ، ووجه الاحتجاج بقوله ﴿ ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ﴾ أنه عالم بما يدعو الى الهدى مما يدعو الى الضلال ، فلا يمكن من مثل ما أتيت به من يدعو الى الضلال ، لأنه عالم بما في ذلك من فساد العباد

ثم بين هذا بقوله ﴿ انه لا يفلح الظالمون ﴾ وان عاقبة الصلاح لأهل الحق والانصاف ، وهو كما تقول على طريق المظاهرة بحمل الخطاب : الله أعلم بالحق منا من المبطل وحجتي ظاهرة ، فأكسرها ان قدرت على ذلك ﴿ ومن تكون له عاقبة الدار ﴾ يعني الجنة والثواب في الآخرة ﴿ انه لا يفلح ﴾ أي لا يفوز بالخير من ظلم نفسه وعصى ربه وكفر نعمه .

ثم حكى تعالى ما قال فرعون عند سماع كلام موسى لقومه فانه قال لهم ﴿ يا ايها الملاء ما علمت لكم من إله غيري ﴾ فلا تصغوا الى قوله ، حين أعياء الجواب وعجز عن محاجته . ثم قال لهامان ﴿ اوقد لي ياهامان على الطين فاجعل لي صرحاً ﴾ قال فالصرح البناء العالي كالقصر ، ومنه التصريح شدة ظهور المعنى قال الشاعر :

بهن نعمام بناهاها الرجا ل تحسب اعلامهن الصروح (١)

جمع صرح وهي القصور ، وقال قتادة : اول من طبع الآجر وبنى به فرعون . ويقال : الآجر بالتخفيف ، والتثقيب ، والآجور ثلاث لغات .

وقوله ﴿ لعلي اطلع الى اله موسى ﴾ فلا اطلاع الظهور على الشيء من عل ، وهو الاشراف عليه . وقوله ﴿ واني لاظنه من الكاذبين ﴾ حكاية ما قال فرعون فانه قال : أظن موسى من جملة الذين يكذبون . ثم اخبر تعالى ان فرعون استكبر ، وكذلك جنوده ، واستكبروا ﴿ في الارض بغير الحق ، وظنوا انهم ايننا لا يرجعون ﴾ الى الله والى ثوابه وعقابه . وقوله ﴿ فاخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ﴾ اخبار منه تعالى انه اخذ فرعون وجنوده أي جمعهم وطرحهم في البحر ، وغرقهم . والنبذ الالقاء ، قال ابو الاسود الدؤلي :

(١) تفسير القرطبي ١٣ / ٢٠٩ والطبري ٢٠ / ٤١

نظرت الى عنوانه فنبذته كنبذك نعلأ أخلقت من نعالكا (١)
وقال قتادة : البحر الذي غرق فيه فرعون يقال له : اسناد ، على مسيرة
يوم من مصر .

قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ (٤١)
وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى
بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) وَمَا كُنْتَ
بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ
الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا
كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا
مُرْسَلِينَ ﴾ (٤٥) خمس آيات بلا خلاف .

اخبر الله تعالى انه جعل فرعون وقومه ﴿ أئمة يدعون الى النار ﴾ وقيل في
معناه قولان :

احدهما - انا عرفنا الناس انهم كانوا كذلك ، كما يقال : جعله رجل
شر بتعريفه حاله . والثاني - انا حكمنا عليهم بذلك ، كما قال ﴿ ما جعل الله

من بحيرة ولا سائبة ﴿١﴾ وكما نال ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾ (٢) وانما قال ذلك ، و اراد انهم حكموا بذلك ، وسموه . والجعل على اربعة اقسام :

احدها - بمعنى الاحداث ، كقوله ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ (٣) وقوله ﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظاً﴾ (٤) .

الثاني - بمعنى قلبه من حال الى حال كجعل النطفة علقه الى ان تبصر انساناً

الثالث - بمعنى الحكم انه على صفة ، كما قال انه جعل رؤساء الضلالة يدعون الى النار اى حكم بذلك .

الرابع - بمعنى اعتقد انه على حال كقوله جعل فلان فلاناً راجباً إذا اعتقد فيه ذلك . والامام هو المقدم للاتباع يقتدون به ، فرؤساء الضلالة قدموا في المنزلة لاتباعهم فيما يدعون اليه من المغالبة . وانما دعوهم الى فعل ما يؤدي بهم الى النار ، فكان ذلك كاللدعاء الى النار . والداعي هو الطالب من غيره ان يفعل إما بالقول او ما يقوم مقامه ، فداعي العقل بالاظهار الذي يقوم مقام القول . وكذلك ظهور الارادة يدعو الى المراد .

وقوله ﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾ معناه : انهم كانوا يتناصرون في الدنيا ، وهم لا ينصرون في الآخرة بنصر بعضهم لبعض ، ولا غيره ولا احد ينصرهم .

وقوله ﴿واتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ معناه الحقنا بهم في هذه الدنيا لعنة بأن لعناهم وابعدناهم من رحمتنا . وقال ابو عبيدة معناه ألزمنهم بأن امرنا بلعنهم ، قوماً بعد قوم ﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ مع اللعنة .

(١) سورة المائدة آية ١٠٦ (٢) سورة الانعام آية ١٠٠

(٣) سورة ١٧ الاسرى آية ١٢ (٤) سورة ٢١ الانبياء آية ٣٢

والاتباع إلحاق الثاني بالأول ، فهو لاء الدعاء الى الضلالة ألحقوا اللعنة تدور معهم حيث ما كانوا ، وفي ذلك أعظم الزجر عن القبيح . وقيل : المقبوح المشوه بخلقته لقبيح عمله ، ويقال : قبحه الله يقبحه قبحاً ، فهو مقبوح إذا جعله قبيحاً وقال ابو عبيدة : معنى (المقبوحين) المهلكين .

ثم اخبر تعالى انه أعطى موسى الكتاب يعني التوراة من بعد ان اهلك القرون الاولى من قوم فرعون وغيرهم ، وانه فعل ذلك « بصائر للناس » وهي جمع بصيرة يتبصرون بها ويعتبرون بها وجعل ذلك هدى يعني ادلة وبياناً ورحمة اي ونعمة عليهم لكي يتذكروا ويتفكروا فيعتبروا به . وقوله « وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا الى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين » معناه ما كنت بجانب الغربي أي الجبل - في قول قتادة - حين قضينا اليه الأمر اي فصلنا به الأمر بما أئزمناه وقومه وعهدنا اليه فيهم ، فلم تشهد انت ذلك « ولكننا انشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاوياً في اهل مدين » أي مقيماً فالثاوي المقيم قال الاعشى :

أثوى وقصر ليلة ليزودا ومضى وأخلف من قتيلة موعدا (١)
« تتلو عليهم آياتنا ولكننا كنا مرسلين » والمعنى انك لم تشهد احساننا الى الى عبادنا بارسال الرسل ونصب الآيات وانزال الكتب بالبيان والهدى وما فيه الشفاء لاعمى كأنه يقول لم تراي شيء كان هناك ، تفخيماً لشأنه مع انك انما تخبر به عنا ، ولو لا ما أعلمناك منه لم تهتد له .

قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَهُ مِنْ رَبِّكَ ﴾

لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَيْهِمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦)
 وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا كَوْلَا
 أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)
 فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى
 أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا
 وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ
 أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا
 لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ
 بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ خمس
 آيات بلا خلاف .

قرأ أهل الكوفة « سحران » بغير الف ، الباقون « ساحران » وقيل في

معناه قولان :

أحدهما - قال مجاهد أراد موسى وهارون ،

والثاني - قال ابن عباس : أراد موسى ومحمد « تظاهرا » : أي تعاونا .

ومن قرأ « سحران » قال ابن عباس : أراد التوراة والقرآن . وقال

الضحاك : أراد الانجيل والقرآن . وقال عكرمة : أراد التوراة والانجيل . ومن

اختار « ساحران » فلا نه قال تظاهرا وذلك إنما يكون بين الساحرين دون

السحرين . ومن قرأ « سحران » قال : في ذلك ضرب من المجاز ، كما قال « بكتاب من عند الله هو اهـدى » (١) والكتاب يهتدى به ، ولا يهدي .
وأما يقال ذلك مجازاً .

يقول الله تعالى لنبيه (ص) « ما كنت بجانب الطور » الذي كلم الله عليه موسى حين ناداه وكلمه . وقال له « إني أنا الله » (٢) « يا موسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين » (٣) « فخذها بقوة » (٤) وقيل : إن هذه المرة الثانية التي كلم الله فيها موسى « ولكن رحمة من ربك » ومعناه لكن آتيناك علم ذلك رحمة من ربك ، ونعمة عليك ، لما فيه من العبرة والموعظة ، وإن سبيلك لسبيل غيرك من النبيين في التأيد والمعجزة الدالة على النبوة .

وقوله « لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك » فلا تذار الاعلام بوضع الخفاة ليتقى ، فالنبي (ص) نذير لأنه معلم بالمعاصي ، وما يستحق عليها من العقاب ، لتتقى بالطاعات ، والنذر العقد على ضرب من البر بالسلامة من الخوف والمعنى إنا أعلمناك لتخوف قوماً لم يأتهم مخوف قبلك ليتذكروا ويعتبروا ، وينزعوا عن المعاصي . و (التذكر) طلب الذكر بالفكر والنظر .

وقوله « ولولا ان تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم » أي لولا أن تلحقهم مصيبة جزاء على ما كسبت أيديهم فيقولوا حينئذ « لولا ارسلت إلينا رسولا » أي هلا ارسلت إلينا من ينهانا عن المعاصي ويدعونا إلى الطاعات ﴿ فتتبع آياتك ﴾ أي ادلتك وبيناتك ﴿ ونكون من المؤمنين ﴾ بوحدانيتك لما أهلكناهم عاجلاً بكفرهم ، فجواب (لولا) محذوف لدلالة الكلام عليه ، لأن

(٢) سورة ٢٠ طه آية ١٤

(١) آية ٤٩ من هذه السورة

(٤) سورة ٧ الاعراف آية ١٤٤

(٣) آية ٣١ من هذه السورة

معنى الكلام الامتنان عليهم بالامهال حتى يتذكروا ما أتى به الرسول (ص) .
وقال قوم جواب (لولا) ﴿ ارسلت النار سولا ﴾ .

وفي الآية دلالة على وجوب فعل اللطف ، لأنه لو لم يكن فعله واجبا لم يكن للآية معنى صحيح . ثم اخبر تعالى انه ﴿ فلما جاءهم ﴾ يعني الكفار ﴿ الحق من عندنا ﴾ من عند الله من القرآن والادلة الدالة على توحيده ﴿ قالوا ﴾ عند ذلك : هلا أوتي محمد من المعجزات ﴿ مثل ما أوتي موسى ﴾ من قبل : من فلق البحر وقلب العصا حية وغير ذلك . فقال الله تعالى ﴿ او لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ﴾ قال الجبائي معنى ﴿ او لم يكفروا ﴾ اي او لم يكفر من كان في عصر موسى وهارون ، ونسبوهما الى السحر ف ﴿ قالوا ساحران تظاهرا ﴾ اي موسى ومحمد - في قول ابن عباس ، وفي قول مجاهد : موسى وهارون . ومن قرأ (سحران) أراد التوراة والقرآن او التوراة والانجيل او الانجيل والقرآن . على ما حكيناه بخلاف فيه وأنهم قالوا مع ذلك ﴿ انا بكل كفرون ﴾ اي بكل ما امر به ، وذكر أنه من عند الله . ويحتمل ان يكون المراد بموسى وهارون . وقال الحسن : المعنى بقوله ﴿ انا بكل كفرون ﴾ مشركوا العرب الذين كفروا بالتوراة والانجيل والقرآن .

ثم امر تعالى نبيه (ص) أن يقول لكفار قومهم ﴿ فأتوا بكتاب من عند الله هو اهدى منهما ﴾ يعني من كتاب موسى وكتاب محمد - في قول ابن زيد - « اتبعه ان كنتم صادقين » فيما تدعونه ، ثم قال لنبيه (ص) « فان لم يستجيبوا لك » مع ظهور الحق « فاعلم انما يتبعون اهواءهم » أي ما تميل طباعهم اليه ، لأن الهوى ميل الطبع الى المشتهى . وما عمل على انه حسن للهوى فلا يجوز أن يكون طاعة لكنه أبيح أن يفعله على هذا الوجه ، كما أبيح أن

يفعله للذة والشهوة ، والاستمتاع به . وإنما يكون طاعة لله ما عمل على أنه حسن لان الحكم دعا اليه او لان الحكمة دعت اليه إذ كلما دعت اليه الحكمة بالترغيب فيه فالحكم داع اليه .

ثم اخبر تعالى فقال « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين » أي لا يهديهم الى طريق الجنة . ويجوز ان يكون المراد لا يحكم بهدايتهم ، لانهم عادلون عن طريق الحق .

قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ
آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣)
أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُؤْنَ بِالْحَسَنَةِ
السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا
عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي
الْجَاهِلِينَ ﴾ (٥٥) خمس آيات بلاخلاف .

يقول الله تعالى إنا « وصلنا » لهؤلاء الكفار « القول » وقيل في

معناه قولان :

أحدهما - قال ابن زيد « وصلنا لهم القول » في الخبر عن أمر الدنيا والآخرة

الثاني - قال الحسن البصري « وصلنا لهم القول » بما أهلكنا من القرون

قرناً بعد قرن فأخبرناهم أنا أهلكنا قوم نوح بكذا ، وقوم هود بكذا ، وقوم صالح بكذا « لعلهم يتذكرون » فيخافوا أن ينزل بهم ما نزل بمن كان قبلهم .
واصل التوصيل من وصل الحبال بعضها ببعض . ومنه قول الشاعر :

فقل لبني مروان ما بال ذمة وحبل ضعيف ما يزال يوصل (١)

والمعنى انا اتبعنا القرآن بعضه بعضاً . وقيل : معناه فصلنا لهم القول .

وقوله « الذين آتيناهم الكتاب » يعني التوراة ﴿ من قبله ﴾ يعني من قبل القرآن وقد تقدم ذكره في قوله « فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل » .

وقوله « هم به يؤمنون » أي هم بالقرآن يصدقون من قبل نزوله وبعد نزوله . ويحتمل أن تكون الكناية عن النبي ﷺ ، وتقديره الذين آتيناهم الكتاب من قبل محمد هم بمحمد يؤمنون ، لأنهم كانوا يجدون صفته في التوراة ثم قال ﴿ وإذا يتلى عليهم ﴾ يعني القرآن « قالوا آمنا به » أي صدقنا به « انه الحق من ربنا انا كنا » من قبل نزوله « مسلمين » به مستمسكين بما فيه .

ثم اخبر تعالى ان هؤلاء الذين وصفهم بعظيمهم الله أجرهم اي ثوابهم على ما صبروا في جنب الله « مرتين » إحداهما - لفعلهم الطاعة ، والثانية للصبر عليها لما يوجه العقل من التمسك بها ، والصبر حبس النفس عما تنازع اليه فيما لايجوز أن يتخطأ اليه ، ولذلك مدح الله الصابرين . والصبر على الحق مر إلا أنه يؤدي الى الثواب الذي هو أحلى من الشهد ، فهؤلاء صبروا على الامتناع من المعاصي ، وعلى فعل الطاعات . وقيل : صبروا على الأذى في جنب الله .

(١) تفسير القرطبي ١٣ / ٢٩٥ والطبري ٢٠ / ٥١ مع اختلاف قليل في الرواية

﴿ ج ٨ م ٢١ من التبيان ﴾

ثم وصف الصابرين الذين ذكرهم فقال « ويدروُن بالحسنة السيئة » يعني يدفعون بالتوبة المعاصي ، لأن الله تعالى يسقط العقاب عندها . وقيل : معناه يدفعون بالكلام الجميل اللغو من كلام الكفار . وقيل : ان ذلك قبل الأمر بقتالهم ، ولا يمتنع أن يؤمروا ، بالاعراض عن مكالتهم مع الأمر بقتالهم ، ولا تنافي بينهما على حال .

ثم قال « ومما رزقناهم ينفقون » أي جعلنا لهم التصرف فيها ، وملكناهم إياها ينفقون في طاعة الله ، وفي سبيل الخير ، وإذا سمعوا لغواً من الكلام ، ورأوا لغواً من الفعل أعرضوا عنه ، ولم يخاصموا فيه فقالوا لفاعل اللغو « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم » أي لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم « سلام عليكم » أي ويقولون لهم قولاً يسلمون منه . ويقولون « لا نبتغي الجاهلين » أي لا نطلبهم ولا نجازيهم على لغوهم . واللغو الفعل الذي لا فائدة فيه ، وإنما يفعله فاعله على توهم فاسد ، واللغو واللغا بمعنى واحد . قال الشاعر :

عن اللغا ورفت التكلم (١)

ومن احسن الأدب الاعراض عن لغو الكلام . وقيل : ان هذه الآيات نزلت في عبد الله بن سلام ، وتميم الداري ، والجارود العبدى ، وسلمان الفارسي لما أسلموا نزلت فيهم هذه الآيات - على ما ذكره قتادة - وقال غيره : انها نزلت في أربعين رجلاً من أهل الأنجيل كانوا مسلمين بالنبي ﷺ قبل مبعة ؛ اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب وقت قدومه ، وثمانية قدموا من الشام : منهم بحيرا ، وابرهه ، والاشرف ، وعامر ، وإدريس ، ونافع . قال قتادة : آتاهم الله أجرهم مرتين ، لايمانهم بالكتاب

الأول وإيمانهم بالكتاب الثاني .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ
أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوا إِنَّا نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخِطِفُ
مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ
شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ
أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ
بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ
مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا
كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ
فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴾ (٦٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ أهل المدينة ورويس « يجي » بالياء . الباقون بالتاء . وقرأ أبو عمرو

إلا السوسي « يعقلون » بالياء .

يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ « إِنَّكَ » يا محمد « لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ »

هدايته . وقيل : معناه من احببته لقرابته . والمراد بالهداية - ههنا - اللطف

الذي يحتاج اليه ليختار عنده الايمان ، وذلك لا يقدر عليه غير الله لانه إما أن يكون من فعله خاصة أو باعلامه ، لأنه لا يعلم ما يصلح العبد في دينه إلا الله تعالى ، فاذا دبر الامور على ما فيه صلاحه كان لاطفأ له ، وهذا التدبير لا يتأتى من أحد سوى الله تعالى ، فلذلك نفى الله ذلك عن نبيه ، ويؤيد ماقلناه قوله «وهو أعلم بالمهتدين» ومعناه هو أعلم بمن يهدي باللفظ ممن لا يهدي ، فهو تعالى يدبر الأمور على ما يعلم من صلاح العباد ، على التفصيل من غير تعليم .

وهذه الآية نزات لأن النبي ﷺ كان يحرص على إيمان قومه وبؤثرأن يؤمنوا كلهم ، ويجب أن ينقادوا له ويقروا بنبوته ، وخاصة أقاربه . فقال الله تعالى له : إنك لا تقدر على ذلك ، وليس في مقدورك ما تلتطف بهم في الايمان ذلك بل في مقدور الله يفعله بمن يشاء إذا علم أنهم يهتدون عند شيء فعله بهم فلا ينفع حرصك على ذلك . وروي عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغيرهم أنها نزلت في أبي طالب . وعن ابي عبد الله وابي جعفر إن أبا طالب كان مسلماً وعليه اجماع الامامية ، لا يختلفون فيه ، ولهم على ذلك أدلة قاطعة موجبة للعلم ليس هذا موضع ذكرها .

ثم قال تعالى حاكياً عن الكفار انهم قالوا : إن نتبع محمداً وما يدعونا اليه ونقول انه هدى وموصل الى الحق « نتخطف من ارضنا » وقيل : انها نزلت في الحارث بن نوفل بن عبد مناف ، فانه قال للنبي ﷺ انا لنعلم أن قولك حق ولكن يمنعنا أن نتبع الذي معك ، ونؤمن بك مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا يعني مكة ، ولا طاقة لنا بالعرب فقال الله تعالى ﴿ أو لم نمكن لهم حرماً آمناً ﴾ فالتخطف اخذ الشيء على الاستلاب من كل وجه : تخطف تخطفاً واختطف اختطافاً وخطفه يخطفه خطفاً قال امرؤ القيس :

نخطف خزان الشرية بالضحي وقد حجرت منها ثعالب أورال (١)
فقال الله تعالى لهم « أو لم نمكن لهم حرماً آمناً » وقيل في وجه جعله
الحرم آمناً وجهان :

أحدهما - بما طبع النفوس عليه من السكون إليه بترك النفور مما ينفر عنه
في غيره كالغزال مع الكلب ، والحمام مع الناس وغيرهم .
والوجه الآخر - بما حكم به على العباد وأمرهم أن يؤمنوا من يدخله
ويلوذ به ، ولا يتعرض له ، وفائدة الآية إنا جعلنا الحرم آمناً لحرمية البيت مع
أنهم كفار يعبدون الأصنام حتى آمنوا على نفوسهم وأموالهم ، فلو آمنوا
لكان أخرى بأن يؤمنهم الله ، وأولى بأن يمكنهم من مراداتهم .
وقوله « يجبي إليه ثمرات كل شيء » أي يجلب الى هذا الذي جعلناه
حرماً ثمرات كل شيء .

فمن قرأ بالتاء فلتأنيث الثمرات . ومن قرأ بالياء ، فلأن التأنيث
غير حقيقي .

وقوله « رزقاً من لدنا » نصب على المصدر ، وتقديره رزقاً رزقناه من
عندنا « ولكن أكثرهم لا يعلمون » ما أنعمنا به عليهم . ثم قال « وكم أهلكنا
من قرية » أي من أهل قرية استحقوا العقاب « بطرت معيشتها » قال الفراء :
معناه أبطرتها معيشتها ، كقولهم أبطرك مالك ، فذكرت المعيشة ، لان الفعل
كان لها في الأصل خول الى ما أضيفت اليه فنصبت كما قال « فان طبن لكم عن
شيء منه نفساً » (٢) فالبطر والاشر واحد ، وهو شق العصا بتضييع حق نعم

(١) شرح ديوانه ١٦٦ (حسن السندوني)

(٢) سورة النساء آية ٣

الله ، والطغيان فيها بجحدها ، والكفر بها .

ثم اخبر تعالى فقال « فتلک مساکنهم » يعني مساكن الذين اهلكهم الله « لم تسكن من بعدهم الا قليلا » من الزمان . ثم هلكوا وورث الله تعالى مساكنهم لانه لم يبق منهم احد . ثم خاطب نبيه ﷺ فقال « وما كان ربك » يا محمد « مهلك القرى ، حتى يبعث في أمها رسولا » وقيل في معنى « أمها » قولان : احدهما - في أم القرى ، وهي مكة .

والآخر في معظم القرى في سائر الدنيا « يتلو عليهم آياتنا » اي يقرأ عليهم حجج الله وبياناته « وما كنا مهلكي القرى الا واهلها ظالمون » لنفوسهم بارتكاب المعاصي ، وكفران نعمه .

ثم خاطب خلقه فقال « وما أوتيتم من شيء » اي ما اعطيتم من شيء « فمتاع الحياة الدنيا » اي هو شيء تنتفعون به في الحياة الدنيا ، وتزینون فيها ﴿ وما عند الله ﴾ من الثواب ونعيم الجنة ﴿ خير وأبقى ﴾ من هذه النعم ، لانها باقية ، وهذه فانية ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ذلك وتفكرون فيه .

وقوله ﴿ ثمرات كل شيء ﴾ قيل : ان (كل) ههنا البعض ، لانا نعلم انه ليس يجبي الى مكة كثير من الثمرات . وقال قوم : ظاهر ذلك يقتضى انه يجبي اليه جميع الثمرات إما رطباً او يابساً ، ولا مانع يمنع منه .

ومن قرأ ﴿ تعقلون ﴾ بالتاء فلقوله ﴿ وما أوتيتم ﴾ ومن قرأ بالياء فتقديره ﴿ أفلا يعقلون ﴾ يا محمد .

قوله تعالى :

﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَا يَأْتِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا أَغْوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿ (٦٥) خمس آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى منبهاً لخلقه على عظيم ما انعم به عليهم ورجبهم فيه - من ثواب الجنة « أفمن وعدناه وعداً حسناً » يعني من ثواب الجنة جزاء على طاعته يكون بمنزلة من متعناه متاع الحياة الدنيا ؟ ! وقال السدي المعنى بقوله « أفمن وعدناه » حمزة بن عبد المطلب ، وعلي بن أبي طالب عليه السلام وعدما الله الجنة . وقيل : النصر في الدنيا والجنة في الآخرة - ذكره الضحاك ومجاهد - « كن متعناه متاع الحياة الدنيا » يعني به أبا جهل « ثم هو يوم القيامة من المحضرين » في النار . وقيل للجزاء . وقيل : نزلت في النبي صلى الله عليه وآله وأبي جهل والمتعة هي المنفعة . وقد فرق بينهما بأن المتعة منفعة توجب الالتذاذ في الحال ، والنفع قد يكون بألم يؤدي الى لذة في العاقبة ، فكل متعة منفعة ، وليس كل منفعة متعة . والمتاع على وجهين :

أحدهما - كالادوات التي يتمتع بها من نحو الفرس ، والاثاث والثياب وغيرها

والثاني - يكون بمعنى المتعة . والمراد - ههنا - متعة الحياة الدنيا .

وقوله - « ثم هو يوم القيامة من المحضرين » يعني من المحضرين للجزاء بالعقاب ، لأنه تعالى ذكر من وعد وعداً حسناً ، فدل ذلك على أهل الثواب ثم ذكر انه لا يستوي أهل الثواب وغيرهم ، فدل على أهل العقاب ، لبعد حال كل فريق من الفريقين عن الآخر . والاحضار إيجاد ما به يكون الشيء بحيث يشاهد ، فلما كان هؤلاء القوم يوجدون يوم القيامة ما به يكرهون بحيث يشاهد الخلائق . كانوا محضرين . ثم قال « ويوم يناديهم » وتقديره : واذكر يوم ينادي الله الكفار ، وهو يوم القيامة « فيقول » لهم على وجه التوبيخ لهم والتقريع « ابن الذين » اتخذتموهم شركائي فعبدتموهم معي على قولكم وزعمكم والزعم القول في الأمر عن ظن أو علم ، ولذلك دخل في باب العلم ، واخوانه قال الشاعر :

فان تزعميني كنت أجهل فيكم فاني شريت الحلم بعدك بالجهل (١)

ثم حكى ان « الذين حق عليهم القول » بالعقاب : من الشياطين والانس والذين أغووا الخلق من الانس يقولون في ذلك اليوم « ربنا هؤلاء » يعني من ضل بهم من الناس واتخذوا شركاء من دون الله هم « الذين اغوينا اغويناهم كما غوينا تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون » اي تبرأ بعضهم من بعض ، وصاروا أعداء . ويقولون لم يكن الانس يعبدوننا . ثم حكى الله فقال « وقيل » لهم « ادعوا شركاءكم » الذين عبدتموهم من دون الله . ثم حكى انهم يدعونهم « فلا يستجيبون لهم ويرون العذاب لو انهم كانوا يهتدون » وقيل في معناه قولان :

أحدهما - لو أنهم كانوا يهتدون ما رأوا العذاب .

والثاني - لو كانوا يهتدون لرأوا العذاب .

ثم قال « ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين » فيما دعوكم اليه من توحيد الله وعدله واخلاص العبادة له .

قوله تعالى :

﴿ فَعَمِيتَ عَلَيْهِمُ الْآنْبَاءَ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٧٠) خمس آيات بلا خلاف .

لما حكى الله تعالى أنه ينادي الكفار يوم القيامة ويقررهم عما أجابوا به المرسلين ، أخبر أنهم تعمي عليهم الحجج ، فهم لا يسأل بعضهم بعضاً . والعمی آفة تنافي صحة البصر « وعميت عليهم الأنباء » فيه تشبيه بالعمى عن الابصار لانسداد طريق الاخبار عليهم ، كما تنسد طرق الأرض على الأعمى ، ومعنى « فهم لا يتساءلون » أي هم لانسداد طرق الاخبار عليهم لم يجيبوا عما سئلوا ﴿ ج ٨ م ٢٢٢ بن التبيان ﴾

عنه ، ولا يسأل بعضهم بعضاً عنه ، لا تقطاعهم عن الحجة ، ولا ينافي قوله « فهم لا يتساءلون » قوله في موضع آخر « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » (١) لان يوم القيامة مواطن يختلف فيها حالهم ، فمرة تطبق عليهم الخيرة ، فلا يتساءلون ، ومرة يفتقون فيتساءلون . وقال الحسن : لا يسأل بعضهم بعضاً أن يحمل عنه شيئاً كما كانوا في الدنيا .

ثم اخبر تعالى « ان من تاب » من المعاصي ورجع عنها الى الطاعات ، و اضاف الى ذلك الاعمال الصالحات « فعسى أن يكون من المفلحين » وإنما أدخل (عسى) في اللفظ مع انه مقطوع بفلاحه ، لأنه على رجاء أن يدوم على ذلك ، فيفلح ، وقد يجوز أن يزول فيما بعد ، فيهلك ، فلماذا قل « فعسى » على انه قيل : إن عسى من الله في جميع القرآن واجبة .

ثم اخبر تعالى فقال « وربك » يا محمد « يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » قيل في معناه قولان :

احدهما - يختار الذي كان لهم فيه الخيرة ، فدل بذلك على شرف اختياره لهم . الثاني - أن تكون (ما) نفيًا أي لم يكن لهم الخيرة على الله بل لله الخيرة عليهم ، لأنه مالك حكيم في تدبيرهم ، فيكون على هذا الوجه الوقف على قوله « ويختار » وهو الذي اختاره الزجاج . وقال الحسن : معناه « ما كان لهم الخيرة » اي أن يختاروا الأنبياء ، فيبعثوهم . وقال مجاهد « لا يتساءلون » بالانساب والقرباب . وقيل « لا يتساءلون » بما فيه حجج لهم ، وقوله « سبحانه وتعالى عما يشركون » معناه ما عظم الله حق عظمته من اشرك في عبادته ، لأن من تعظيمه اخلاص الالهية له ، وانه الواحد فيما تفرد به على

استحقاق العبادة ، وأنه لا يجوز أن يستغنى عنه بغيره ، فمن اشرك في عبادته فما عظمه حق تعظيمه ، فهذا قد قبح فيما أتى وضيع حق نعمه .

ثم قال تعالى لنبيه ﷺ « وربك يا محمد يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون » أي عالم بما يخفونه وما يظهرونه ، يقال : اكننت الشيء في صدري أي أخفيته و (كننته) بغير ألف صنته . وقيل : كننت الشيء واكننته لغتان .

ثم اخبر تعالى أنه إله الذي لا إله سواه ، ولا يستحق العبادة غيره في جميع السموات والارض ، وأنه يستحق الثناء والحمد والمدح والتعظيم ، على ما انعم به على خلقه في الدنيا والاخرة « وله الحكم » بينهم بالفصل بين المختلفين بما يميزه الحق من الباطل . وان جميع الخلق يرجعون اليه يوم القيامة الذي لا يملك احد الحكم غيره . وقيل قوله « وربك يخلق ما يشاء ويختار » ذلك في الوليد بن المغيرة حين قال « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (١) فبين الله تعالى أن له أن يختار ما يشاء لنبوته ورسالته بحسب ما يعلم من يصلح لها .

قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَا تَيْكُمُ بُضِيَاءُ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَا تَيْكُمُ بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٧٢)

رَحْمَتِهِ وَمَنْ جَدَلَ لَكُمْ أَلَلَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ
فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِي
الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا
هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ (٧٥) خمس آيات بلاخلاف .

يقول الله لنبيه ﷺ « قل » يا محمد لهؤلاء الكفار الذين عبدوا معي آلهة
تنبيهاً لهم على خطئهم ﴿ أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً ﴾ أي دائماً
﴿ الى يوم القيامة ﴾ بلا نهار ولا ضياء ﴿ من إله غير الله يأتيكم بضياء ﴾ كضياء
النهار تبصرون فيه ، فانهم لا يقدرّون على الجواب عن ذلك إلا بأنه لا يقدر
على ذلك سوى الله تعالى، فحينئذ يلزمهم الحجة بأنه لا يستحق العبادة غير الله
وهذا تنبيه منه لنبيه ﷺ ولخلق على وجه الاستدلال على توحيده ويبطل
ذلك قول من قال : المعارف ضرورية . لأنه لو كان تعالى معلوماً ضرورة لما
احتاج الأمر الى ذلك ، لان كونه معلوماً ضرورة يغني عن الاستدلال عليه ، وما
لا يعلم ضرورة من أمر الدين ، فلا يصح معرفته إلا ببرهان يدل عليه .
وقوله ﴿ أفلا تسمعون ﴾ معناه أفلا تقبلونه وتفكرون فيه ؟ وفي ذلك
تبكيت لهم على ترك الفكر فيه ، لانهم إذا لم يفكروا فيما يسمعون من حجج الله
فكانهم ما سمعوه . وقيل في قوله ﴿ أفلا تسمعون ﴾ قولان :
احدهما - أفلا تسمعون هذه الحجة فتدبرونها وتعملون بموجبها إذ كانت
بإنزلة الناطقة بأن ما انتم عليه خطأ وضلال يؤدي الى الهلاك .

والثاني - ان معناه أفلا تقبلون . ثم نبههم ايضاً فقال ﴿ أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً ﴾ أي دائماً ﴿ الى يوم القيامة ﴾ بلا ليل تسكنون فيه ، فانهم لا يقدرّون على الجواب عن ذلك إلا بما يدل على فساد معتقدهم ، وهو انه لا يقدر على ذلك غير الله ، فيحذثد تلزمهم الحجة بأنه لا يستحق العبادة سواه .

وقوله ﴿ افلا تبصرون ﴾ معناه أفلا تتفكرون فيما ترونه ، لأن من لا يتدبر بما يراه من الحجج والبراهين فكأنه لم يرها . وقيل معناه أفلا تعلمون ثم قال ﴿ ومن رحمته ﴾ أي من نعمه عليكم أن ﴿ جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا ﴾ في الليل ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ بالنهار بالسمي فيه ، ولكي تشكروا هذه النعم التي أنعم بها عليكم ، وإلهاء في قوله ﴿ لتسكنوا فيه ﴾ يحتمل وجهين : احدهما - ان يعود الى الليل خاصة ، ويضمر مع الابتغاء هاه أخرى ،

الثاني - ان يعود الضمير اليهما إلا انه واحد ، لأنه يجري مجرى المصدر في قولهم : اقبالك وادبارك يؤذيني ، والاول أصح ، لان الليل للسكون فيه ، والنهار للتصرف والحركة ، ولكنه يحتمل ليكونوا في هذا على التصرف وفي ذلك على الهدوء وقطع التصرف ، وإنما كان الفساد في ادامة النهار في دار التكليف ، ولم يكن في دار النعيم ، لأن دار التكليف لابد فيها من التعب والنصب الذي يحتاج معه الى الاستجمام والراحة ، وليس كذلك دار النعيم ، لانه انما يتصرف فيها بالملاذ . وقوله « اين شركائي الذين كنتم تزعمون » قد مضى تفسيره . وإنما كرر النداء بـ « أين شركائي الذين كنتم تزعمون » لان النداء الأول للتقرير بالافرار على اليقين بالغي الذي كانوا عليه ودعوا اليه . والثاني - للتعجيز عن اقامة البرهان لما طولوا به بحضرة الاشهاد مع

تقريع حاصل به بالاشراك بعد تقريع .

ثم اخبر تعالى انه نزع « من كل أمة » من الأمم « شهيداً » يشهد على تلك الامة بما كان فيها ، ومعنى ﴿ نزعنا ﴾ أخرجنا وأحضرنا يقال : فلان ينزع الى وطنه بأن يحن اليه حينئذ يطالبه بالخروج اليه . قال قتادة ومجاهد : شهيداً نبياً الذي يشهد عليها بما فعلوه ، وقيل هؤلاء الشهود : هم عدول الآخرة الذين لا يخلو زمان منهم يشهدون على الناس بما عملوا من عصيانهم .

وقوله ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ حكاية عما يقول الله تعالى للكفار في الآخرة فانه يقول لهم هاتوا حججكم على ما ذهبتم اليه ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ ثم اخبر تعالى انهم عند ذلك يعلمون ﴿ أن الخلق لله ﴾ أي ان التوحيد لله والاخلاص في العبادة له دون غيره لان معارفهم ضرورة ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي بطل ما عبدوه من دون الله ، واقتراءهم هو ادعاءهم الالهية مع الله تعالى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْهِدِينَ (٧٧) ﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ

قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ
 جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي
 زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ
 قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ
 ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِيهَا إِلَّا
 الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ خمس آيات بلاخلاف .

هذا اخبار من الله تعالى ﴿ أن قارون كان من قوم موسى ﴾ قال ابن
 اسحاق : كان موسى ابن أخيه ، وقارون عمه . وقال ابن جريج : كان ابن
 عمه لأبيه وأمه ﴿ فبغى عليهم ﴾ قال قتادة : إنما بغى عليهم بكثرة ماله . والبغى
 طلب العلو بغير حق . ومنه قيل لولاة الجور : بغاة ، يقال : بغى يبغى بغياً ، فهو
 باغ وابتغى كذا ابتغاء إذا طلبه ، وابتغى فعل الحسن أي يطلب فعله بدعائه
 الى نفسه . و (قارون) اسم أعجمي لا ينصرف ، وروي أنه كان عالماً بالتوراة
 فبغى على موسى وقصد الى تكذيبه ، والافساد عليه . وقوله ﴿ وآتيناه من
 الكنوز ﴾ أي إعطيناه كنوز الأموال والكنز جمع المال بضمه على بعض ،
 وبالعرف عبارة عما يخبأ تحت الأرض ، ولا يطلق اسم الكنوز في الشرع
 الا على مال لا يخرج زكاته ، لقوله تعالى ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة
 ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب اليم ﴾ (١) فوجه الوعيد عليه منه تعالى

على فعلهم يدل لك على صحة ما قلناه .

وقوله ﴿ ما ان مفاتحه ﴾ المفتاح عبارة عما يفتح به الاغلاق ، وجمعه مفاتيح ومفاتيح جمع مفتاح ، ومعناها واحد ، وقال قوم : كانت مفاتيحه من جلود وقال آخرون : مفاتحه خزائنه . قال الزجاج : وهو الاشبه .

وقوله ﴿ لتنوء بالعصبة ﴾ أي ليثقل في حمله ، يقال : ناء بحمله ينوء نوءاً إذا نهض به مع ثقله عليه ، ومنه أخذت الانواء ، لأنها تنهض من المشرق على ثقل نهوضها . وقال ابو زيد : ناءني الحمل إذا اثقلني . والعصبة الجماعة الملتفة بعضها ببعض . وقال قتادة : العصبة ما بين العشرة الى الأربعين . وقال ابن عباس : قد يكون العصبة ثلاث . وانما قال لتنوء بالعصبة والمعني العصبة تنوء بها ، لان المعنى تميل بها مثقلة . وقيل : هو يجري مجرى التقديم والتأخير كما قال الشاعر :

ونركب خيلا لا هوادة بينها وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر (١)

وانما تشقى الضياطرة بالرماح ، وقال آخر :

فديت بنفسه نفسي ومالي وما آله إلا ما بطيق (٢)

والمعنى بنفسه ومالي نفسه ، وقال الفراء : كان الاصل ان يقول لتنوء العصبة أي يثقلهم ، بحذف الياء ومثله قوله ، وهو مقلوب :

إن سراجاً الكريم مفخرة تحلى به العين إذا ما تجهره (٣)

فالوجه ان الرجل يعجب العين وكان ينبغي ان يقول يحلى بالعين ، كقوله :

(١) قائله خدائش بن زهير امالي الشريف المرتضى ١ / ٤٦٦ والاسنان (ضطر)

(٢) قائله عباس بن مرداس أمالي الشريف المرتضى ١ / ٢١٧

(٣) مر تخريجه في ٢ / ٧٩ ، ١٩٦

جلّيت بعينك رِبطة مطويه

قال الرماني - التأويل الأول هو الصحيح ، لأنه ليس من باب التقديم والتأخير لما في ذلك من قلب المعنى وليس كالذي تبنيه الإعراب . وقوله ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين ﴾ حكاية عما قال قوم قارون لقارون حين خوفوه بالله ونهوه عن الفرح بما آتاه الله من المال ، وأمروه بالشكر عليه . والفرح المرح الذي يخرج الى الانس ، وهو البطر . ولذلك قال تعالى ﴿ ان الله لا يحب الفرحين ﴾ لأنه إذا اطلقت صفة فرح فهو الخارج بالمرح الى البطر ، فأما قوله « فرحين بما آتاهم الله من فضله » (١) فحين جميل بهذا التقييد ، وقال مجاهد : الفرحين هو فرح البطر . وقال الشاعر :

ولست بمفراح إذا الدهر سرنى ولا جازع من صرفه المتقلب (٢)
وقال آخر :

ولا ينسيني الحدثان عرضي ولا أرخي من الفرح الازارا (٣)
وقوله « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة » حكاية عما قال لقارون قومه المؤمنون بموسى وبتوحيد الله . وقال قوم : إن المخاطب له كان موسى وإب ذكر بلفظ الجمع ومعناه اطلب فيما أعطاك الله من الأموال « الدار الآخرة ، بأن ينفقها في وجوه البر وسبيل الخير » ولا تنس نصيبك من الدنيا » قال ابن عباس : منعاه أن يعمل فيها بطاعة الله ، وقال الحسن معناه : أن يطلب الحلال

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٧٠ (٢) تفسير القرطبي ١٣ / ٣٩٣

ويروى (المتحول) بدل (المتقلب) ومجاز القرآن ٢ / ١٧٨

(٣) قائله ابن احمر ، مجاز القرآن ٢ / ١١١

﴿ ج ٨ م ٢٣ من التبيان ﴾

« وأحسن » اي افعّل الجميل الى الخلق . وتفضل عليهم ، كما تفضل الله عليك « ولا تبغ الفساد في الارض » أي لا تطلب الفساد بمنع ما يجب عليك من الحقوق ، وانفاق الأموال في المعاصي « ان الله لا يحب المفسدين » أي لا يريد منافع من يفسد في الأرض ، ولا يريد أن يفعل بهم ثواب الجنة ،

وقوله « قال إنما أوتيته على علم عندي » حكاية عما قال قارون في جواب قومه ، فانه قال لهم : أوتيت هذه الأموال على علم بأنّي مستحق لذلك ، لعلمي بالتوراة ، وقال قوم : لأنّي أعمل الكيمياء ، وقال قوم لعلمي بوجوه المكاسب ، وبما لا يتبيأ لأحد أن يسلبني إياه ، فقال الله تعالى موجّهاً على هذا القول « او لم يعلم » قارون « ان الله قد أهلك من قبله من القرون من هو اشد منه قوة وأكثر جمعاً » كقوم عاد ، وثمود ، وقوم لوط وغيرهم ، فما اغنى عنهم جمعهم ولا قوتهم حين أراد الله إهلاكهم ، فكيف ينفع قارون ماله وجمعه .

وقوله « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » قال الفراء تقديره : لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم ، فلهاء والميم للمجرمين ، كما قال تعالى « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان » (١) وقال الحسن لا يسأل عن ذنوبهم المجرمون لنعلم ذلك من قبلهم ، وإن سئلوا سؤال تقرير وتوبيخ .

ثم حكى تعالى أن قارون « خرج على قومه في زينته » التي كان يتزين بها . وقيل : إنه كان خرج مع قومه عليهم في الديباج الأحمر على الخيل ، فلما رآه الذين يريدون الحياة الدنيا من الكفار والمنافقين والضعيف الايمان بما للمؤمنين عند الله من ثواب الجنة قالوا « ياليت لنا مثل ما أوتي قارون » تمنوا

مثل منزلته ، ومثل ماله وإنهم قالوا إن قارون « لذو حظ » من الدنيا ونعيمها « عظيم » . ثم حكى ما قال المؤمنون بثواب الله المصدقون بوعده في جوابهم « ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً » مما أوتي قارون ، وحذف لدلالة الكلام عليه . وقوله « ولا يلقاها إلا الصابرون » أي ما يلقى مثل هذه الكلمة إلا الصابرون على أمر الله . وقيل : وما يلقى نعمة الله من الثواب إلا الصابرون .

فان قيل : أليس عندكم أن الله لا يؤتي الحرام أحداً ؟ وقد قال - هنا - « وابتغ فيما آتاك الله » فأخبر أنه آتاه .

قيل : لا يعلم أن ذلك المال كان حراماً ، ويجوز أن يكون حلالاً ورثه أو كسبه بالمكسب والتاجر ، ثم لم يخرج حق الله منه وطفى فسخط الله عليه وعاقبه لطغيانه وعصيانه لا على كسب المال .

قوله تعالى :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآئُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَآئُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى
 الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) إِنَّ اللَّهَ
 فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدِكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ
 بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ
 إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا
 لِلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزِلَتْ إِلَيْكَ
 وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ
 اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ
 وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ثمان آيات بلاخلاف .

روي عن الكسائي الوقف على « وي » من قوله تعالى « وي كأن الله »
 ومن قوله « وي كأنه » وروي عن ابن عمر الوقف على الكاف منهما
 قال ابو طاهر : الاختيار اتباع المصحف ، وهما فيه كلمة واحدة . وقرأ حفص
 ويعقوب « لحسف بنا » بفتح الحاء والسين . الباقون بضم الحاء وكسر السين
 على ما لم يسم فاعله .

حكى الله تعالى أنه خسف بقارون وبذاره الأرض ، فمرّ يهوي فيها
 حتى زهقت نفسه على اسوء حالها ، والخسف ذهاب في الأرض في جهة الأسفل .
 ثم اخبر تعالى انه لم يكن لقارون ﴿ فئة ﴾ أي جماعة منقطعة اليه . والفئة

مشتق من فأوت رأسه بالسيف إذا قطعت ، وتصغيرها فثية ﴿ ينصرونه من دون الله ﴾ أي يمنعون من عذاب الله الذي نزل به ، وإنما ذكر امتناع النصرة من الله مع أنه معلوم أنه كذلك ، لأن المراد أنه لم يكن الأمر على ما قدره من امتناعه بحاشيته وجنده ، لأن الذي غره قوته وتمكنه حتى تمرد في طغيانه . ثم أخبر أنه كما لم يكن له من ينصره لم يكن هو أيضاً ممن ينتصر بنفسه لضعفه عن ذلك وقصوره عنه . ثم حكى أن ﴿ الذين تمنوا مكانه بالأمس ﴾ حين خرج عليهم على زينته لما رأوه خسف الله به ، أصبحوا يقولون ﴿ ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ﴾ أي يوسع رزقه على من يشاء ويضيق على من يشاء ، اعترفوا بذلك . ومعنى ﴿ وي ﴾ التنبيه على أمر من الأمور ، وهي حرف مفصول من (كأن) - في قول الخليل وسيبويه - واختاره الكسائي . وذلك أنهم لما رأوا الخسف تنبهوا فتكلموا على قدر علمهم عند التنبيه لهم ، كما يقول القائل إذا تبين له الخطأ : وي كنت على خطأ ، وقال زيد بن عمرو بن نفيل :

سألتني ، الطلاق إذ رأاني قل مالي قد جثمتني بنكر

وي كأن من يكن له نسب بب ومن بفتقر يهيش عيش ضر (١)

وقيل (وي كأنه) بمنزلة (ألا كأنه ، وأما كأنه) وقيل هي : ويك إن

الله ، كأنه قال ينبئك بهذا إلا أنه حذف ، قال عنزة :

ولقد شفى نفسي وأذهب سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم (٢)

وقال قوم : هي بمنزلة (ويك) إلا أنه حذف اللام تخفيفاً ، ونصب أنه

بتقدير أعلم أنه لا يفلح ، وهذا ضعيف ، لأن العلم لا يضر ويعمل . وقال

الفراء : سألت امرأة زوجها عن أبيه فقال ويك إنه وراء الحائط ، ومعناه ألا ترينه وراء الحائط . وقيل المعنى إن ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ لا لكرامة عليه ، كما بسط لقارون ﴿ ويقدر ﴾ أي يضيق لا لهوانة عليه ، كما ضيق على أنبيائه .

ثم قالوا ﴿ لولا أن منّ الله علينا ﴾ وعنى عنا لحسب بنا ، كما خسف بقارون ﴿ ويك أنه لا يفلح الكافرون ﴾ أي لا يفوز بثوابه وينجو من عقابه من يمجّد نعم الله ويعبد معه سواه . وقيل : إن قارون جعل لبغي جملاً على أن ترمي موسى بالفاحشة ، فلما حضرت في الملاء كذبت قارون واخبرت بالحق فخر موسى ساجداً بيكي ، فأوحى الله إليه ما يبيحك قد سلطتك على الأرض فرها بما شئت ، فقال موسى يا أرض خذهم ، فأخذتهم إلى ركبهم . ثم قال يا أرض خذهم ، فأخذتهم إلى حقروهم ثم قال يا أرض خذهم ، فأخذتهم إلى اعناقهم وهم في كل ذلك ينادون يا موسى يا موسى ارحمنا - ذكره ابن عباس - وروي أن الله تعالى قال : لو قالوا مرة واحدة يا الله ارحمنا لرحمتهم . ثم قال تعالى ﴿ تلك الدار الآخرة ﴾ يعني الجنة ﴿ نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ﴾ وإنما قبّح طلب العلو في الأرض ، لأنه ركون إليها ، وترك لطلب العلو في الآخرة ، ومعاملة لها بخلاف ما أراده الله بها من أن تكون دار ارتحال لإدار مقام فيها ﴿ ولا فساد ﴾ أي ولا يريدون فساداً في الأرض بفعل المعاصي ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ اخبار منه تعالى بأن العاقبة الجميلة من الثواب للذين يتقون معاصي الله ويفعلون طاعاته . وقيل : علواً في الأرض معناه تكبراً عن الحق .

ثم أخبر تعالى أن من جاء بطاعة من الطاعات وحسنة من الحسنات

﴿ فله خير منها ﴾ ثواباً عليها وجزاء عليها ، لأن له بالواحدة عشرآ ﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ يعني بالمعصية ﴿ فلا يجزى الذين عملوا السيئات ﴾ يعني الذين عملوا المعاصي إلا على قدر استحقاقهم على ما فعلوه من غير زيادة ، كما قال ﴿ ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾ (١) .

وقوله ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن ﴾ خطاب للنبي ﷺ يقول الله له إن الذي أوجب عليك الامتثال بما يضمنه القرآن وأنزله عليك ﴿ لرادك الى معاد ﴾ قال الحسن : معناه الى المرجع يوم القيامة . وقال مجاهد : إلى الجنة . وقال ابن عباس : الى الموت . وفي رواية أخرى عن ابن عباس : الى مكة . والأظهر من الأقوال : لرادك الى معاد في النشأة الثانية الى الجنة . وأكثر أقوال المفسرين انه أراد الى مكة قاهراً لأهلها .

ثم قال له ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ ربي أعلم من جاء بالهدى ﴾ الذي يستحق به الثواب ممن لم ينجي به ، وضل عنه ، لا يخفى عليه المؤمن من الكافر ، ولا من هو على الهدى ، ولا من هو ضال عنه .

ثم قال لنبيه ﷺ ﴿ وما كنت ﴾ يا محمد ﴿ ترجو أن يلقي اليك الكتاب إلا رحمة من ربك . فلا تكونن ظهيراً للكافرين ﴾ قال الفراء : تقديره إلا أن ربك رحيم . فانزله عليك ، فهو استثناء منقطع . ومعناه وما كنت ترجو أن تعلم كتب الأولين وقصصهم تتلوها على أهل مكة ، ولم تشهدها ولم تحضرها بدلالة قوله ﴿ وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو ﴾ (٢) أي انك تتلو على أهل مكة قصص مدين وموسى ولم تكن هناك ثاوياً مقيماً قتره فتسمعه وكذلك

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٦٠

(٢) سورة ٢٨ القصص آية ٤٥

قوله ﴿ وما كنت بجانب الغربي ﴾ (١) فيها أنت تتلو قصصهم وأمرهم ، فهذه رحمة من ربك . ومعنى ﴿ فلا تكونن ظهيراً ﴾ أي لا تكونن معيناً لهم ﴿ ولا يصدنك ﴾ يعني هؤلاء الكفار أي لا يمنعك « عن » اتباع ﴿ آيات الله ﴾ ، ووجهه ﴿ بعد إذا أنزلت إليك ﴾ على ما بينهما في القرآن ﴿ وادع إلى ربك ﴾ الذي خلقك وأنعم عليك ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ الذين يتخذون مع الله معبوداً سواه ﴿ ولا تدع مع الله إلهاً آخر ﴾ فتستدعي حوائجك من جهته ﴿ لا إله إلا هو ﴾ اخبار منه تعالى أنه لا معبود إلا الله وحده لا شريك له . ثم اخبر أن كل من سوى الله هالك ، فإن ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ ومعناه إلا ذاته . وقيل : معناه كل شيء هالك إلا ما أريد به وجهه . قال الشاعر :

استغفر الله ذنباً لست محصيه رب العباد إليه الوجه والعمل (٢)
ثم قال ﴿ له الحكم ﴾ لانه ليس لأحد أن يحكم بشيء إلا بأمر الله تعالى . ويجعل الحكم له عقلياً كان او شرعياً و« إليه » الى الله ﴿ ترجعون ﴾ يوم القيامة أي الى الموضع الذي لا يملك أحد التصرف فيه سواه ، لان الله تعالى قد ملك في الدنيا لكثير من البشر التصرف فيها .



٢٩ - سورة العنكبوت

قال قوم : هي مكية ، وقال قتادة : العشر الأول مدني ، والباقي
مكي . وقال مجاهد : هي مكية ، وهي تسع وستون آية
بلاخلاف في جملتها ، وفي تفصيلها خلاف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ
لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ
اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥)﴾

خمس آيات كوفي وأربع فيما عداه عدوا « الم » آية . ولم يعده الباقون .
قال قتادة : نزلت في أناس من أهل مكة خرجوا للهجرة فعرض لهم
﴿ج ٨ م ٢٤ من التبيان﴾

المشركون ، فرجعوا ، فنزلت الآية فيهم ، فلما سمعوها خرجوا ، فقتل منهم من قتل وخلص من خالص ، فنزلت فيهم ﴿ والذين جاهدوا فينا ﴾ الآية (١) وقيل: نزلت في عمار، ومن كان بقرب مكة - ذكره ابن عمر - وقيل : نزلت في قوم أسلموا قبل فرض الجهاد والزكاة ، فلما فرضا منعوا ، فنزلت الآية فيهم .

قد بينا في غير موضع اختلاف الناس في ابتداء السور بحروف الهجاء وذكرنا أن أقوى الأقوال قول من قال : إنها أسماء للسور . وقال قوم : إنها أسماء للقرآن .

وقوله ﴿ الم أحسب الناس أن يتركوا ﴾ اختلف الناس في ﴿ الم ﴾ وقد ذكرناه فيما مضى (٢) . وقوله ﴿ أحسب الناس أن يتركوا ﴾ خطاب من الله لخالقه على وجه التوبيخ لهم بأن قال أيظن الناس أن يتركهم الله إذا قالوا آمنا أي صدقنا ونقتصر منهم على هذا القدر ، والحسبان والظن واحد . وقوله ﴿ أحسب ﴾ معناه التوهم والتخيل . وقيل : الحسبان مشتق من الحساب ، لأنه في حساب ما يعمل عليه . ومنه الحسيب ، لأنه في حساب ما يختبي ، و « هم لا يفتنون » أي أيظنون أنهم لا يختبرون إذا قالوا آمنا ؟! . والمعنى انهم يعاملون معاملة المختبر لتظهر الأفعال التي يستحق عليها الجزاء . وقيل : في معنى « أن يقولوا آمنا » قولان : أحدهما - يتركوا لأن يقولوا . الثاني - أحسبوا أن يقولوا على البدل . وقال مجاهد : معنى « يفتنون » يبتلون في أنفسهم وأموالهم . وقيل : معنى يفتنون يصابون بشدائد الدنيا أي ان ذلك لا يجب أن يرفع في الدنيا لقولهم آمنا . وقال ابن عمر : أظنوا ان لا يؤمروا ولا ينهوا .

وقال الربيع : ألا يؤذوا ولا يقتلوا ؟ ١

ثم اقسم تعالى انه فتن الذين من قبلهم « فليعلمن الله الذين صدقوا » في ايمانهم « وليعلمن الكاذبين » فيه . وانما قال « فليعلمن » مع أنه للاستقبال والله تعالى عليم فيما لم يزل ، لحدوث المعلوم فلا تصح الصفة إلا على معنى المستقبل إذ لا يصلح ولا يصح لم يزل عالمًا بأنه حادث ، لانعقاد معنى الصفة بالحادث ، وهو إذا حدث علمه تعالى حادثًا بنفسه . وقيل : معنى « وليعلمن الله الذين صدقوا » ليجازيهم بما يعلم منهم . وقيل : معناه يعلم الله الذين صدقوا في أفعالهم ، كما قال الشاعر :

[ليث بعثر يصطاد الرجال] إذا ما الليث كذب عن أقرانه صدقا (١)

وقال ابن شجرة « فليعلمن الله » معناه فليظهرن الله لرسوله صدق الصادق . وقال النقاش : معناه فليميزن الله الصادقين من الكاذبين . وهو قول الجبائي . ثم قال تعالى ممدداً خلقه « أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا » أي أيطن الذين يفعلون القبائح والمعاصي ان يفوتونا ؟ كما يفوت السابق لغيره . ثم قال « ساء ما يحكمون » أي بشئ الشيء الذي يحكمون بظنهم . انهم يفوتونا . ثم قال « من كان يرجوا لقاء الله » أي من كان يأمل لقاء ثواب الله . وقال سعيد بن جبير والسدي : معناه من كان يخاف عقاب الله ، كما قال الشاعر :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها (٢)

أي لم يخف فـ (من) رفع بالابتداء ، وخبرها (كان) وجواب الجزاء ، كقوالك زيد إن كان في الدار فقد صدق الوعد . وقوله « فان أجل الله

(١) قائله زهير بن ابى سلمى ديوانه : ٤٣

(٢) قد مر تخريجه في ٢ / ٢١٠ و ٣ / ٣١٥ و ٧ / ٤٩١

لآت « أي الوقت الذي وقته الله للثواب والعقاب آت لا محالة » والله « هو السميع » لا قوالكم « العليم » بما تضمرونه في نفوسكم ، فيجازيكم بحسب ذلك .
قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٦)
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ
بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا
تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩) وَمِنَ النَّاسِ
مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَمَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ
اللَّهِ وَلَكِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ
بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٠) خمس آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى « ومن جاهد » أي من جاهد نفسه بأن يصبر على
ما أمره الله به ، ويعمل بسنته ، ومنه الجهاد ، وهو الصبر في الحرب على ما جاء به
الشرع « فانما يجاهد لنفسه » لان ثواب صبره عائد عليه وواصل اليه دون الله
تعالى ، لانه تعالى غني عن جميع الخلائق غير محتاج الى طاعتهم ، ولا غير ذلك .
ثم قال تعالى « والذين آمنوا » أي صدقوا بوحدايته واقربوا بنبوة

نبيه، واعترفوا بما جاء به من عند الله، لنكفرن عنهم سيئاتهم» التي اقترفوها قبل ذلك. ومن قال بالاحباط قال: تبطل السيئة الحسنة التي هي أكبر منها حتى يصير بمنزلة ما لم يعمل، كما قال «ان الحسنات يذهبن السيئات» (١) والاحباط هو لبطل الحسنة بالسيئة التي هي أكبر منها. والسيئة الخصلة التي يسوء صاحبها عاقبتها. والحسنة الخصلة التي يسر صاحبها عاقبتها. وكل حسنة طاعة لله، وكل سيئة هي معصية له تعالى.

وقوله «لنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون» قال الجبائي: معناه أحسن ما كانوا يعملون: طاعاتهم لله، لأنه لا شيء في ما يعملونه للعباد أحسن من طاعاتهم لله. وقال قوم: معناه ولنجزينهم بأحسن أعمالهم، وهو الذي أمرناهم به، دون المباح الذي لم نأمرهم به ولا نهيناهم عنه.

وقوله «ووصينا الانسان بوالديه حسناً» معناه: أمرناه أن يفعل حسناً وألزمناه ذلك. ثم خاطب كل واحد من الناس، فقال «وإن جاهدك» يعني الوالدان أيها الانسان «لتشرك بي» في العبادة «ما ليس لك به علم، فلا تطعهما» في ذلك. وقيل: نزلت في سعد بن أبي وقاص، لأنه لما هاجر حلفت أمه أنها لا يظلمها سقف بيت حتى يعود. فنزلت الآية.

ثم قال مهدداً للجميع «إلى مرجعكم» أي إلى ما لكم «فانبئكم» أي أخبركم «بما كنتم تعملون» في دار التكليف، ثم أجازيكم بحسبه. ثم قال تعالى «والذين آمنوا» بتوحيد الله وإخلاص العبادة له وصدق أنبيائه وأضافوا إلى ذلك الأعمال الصالحات «لندخلنهم في» جملة «الصالحين» الذين فعلوا الطاعات ويجازيهم الله ثواب الجنة.

ثم اخبر ان « من الناس من يقول ، بلسانه » آمنا بالله فاذا أُوذِيَ في الله « أي إذا لحقه شدة في جنب الله » جعل فتنة الناس « أي عذاب الناس إياهم » كعذاب الله « أي خافوا عذاب الخلق ، كما يخاف عذاب الله ، فيرتدون . » ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم ، وهذا الذي ذكره صفة المنافقين الذين إذا جاهدوا الكفار وكانت الدائرة على المسلمين جعلوا ذلك مثل ما يعذبهم الله ، ومتى ظفروا بأعدائهم قالوا للمؤمنين « انا كنا معكم في الجهاد فلنا مثل ما لكم من الغنيمة ، فقال تعالى « أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين » أي الله يعلم بواطن احوالهم وسرائرهم في نفوسهم ، فيجازيهم على حسب ذلك .

قوله تعالى :

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ (١١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَاهُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٣) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿ (١٥)

خمس آيات بلاخلاف .

اقسم الله تعالى بأنه يعلم الذين يؤمنون بالله على الحقيقة ظاهراً وباطناً فيجازيهم على ذلك بثواب الجنة ، وذلك ترغيب لهم « وليعلم المنافقين » فيه تهديد للمنافقين مما هو معلوم من حالهم التي يستترون بها ويتوهمون أنهم نجوا من ضررها ، باخفائها ، وهي ظاهرة عند من يملك الجزاء عليها ، وتلك الفضيحة العظمى بها .

ثم حكى تعالى أن الذين كفروا نعم الله ووجدوها يقولون للذين آمنوا بتوحيده وصدق انبيائه « اتبعوا سبيلنا ولنحمل » نحن « خطاياكم » أي نحمل ما تستحقون عليها من العقاب يوم القيامة عنكم هزواً بهم واشعاراً بأن هذا لاحقيقة له ، فلأماور بهذا الكلام هو المتكلم به أمر نفسه في مخرج اللفظ ومعناه يضمن إلزام النفس هذا المعنى ، كما يلزم بالأمر ، قال الشاعر :

فقلت ادعي وادع فان اندى لصوت أن ينادي داعيان (١)

معناه ولادع . وفيه معنى الجزاء وتقديره ان تتبعوا ديننا حملنا خطاياكم .

ثم نفى تعالى أن يكونوا هم الحاملين لخطاياهم من شيء ، وانهم يكذبون في هذا القول ، لأن الله تعالى لا يؤخذ أحداً بذنب غيره . فلا يصح إذاً أن يتحمل أحد ذنب غيره ، كما قال تعالى « ولا تزر وازرة وزر أخرى » وأن ليس للانسان إلا ما سعى » (٢) وليس ذلك بمنزلة تحمل الدية عن غيره ، ولأن الفرض في الدية أداء المال عن نفس المقتول ، فلا فضل بين ان يؤديه زيد عن نفسه ، وبين ان يؤديه عمرو عنه ، لانه بمنزلة قضاء الدين .

(١) شرح الفية بن مالك ٢٦٧ وتفسير القرطبي ١٣ / ٣٣٤

(٢) سورة ٦ الانعام آية ١٦٤ وسورة ١٧ الاسرى آية ١٥ وسورة ٣٥

فاطر آية ١٨ وسورة ٣٩ الزمر آية ٧ وسورة ٥٣ النجم آية ٣٩

وقوله « وليحملن اثقالهم واثقالا مع اثقالهم » معناه انهم يحملون خطاياهم في أنفسهم التي لا يعملونها بغيرهم ، ويحملون الخطايا التي ظلموا بها غيرهم ، فحسن لذلك فيه التفصيل الذي ذكره الله .

وقوله « وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون » أى يعملون . ومعناه انهم يسألون سؤال تعنيف وتوبيخ وتبكيث وتقريع ، لاسؤال استعمال كسؤال التعجيز في الجدل ، كقولك - للوثني ما الدليل على جواز عبادة الأوثان ، وكما قال تعالى « هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (١) .

ثم اخبر تعالى انه أرسل نوحاً الى قومه يدعوهم الى توحيد الله وإخلاص العباد له ، وانه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فلم ينجيوا ، وكفروا به « فأخذهم الطوفان » جزاء على كفرهم ، فأهلكهم الله تعالى « وهم ظالمون » لنفوسهم بما فعلوه من عصيان الله تعالى والاشراك به ، والطوفان الماء الكثير الغامر ، لانه يطوف بكثرتة في نواحي الارض قال الراجز :

افناهم طوفان موت جارف (٢)

شبه الموت في كثرته بالطوفان . ثم اخبر تعالى انه أنجى نوحاً والذين ركبوا معه السفينة من المؤمنين به ، وجعل السفينة آية أي علامة للخلائق يعتبرون بها إلى يوم القيامة ، لأنها فرقت بين المؤمنين والكفار والعاصين والاخيار ، فهي دلالة للخلق على صدق نوح وكفر قومه .
قوله تعالى :

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ

(١) سورة ٢ البقرة آية ١١١ وسورة ٢٧ النمل آية ٦٤

(٢) تفسير القرطبي ١٣ / ٥٣٤

لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا
وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ
رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى
الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ أهل الكوفة إلا عاصمًا « أو لم تروا » بالناء . الباقر بالباء . وقرأ
ابن كثير وأبو عمرو « النشأة » بفتح الشين ممدودة - هنا - وفي النجم ،
والواقعة . الباقر - بسكون الشين مقصوراً - ومن قرأ بالتاء ، فعلى الخطاب
تقديره : قل لهم يا محمد « أو لم تروا » حين أنكروا البعث والنشور « أو لم
تروا كيف يبدئ الله الخلق » أي إذا أنكرتم الإعادة كانت الابتداء أولى
بالنكرة . وحيث أقروا بأن الله خالقهم ابتداء فيلزمهم أن يقرروا بالإعادة
ثانياً . ومن قرأ بالباء ، فعلى الأخبار عنهم « ويبدي » فيه لغتان اتى بهما
القرآن بدأ الله الخلق ، وأبدأهم ، قال الله تعالى « وهو الذي يبدؤ الخلق
ثم يعيده » فصدر أبدأ يبدؤ إبداءه ، فهو مبدئ . ومن قرأ (بدأ) يبدؤ
﴿ ج ٨ م ٢٥ من التبيان ﴾

بدءاً ، فهو بادىء ، وذاك مبدوء ، ويقال : رجع عوده على بدئه بالهمز ، وبدا يبدؤ ، بغير همز : ظهر . وقال ابو عمرو (غلام تغلب) ! يجوز رجع عوده على بده - بغير همز - بمعنى الظهور كقولهم : ما عدا مما بدا . والنشأة والنشأة بالمد والقصر ، لغتان . كقولهم : رأفة ورأفة ، وكأبة وكأبة وهما مصدران . فالنشأة المرة الواحدة ، يقال : نشأ الغلام ، فهو ناشئ ، وامرأة ناشئة ، والجمع نواشيء ، ويقال للجواري الصغار نشأ قال نصيب :

ولولا ان يقال صبا نصيب لقلت بنفسى النشأ الصغار (١)

وانشأهم الله إنشاء ، فهو منشىء ، ونشت - بغير همز - ريحاً طيبة ، ورجل نشوان من الشراب . ورجل نشيان للخير إذا كان يتخير الخير ، حكاة تغلب . قوله « وابراهيم اذ قال » يحتمل نصبه أمرين : احدهما - ان يكون عطفاً على قوله « وارسلنا نوحاً الى قومه » وتقديره وأرسلنا ابراهيم أيضاً .

الثاني - بتقدير واذكر « ابراهيم » حين « قال لقومه اعبدوا الله » وحده لا شريك له ، واتقوا عقابه باتقاء معاصيه « ذلکم خير لکم ان کنتم تعلمون » ما هو خير لکم مما هو شر لکم .

وقوله « انما تعبدون من دون الله اوثاناً » حكاية عما قال ابراهيم لقومه كأنه قال لهم ليس تعبدون من دون الله إلا اوثاناً ، وهو جمع وثن ، وهو ما يعبد من دون الله . وقيل : ما يعمل من حجر وطين يسمى وثناً . و (ما) في قوله « إنما » كافة ، وليست بمعنى الذي ، لأنها لو كانت بمعنى الذي ، لكان (اوثان) رفعاً .

وقوله ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ أي تعملون أصناماً ، وسماها إفكاً لادعائهم أنها آلهة - وهو قول قتادة ، والجبائي - وقال ابن عباس : وتصنعون كذباً ، وتحقيقه يصنعون على ما يقدرون ، ثم قال لهم ابراهيم أيضاً ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ يعني الأصنام ﴿ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ﴾ أي لا يقدرُونَ على أن يرزقوكم ، وإنما يبتغي الرزق من القادر على المنع ، وهو الله الرازق . والملك قدرة القادر على ماله أن يتصرف فيه أتم التصرف ، وليس ذلك إلا الله - عز وجل - على الحقيقة ، لأن له التصرف والقدرة على جميع الأشياء بلا مانع ، والإنسان إنما يملك ما يملكه الله ، ويأذن له في التصرف فيه . فأصل الملك لجميع الأشياء لله . ومن لا يملك أن يرزق غيره لا يستحق العبادة ، لأن العبادة تجب بأعلى مراتب النعمة . والأصنام لا تقدر على ذلك ، فإذا لا يحسن عبادتها .

ثم قال لهم ﴿ وَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ أي اطلبوا الرزق من عند الله دون من سواه ﴿ وَاعْبُدُوهُ ﴾ على ما انعم به عليكم من أصول النعم ، وأعلى مراتب الفضل ﴿ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ أيضاً ، لأنكم إليه ترجعون يوم القيامة فيجازيكم على قدر أعمالكم . فمن عبده وشكره جازاه بالثواب . ومن عبد غيره وكفر نعمه جازاه بالعقاب . ويقال : شكرته وشكرت له يؤكد باللام . فمعنى الشكر له اختصاصه بنفسه من غير احتمال لغيره . ثم قال ﴿ وَإِنْ تَكْذَبُوا ﴾ بما أخبركم به من عند الله ، وما أدعوكم إليه من إخلاص عبادته ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ أَمَّ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أنبياءهم الذين بعثوا فيهم وليس ﴿ على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ يعني إلا أن يوصل إليهم ويؤدي إليهم ما أمر به لكونه بياناً ظاهراً يمكنهم معرفته وفهمه ، وليس عليه حملهم على الإيمان .

ثم قال ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ﴾ أي ألم يفكروا فيعلموا كيف

اخترع الله الخلق من العدم ﴿ ثم يعيده ﴾ ثانياً اذا اعدمهم بعد وجودهم . قال قتادة : معنى ﴿ ثم يعيده ﴾ بالبعث بعد الموت . وقيل ينشئه بالاحياء ﴿ ثم يعيده ﴾ بالرد الى حال الموت . والأول أصح ﴿ ان ذلك على الله يسير ﴾ غير متعذر ، لأن من قدر على الاختراع والانشاء أولاً كان على الاعادة اقدر . ومعنى (يسير) لا تعب عليه فيه ولا نصب ، وكل فعل كان كذلك ، فهو سهل يسير . والاحتجاج في ذلك أن من قدر على ذلك قادر على ارسال الرسول الى العباد .

ثم قال لنبيه محمد ﷺ ﴿ قل ﴾ لهؤلاء الكفار ﴿ سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الله الخلق ﴾ وفكروا في آثار من كان قبلكم ، والى اي شيء صار امرهم لتعتبروا بذلك فيما يؤديكم الى العلم بربكم . وقوله ﴿ ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ﴾ فالنشأة الآخرة اعادة الخلق كرة ثانية من غير سبب كما كان اول مرة ، لان معنى الانشاء اليجاد من غير سبب ﴿ ان الله على كل شيء قدير ﴾ اخبار منه تعالى انه قادر على كل شيء . يصح ان يكون مقدوراً له .

قوله تعالى :

﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ (٢١)
وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ
اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ
أُولَئِكَ يَسْأَلُونَ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) فِيمَا

كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجِيَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوِيكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ خمس آيات بلاخلاف .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ، والكسائي « مودة بينكم » بالرفع والاضافة ،
 وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم وابن عامر « مودة بينكم » منوئاً منصوباً ،
 وروى الأعشى عن أبي بكر برفع « مودة » و « بينكم » نصب ، وقرأ حفص
 عن عاصم وحمة « مودة بينكم » نصباً غير منون مضاف .

من رفع يحتمل وجهين أحدهما - ان يجعل « انما » كلمتين يجعل (ما)
 بمعنى الذي ، وهو اسم (ان) و (مودة) خبره ، ومفعول اتخذتم (هاء)
 محذوفة ، وتقديره : إن الذي اتخذتموه مودة بينكم ، كما قال الشاعر :

ذريني إنما خطائي وصوا بي علي وانما اهلكتي مالي

يريد ان الذي أهلكته مالي . الثاني - ان يرفعها بالابتداء ، « وفي الحياة

الدنيا » خبرها .

ومن نصب جعل (المودة) مفعول (اتخذتم) ،

ومن أضاف جعل البين الوصل .

ومن لم ينون ولم يصف جعل (البين) ظرفاً . وهو الفراق ايضاً . يقال :
بينهما بين بعيد ، وبون بعيد ، وجلس زيد بيننا ، وبيننا بالادغام ، ذكره ابن
زيد عن ابن حاتم عن الاصمعي ، يقال : بان زيد عمراً ؛ إذا فارقه يبونه بونا
قال الشاعر :

كأن عيني وقد بانوني غرباً نصوح غير محنوني
وقرأ أبي « اثماً مودة بينكم » .

اخبر الله تعالى انه « يعذب من يشاء » من عباده اذا استحقوا العقاب
﴿ ويرحم من يشاء ﴾ منهم فيعفو عنهم بالتوبة وغير التوبة ﴿ واليه تقلبون ﴾
معاشر الخلق أي اليه تحشرون وترجعون يوم القيامة . والقلب الرجوع والرد ،
فتقلبون أي تردون الى حال الحياة في الآخرة بحيث لا يملك الضر والنفع فيه
إلا الله . والقلب نفي حال بحال يخالفها . ثم قال : ولستم بمعجزين في الأرض
أي بفائتين ، فالمعجز الفأئت بما يعجز القادر عن لحاقه . ولهذا فسروا ﴿ وما
أنتم بمعجزين ﴾ أي بفائتين ، والمعنى لا تغتروا بطول الامهال ﴿ في الأرض
ولا في السماء ﴾ أي لستم تفوتونه في الأرض ، ولا في السماء لو كنتم فيها ، فانه
قادر عليكم حيث كنتم . وقيل في ذلك قولان : احدهما - لا يفوتونه هرباً في
الأرض ، ولا في السماء . الثاني - ولا من في السماء بمعجزين ، كما قال حسان :

أمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء (١)

وتقديره ومن يمدحه وينصره سواء أم لا يتساوون ؟ !

وقوله ﴿ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ أي وليس لكم ولي
ولا ناصر من دون الله يدفع عنكم عقاب الله إذا أراد بكم ، فالولي هو الذي

يتولى المعونة بنفسه ، والنصير قد يدفع المكروه عن غيره تارة بنفسه وتارة بان يأمر بذلك . ثم قال تعالى ﴿ والذين كفروا بآيات الله ﴾ اي جحدوا أدلة الله ولقاء ثوابه وعقابه يوم القيامة ﴿ أولئك يئسوا من رحمتي ﴾ اخبار عن اياسهم من رحمة الله ، لعلمهم انها لا تنفع بهم ذلك اليوم ﴿ وأولئك لهم عذاب اليم ﴾ اي مؤلم . وفي ذلك دلالة على ان المؤمن بالله واليوم الآخر لا يجوز ان يئأس من رحمة الله .

ثم قال ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه او حرقوه ﴾ وفي ذلك دلالة على ان جميع ما تقدم حكاية ما قال ابراهيم لقومه ، وانهم لما عجزوا عن جوابه بحجة عدلوا الى ان قالوا اقتلوه او حرقوه وفي الكلام حذف ، وتقديره : إنهم اوقدوا ناراً وطرحوه فيها ﴿ فأتجاه الله من النار إن في ذلك لآية ﴾ واضحة وحجة بينة ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ بصحة ما اخبرناك به من توحيد الله واخلاص عبادته .

ثم عاد الى حكاية قول ابراهيم وانه قال لهم ﴿ إنما اتخذتم من دون الله اوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا . ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ قال قتادة : كل خلة تنقلب يوم القيامة عداوة إلا خلة المتقين كما قال ﴿ الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين ﴾ (١) ومعنى الآية ان ابراهيم قال لقومه : إنما اتخذتم هذه الأوثان آلهة من دون الله لتوادوا بها في الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يتبرؤ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضاً ، ومستقركم النار ، ومالككم من ينصركم بدفع عذاب الله عنكم .

ثم قال لهم « وما واكم النار » أي مستقركم و « ما لكم من ناصرين »

يدفعون بالقهر والغلبة . وروى عبد الله بن احمد بن حنبل عن أبيه في كتاب التفسير أن جميع الدواب والهوام كانت تطفي عن ابراهيم النار إلا الوزغ فانها كانت تنفخ النار ، فامر بقتلها . وروى أيضاً انه لم ينفع احد يوم طرح ابراهيم في النار بالنار في جميع الدنيا .

قوله تعالى :

﴿ فَاَمِنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ اِنِّى مُهَاجِرٌ اِلَى رَبِّى اِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ اِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ اَلشُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ اُجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَابْنَاهُ فِي الْآخِرَةِ لَمَنِ الصَّالِحِينَ (٢٧) وَلُوطًا اِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اِنَّكُمْ لَتَاُتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ اَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) اِنَّكُمْ لَتَاُتُونَ آلَ رَجُلٍ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ اِلَّا اَنْ قَالُوا اُتَيْنَا بِعَذَابِ اَللّٰهِ اِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصّٰدِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ اَنْصُرْنِىْ عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٣٠) خمس آيات بلا خلاف

ست آيات حجازي وخمس في ماعداه عدوا « السبيل » آية ولم يعدها الباقر .
قرأ اهل الحجاز وابن عامر وحفص ويعقوب « اِنَّكُمْ لَتَاُتُونَ الْفَاحِشَةَ »
بهمزة واحدة على الخبر . وقرأه اهل الكوفة . إلا حفصاً بهمزتين مخففتين
على الاستفهام . وقرأ ابو عمرو كذلك إلا انه بليّن الثانية ، ويفصل بينهما

بألف ، وأما « انكم لتأتون الرجال » فانهم على اصولهم . حكى الله سبحانه ان ابراهيم لما دعا قومه الى اخلاص عبادة الله وترك عبادة الاوثان ، وقبح فعلهم في ذلك أنه صدق به لوط عليه السلام وآمن به . وكان ابن اخته ، فابراهيم خاله وهو قول ابن عباس وابن زيد والضحاك وجميع المفسرين . وقال لوط « اني مهاجر الى ربي » معناه اي خارج من جملة الظالمين على جهة الهجر لهم لقبح أفعالهم الى حيث أمرني ربي ، ومن هذا هجرة المسلمين من مكة الى المدينة وإلى أرض الحبشة ، لانهم هجروا ديارهم وأوطانهم لأذى المشركين لهم فأمروا بأن يخرجوا عنها . وقيل : هاجر ابراهيم ولوط من كوثي ، وهي من سواد الكوفة الى أرض الشام في قول قتادة . وقال « إنه هو العزيز الحكيم » الذي لا تضعيع الطاعة عنده ، العزيز الذي لا يذل من نصره . ثم قال « ووهبنا له » يعني لابراهيم « إسحاق ويعقوب » وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب « قيل : إنما لم يذكر اسماعيل مع انه نبي معظم ، لأنه قد دل عليه بقوله « وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب » فترك ذكر اسمه ، لأنه يكفي فيه الدلالة عليه لشهرته وعظم شأنه ، وذكر ولد ولده في سياقه ذكر ولده ، لأنه يحسن اضافته اليه ، لأنه الأب الأكبر له .

وقوله « وآتيناه أجره في الدنيا » قال ابن عباس : الأجر في الدنيا الثناء الحسن ، والولد الصالح ، وقال الجبائي : هو ما أمر الله به المكلفين من تعظيم الأنبياء . قال البلخي : وذلك يدل على انه يجوز أن يثيب الله في دار التكليف ببعض الثواب . و (الكتاب) أريد به الكتب ، من التوراة والانجيل والزبور والقرآن ، غير انه خرج مخرج الجنس . « وإنه في الآخرة لمن الصالحين » ﴿ ج ٨ م ٢٦ من التبيان ﴾

أخبار منه تعالى أن إبراهيم مع أنه آتاه أجره وثوابه في الدنيا إنه في الآخرة يحشره الله من جملة الصالحين العظمي الأقدار ، لما قاموا به من النبوة على ما أمر الله به . وقوله « ولوطاً إذ قال لقومه » يحتمل نصبه أيضاً بشيئين :

أحدهما - و (أرسلنا لوطاً) عطفاً على (نوحاً وإبراهيم) .

والثاني - بتقدير واذكر لوطاً حين قال لقومه « انكم لتأتون الفاحشة » من قرأ بلفظ الاستفهام أراد به الإنكار دون الاستعلام . ومن قرأ على الخبر أراد إن لوطاً أخبرهم بذلك منكرآ لفعلهم لا مفيدآ لهم ، لأنهم كانوا يعلمون ما فعلوه . والفاحشة - ههنا - ما كانوا يفعلونه من اتیان الذکران في أدبارهم « ما سبقكم بها » بهذه الفاحشة أحد من الخلائق . ثم فسر ما أراد بالفاحشة فقال « انكم لتأتون الرجال » يعني في أدبارهم ، والفاحش الشنيع في القبح ، فحش فلان يفحش فحشاً وفاحش تفاحشاً إذا شنع في قبحه ، وهو ظهوره بما تقتضي العقول بالبدیهه ردّه وانكاره .

وقوله « وتقطعون السبيل » قيل : انهم كانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال ، وقيل : يقطعون سبيل الولد بآتيان الذکران في الأدبار ، وقيل : بالعمل الخبيث ، لأنهم كانوا يطلبون الغزباء « وتأتون في ناديكم المنكر » . قال ابن عباس : كانوا يضربون في مجالسهم ، وقال السدي : كانوا يحذفون من مرتبهم . وقال مجاهد : كانوا يأتون الرجال في مجالسهم . وقال الكلبي : منها الحذف ، والصفير ، ومضع العلك ، والرمي بالبنـدق ، وحل ازرار القبـاء والنقميص . وهي ثمانی عشرة خصلة . وقال غيره : هي عشر خصال .

وقوله « فما كان جواب قومه إلا ان قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت

من الصادقين « حكاية عما قال قوم لوط في جوابه حين عجزوا عن مقاومته بالحجة وانهم قالوا له « اثنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين » في دعواك النبوة وأن الله أرسلك وأمرك بما تدعو إليه ، فقال عند ذلك لوط « رب انصرني على القوم المفسدين » الذين فعلوا المعاصي وارتكبوا القبائح وأفسدوا في الأرض والمعنى اكفني شرهم وأذاهم ، ويجوز أن يريد اهلكهم ، وانزل عذابك عليهم .
قوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تَهْ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلِكَ إِلَّا أَمْرًا تَه كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣٥) خمس آيات

قرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب « لننجينه » بالتخفيف . الباقون بالثقل ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف وابو بكر ويعقوب « منجوك » غير متحرك بالتخفيف . الباقون بالتشديد وقرأ ابن عامر والكسائي

عن ابي بكر ﴿ منزلون ﴾ بالتشديد . الباقون بالتخفيف . من قرأ « لننجينه »
 بالتشديد وبتحريك النون ، فلقوله ﴿ ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ (١)
 ولقوله ﴿ إلا آل لوط نجينا هم بسحر ﴾ (٢) ومن خفف فلقوله ﴿ فأنجاه الله من
 النار ﴾ (٣) يقال : نجا زيد وأنجيته ونجيته ، مثل فرح وفرحته وأفرحته .
 ومن قرأ ﴿ منزلون ﴾ بالتشديد ، فلان أصله نزل ، كما قال ﴿ نزل به الروح
 الأمين ﴾ (٤) . فاذا عديته ثقلته إما بالهمزة او بالتضعيف والتضعيف يدل
 على التكرار .

وقوله ﴿ انا منجوك وأهلك ﴾ نصب ﴿ أهلك ﴾ على انه مفعول به
 عطفاً على موضع الكاف ، وقوله ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ﴾ (٥) انما كسر اللام
 وموضعها النصب ، لان العرب تقول : رأيت أهلك يريدون جميع القرابات .
 ومنهم من يقول : أهليك ، ويجمع اهل على أهلين ، فاذا أضافه ذهبت النون
 للاضافة ، فالياء علامة الجمع والنصب . وكسرت اللام لمجاورتها الياء . وفي
 الحديث (ان لله أهلين) قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال (اهل القرآن هم
 اهل الله وخاصته) ومن العرب من يجمع (أهلا) أهلات انشد ابن مجاهد :
 فهم أهلات حول قيس بن عاصم إذا ادلجوا بالليل يدعون كوثرأ
 قال ابن خالويه : الصواب أن يجعل أهلات جمع اهلة . قال : فان قيل :
 هل يجوز أن تقول أهلون؟ - بفتح الهاء - كما يقولون : أرضون إذ كان الأصل
 أرضات ، قال : إن (أهلا) مذكر تصغيره أهيل ، وأرضاً مؤنثة تصغيرها

(١) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ١٨

(٢) سورة ٥٤ القمر آية ٣٤ (٣) سورة ٢٩ المنكبر آية ٢٤

(٤) سورة ٢٦ الشعراء آية ١٩٣ (٥) سورة ٦٦ التحريم آية ٦

أريضة ، والتاء سابقة في المؤنث ممتعة في المذكر ، فهذا يفصل ما بينهما ، قال وما علمت احداً تكلم فيه .

اخبر الله تعالى انه لما جاء ابراهيم رسل الله ، وهم من الملائكة بالبشرى يبشرونه باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب ، والبشرى البيان ، وهو الخبر بما يظهر سروره في بشرة الوجه . وقيل : الاخبار بما يظهر سروره او غمه في البشارة : بشرى ، ويقوي ذلك قوله ﴿ فبشرهم بعذاب اليم ﴾ (١) غير انه غلب عليه البشارة بما يسر به .

وقوله ﴿ قالوا إنا مهلكوا اهل هذه القرية ﴾ حكاية ما قالت الملائكة لابراهيم فانهم قالوا له : بعثنا الله وارسلنا لاهلاك هذه القرية التي فيها قوم لوط . والاهلاك الاذهاب بالشيء الى ما لا يقع به احساس ، فلما كانوا بالعذاب قد اذهبوا هذا الاذهاب كانوا قد اهلكوا ، والقرية البلدة التي يجتمع اليها للايواء من جهات مختلفة ، وهي من قرى الماء في الحوض أقرية قريباً . إذا جمعتهم . ومنه قرى الضيف لانك تجمعهم اليك بما تعده له من طعام . و (الظالم) من فعل الظلم وهو صفة ذم .

فقال لهم ابراهيم عند ذلك ﴿ إن فيها لوطاً ﴾ كيف تهلكونها ، فقالوا في جوابه ﴿ نحن أعلم بمن فيها ﴾ والأعلم الأكثر معلوماً ، فاذا كان الشيء معلوماً لعالم من جهات مختلفة ولعالم آخر من بعض تلك الوجوه دون بعض كان ذلك أعلم . ثم قالوا ﴿ لننجينه ﴾ أي لنخلصه من العذاب ﴿ وأهله ﴾ أي ونخلص أيضاً اهله المؤمنين منهم ﴿ إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ أي من الباقين

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٢١ وسورة ٩ التوبة آية ٣٥ وسورة ٨٤

في العذاب ، قال المبرد : و (أهلك) عطف على المعنى ، لأن موضع الكف الخفض ، ولا يجوز العطف على المضمر المخفوض على اللفظ ، ومثل ذلك قول لبيد :
فان لم تجد من دون عدنان والدآ ودون معد فلتزعك العواذل (١)
فصب (ودون) على الموضع . ثم حكى تعالى أن رسل الله لما جاءت
﴿ لو طأسي . بهم ﴾ وقيل في معناه قولان :

أحدهما - سيء بالملائكة أي ساء مجيؤهم لما طلبوا منه الضيافة لما يعلم من
خبث فعل قومه - في قول قتادة - .

الثاني - سيء بقومه ذرعاً أي ضاق بهم ذرعاً ، لما علم من
عظم البلاء النازل بهم ، فلما رأته الملائكة على تلك الصفة ﴿ قالوا ﴾ له
﴿ لا تخف ولا تحزن انا منجوك ﴾ أي مخلصوك ومخلصوا ﴿ أهلك إلا
امراتك كانت من الغابرين ﴾ أي من الباقين في العذاب . وإنما قال ﴿ من
الغابرين ﴾ على جمع المذكر تغليبا للمذكر على المؤنث إذا اجتمعا . وقيل : كانت
من الباقين لأنه طال عمرها ، ذكره ابو عبيدة ، وقالوا له ﴿ انا منزلون على
اهل هذه القرية رجزاً ﴾ أي عذاباً رجزاً ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ ويخرجون
من طاعة الله الى معصيته .

ثم اخبر تعالى فقال ﴿ ولقد تركنا منها ﴾ يعني من القرية انه بينه ، قال
قتادة الآية البينة الحجارة التي أمطرت عليهم . وقال غيره غفو آثارهم مع ظهور
هلاكهم ﴿ لقوم يعقلون ﴾ ذلك ويبصرونه وبتفكرون فيه ويتعظون به ، فيزجرهم
ذلك عن الكفر بالله واتخاذ شريك معه في العبادة .

قوله تعالى:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۖ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا
الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧) وَعَادًا وَثُمُودَ
وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزِينَةِهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ
عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ
وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا
سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا
وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ
مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يُظْلِمُونَ ﴾ (٤٠) خمس آيات بلاخلاف .

قوله « وإلى مدين أخاهم شعيباً » عطف على قوله « ولقد أرسلنا نوحاً
إلى قومه » وتقديره « وأرسلنا إلى مدين » وقد فسرنا معنى (مدين) فيما
تقدم (١) « أخاهم شعيباً » وأنه قال لهم « يا قوم اعبدوا الله » وحده لا شريك
له ولا تشركوا معه في العبادة غيره « وارجوا اليوم الآخر » يحتمل أن

يكون أراد وخافوا عقاب اليوم الآخرة بمعاصي الله ، ويحتمل ان يكون أراد واطلبوا ثواب يوم القيامة بفعل الطاعات « ولا تعثوا في الارض مفسدين » معناه لا تضطربوا بحال الجهالة يقال : عثى يعني عثى ، كقولهم عاث يعيث عيثاً وفيه معنى الأمر بالاستقامة ، لانه إنما يخرج عن اضطراب الجهال إلى الاستقامة في الأفعال . والفساد كل فعل ينافي العقل أو الشرع ، فهو عبارة عن معاصي الله .

ثم اخبر أن قومه كذبوه في ادعائه النبوة ولم يقبلوا منه فعاقبهم الله بعذاب الرجفة ، وهي زعزعة الأرض تحت القدم ، يقال : رجف السطح من تحت أهله يرجف رجفاً ، ورجفة شديدة ، والارجاف هو الأخبار بما يضطرب الناس لأجله من غير أن يحققونه « فأصبحوا في دارهم جاثمين » قال قتادة : ميتين بعضهم على بعض . وقيل : باركين على ركبهم ، والجاثم البارك على ركبته مستقبلاً بوجهه الأرض .

وقوله « وعاداً وثمود » أي وأهلكنا أيضاً عاداً وثمود جزاء على كفرهم « وقد تبين لكم » معاشر الناس كثير « من مساكنهم » .

ثم اخبر أنه « زين لهم الشيطان أعمالهم » التي كفروا بها وعصوا الله فيها ، وذلك يدل على بطلان قول المجبرة الذين ينسبون ذلك الى الله .

ثم اخبر أن الشيطان صدهم ومنعهم عن طريق الحق « فهم لا يهتدون » اليه لاتباعهم دعاء الشيطان . وعدوهم عن الطريق الواضح « وكانوا مستبصرين » أي وكانوا عقلاء يمكنهم تمييز الحق من الباطل بأبصارهم له وفكرهم فيه . وقال مجاهد وقتادة « وكانوا مستبصرين » في ضلالتهم لعجبهم به ، فتصوروه بخلاف صورته .

ثم اخبر انه تعالى أهلك قارون ، وفرعون ، وهامان . ويجوز أن يكون عطفاً على (الهاء والميم) في قوله « فصدّهم عن السبيل » وكأنه قال فصدّ عاداً وثمود ، وصدّ قارون وفرعون وهامان . وأنهم « جاءهم موسى بالبينات » يعني بالحجج الواضحات : من فلق البحر وقبّ العصا وغير ذلك « فاستكبروا في الارض » أي طلبوا التجبر فيها ، ولم ينقادوا للحق وأنفوا من اتباع موسى « وما كانوا سابقين » أي فائتين لله ، كما يفوت السابق .

ثم اخبر تعالى فقال « فكلاً أخذنا بذنبه » أي أخذنا كلّاً بذنبه « فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً » وهو الريح العاصفة التي فيها حصباء وهي الحصى الصغار ، وشبه به البرد والجليد ، قال الاخطل :

ولقد علمت إذا العشار تروحت هــدج الرئال تكبهن شمالا
ترمي الرياح بحاصب من ثلجها حتى تبيت على العضاة جفالا (١)
وقال الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام يضربنـا بحاصب كنديف القطن منشور (٢)
والذين أرسل عليهم الحاصب قوم لوط - في قول ابن عباس ، وقتادة -
والذين أخذتهم الصيحة ثمود وقوم شعيب - في قولهما - « ومنهم من
خسفناه الارض » يعني قارون ، « ومنهم من أغرقنا » يعني قوم وفرعون .
ثم اخبر تعالى أنه لم يظلمهم بما فعل معهم « ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »
بجحدهم نعم الله واتخاذهم مع الله آلهة عبدوها ، وطغيانهم وفسادهم في الأرض .
وذلك يدل على فساد قول المجبرة الذين قالوا : إن الظلم من فعل الله ، لأنه

(١) مر تخريجه في ٧ / ٨ (٢) مر تخريجه في ٦ / ٥٠٢

{ ج ٨ م ٢٧ من التبيان }

لو كان من فعله لما كانوا هم الظالمين لنفوسهم، بل كان الظالم لهم من فعل فيهم الظلم
قوله تعالى :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ
أَتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا
إِلَّا الْعَالَمُونَ (٤٣) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) أَتُلُّ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ
وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ
أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابو عمرو ويعقوب وعاصم - في رواية حفص - والعليمي ، والعبيسي
« ان الله يعلم ما يدعون من دونه » بالياء على الخبر عن الغائب . الباقون
بالتاء على الخطاب . قال ابو علي : (ما) استفهام وموضعها النصب بـ (يدعون)
ولا يجوز أن يكون نصباً بـ (يعلم) ولكن صارت الجملة التي هي منها في موضع
نصب ، وتقديره ان الله يعلم أوثاناً يدعون من دونه ، لا يخفى عليه ذلك .
ومثله « فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار » (١) والمعنى سيعلمون آلمسلم

يكون له عاقبة الدار أم الكافر ؟ . وكل ما كان من هذا فهكذا القول فيه ، وهو قياس قول الخليل .

شبه الله سبحانه حال من اتخذ من دونه أولياء ينصرونه عند الحاجة في الوهن والضعف بحال العنكبوت الذي يتخذ بيتاً لياوى إليه ، فكما أن بيت العنكبوت في غاية الوهن والضعف ، فكذلك حال من اتخذ من دون الله أولياء مثله في الضعف والوهن . والمثل قول سائر يشبه به حال الثاني بالاول . و (الاتخاذ) أخذ الشيء على اعداده لنائبة ، وهو (افتعال) من (الاخذ) فلما اخذوا عبادة غير الله إعداداً لنائبة كانوا اتخذوا الأولياء من دون الله ، وذلك فاسد لأن عبادة الله هي العاصمة من المكروه دون عبادة الأوثان . والمولى هو المتولي للنصرة ، وهو أبلغ من الناصر ، لان الناصر قد يكون ناصراً بأن يأمر غيره بالنصرة ، والمولى هو الذي يتولى فعلها بنفسه . والعنكبوت هو دابة لطيفة تنسج بيتاً تأويه ، في غاية الوهن والضعف ، ويجمع عناكب ، ويصغر عنكب ووزنه (فعللوت) وهو يذكر ويؤنث ، قال الشاعر :

على هطأ لهم منهم بيوت كأن العنكبوت هو ابتناها (١)

ويقال: هو العنكباء . ثم اخبر تعالى « ان أوهن البيوت لبیت العنكبوت » الذي شبه الله حال من اتخذ من دونه أولياء به ، فاذا حاله أضعف الاحوال . وقوله « لو كانوا يعلمون » صحة ما أخبرناهم به ويتحققونه ، لكنهم كفار بذلك ، فلا يعلمونه ف (لو) متعلقة بقوله « اتخذوا » أي لو علموا أن اتخاذهم الأولياء كاتخاذ العنكبوت بيتاً سخيفاً لم يتخذوهم أولياء ، ولا يجوز أن تكون متعلقة بقوله « وإن أوهن البيوت لبیت العنكبوت » لأنهم كانوا عالمين بأن

بيت العنكبوت واه ضعيف .

ثم قال تعالى « إن الله يعلم ما تدعون من دونه من شيء » سواء كان صنماً أو وثناً أو ما كان مثل ذلك « وهو العزيز » في انتقامه الذي لا يغالب في ما يريد « الحكيم » في جميع أحواله وأفعاله ، واضع لها في مواضعها . ثم قال « وتلك الامثال » وهي الاشباه والنظائر ، قال الشاعر :

هل يذكر العهد في تنمص إذ يضرب لي قاعدة بهامثلاً (١)

« يضربها للناس وما يعقلها إلا العائون » أي ما يدركها إلا من كان عالماً بمواقعها . ثم اخبر تعالى انه « خلق السموات والارض » وأخرجهما من العدم الى الوجود « بالحق » أي على وجه الحكمة دون العبث الذي لافائدة فيه وانه قصد بها الدلالة على توحيده « إن في ذلك » يعني في خلق الله ذلك على ما ذكره « لآية للمؤمنين » المصدقين بتوحيد الله ، لأنهم المنتفعون بها دون الكفار الذين لم ينتفعوا بها لتفريطهم ، فلذلك اسندها الى المؤمنين .

ثم قال انبيه ﷺ « اتل ما أوحى اليك من الكتاب » يا محمد يعني القرآن - على المكلفين ، واعمل بما تضمنه « وأقم الصلاة » بحدودها « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » يعني فعلها فيه لطف للمكلف في فعل الواجب والامتناع عن القبيح ، فهي بمنزلة الناهي بالقول إذا قال : لا تفعل الفحشاء ولا المنكر ، وذلك لأن فيها : التكبير ، والتسبيح ، والقراءة ، وصنوف العبادة ، وكل ذلك يدعو إلى شكله ويصرف عن ضده ، كالأمر والنهي بالقول ، وكل دليل مؤد الى المعرفة بالحق ، فهو داع اليه وصارف عن ضده من الباطل . وقال ابن مسعود : الصلاة تنهى عن المنكر وتأمّر بالمعروف . وبه

قال ابن عباس . وقال ابن مسعود : الصلاة لا تنفع إلا من أطاع .
 وقوله « ولذكر الله أكبر » معناه ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم
 إياه بطاعته - ذكره ابن عباس ، وسلمان ، وابن مسعود ، ومجاهد - وقيل :
 معناه ذكر العبد لربه أفضل من جميع عمله - في رواية أخرى - عن سلمان ، وهو
 قول قتادة وابن زيد وابن الدرداء . وقال أبو مالك : معناه إن ذكر العبد لله
 تعالى في الصلاة أكبر من الصلاة . وقيل : ذكر الله بتعظيمه أكبر من سائر
 طاعاته . وقيل : ولذكر الله أكبر من النهي عن الفحشاء .

وقوله « والله يعلم ما تصنعون » من خير وشر ، فيجازيكم بحسبه . وفي
 الآية دلالة على بطلان قول من قال : أن المعرفة ضرورة ، ودلالة على بطلان قول
 المجبرة في أن الله خلق الكافر للضلال .

قوله تعالى :

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ
 وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَيْنَا
 وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ، وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
 الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ
 يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) ، وَمَا كُنْتَ تَتْلُو
 مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ
 الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩) وَقَالُوا كَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ
آيَاتٍ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ
مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ خمس آيات بلاخلاف .

قرأ أبو عمرو ، وابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم
وقتيبة عن الكسائي « لولا أنزل عليه آيات من ربه » على الجمع لقوله « قل
إنما الآيات » . وقرأ الباقون « آية » على التوحيد . ومعناها واحد ، لأنه لفظ
جنس يدل على القليل والكثير . قال قتادة : الآية الأولى منسوخة بالجهاد
والقتال . وقال غيره : هي ثابتة ، وهو الأولى ، لأنه لا دليل على ما قاله ،
فكيف وقد أمر بالجدال بالذي هو أحسن ، وهو الواجب الذي لا يجوز غيره
كما قال « وجادلهم بالتي هي أحسن » (١) فالآية خطاب من الله تعالى لنبيه
وجميع المؤمنين ينههم أن يجادلوا أهل الكتاب ! من اليهود والنصارى « إلا بالتي
هي أحسن » وقيل : معناه إلا بالجميل من القول في التنبيه على آيات الله وحججه
والأحسن الأعلى في الحسن من جهة تقبل العقل له . وقد يكون الأعلى في
الحسن من جهة تقبل الطبع له ، وقد يكون في الأمرين ، و (الجدال) فتل الخصم
عن مذهبه بطريق الحجاج فيه . وفي ذلك دلالة على حسن المجادلة ، لأنها
لو كانت قبيحة على كل حال ، لما قال « إلا بالتي هي أحسن » .

وأصل الجدال شدة الفتل ، يقال : جدلته أجده جـدلاً إذا فتله فتلاً
شديداً ، ومنه الأجل : للصقر لشدة فتله بدنه . وقيل : أنه يجوز أن يغلظ

الحق في الجدل على الظالم فيه ، بتأديب الله تعالى في الآية في قوله « إلا الذين ظلموا منهم » فاستثنى الظالم عن المجادلة بالتي هي أحسن .

فان قيل : لم استثنى الذين ظلموا ؟ وكلهم ظالم لنفسه بكفره !

قيل : لان المراد « إلا الذين ظلموا » في جسد الهيم أو في غيره مما يقتضي الاغلاظ لهم ، ولهذا يسع الانسان ان يغلظ على غيره ، والا فالداعي الى الحق يجب أن يستعمل الرفق في أمره . قال مجاهد : « إلا الذين ظلموا منهم » بمنع الجزية . وقال ابن زيد : الذين ظلموا بالاقامة على كفرهم بعد إقامة الحجّة عليهم . ثم قال تعالى للمؤمنين « وقولوا آمنا بالذي انزل إلينا » من القرآن « وانزل إليكم » من التوراة والانجيل ، وقولوا « إلهنا إلهكم واحد » لا شريك له « ونحن له مسلمون » طائعون .

ثم قال لنبيه ﷺ ومثل ما أنزلنا الكتاب على موسى وعيسى من التوراة والانجيل « أنزلنا إليك الكتاب » القرآن « فالذين آتيناكم الكتاب » يعني الذين آتيناكم علم الكتاب يصدقون بالقرآن لدلالته عليه « ومن هؤلاء من يؤمن به » أي من غير جهة علم الكتاب . وقيل « فالذين آتيناكم الكتاب » يعني به عبد الله بن سلام وأمثاله . و « من هؤلاء » يعني أهل مكة « من يؤمن به » . ويحتمل ان يكون أراد بـ (الذين آتيناكم الكتاب) الذين آتاهم القرآن : المؤمنين منهم و (ومن هؤلاء) يعني من اليهود والنصارى « من يؤمن به » أيضاً ، والهاء في قوله (به) يجوز أن تكون راجعة الى النبي ، ويجوز أن تكون راجعة الى القرآن « وما يحجد بآياتنا إلا الكافرون » لان كل من جحد بآيات الله من المكلفين ، فهو كافر : معانداً كان أو غير معاند .

ثم خاطب نبيه ﷺ فقال « وما كنت تتلو من قبله من كتاب » يعني

لم تكن تحسن القراءة قبل أن يوحى اليك بالقرآن « ولا تخطه بيمينك » معناه وما كنت أيضاً تخط بيمينك . وفيه اختصار ، وتقديره ولو كنت تتلو الكتاب وتخطه بيمينك « إذآلارتاب المبطلون » وقال المفسرون : إنه لم يكن النبي ﷺ يحسن الكتابة . والآية لا تدل على ذلك بل فيها إنه لم يكن يكتب الكتاب وقد لا يكتب الكتاب من يحسنه ، كما لا يكتب من لا يحسنه ، وليس ذلك بنهي ، لأنه لو كان نهياً لكان الأجود أن يكون مفتوحاً ، وإن جاز الضم على وجه الاتباع لضمه الخاء ، كما يقال : (ردّه) بالضم والفتح والكسر ، ولكن أيضاً غير مطابق للاول . ولو أفاد أنه لم يكن يحسن الكتابة قبل الايجاء ، لكان دليله يدل على انه كان يحسنها بعد الايجاء اليه ، ليكون فرقاً بين الحالتين . ثم بين تعالى أنه لم يكتب ، لأنه لو كتب لشك المبطلون في القرآن وقالوا هو قرأ الكتب أو هو يصفه ، ويضم شيئاً الى شيء في حال بعد حال فاذا لم يحسن الكتابة لم تسبق اليه الظنة .

ثم قال « بل هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم » وقيل : معناه بل هي آيات واضحات في صدور العلماء ، بأنه أُمي لا يقرأ ولا يكتب ، على صفته في التوراة والانجيل - في قول ابن عباس - وقال الحسن : بل القرآن آيات بينات في صدور العلماء . ثم قال ﴿ وما يجحد بآياتنا ﴾ أي لا ينكر حججنا ويجحدنا إلا الذين ظلموا نفوسهم بترك النظر فيها ، أو العناد لها بعد طول المدة وحصول العلم بها . ثم حكى عن الكفار انهم قالوا : هلا انزل على محمد آية من ربه ؟ يريدون آية يقترحونها ، وآية كآية موسى : من فلق البحر وقلب العصا حية ، فقال الله تعالى لهم ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ انما الآيات عند الله ﴾ ينزلها ويظهرها بحسب ما يعلم من مصالح خلقه ﴿ وانما أنا نذير ﴾ أي

منذر مخوف من معصية الله ﴿ مبین ﴾ طريق الحق من طريق الباطل .

قوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥١) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَيْنَكُمُ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٥٢) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (٥٤) يَوْمَ يَغْشِيُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٥٥) خمس

آيات بلاخلاف .

قرأ أهل الكوفة ونافع « يقول » بالياء على معنى : ويقول لهم الموكلون بعذابهم . الباقون - بالنون - على وجه الاخبار من الله تعالى عن نفسه . وفي قراءة عبد الله ويقال لهم : على ما لم يسم فاعله .

لما حكى الله تعالى عن الكفار أنهم قالوا : هلا أنزل على محمد آيات

﴿ ج ٨ م ٢٨ من التبيان ﴾

اقترحوها أو آيات كما أنزل على موسى وعيسى ، قال الله لهم « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك » يا محمد « الكتاب » يعني القرآن « يتلى عليهم » فبين أن في القرآن دلالة واضحة وحجة بالغة ينزاح معه العلة وتقوم به الحجة لا يحتاج معه الى غيره في الوصول الى العلم بصحة نبوته وأنه مبعوث من عند الله، مع أن اظهار المعجزات مع كونها لا زاحة العلة يراعى فيها المصلحة . فاذا كانت المصلحة في اظهار نوع منها لم يجز إظهار غيرها ، ولو اظهر الله الاعلام التي اقترحوها ثم لم يؤمنوا ، لاقتضت المصلحة استئصالهم كما اقتضت في الامم الماضية ، وقد وعد الله أن هذه الأمة لا تعذب بعذاب الاستئصال ، كما قال « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » (١) . والكفاية بلوغ حد ينافي الحاجة ، يقال : كفى يكفي كفاية ، فهو كاف . وقيل : إن الآية نزلت في قوم كتبوا شيئا من كتب أهل الكتاب شبه الخرافات ، فقال الله تعالى ﴿ أو لم يكفهم ﴾ القرآن تهديدا لهم ومنعاً من التعرض لغيره . وقولهم : كفى الله معناه أنه فعل ما ينافي الحاجة بالنصرة . والتلاوة هي القراءة وسميت تلاوة لأنه يتلو حرف حرفاً في التلاوة . والقرآن مشتق من جمع الحروف بعضها الى بعض .

ثم بين الله تعالى ﴿ إن في ذلك ﴾ أي القرآن ﴿ لرحمة ﴾ أي نعمة ﴿ وذكرى ﴾ أي ما يتذكر به ومعتبر ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ يصدقون به ويعتبرون وانما أضافه اليهم ، لانهم الذين ينتفعون به . ثم أمر نبيه ﷺ أن يقول ﴿ كفى بالله ﴾ أي كفى الله . والباء زائدة ﴿ بيني وبينكم شهيداً ﴾ يشهد بالحق . والشاهد والشهيد واحد ، وفيه مبالغة ، والشهادة هي الخبر بالشيء عن مشاهدة تقوم به الحجة في حكم من أحكام الشرع ، ولذلك لم يكن خبر من لا تقوم به

الحجة - في الزنا - شهادة وكان قذفاً ، ثم بين أن الشهيد الذي هو الله ﴿ يعلم ما في السموات والارض ﴾ ويعلم الذين صدقوا بالباطل وجحدوا وحدانيته . ثم اخبر عنهم انهم الخاسرون الذين خسروا ثواب الجنة بارتكابهم المعاصي وجحدهم بالله ، فكان ذاك الخسران الذي لا يوازيه خسران مال . وقوله ﴿ والذين آمنوا بالباطل ﴾ انما وصفهم بالايمان مقيداً بالباطل ، كما يقال : فلان كافر بالطاغوت مقيداً ، وانما الاطلاق لا يجوز فيهما .

ثم خاطب نبيه ﷺ فقال ﴿ يستعجلونك بالعذاب ﴾ يعني هؤلاء الكفار ﴿ يستعجلونك بالعذاب ﴾ أن ينزل عليهم بجحودهم صحة ما تدعوهم به ، كما قالوا ﴿ فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ (١) و ﴿ لو لا أجل مسمى ﴾ يعني وقتاً قدره الله أن يعاقبهم فيه وهو يوم القيامة وأجل قدره الله أن يقيمهم اليه لضرب من المصلحة ، وقال الجبائي : ذاك يدل على أن التبقية لا تجب لكونه أصلح ، لانه علله بأنه قدر له أجلاً ﴿ لجاهم العذاب ﴾ الذي استحقوه ﴿ وليأتينهم ﴾ العذاب الذي يوعدونه ﴿ بغتة ﴾ أي فجأة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ بوقت مجيئه .

ثم قال ﴿ يستعجلونك ﴾ يا محمد ﴿ بالعذاب ﴾ أي يطلبون العذاب عاجلاً فلة يقين منهم بصحته ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ أي كأنها محيطة بهم لما قد لزمهم بكفرهم من كونهم فيها . وقيل : معناه انه إذا كان يوم القيامة أحاطت بهم . ووجه ثالث - أنها تحيط بهم ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ونقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ أي تكسبون أي ذوقوا جزاء اعمالكم المعاصي التي اكتسبتموها .

قوله تعالى :

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإَيَّي فَاعْبُدُونِ (٥٦)
كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كُنُوبُهُمْ مِنْ الْجَسَنَةِ عُزْفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى
رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ
يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٦٠) خمس آيات بلاخلاف

قرأ يحيى والعلمي « ثم الينا يرجعون » بالياء على الخبر عن الغائب .
الباقون بالناء على الخطاب . وقرأ اهل الكوفة إلا عاصمًا « لنشوينهم » بالشاء
من أثوبته منزلا أي جعلت له منزل مقام ، والثواء المقام ، الباقون بالباء من
قولهم : بوائه منزلا ، كما قال تعالى « مَبُوءَ صَدَقَ » في قوله « ولقد بؤأنا بني
اسرائيل مَبُوءَ صَدَقَ » (١) و « إذ بؤأنا لبراهيم مكان البيت » (٢) ويحتمل
ان تكون اللام زائدة ، كقوله « ردف لكم بعض » (٣) ويحتمل ان يكون المراد
« بؤأنا » لدعاء إبراهيم « مكان البيت » ويقول القائل : اللهم بؤأنا مَبُوءَ صَدَقَ
أي انزلنا منزل صدق والتبوء اتخاذ منزل يرجع اليه من يأوى اليه ، وأصله

الرجوع من قوله ﴿بَاءُوا﴾ بغضب من الله ﴿١﴾ أي رجعوا ، ومنه قول الحارث ابن عباد : (بوئوا بشمع كليب) وقيل : معناه لنزلهم من الجنة علالي .
يقول الله تعالى لخلقهم الذين صدقوا بوحدايته وأقروا بنبوة نبيه ﴿ يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة ﴾ لبعد أقطارها ، فاهربوا من أرض من منعكم فيها من الايمان واخلاص عبادتي فيها . وقيل : نزلت في مؤمني مكة أمروا بالهجرة عنها ، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وابن زيد . وقيل ﴿ أرضي واسعة ﴾ بما أخرج فيها من الرزق لكم - ذكره مطرف بن عبد الله بن السخير العامري . وقال الجبائي : معناه إن أرض الجنة واسعة ، وأكثر أهل التأويل على أن المراد به أرض الدنيا .

وقوله ﴿ فإياي فاعبدون ﴾ أي اعبدوني خالصاً ، ولا تطيعوا احداً من خلقي في معصيتي . وقيل : دخول الفاء في الكلام للجزاء وتقديره إن ضاق موضع بكم فإياي فاعبدون لأن أرضي واسعة . و (إياي) منصوب بمضمر يفسره ما بعده .

ثم أخبر تعالى أن ﴿ كل نفس ﴾ أحيائها الله بحياة خلقها فيها ﴿ ذائقة الموت ﴾ والذائق الواجد للجسم بحاسة إدراك الطعم ﴿ ثم الينائر جمعون ﴾ أي تردون إلينا فنجازيكم على قدر استحقاقكم من الثواب والعقاب . وفي ذلك غاية التهديد والزجر . ثم قال ﴿ والذين آمنوا ﴾ أي صدقوا بوحداية الله ، وأقروا بنبوة نبيه ﷺ ﴿ وعملوا ﴾ مع ذلك الاعمال ﴿ الصالحات لنبوءتهم ﴾ أي لنزلهم ﴿ من الجنة ﴾ التي وعدها الله المتقين ﴿ غرقاً ﴾ أي مواضع عاليات ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ لأن الغرف تعلو عليها . وقيل : تجري من تحت

أشجارها المياه . وقيل : انهار الجنة في أخايد تحت الارض ﴿ خالدين فيها ﴾ أي يبقون فيها بقاء الله .

ثم اخبر تعالى ان ذلك ﴿ نعم أجر العاملين ﴾ أي نعم الثواب والأجر للعاملين بطاعة الله ﴿ الذين صبروا ﴾ على الأذى في الله ، وصبروا على مشاق الطاعات ، ووكلوا أمورهم الى الله وتوكلوا عليه في ارزاقهم وجهاد اعدائهم ومهمات أمورهم .

ثم قال تعالى « وكأين من دابة » معنى كآين (كم) وقد فسرناه في ما مضى (١) « لا تحمل رزقها » أي لا تدخره لغيره - في قول علي بن الاقر - وقال الحسن « لا تحمل رزقها » للادخار . وقيل : ان الحيوان أجمع من البهائم والطيور ونحوهما لا تدخر القوت لغيره - إلا ابن آدم والنملة والفارة - بل تأكل منه كفايتها فقط . وقال مجاهد : معناه « لا تحمل رزقها » لا تطيق حمل رزقها لضعفها « الله يرزقها » يعني تلك الدابة الضعيفة التي لا تقدر على حمل رزقها « وإياكم » أي ويرزقكم أيضاً « وهو السميع العليم » يعني « السميع » لما يقول القائل في فراق وطنه « العليم » بما في نفسه ، لانه عالم بجميع الاشياء وقيل : الآية نزلت في أهل مكة : المؤمنين منهم ، فانهم قالوا لرسول الله : ليس لنا بالمدينة اموال ، ولا منازل ، فمن أين المعاش ، فأنزل الله الآية ،

قوله تعالى:

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ

الْشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ
الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ (٦٢) وَلَكِنَّ سَاءَ لَتَمَّهُمْ مِنْ نَزَلٍ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ
الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ
الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي
الْفُلْكِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ * فَلَمَّا نَجَّيَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا
هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿ (٦٦) ٠

سبع آيات بصري وشامي ، وست في ما عداه عدوا « مخلصين له الدين »
ولم يعده الباقون .

قرأ ابن كثير وحمة والكسائي وخلف ، والمسيبي ، والأعشى ، والبرجي
والكسائي عن أبي بكر ﴿ ليكفروا ، وليتمتعوا ﴾ ساكنة اللام . الباقون بالكسر
إلا نافعا ، لأنه اختلف عنه فيه . قال ابو علي : من كسرهما وجعلها الجارة
جعلها متعلقة بالاشراك ، وكان المعنى : يشركون ليكفروا ، أي لا فائدة
لهم في الاشراك إلا الكفر والتمتع بما يتمتعون به عاجلا من غير نصيب
آجلا . ومن سكن جعل ﴿ ليكفروا ﴾ بمنزلة الأمر ، وعطف عليه ، وكان

على وجه التهديد . وقال غيره : تحتل هذه اللام أن تكون (لام كي) أي كأنهم اشركوا ليكفروا إذ لا يدفع الشرك في العبادة من كفر النعمة . ويجوز أن يكون لام الأمر على وجه التهديد بدلالة قوله ﴿ فسوف تعلمون ﴾ .

يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ولئن سألت هؤلاء الكفار الذين جحدوا توحيدي وكفروا بنبوتك ﴿ من خلق السموات والارض ﴾ والنشيء لها والمخرج لها من العدم الى الوجود ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ في دورانها على طريقه واحدة لا تختلف ؟؟ ﴿ ليقولن ﴾ في جواب ذلك ﴿ الله ﴾ الفاعل لذلك لأنهم كانوا يقولون بحدوث العالم ، والنشأة الأولى ، ويعترفون بأن الأصنام لا تقدر على ذلك . ثم قال ﴿ فأتى يؤفكون ﴾ هؤلاء أي كيف يصرفون عن صانع ذلك والاخلاص لعبادته - في قول قتادة - .

ثم قال ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ﴾ أي يوسع لمن يشاء من عباده بحسب ما تقتضيه المصلحة ﴿ ويقدر ﴾ أي يضيق مثل ذلك على حسب المصلحة ومنه قوله ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ (١) بمعنى ضيق على قدر ما فيه مصلحته . وقيل : معنى ويقدر - ههنا - ويقبض رزق العبد بحسب ما تقتضيه مصلحته . وخص بذكر الرزق على الهجرة لئلا يخلفهم عنها خوف العيلة .

وقوله « ان الله بكل شيء عليم » أي عالم بما يصلح العبد وبما يفسده فهو يوسع الرزق ويبسط بحسب ذلك . ثم قال « ولئن سألتهم » يعني هؤلاء الذين ذكرناهم « من نزل من السماء ماء » ؟ يعني مطراً « فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن » في الجواب عن ذلك « الله » فـ « قل » يا محمد عند ذلك « الحمد لله » على فنون نعمه على ما وفقنا للاعتراف بتوحيده واخلاص

عبادته . ثم قال « بل أكثرهم » يعني هؤلاء الخلق « لا يعقلون » ما قلناه لعدولهم عن الطريق المفضي إليه . ثم قال تعالى وليس « هذه الحياة الدنيا إلهو ولعب » لأنها تزول كما يزول اللهو واللعب ، لا بقاء لها ، ولا دوام ، كما يزول اللهو واللعب « وإن الدار الآخرة هي الحيوان » أي الحياة على الحقيقة لكونها دائمة باقية « لو كانوا يعلمون » صحة ما أخبرناك به . وقال ابو عبيدة : الحيوان والحياة واحد .

ثم قال تعالى مخبراً عن حال هؤلاء الكفار أنهم « إذا ركبوا في الفلك » وهي السفن وهاجت به الرياح وخافوا الهلاك « دعوا الله مخلصين له الدين » لا يوجهون دعاءهم الى الأصنام والأوثان « فلما نجاهم الى البر » أي خلاصهم الى البر « إذا هم يشركون » أي يعودون الى ما كانوا عليه من الاشراك معه في العبادة « ليكفروا بما آتيناهم » أي يفعلون ما ذكرناه من الاشراك مع الله ليحجدوا نعم الله التي أعطاهم اياها « وليتمتعوا » أي وليلتذذوا في العاجل من دنياهم ، فالتمتع يكون بالمناظر الحسنة ، والاصوات المطربة ، والمشام الطيبة والمآكل المذقة . ثم قال مهدداً لهم « فسوف يعلمون » أي لا بد أن يعملوا جزاء ما يفعلونه من الأفعال من طاعة أو معصية ، فان الله يجازيهم بحسبها وذلك غاية التهديد ، قوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَهَذَا أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي

﴿ ج ٨ م ٢٩ من التبيان ﴾

جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا
وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ثلاث آيات بلاخلاف .

يقول الله تعالى لهؤلاء الكفار ﴿ أو لم يروا ﴾ ومعناه أو لم يعلموا ﴿ أنا
جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ﴾ أي يتناول الناس من حوالي
مكة بسرعة ، وتؤخذ أموالهم ، ومنه خطف البصر لسرعته . ومنه اختطاف
الطير لصيده ، ومنه الخطاف الذي يخرج الدلو . والمعني بذلك تنبيههم على جميل
صنع الله بهم ، وسبوغ نعمه عليهم ، بأن جعلهم في أمن مع أن الناس يؤخذون
من حولهم . وذلك لا يقدر عليه غير الله . ثم قال مهدداً لهم ﴿ أفبالباطل
يؤمنون ﴾ أي يصدقون بعبادة الاصنام وهي باطلة مضمحلة ﴿ وبنعمة الله ﴾
التي انعم بها عليهم ﴿ يكفرون ﴾ ؟!

ثم قال ﴿ ومن اظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ أي من أظلم لنفسه
ممن جحد آيات الله واطاف اليه ما لم يقله ولم يأمر به من عبادة الأصنام وغيرها
﴿ أو كذب بالحق لما جاءه ﴾ من نبوة محمد ﷺ من القرآن الذي أنزل
عليه . ثم قال ﴿ أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴾ أي موضع مقام الذين
يجحدون نعم الله ، ويكفرون بآياته .

ثم قال ﴿ والذين جاهدوا فينا ﴾ يعني جاهدوا الكفار بأنفسهم ، وجاهدوا
نفوسهم بمنعها عن المعاصي وإلزامها فعل الطاعة لوجه الله ﴿ لنهدينهم سبلنا ﴾
أي نرشدهم السبيل الموصل الى الثواب . وقيل : معناه لنوفقهم لازدياد الطاعات
فينزدادوا ثوابهم . وقيل : معناه لنرشدهم الى الجنة ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾
أي ناصر الذين فعلوا الأفعال الحسنة ، ويدفع عنهم أعداءهم .

٣٠ - سورة الروم

وهي مكية في قول مجاهد وقتادة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ . وقال الحسن : كلها مكية إلا قوله ﴿ فسبحان الله ﴾ الى قوله ﴿ وحين تظهرون ﴾ وهي ستون آية كوفي وبصري ومدني الأول وشامي . وتسع وخمسون في المدني الأخير والمكي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الم﴾ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ
غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ بَعْدُ
وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾

خمس آيات كوفي وبصري وشامي ، وأربع في ما عداه عد ، الكوفيون ﴿الم﴾ وعدوا ﴿ غلبت الروم ﴾ وعد البصري والشامي ﴿ غلبت الروم ﴾

وعدوا ﴿ في بضع سنين ﴾ وعد المدني ﴿ غلبت الروم ﴾ وعد ﴿ اسماعيل ﴾ والمكي غلبت الروم ، في بضع سنين .

قرأ ابن عمر ، وابو سعيد الخدري ﴿ غلبت الروم ﴾ بفتح الغين ، فقليل لابن عمر : على أي شيء غلبوا قال على ريف الشام ، وهذا غلط ، فان عند جميع المفسرين القراءة بالضم . والسبب في ذلك معروف ، وهو أن الروم لما غلبهم فارس فرح مشركوا قريش بذلك من حيث أن اهل فارس لم يكونوا اهل كتاب ، وساء ذلك المسلمين ، فأخبر الله تعالى ابن الروم وإن غلبهم فارس ، فان الروم ستغلب في ما بعد فارس ﴿ في بضع سنين ﴾ أي في ما بين ثلاث سنين الى عشر ، فكان كما أخبر ، وكان ذلك معجزة ظاهرة باهرة للنبي ﷺ وروي أن جماعة من الصحابة راہنوا أبي بن خلف . وقيل : أبا سفيان ، إن لم يصح الخبر ووافقوهم على اربع سنين ، فلما أخبروا النبي ﷺ قال : (زيدوهم في الخطر واستزيدوا في الأجل) ففعلوا ، فغلبت الروم لفارس قبل المدة .

أخبر الله تعالى أن الروم غلبت عليها فارس في أدنى الأرض من أرض الشام الى أرض فارس ، وانهم من بعد غلبتهم فارس سيغلبون فيما بعد في بضع سنين . وروي عن النبي ﷺ أن البضع - ههنا - ما بين الثلاث الى العشر . وروي أن سبب ذلك أن الروم لما غلبتها فارس فرح المشركون بذلك وقالوا : أهل فارس لا كتاب لهم غلبوا اهل الروم ، وهم اهل كتاب ، فنحن لا كتاب لنا نغلب محمداً الذي معه كتاب ، فانزل الله تعالى هذه الآيات تسلية للنبي والمؤمنين . وإن الروم وإن غلبها فارس ، فانها ستغلب فارس في ما بعد في بضع سنين . قال ابو سعيد الخدري : كان النصر يوم بدر للفریقین للنبي ﷺ

والروم على فارس ، ففرح المؤمنون بالنصرين . وقيل : كان يوم الحديبية .
وقال الفراء : قوله « من بعد غلبهم » تقديره غلبتهم ، فحذف الهاء للاضافة .
كما قال « وإقام الصلاة » (١).

قال الزجاج : الغلب والغلبة مصدران ، مثل الحلب والحلبة ، والغلبة الاستيلاء على القرن بالقهر ، غلب يغلب فهو غالب وذلك مغلوب ، وتغلب تغلباً إذا تعرض للغلبة ، غالبه مغالبة . و (الأدنى) الأقرب ، ونقيض الأدنى الأقصى ، ونقيض الأقرب الأبعد . والمراد أدنى الارض الى جهة عدوهم .
والبضع القطعة من العدد ما بين الثلاث الى العشر ، اشتقاقه من بضعتة إذا قطعت تبضيعاً ، ومنه البضاعة القطعة من المال في التجارة ، ومنه البضعة القطعة من البدن ، والمبضع ، لانه يقطع به العرق . والمباضعة الجماع . وقال المبرد البضع ما بين العقدين في جميع الاعداد .

ثم اخبر تعالى بأن « لله الأمر من قبل ومن بعد » تقديره من بعد غلبهم ومن قبل غلبهم ، فقطع عن الاضافة وبني لأنه على الغاية وتفسيرها انه ظرف قطع عن الاضافة التي هي غاية ، فصار كبعض الاسم ، فاستحق البناء وبني على الحركة ، لان له اصلاً في التمكن يستعمل . وبني على الضمة لانها حركة لا تكون له في حال الاعراب . فهي أدل على البناء .

ثم قال « ويومئذ يفرح المؤمنون » أي يوم يغلب الروم لفارس يسر المؤمنون تفاؤلاً بأن يغلبوا هم المشركين . ثم بين بماذا يفرحون ، فقال « بنصر الله ينصر من يشاء من عباده وهو العزيز » في انتقامه من أعدائه « الرحيم » الى من أناب اليه من خلقه .

قوله تعالى :

﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٦) يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون (٧) أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلىء ربهم لكافرن (٨) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (٩) ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوء أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزون ﴿ (١٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ أهل الحجاز والبصرة والبرجي ، والسموني ، والكسائي عن أبي بكر « عاقبة الذين » بالرفع . الباقون بالنصب . من نصب جعلها خبر (كان) وقدمها على الاسم ، واسمها يحتمل أن يكون السوء وتقديره : ثم كان السوء عاقبة الذين . ويحتمل أن يكون ما بعد (أن) في قوله « ان كذبوا » ومن رفع [عاقبة] جعلها اسم (كان) والخبر السوء . ويحتمل أن يكون الخبر

(ان كذبوا) وتقديره ثم كان عاقبة المسيء، التكذيب. بآيات الله، أي لم يظفر في شركه وكفره إلا بالتكذيب، ويكون السوء على هذا نصباً على المصدر في قوله « وعد الله » نصب على المصدر، وتقديره: إن ما ذكره الله تعالى من ان الروم ستغلب فارس في ما بعد، وعد وعداً لله لا يختلف وعده، وتقديره وعداً لله وعده كما قال الشاعر:

يسعى الوشاة جنابها و قيلهم انك يا ابن أبي سلمى لمقتول (١)

أي ويقولون: قيلهم، والاختلاف فعل خلاف ما تقدم الوعد به، وسبيل الوعد بالخير والوعيد بالشر واحد في أنه إذا وقع فيه خلاف ما تضمنه كان خلفاً. ثم قال « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » صحة ما أخبرناك به لجهلهم بالله وتفريطهم في النظر المؤدي إلى معرفة الله، ولا يناقض قوله « لا يعلمون » لقوله « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » لأن ذلك ورد مورد المبالغة لهم بالذم لتضييعهم على ما يلزمهم من أمر الله، كأنهم لا يعلمون شيئاً. ثم بين حالهم في ما عقلوا عنه، وما عملوه. ومعنى « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » أي عمران الدنيا متى يزرعون ومتى يحصدون، وكيف يبنون ومن أين يعيشون وهم جهال بأمر الآخرة، وله مضيعون - ذكره ابن عباس - أي عمرؤا الدنيا وأخربوا الآخرة. والظاهر هو الذي يصح أن يدرك من غير كشف عنه. فالله تعالى ظاهر بالأدلة، باطن عن حواس خلقه. والأمور كلها ظاهرة له، لأنه يعلمها من غير كشف عنها ولا دلالة تؤديه إليها. وكلما يعلم بأوائل العقول ظاهر وكلما يعلم بدليل العقل باطن، لأن دليل العقل يجري مجرى الكشف عن صحة المعنى - في صفته - والغفلة ذهاب المعنى عن النفس كحال النائم، ونقيضه

اليقظة . وهي حضور المعنى للنفس كحال المنتبه . وتقيضه السهو .

ثم قال تعالى منبهاً لخلقهم على وجه الدلالة على توحيدهم « أو لم يتفكروا في أنفسهم » فيعلموا أن الله لم يخلق « السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق » بمعنى الاستدلال بهما على توحيدهم « واجل مسمى » للشيء الذي للعباد فيها مصلحة بالاعتبار به إذا تصوروا ذلك في الاخبار عنه أنه مع كثرة وعظمه محصل بتسمية نبيه عنه ، لا يتأخر ولا يتقدم ، بالأوصاف التي ذكرها الله تعالى ، عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه شيء منه .

ثم قال « وإن كثيراً من الناس بقاء ربهم لكافرون » أي بقاء ثواب الله وعقابه كافرون ، يجحدون صحة ذلك ولا يعترفون به .

ثم قال منبهاً لهم دفعة أخرى « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم من الأمم » كانوا أشد منهم قوة واثاروا الأرض أي حرقوها لعمارتها - في قول مجاهد والسدي - و « عمروها أكثر مما عمروها » هؤلاء يعني أهل مكة « وجاءتهم رسلهم بالبينات » يعني أتتهم الرسل بالدلالات من عند الله . وفي الكلام حذف ، لأن تقديره ، فكذبوا بتلك الرسل ، وجحدوا الآيات فأهلكهم الله بأنواع العذاب . ثم قال « فما كان الله ليظلمهم » بأن يهلكهم من غير استحقاق ابتداء ، وفي ذلك بطلان قول المجبرة : إن الله يبتدئ خلقه بالهلاك .

ثم قال « ولكن كانوا هم » أنفسهم بظلمون « بأن جحدوا نعم الله وأشركوا في العبادة معه غيره ، وكذبوا رسله وتصوه بأنواع العصيان ، حتى استحقوا العقاب عاجلاً وآجلاً .

ثم قال « ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوء » اخبار منه تعالى بأن عاقبة

الذين أساءوا الى نفوسهم بالكفر بالله تعالى ، وتكذيب رسله وارتكب معاصيه « السوء » وهي الخصلة التي تسوء صاحبها إذا أدركها ، وهي عذاب النار - في قول ابن عباس وقتادة وغيرها - « أن كذبوا » ومعناه لأن كذبوا « بآيات الله » أي جحدوا أدلته ولم يؤمنوا بها « وكانوا بها » بتلك الادلة « يستهزئون » أي يسخرون منها ويتهزئون بها . وقيل : معنى الآية أنهم حفروا الأنهار وغرسوا الأشجار وشيدوا البنيان وصاروا الى الهلاك على أسوء حال بالعصيان ولم يفكروا في الموت ، وانهم يخرجون من الدنيا ويصيرون الى الحساب والجزاء .

قوله تعالى :

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومَأْذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

﴿ ج ٨ م ٣٠ من التبيان ﴾

وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ
مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)
وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠)

عشر آيات بلا خلاف .

قرأ ابو عمرو ، إرواح ويحيى والعلمي « ثم اليه يرجعون » بالياء على وجه
الخير . الباقون - بالتاء - على الخطاب .

يقول الله تعالى مخبراً عن نفسه أنه هو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده
يبدؤهم ابتداء فيوجدتهم بعد أن كانوا معدومين على وجه الاختراع ثم يعيدهم
أي يميتهم ويفنيهم بعد وجودهم ، ثم يعيدهم ثانياً كما بدأهم أولاً ، ثم يرجعون اليه
يوم القيامة ليجازيهم على أفعالهم ، على الطاعات بالثواب وعلى المعاصي بالعقاب .
واستدل قوم بهذه الآية على صحة الرجعة بأن قالوا « الله يبدؤ الخلق »
معناه ابتداء خلقهم « ثم يعيده » إذا أماته في زمان الرجعة « ثم اليه ترجعون »
يوم القيامة ، وهذا ليس بمعتمد ، لان لقائل أن يقول : قوله « ثم يعيده »
يجوز أن يكون المراد به احياءهم في القبر المساءلة التي لاخلاف فيها « ثم اليه
ترجعون » يوم القيامة ، فلا يمكن الاعتماد عليه . و (البدء) أول الفعل وهو
على وجهين :

احدهما - انه أول الفعل وهو جزء منه مقدم على غيره .

والثاني - انه موجود قبل غيره من غير طريق الفعلية ، يقال : بدأ يبدؤ بدءاً وابتداء

يبتدىء ابتداء . والابتداء نقيض الانتهاء ، والبدء نقيض العود . والخلق - ههنا

- بمعنى الخلق . ومثله قوله « هذا خلق الله » وتقول هذا الخلق من الناس ، وقد يكون الخلق مصدراً من خلق الله العباد ، والخلق كالأحداث والخلق كالحدث . والاعادة فعل الشيء ثانية . وقولهم : اعاد الكلام فهو على تقدير ذلك ، كأنه قد أتى به ثانية إذا أتى بمثله ، وإن كان الكلام لا يبقى ولا يصح اعادته . وقد يكون الاعادة فعل ما به يكون الشيء الى ما كان من غير ايجاد عينه كاعادة الكتاب الى مكانه . ومثل الاعادة الرجعة والنشأة الثانية .

وقوله « ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون » قيل : معناه يئسسون ، وقيل : يتحIRON ، وقيل : تنقطع حججهم ، فالابلاس التحير عند لزوم الحجة ، فالجرم يبلس يوم القيامة ، لأنه تظهر جلائل آيات الآخرة التي تقع عندها على الضرورة فيتحير أعظم الحيرة ، قال المعجاج :

يا صاح هل تعرف رسماً مكرساً قال نعم أعرفه وأبلساً (١)

وقوله « ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء » أي لم يكن في أوثانهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ، ويزعمون أنها تشفع لهم عند الله من يشفع لهم . وقيل : شركاؤهم لأنهم كانوا يعملون لها نصيباً في أموالهم . وقيل : شركاؤهم الذين جعلوهم شركاء في العبادة « وكانوا بشركائهم كافرين » أي يجدون شركاءهم ذلك اليوم ، لأنه يحصل لهم المعرفة بالله ضرورة . وأصل الشرك إضافة الملك الى اثنين فصاعداً على طريق القسمة التي تمنع من اضافته الى الواحد ، فالانسان على هذا يكون شريكاً لانسان آخر في الشيء إذا ملكاه جميعاً ، والله تعالى مالك له ، ملكه هذا الانسان

او لم يملكه .

وقوله « ويوم تقوم الساعة » يعني القيامة « يومئذ يفرقون » قيل : يتميز المؤمنون من الكافرين . وقيل : معناه لا يلوي واحد منهم على حاجة غيره ، ولا يلتفت اليه ، وفي ذلك نهاية الحث على الاستعداد والتأهب لذلك المقام .

ثم قال « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات » يعني صدقوا بتوحيد الله وصدق رسله ، وعملوا الصالحات ، وتركوا القبائح « فهم في روضة يجبرون » أى يسرون سروراً تبين أثره عليهم ، ومنه الخبرة وهي المسرة ، ومنه الخبر العالم ، والتجبر التحسين الذى يسر به . وانما خص ذكر الروضة - ههنا - لأنه لم يكن عند العرب شيء أحسن منظراً ولا أطيب ريحاً من الرياض ، كما قال الشاعر :

ماروضة من رياض الحزن معشبة	خضراء جاد عليها مسبل هطل
يضاحك الشمس منها كوكب شرق	مؤزر بعميم النبت مكتهل
يوماً بأطيب منها نشر رائحة	ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل (١)

والخبرة هي السرور والغبطة ، قال العجاج :

فالحمد لله الذى أعطى الخبر موالى الحق إن المولى شكر (٢)

ثم بين تعالى أن الكفار في ضد ما فيه اهل الجنة ، فقال « وأما الذين كفروا » بنعم الله وجحدوا آياته ثم انكروا لقاء ثوابه وعقابه يوم القيامة « فهم في العذاب محضرون » أى محضرون فيها ، ولفظة الاحضار لا تستعمل إلا

(١) قائله الاعشى ديوانه (دار بيروت) ١٤٥

(٢) الإنسان (حبر)

فيما يكرهه الانسان ، ومنه حضور الوفاة ، ويقال : احضر فلان مجلس السلطان إذا جئ به بما لا يؤثره ، والاحضار إيجاد ما به يكون الشيء حاضراً إما بإيجاد عينه كاحضار المعنى في النفس أو بإيجاد غيره ، كإيجاد ما به يكون الانسان حاضراً .

ثم قال تعالى « سبحان الله » أى تنزيهاً لله تعالى مما لا يليق به ولا يجوز عليه من صفات نقص أو يناهى عظمه ، وما اختص به من الصفات . وقوله « حين تمسون وحين تصبحون » فالامساء الدخول في المساء ، والمساء مجيء الظلام بالليل ، والاصباح تقيضه ، وهو الدخول في الصباح ، وهو مجيء ضوء النهار . ثم قال « وله الحمد في السموات » يعنى الثناء والمدح في السموات « والارض وعشياً » أى وفي العشي « وحين تظهرون » أى حين تدخلون في الظهيرة وهي نصف النهار . وإنما خص تعالى العشي والاظهار في الذكر بالحمد وإن كان الحمد واجباً في جميع الأوقات ، لأنها أحوال تذكر باحسان الله ، وذلك أن انقضاء احسان اول الى احسان يقتضي الحمد عند تمام الاحسان والأخذ في الآخر ، كما قال تعالى « وآخر دعوانهم ان الحمد لله رب العالمين » (١) .

وقيل : إن هذه الآية تدل على الصلوات الخمس في اليوم واللييلة ، لأن قوله « حين تمسون » يقتضي المغرب والعشاء الآخرة « وحين تصبحون » يقتضي صلاة الفجر « وعشياً » يقتضي صلاة العصر « وحين تظهرون » يقتضي صلاة الظهر - ذكره ابن عباس ، ومجاهد - .

ثم اخبر تعالى انه الذى « يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي »

قال ابن عباس وابن مسعود : معناه يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي فانه يخرج الانسان وهو الحي من النطفة ، وهي الميتة ، ويخرج الميتة وهي النطفة من الانسان وهو حي . وقال قتادة : يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن .

وقوله ﴿ ويحي الأرض بعد موتها ﴾ اى يحييها بالنبات بعد جدوبها ، ولا يجوز أن يكون المراد إحياء الأرض حقيقة ، كما لا يكون الانسان أسداً حقيقة إذا قيل فلان اسد ، لانه يراد بذلك التشبيه والاستعارة ، فكذلك احياء الارض بعد موتها ، كأنها تحيا بالنبات الذى فيها . وقوله ﴿ وكذلك تخرجون ﴾ قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً والاعشى من طريق الطبرى - بفتح التاء - أضاف الفعل الذى هو الخروج اليهم . الباقر - بالضم - بمعنى يخرجهم الله ، والمعنيان قريبان ، لانهم إذا أخرجوا ، فقد خرجوا ، والمعنى مثل ما يخرج النباتات من الارض كذلك يخرجكم الله بعد ان لم يكن كذلك ، تخرجون الى دار الدنيا بعد ان لم تكونوا ، ويعيدكم يوم القيامة بعد ان كنتم قد اعدمكم الله أى لا يشق عليه ذلك . كما لا يشق عليه هذا .

ثم قال تعالى ﴿ ومن آياته ﴾ أى أدلته الواضحة ﴿ ان خلقكم من تراب ﴾ يعنى انه خلق آدم الذى هو ابوكم وأصلكم - في قول قتادة وغيره - ﴿ ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ من نسله وذريته ، و ﴿ تتفرقون ﴾ في أطراف الارض فهلا دلکم ذاك على انه لا يقدّر على ذلك غيره تعالى ؟ وانه الذى يستحق العبادة دون غيره من جميع خلقه .

وفي هذه الآيات - دلالة واضحة على صحة القياس العقلي ، وحسن النظر بلا شك ، بخلاف ما يقول قوم : ان النظر باطل . فأما دلالتـه على القياس

الشرعي فبعيد لا يعول على مثله ٥

قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا
إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ
أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ (٢٢) وَمِنْ
آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا
وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ
وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ
تَخْرُجُونَ ﴾ (٢٥) خمس آيات بلا خلاف ٥

روى حفص عن عاصم « العالمين » بكسر اللام الأخيرة . الباقر بفتحها
فمن كسرهما اسند (الآيات) الى العلماء ، لأنهم الذين ينظرون فيها ، ويعتبرون
بها ، كما قال « هدى للمتقين » (١) ومن فتح اللام أسند (الآيات) الى جميع

المكلفين الذين يتمكنون من الاستدلال بها والاعتبار بها ، سواء كانوا عالمين بها او جاهلين ، لأن الامكان حاصل لجميعهم وهو أعظم فائدة .

يقول الله سبحانه مخاطباً لخلقه منبهاً لهم على توحيد الله وإخلاص العبادة له بـ « أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها » والنفس هي الذات في الأصل ثم يستعمل على وجه التأكيد لقولهم : رأيت زيدا نفسه ، ويعبر بها عن الروح وغير ذلك . وقد بيناه . (١) وقال قتادة المعنى - ههنا - أنه خلقت حواء من ضلع آدم . وقال غيره : المعنى خلق لكم من شكل أنفسكم أزواجاً ، وقال الجبائي : المعنى خلق أزواجكم من نطفكم . قال البلخي : وذلك يدل على قوله « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها ، فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً » (٢) انه يريد بعض الخلق دون بعض . والزوجة المرأة التي وقع عليها عقد النكاح . والزوج الرجل الذي وقع عليه عقد النكاح . وقد يقال : للمرأة زوج إذا لم يلبس الاشعار بأنهما نظيران في عقد النكاح عليهما قال الله تعالى « إسكن أنت وزوجك الجنة » (٣) وقوله ﴿ لتسكنوا اليها ﴾ يعني ستكون إنس وطمأنينة ، بأن الزوجة من النفس إذ هي من جنسها ومن شكلها فهو أقرب الى الالة والميل بالموودة منها لو كانت من غير شكلها .

وقوله ﴿ وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ أي جعل بينكم رقة التعطف إذ كل واحد من الزوجين يرق على الآخر رافة العطف عليه ، بما جعله الله في قلب كل واحد لصاحبه ليتم سروره .

(١) انظر ٥ / ٦٣ - ٦٤ (٢) سورة ٧ الاعراف آية ١٨٨

(٣) سورة ٢ البقرة آية ٣٥ وسورة ٧ الاعراف آية ١٨

ثم قال ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ يعني في خلق الأزواج مشاكلة للرجال ﴿لَا يَأْتِ﴾ أي لدلالات واضحات ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلك ويعتبرون به، ~~والفكر~~ والاعتبار والنظر واحد، فالفكر في أن الأزواج لأى شيء خلقت؟ ومن خلقها؟ ومن انعم بها؟ ومن جعلها على الأحوال التي يعظم السرور بها؟ وكيف لا يقدر احد من العباد على ذلك؟ وذلك من اعظم الدلالة على أن لها خالقاً مخالفاً لها ومنشأً حكيماً يستحق العبادة، ولا يستحقها غيره.

ثم نبه على آية أخرى فقال ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على توحيده وهو جوب اخلاص العبادة له «خلق السموات والأرض» وما فيهما من عجائب خلقه من النجوم والشمس والقمر وجريانها على غاية الحكمة والنظام الذي يعجز كل أحد عنها وبما في الأرض من أنواع الاشجار والنبات وأصناف الجمادات التي ينتفع بها وغنون النعم التي يكثر الانتفاع بها «واختلاف الستكم وألوانكم» فالالسة جمع لسان، واختلافها ما بناها الله تعالى، وهيأتها مختلفة في الشكل والطبيعة وتأتي الحروف بها «واختلاف الستكم» أي اختلاف مخارجها التي لا يمكن الكلام إلا بكونها كذلك. وقال قوم المراد بالالسة اختلاف اللغات، وهو جواب من يقول: إن اللغات أصلها من فعل الله دون المواضعة. فأما من يقول: اللغات مواضعة فإن تلك المواضعة من فعلهم دون فعل الله، غير أنه لما كانت الآلات التي تتأق بها هذه الضروب لا يقدر على تهيئها كذلك غير الله جاز أن تصاف اللغات إليه تعالى على ضرب من المجاز «واللوانكم» أي واختلاف ألوانكم من البياض والحمر والشفرة والصفرة، وغير ذلك «ان في ذلك لايات» أي إن في خلق جميع ذلك لدلالات واضحت لجميع خلقه الذين خلقهم، واكل حقولهم ﴿ج ٣١ م ٨ من التبيان﴾

ومن كسر اللام اضاف الاعتبار بها الى العلماء ، لأنهم المنتفعون بها دون غيرهم فكأنها خلقت لهم دون غيرهم ، كما قال « هدى للمتقين » (١) وإن كانت لجميع المكلفين .

ثم قال « ومن آياته » الدالة على توحيده واخلاص العبادة له ﴿ منامكم بالليل والنهار ﴾ فالنم والنوم واحد ، لان في النوم راحة الاجساد من الكد الذي يلحقها ، والتعب الذي يصيبها ﴿ وابتغوا ﴾ أي طلبكم المعاش وما ينفعكم ﴿ من فضله ﴾ أي مما يتفضل الله به عليكم . قال البلخي : ويجوز ان يكون المراد بالا ابتغاء المبتغا ، فلذلك كان دلالة عليه دون فعل العباد ، وإنما يكون فعل الله دلالة عليه لما كان باقداره وإهدائه الى مراديه وترغيبه فيه وتسهيله له ﴿ إن في ﴾ خلق الله تعالى ﴿ ذلك لآيات ﴾ واضحات على توحيده ﴿ لقوم يسمعون ﴾ ذلك ويقبلونه ويفكرون فيه ، لأن من لا يفكر فيه ولا ينتفع به كأنه لم يسمعه .

ثم قال ﴿ ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً ﴾ والبرق نار تحدث في السحاب ، بين تعالى أنه إنما يخلق له ليخافوا من عذابه بالنار على معصيته والكفر به ، ويطمعوا في ان يتعقب ذلك مطر فينتفعون به ﴿ وينزل من السماء ماء ﴾ يعني غيثاً ومطراً ﴿ فيحيي به الارض بعد موتها ﴾ أي بعد انقطاع الماء عنها وجدوا بها . وقيل : ﴿ خوفاً ﴾ من المطر في السفر ﴿ وطمعاً ﴾ فيه في الحضر . وقيل : ﴿ خوفاً ﴾ من الصاعقة ﴿ وطمعاً ﴾ في الغيث ﴿ إن في ﴾ خلق الله ﴿ ذلك لآيات ﴾ أي دلالات واضحة ﴿ لقوم يعقلون ﴾ أي يفكرون فيه ، لان من لا يفكر فيه ولا ينتفع به وإن كان عاقلاً ، فكأنه لا عقل له . وقيل :

في قوله ﴿ ومن آياته يريكم البرق ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدهما - ان تقديره ومن آياته أن يريكم ، فحذف (أن) كما قال طرفة :

ألا اي هذا اللأمني احضر الوغى وأن اشهد الذات هل انت مخلدي (١)

الثاني - انه حذف (أنه) لدلالة (من) عليها ، كما قال الشاعر :

وما الدهر إلا تارتان فمنهما أموت واخرى ابتغي العيش اكدح (٢)

أي فتارة أموت . وفي الآية حذف تقديره : ومن آياته آية يريكم البرق .

الثالث - ويرىكم البرق من آياته على التقديم والتأخير من غير حذف .

ثم قال ﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على ما ذكرناه ﴿ أن تقوم السماء والارض بأمره ﴾ بلا دعامة تدعمها ولا علاقة تعلق بها ، بل لان الله تعالى يسكنها حالا بعد حال لا أعظم دلالة على أنه لا يقدر عليه سواه ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الارض ﴾ أي أخرجكم من الارض من قبوركم بعد أن كنتم أمواتا يبعثكم ليوم الحساب فعبّر عن ذلك بما هو بمنزلة الدعاء ، وبمنزلة ﴿ كن فيكون ﴾ في سرعة تأتي ذلك ، وأمتناع التعذر عليه ، وإتمام ذكر هذه المقدورات على اختلافها وعظم شأنها ليبدل على انه القادر الذي لا يعجزه شيء . وفي الآيات دلالة واضحة على فساد مذهب القائلين بان المعارف ضرورية لأنها لو كانت ضرورة لم يكن للتنبيه على هذه الأدلة وجه ولا فائدة فيه لان ما يعلم ضرورة لا يمكن الاستدلال عليه .

(١) ديوانه (دار بيروت) ٣٢ وقد مر في ١ / ٣٢٧ من هذا الكتاب

(٢) قائله ابن مقبل ، الكتاب لسبويه وقد مر في ٣ / ٢١٢ و ٤ / ٧٧ من

قوله تعالى :

(وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ
الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ضَرَبَ لَكُمْ
مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ
فِي مَارْزَقِنَاكُمْ فَأَتَّئِمُّ فِيهِ سِوَاهُ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ
كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ
ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ
نَاصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ
النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ (٣٠) خمس آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى بعد أن ذكر ما يدل على توحيده ، وإخلاص العبادة له
أن ﴿ له من في السموات والأرض ﴾ من العقلاء . فانه يملكهم ويملك التصرف
فيهم ، وليس لاحد منعه منه والاعتراض عليه ، وخص العقلاء بذلك لأن
باعداهم في حكم التبعية .

ثم اخبر عن جميع من في السموات والأرض بأنهم قانتون له . قال مجاهد :

معناه مطيعون وقال ابن عباس : معناه مصلون . وقال عكرمة : مقرون له بالعبودية . وقال الحسن : كل له قائم بالشهادة فالتقائت الدائم على أمر واحد فالملائكة وغيرهم من المؤمنين دائمون على أمر واحد في الذلة لله في لزوم الطاعة لله تعالى ، والكافرون وغيرهم من الفساق دائمون على أمر واحد في الذلة لله - عز وجل - إلا أن منهم من هو بخلفته وفعله ، ومنهم من هو بخلفته .

ثم قال تعالى ﴿ وهو الذي يبدؤ الخلق ﴾ أي يخرجهم ابتداء وينشئهم « ثم يعيده » إذا أعده ﴿ وهو أهون عليه ﴾ قال ابن عباس وقتادة ومجاهد : أي هو أيسر ، وكل هين . وروي عن ابن عباس أيضاً : أن معناه وهو هين عليه ، ف (افعل) بمعنى (فاعل) وقال بعضهم ﴿ وهو أهون ﴾ على الخلق ، لأن الانشاء أولاً من نطفة إلى علقة ومن علقة إلى مضغة على التدرج ، وفي الإعادة يعادون دفعة واحدة . وحكي عن ابن عباس : أنه قال المعنى وهو أهون عليه عندكم ، لأنكم أقررتم بأنه يبدؤ الخلق ، فإعادة الشيء عند الخلقين أهون من ابتدائه ، قال الشاعر - في أهون بمعنى هين :

تمنى رجال أن أموت وان أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد (١)
أي بواحد . وقال الراجز :

فبحتموا يا آل زيد نفرا الام قوم أصغراً وأكبراً

أي صغيراً وكبيراً ، وقال معن بن أوس :

أعبرك ما أدري واني لا وجل على أيناتعدو المنية أول (٢)

أي لواجل . والله أكبر بمعنى كبير . ويقال للسلطان : الأعظم

بمعنى عظيم .

وقوله ﴿ وله المثل الأعلى في السموات والأرض ﴾ قال قتادة وهو قول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، لأنه دائم في السموات والأرض ، يقول الثاني فيه كما قال الأول . وقيل : المعنى وله الصفة العليا ، لأنها دائرة يصفه بها الثاني كما يصفه بها الأول . وقيل : النشأة الثانية يا أهل الكفر ينبغي أن تكون أهون عليه . ثم قال ﴿ وله المثل الأعلى ﴾ فذلك دليل على أنه مثل ضربه الله . ذكره الفراء .

وقوله ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ يعني في انتقامه من أعدائه ، الحكيم في تدبيره لخلقه . ثم قال ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء ﴾ المعنى إنكم إذا لم ترضوا في عبيدكم أن يكونوا شركاء لكم في أموالكم وأملاكم ، فكيف ترضون لربكم أن يكون له شركاء في العبادة !! . وقال قتادة : كما لا ترضون أن يكون عبيدكم شركاءكم في فراشكم وأزواجكم كذلك لا ترضوا في ربكم الذي خلقكم أن يعدل به أحد من خلقه فيشرك بينهما في العبادة .

وقوله ﴿ تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ﴾ قال أبو مخلد : معناه تخافون عبيدكم أن يشاركوك في أموالكم كما تخافون الشريك من نظرائكم . وقيل : تخافون أن يرثوكم كما يرث بعضهم من بعض - ذكره ابن عباس - وقيل : معناه تخافونهم كخيفتكم أنفسكم في اتلاف المال بانفاقه .

ثم قال ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ أي كما ميزنا لكم هذه الأدلة نفصل الأدلة لقوم يعقلون ، فيتدبرون ذلك ويفكرون فيها . وقال سعيد ابن جبير : كان أهل الجاهلية إذا لبوا قالوا : ليك اللهم ليك لا شريك

انك إله شريك هو لك تملكه وما ملك . فأنزل الله الآية ردّاً . عليهم وإنكار لقولهم
ثم قال تعالى ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ﴾ معناه إن هؤلاء الكفار
لم يتفكروا في أدلة الله ، ولا انتفعوا بها بل اتبعوا أهواءهم وشهواتهم بغير علم
منهم بصحة ما اتبعوه .

ثم قال ﴿ فمن يهدي من أضل الله ﴾ وقيل : المعنى من يهدي الى
الثواب من أضله الله عنه . وقيل : المعنى من يحكم بهداية من حكم الله
بضلاله . ثم قال ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ أي ليس لهم من ينصرهم ويدفع
عذاب الله إذا حل بهم .

ثم قال تعالى مخاطباً لنبيه ﷺ والمراد به جميع المكلفين ﴿ فأقم وجهك
لدين حنيفاً ﴾ أمرهم الله بأن يوجهوا عبادتهم الى الله على الاستقامة دون
الاشراك في العبادة . ثم قال ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ قال مجاهد:
فطرة الله الاسلام . وقيل : فطر الناس عليها ولها وبها بمعنى واحد ، كما
يقول القائل لرسوله : بمثلك على هذا ولهذا وبهذا بمعنى واحد . ونصب
﴿ فطرة الله ﴾ على المصدر ، وقيل تفديره : اتبع فطرة الله التي فطر الناس
عليها ، لأن الله تعالى خلق الخلق للايمان ، ومنه قوله ﷺ (كل . ولود يولد
على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه) ومعنى الفطر الشق ابتداء
يقولون : أنا فطرت هذا الشيء أي أنا ابتدأته ، والمعنى خلق الله الخلق
للتوحيد والاسلام .

وقوله ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ قال مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير
والضحاك وابن زيد وابراهيم : لا تبديل لدين الله الذي أمركم به من توحيده
وعدله وإخلاص العبادة له ، وهو قول ابن عباس وعكرمة . وقيل : المراد نفي

الخطأ . ثم قال ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي ما بيناه من التوحيد والعدل وإخلاص العبادة لله هو الدين القيم أي المستقيم الذي يجب اتباعه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ صحة ذلك لعدولهم عن النظر فيه .

قوله تعالى :

﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣١). من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون (٣٢) وإذا مس الناس ضرٌّ دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أقبلهم منه رحمة إذا فريق منهم برّ بهم يشركون (٣٣) ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون (٣٤) أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون (٣٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ حمزة والكسائي وابن عامر ﴿ فارقوا ﴾ بألف وتخفيف الراء . الباقون بغير الف وتشديد الراء . من ﴿ فارقوا ﴾ بألف أراد : فارقوا دينهم الذي أمروا باتباعه . ومن شدد أراد : انهم اختلفوا في دينهم .

قوله ﴿ منيبين إليه ﴾ نصب على الحال وتقديره فاقم وجهك للدين يا محمد أنت والمؤمنون منيبين إلى الله ، ولا يجوز أن يكون حالا ﴿ من فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ لانه ما فطرهم منيبين ، والالابة الا نقطاع إلى الله تعالى

بالطاعة وأصله على هذا القطع . ومنه الناب ، لأنه قاطع ، وأناب في الأمر إذا نشب فيه ، كما ينشب الناب المقاطع ، ويجوز أن يكون من ناب ينوب إذا رجع مرة بعد مرة ، فيكون على هذا الانابة التوبة التي يجدها مرة بعد مرة .

ثم قال ﴿ واتقوه ﴾ أي اجتنبوا معاصيه ، واتقوا عقابه ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ التي أمركم الله تعالى بها أي دوموا عليها ، وقوموا بادائها ، فالصلاة وإن كانت في حكم المجهول ، ولم يبين شروطها - في الآية - فقد أحال على بيان النبي ﷺ هذا إذا أراد بالصلاة تعريف الجنس ، وإن أراد العهد الذي استقر في الشرع ، فهو على ما قد استقر في الشرع . ﴿ ولا تكونوا من المشركين ﴾ نهي لهم عن أن يكونوا من جملة من أشرك بعبادة الله سواء ، ثم قال ﴿ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ﴾ قال الفراء : يجوز أن يكون التقدير : ولا تكونوا من المشركين من جملة الذين فرقوا دينهم ، ويجوز أن يكون من الذين فرقوا ابتداء ، وتقديره الذين تفرقوا وكانوا شيعاً ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ فالتفريق جعل أحد الشيئين مفارقاً لصاحبه وضده الجمع ، وهو جمع أحد الشيئين إلى صاحبه ، فتفريق الدين جعل أحدهما ليس مع الآخر في معنى ما يدعو إليه العقل ، وهو منكر لمخالفته داعي العقل ، والدين العمل الذي يستحق به الجزاء ، ودين الاسلام العمل الذي عليه الثواب . ولوجمعوا دينهم في أمر الله ونهيه لكانوا مهيبين ، ولكنهم فرقوا بأخراجه عن حد الأمر والنهي من الله وكانوا بذلك مبطلين خارجين عن الحق الذي أمر الله به . ومن قرأ ﴿ فارقوا ﴾ بألف أراد : فارقوا دينهم الذي أمرهم الله باتباعه .

﴿ ج ٨ م ٣٢ من التبيان ﴾

وقوله ﴿ وكانوا شيعاً ﴾ أي فرقاً ، والشيع الفرق التي يجتمع كل فريق منها على مذهب ، خلاف مذهب الفريق الآخر ، وشيعة الحق هم الذين اجتمعوا على الحق . وكذلك شيعة أمير المؤمنين عليه السلام هم الذين اجتمعوا معه على الحق وقال قتادة : المعنى بقوله ﴿ من الذين فرقوا دينهم ﴾ اليهود والنصارى ، وقال غيره : كل من خالف دين الحق الذي أمر الله به داخل فيه وهو أعم فائدة . ثم اخبر تعالى ان ﴿ كل حزب ﴾ أي كل فريق ﴿ بما لديهم فرحون ﴾ من الاعتقاد الذي يعتقدونه يسرون به لاعتقادهم أنه الحق دون غيره .

وقوله « وإذا مس الناس ضرّ دعوا ربهم منيبين اليه » قال الحسن : إذا أصابهم مرض أو فقر دعوا الله تعالى راجعين اليه مخلصين في الدعاء له « ثم إذا أذاقهم منه رحمة » بأن يعافهم من المرض أو يغنيهم من الفقر نعمة منه تعالى عليهم « إذا فريق منهم برهم يشركون » أي يعودون الى عبادة غير الله بخلاف ما يقتضي العقل في مقابلة النعمة بالشكر . ثم بين أنهم يفعلون ذلك « ليكفروا بما آتيناهم » أي بما آتاهم الله من نعمه . ثم قال تعالى مهدداً لهم « فتمتعوا » أي انتفعوا بهذه النعم الدنيوية كيف شئتم « فسوف تعلمون » ما فيه من كفرهم ومعصيتهم أي تصيرون في العاقبة الى عذاب الله وأليم عقابه . وقوله « أم أنزلنا عليهم سلطاناً » أي هل أنزلنا عليهم برهاناً وجبة يتسلطون به على ما ذهبوا اليه ، ويحتمل أن يكون المراد هل أرسلنا اليهم رسولا فاذا حمل على البرهان ، فهو بمنزلة الناطق بالأمم لظهاره إياه . وقوله « فهو يتكلم بما كانوا به يشركون » أي هل أنزلنا عليهم سلطاناً أي رسولا يتكلم بأنا أرسلناه بما يدعونه من الاشرار مع الله في العبادة ، فانهم لا يقدرّون على ذلك ولا يمكنهم ادعاء حجة عليه ولا برهان ، والكلام وإن خرج مخرج

الاستفهام فالمراد به التبكيت .

قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبَا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضَعِفُونَ (٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٤٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ نافع وابو جعفر « لتربوا » بالتاء وسكون الواو ، الباقيون بالياء وفتح الواو ، وقرأ ابن كثير « وما آتيتم من ربا » بالقصر . الباقيون بالمد . واتفقوا على المد في قوله « وما آتيتم من زكوة » وقرأ حمزة والكسائي وخلف « عما يشركون » بالياء . الباقيون بالتاء . قال ابو علي : المعنى وما آتيتم من هدية

أهديتموها لتعوضوا أكثر منها، فلا يربو عند الله ، لأنكم قصدتم زيادة العوض دون وجه الله ، وهو كقوله « ولا تمنن تستكثر » (١) فمن مدّ أراد أعطيتكم من قوله « فأتاهم الله ثواب الدنيا » (٢) ومن قصره فالمعنى يؤل الى قول من مد إلا أنه على لفظ (فعلتم) ومدّم لقوله « وما آتيتكم من زكوة » فلقوله « وإيتاء الزكوة » (٣) ولو قال أتيت الزكوة لجاز أن يعني به : فعلتها ولكن لفظ القرآن على الإيتاء . ومن ضم « لتربوا » فالمعنى لتصيروا ذوي زيادة في ما آتيتكم من أموال الناس أي يستدعونها من أربى إذا صار ذا زيادة مثل أقطف واضرب . ومن فتح أسند الفعل الى الربوا المذكور وقدر المضاف ، فحذفه كما قيل : اجتذاب أموال الناس واجتلابه . ويجوز ذلك . وسمي هذا المدفوع على هذا الوجه ربما لما كان فيه من الاستزادة .

يقول الله تعالى مخبراً عن خلقه بأنه إذا أذاقهم رحمة من عنده بأن ينعم عليهم بضروب النعم ويصح أجسامهم ويدّرّ أرزاقهم ويكثر مواشيهم وغير ذلك من النعم ، إنهم يفرحون بذلك ويسرون به فـ (إذا) شرط وجوابه « فرحوا بها » وإنما جاء الجزء بـ (إذا) ولم يجيء بـ (حين) ، لأن (إذا) أشبه بالفاء من جهة البناء ، والزم للفعل من جهة أنه لا يضاف الى مفرد ، فصار بمنزلة الفاء في ترتيب الفعل ، وليس كذلك (حين) . وشبه إدراك الرحمة بإدراك الطعام ، فسماه ذوقاً . « وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم » هو اخبار منه تعالى أنه إن أصابهم عذاب من الله تعالى جزاء على ما كسبته أيديهم « إذا هم يفتنطون »

(١) سورة ٧٤ المدثر آية ٦ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ١٤٨

(٣) سورة ٢٤ النور آية ٣٧ وسورة ٢١ الانبياء آية ٧٣

أي يئأسون من رحمة الله ، والقنوط اليأس من الفرج ، قال جهد الأرقط :

قد وجدوا الحجاج غير قانط (١)

وإنما قال « بما قدمت أيديهم » ولم يقل بما قدموا على التغليب للأكثر الأظهر ، لأن أكثر العمل وأظهره لليدين ، والعمل بالقلب وإن كان كثيراً فهو أخفى ، وإنما يغلب الأظهر . ويجوز أن يكون ما يصيبهم - من مصائب الدنيا والآلام بها - بعض العقاب ، فلذلك قال « بما قدمت أيديهم » ويجوز أن يكون لما فعلوا المعاصي اقتضت المصلحة أن يفعل بهم ذلك ، وإن لم يكن عذاباً .

ثم قال تعالى منبهاً لهم على توحيده « أولم يروا » أي أو لم يفكروا فيعلموا « أن الله يبسط الرزق » أي يوسعه « لمن يشاء ويقدر » أي ويضيق على من يشاء على حسب ما تقتضيه مصالحهم ، وبسط الرزق الزيادة على مقدار القوت منه بما يظهر حاله ، وأصل البسط نشر الشيء بما يظهر به طوله وعرضه ، وبسط الرزق مشبه به . ثم قال « إن في ذلك » يعني في البسط للرزق لقوم وتضييقه لقوم آخرين « لآيات » أي لدلالات « لقوم يؤمنون » بالله ، لأنهم يعلمون أن ذلك من فضل الله الذي لا يعجزه شيء .

ثم خاطب نبيه ﷺ فقال « فأت ذا القربى حقه » أي أعط ذوي قرباك يا محمد حقوقهم التي جعلها الله لهم في الأخماس - وهو قول مجاهد - وقيل : إنه لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ أعطى فاطمة فديكاً ، وسلمه إليها - روى ذلك أبو سعيد الخدري وغيره - وهو المشهور عن أبي جعفر ، وأبي عبد الله ﷺ . وقال السدي : الآية نزلت في قرابة النبي ﷺ . وقال قوم :

المراد به قرابة كل انسان . والأول اظهر ، لأنه خطاب للنبي ﷺ والمساكين وابن السبيل » تقديره واعط - ايضاً - المسكين ، وهو الفقير ، وابن السبيل وهو المنقطع به ، حقوقهم التي جعلها الله لهم في الصدقات وغيرها ، والخطاب وإن كان متوجهاً الى النبي ﷺ فهو متوجه الى جميع المكلفين .

ثم قال « ذلك خير » يعني اعطاء الحقوق المستحقة خير » للذين يريدون وجهه الله . بالاعطاء دون الرياء والسمعة « واولئك هم المفلحون » الفائزون بثواب الله . ثم قال « وما أتيتهم من رباً ليربوا في اموال الناس » قال ابن عباس : هو اعطاء الرجل العطية ليعطى اكثر منها لأنه لم يرد بها طاعة الله . وقال ابن عباس : وابو جعفر الربوا رباء ان احدهما - حلال ، والآخر حرام ، فالأول هو ان يعطي الانسان غيره شيئاً لا يطلب اكثر منه فهو مباح ، ولا يربوا عند الله . والآخر - الربوا الحرام . وقال ابن طاوس عن أبيه : إذا أهدي الرجل الهدية ليهدى له أفضل منها فليس فيه أجر ولا وزر ، وكلما فعله الفاعل على أنه حسن للشهوة فليس فيه حد ولا أجر ، وشهوته وشهوة غيره في هذا سواء ، وقيل : المعنى في الآية التزهيد في الربو ، والترغيب في اعطاء الزكاة . وقال الحسن : هو كقوله « يحق الله الربوا ويربي الصدقات » (١) ولا خير في العطية إذا لم يرد بها وجه الله . وقال الجبائي : وما أتيتهم من رباً لتربوا بذلك أموالكم » فلا يربو » لأنه لا يملكه المرابي بل هو لصاحبه ، ولا يربو « عند الله » لأنه يستحق به العقاب ، واعطاء المال قد يقع على وجوه كثيرة فمنه إعطاؤه على وجه الصدقة . ومنه إعطاؤه على وجه الهدية . ومنه الصلة . ومنه الودائع . ومن ذلك قضاء

الدين ، ومنه البر ومنه الزكاة . ومنه القرض . ومنه النذر وغير ذلك .
ثم قال « وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله » أي ما اخرجتموه على
وجه الزكاة واعطيتموه أهله تريدون بذلك وجه الله دون الرب « فأولئك هم
المضعفون » أي يضاعف لهم الحسنات كقوله « من جاء بالحسنة فله عشر
أمثالها » (١) وقال الكلبي : تضاعف أمواله في الدنيا ، فالمضعف ذو الاضعاف
كما أن الميسر ذو اليسار .

ثم خاطب تعالى خلقه فقال « الله الذي خلقكم » بعد ان لم تكونوا موجودين
« ثم رزقكم » من أنواع الملاذ وملكمكم التصرف فيها وأباحها لكم « ثم يميتكم »
بعد ذلك إذا شاء ليصح ايصالكم الى ما عوضكم له من الثواب « ثم يحييكم »
ليجازيكم على أفعالكم على الطاعات بالثواب وعلى المعاصي بالعقاب « هل
من شركائكم » الذين عبدتموهم من دون الله « من يفعل من ذلكم من شيء »
أو يقدر عليه فيجوز لذلك توجه العبادة اليه فانهم لا يقدرون على أن يقولوا :
نعم يقدرون عليه وإنما يعترفون بعجزها عن ذلك ، فيعلموا عند ذلك انها
لا تستحق العبادة فلذلك نزه نفسه عقيب ذلك عن أن يشرك معه في العبادة
ويتخذ معه معبوداً سواه فقال « سبحانه وتعالى عما يشركون » فمن قرأ بالياء
وجه الخطاب الى الغائب . ومن قرأ بالتاء وجهه الى المخاطبين ، وفي ذلك تنبيههم
على وجوب ضرب الامثال لله تعالى دون غيره من المخلوقات .

قوله تعالى :

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾

لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي
 الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ
 أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ
 يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ
 فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَهُ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ
 الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
 الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابن كثير - في رواية ابن مجاهد - عن قنبل وروح « لنذيقهم »
 بالنون . الباقون بالياء . فمن قرأ بالنون فعلى وجهه اخبار الله عن نفسه أنه
 الذي يذيقهم . ومن قرأ بالياء فالمعنى لنذيقهم الله بعض الذي عملوا .

يقول الله تعالى « ظهر الفساد في البر والبحر » قيل : فساد البر هو
 ما يحصل فيها من المخاوف المانعة من سلوكه ، ويكون بخذلان الله عز وجل لاهل
 العقاب به ، وفساد البحر اضطراب أمره حتى لا يكون متصرفا فيه ، وكل
 ذلك ليرتدعوا عن معاصيه . وقال قتادة : المعنى ظهر الفساد في أهل البر والبحر
 فأهل البر أهل البادية وأهل البحر أهل القرى الذين على الانهار العظيمة
 ويكون قوله « بما كسبت أيدي الناس » معناه يخلي الله بينهم وبين المعاصي جزاء
 علي ما سبق منهم من المعاصي . وقال مجاهد : البر ظهر الأرض والبحر هو

البحر المعروف ، لأنه يؤخذ فيه كل سفينة غصباً . وقيل : البر الأرض القفر والبحر المجرى الواسع للماء عذباً كان أو ملحاً ، وسمي البر برّاً ، لأنه يربّ بصلاح المقام فيه خلاف البحر ، ومنه البر لأنه يربّ بصلاحه في الغذاء أتمّ الصلاح . وقيل : الفساد المعاصي ودليله قوله تعالى « والله لا يحب الفساد » (١) والتقدير . ظهر عقاب الفساد في البر والبحر ، والظهور خروج الشيء الى حيث يقع عليه الاحساس والعلم به بمنزلة الادراك له . وقد يظهر الشيء بخروجه عن وعاء أو وجوده عن عدم أو ظهوره بدليل . وقيل : بالعدل ينبت الله الزرع ويدر الضرع ، وبالظلم يكون القحط وضيق الرزق ، وقوله « بما كسبت ايدي الناس » أي جزاء على ما فعله الناس . والكسب فعل الشيء . لاجتلاب نفع الى نفس الفاعل أو دفع ضرر عنه ، فالتقدير لنفسه يقدر على مثله في الحالتين لاجتلاب نفع الى غيره أو دفع ضرر عنه ، غير أنه لا يوصف بهذه الصفة وإن قدر على مثله . وقوله « ليذيقهم بعض الذي عملوا » معناه ليصيبهم الله بعقوبة بعض أعمالهم التي عملوها من المعاصي « لعلهم يرجعون » أي ليرجعوا عنها في المستقبل ، وتقديره فعل الله تعالى القحط والشدائد والجذب وقلة الثمار وهلاك النفوس عقوبة على معاصيهم ليذيقهم بذلك عقاب بعض ما عملوا من المعاصي ليرجعوا عنها في المستقبل ، ليذيقهم عقابه غير أنه اجري على بعض العمل لانهم بذواقهم جزاءه كأنهم ذاقوه ، وهذا من الحذف الحسن ، لأنه حذف المسبب وإقامة السبب الذي أدى اليه مقامه .

ثم بين تعالى أنه فعل بهم هذا ليرجعوا عن معاصيه الى طاعته .

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٠٥

ثم خاطب تعالى نبيه ﷺ فقال له « قل » لهم يا محمد « سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان اكثرهم مشركين » أي فكروا فيمن تقدم من الامم التي اشركت بالله أكثرهم ، والمؤمنون كانوا قليلين فيهم كيف أهلكهم الله ودمر عليهم ،

ثم قال لنبيه ﷺ « فأقم وجهك للدين القيم » ومعناه استقم للدين المستقيم بصاحبه الى الجنة أي لا يعدل عنه يميناً ولا شمالاً ، فانك متى فعلت ذلك أدأك الى الجنة ، وهو مثل قوله « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم » (١) مجانس فيه للبلاغة ومنه قوله « يوماً تتقلب فيه القلوب والابصار » ومنه « يحق الله الربوا ويربي الصدقات » . « من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون » أي استقيموا على الطريق المستقيم قبل يوم القيامة الذي تتفرقون فيه فرقتين ، فريق في الجنة وفريق في السعير - ذكره قتادة - وقال الحسن : الدين القيم الطاعة لله .

ثم قال « من كفر » بالله وجحد نعمه « فعليه كفره » أي فعليه جزاء كفره لا يعاقب أحد بذنب غيره ، كما قال « ولا ترزأزره وزر أخرى » (٢) « ومن عمل صالحاً » يعني الايمان بالله وأفعال الطاعات « فلا أنفسهم يمهدون » والتمهيد والتمكين والتوطيد نظائر أي ثواب ذلك واصل اليهم وتتمهد احوالهم الحسنة عند الله . وقوله « ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله » اخبار منه تعالى أنه الذي يجزي الذين يطيعون الله تعالى ويجتنبون معاصيه ثواب الجنة

(١) سورة التوبة آية ١٢٨ (٢) سورة ٦ الانعام آية ١٦٤

وسورة ١٧ الاسرى آية ١٥ وسورة ٣٥ فاطر آية ١٨ وسورة ٣٩ الزمر آية ٧

من فضله على خلقه «إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ» أَيْ لَا يُرِيدُ مُنَافِعَهُمْ وَلَا ثَوَابَهُمْ، وَأَمَّا يُرِيدُ عِقَابَهُمْ جَزَاءً عَلَى كُفْرِهِمْ.

قوله تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُواهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُموا، وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لُمَبْلِسِينَ (٤٩) فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُخَيِّ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٥٠) خمس آيات بلاخلاف.

قرأ أبو جعفر وابن ذكوان «كسفاً» بسكون السين . الباكون بتحريكها .
وقرأ أهل الكوفة وابن عامر «إلى آثار» على الجمع وآماله الكسائي إلا أبا

الحارث . الباقون على التوحيد . من سكن السين من كسف أراد جمع كسفة وهي القطعة الواحدة من السحاب ، مثل سدره وسدر . ويحتمل ان يكون الضمير في (خلاله) راجعاً اليه . ويحتمل ان يكون راجعاً الى الخلال . ومن فتح السين أعاد الضمير الى السحاب لاغير . ومن أفرد « اثر » فلائه مضاف الى مفرد وجاز الجمع لان (رحمة الله) يجوز ان يراد بها الكثرة .

يقول الله تعالى إن من الأدلة الدالة على توحيدي ووجوب اخلاص العبادة لي إرسال الرياح مبشرات بالغيث والمطر . وإرسال الرياح تحريكها واجراؤها في الجهات المختلفة تارة شمالاً وتارة جنوباً وصبا ، وأخرى دبوراً على حسب مايريد الله ويعلم فيه من المصلحة ، وذلك لا يقدر عليه غيره تعالى ، لأن العباد وإن قدروا على جنس الحركة فلو اجتمع جميع الخلائق من الجن والانس على ان يردوا الريح إذا هبت شمالاً الى كونها جنوباً وإذا هبت جنوباً الى كونها شمالاً او صبا او دبوراً لما قدروا عليه ، فمن قدر على ذلك يعلم أنه قادر لنفسه لا يعجزه شيء مستحق للعبادة خالصة له ، وإنما سماها مبشرات ، لأنها بمنزلة الناطقة إذا بشرت بأنه يجي . مطر وغيث يجي به الأرض لما فيها من إظهار هذا المعنى ودلائلها على ذلك بجمل جاعل ، لأنه من طريق العادة التي أجراها الله تعالى .

وقوله « وليذيقكم من رحمته » معطوف على المعنى ، وتقديره أن يرسل الرياح للبشارة والا ذاقه من الرحمة « ولتجري الفلك » بها « بامرهم ولتبتغوا من فضله » أي تطلبوه ، فإرسال الرياح لهذه الأمور ، ومعنى « اعلمكم تشكرون » لتشكروا الله على نعمه . وإنما أتى بلفظ (اعلمكم) تلمظ في الدعاء الى الشكر كالتملظ في الدعاء الى البر ، في قوله « من ذا الذي يقرض الله قرضاً

حسناً « (١) ثم خاطب نبيه ﷺ على وجه التسلية عن قومه في تكذيبهم إياه فقال « ولقد أرسلنا من قبلك » يا محمد « رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات » يعني بالمعجزات ، وفي الكلام حذف ، لأن تقديره فكذبوهم وجحدوا بهم فاستحقوا العذاب « فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » أي أوجبناه على نفوسنا أن نصر المؤمنين من عبادنا .

ثم قال تعالى « الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً » أي تنشى سحاباً فانشاء السحاب وإن كان من فعل الله لكن لما كان السحاب سبباً منه جاز أن يسند إليها « فيبسطه في السماء » أي يسطر ذلك السحاب كيف شاء في السماء من كثافة ورقة وغير ذلك « ويجعله كسفاً » أي قطعاً - في قول قتادة - « فترى الودق » يعني المطر ، قال الشاعر :

فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض اقبل ابقالها (٢)

« يخرج من خلاله » يعني من خلال السحاب « فاذا اصاب به » يعني بذلك المطر « من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون » أي يفرحون ويبشرون بعضهم بعضاً به « وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم » المطر « من قبله لمبلسين » أي قانطين يائسين - في قول قتادة - وقوله « من قبله » في الموضعين فيه قولان : أحدهما - أنه للتوكيد . والآخر من قبل الارسال ، والأول من قبل الانزال . ثم قال لنبيه ﷺ والمراد به جميع المكلفين « فانظر » يا محمد « الى آثار رحمة ربك كيف يحيي الأرض بعد موتها » يحييها بالنبات بعد جدوبها

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٤٥ وسورة ٥٧ الحديد آية ١١

(٢) مر هذا البيت في ١ / ١٢٦ و ٥ / ٣٦١ و ٧ / ٤٤٦

« إن ذلك لمحبي الموتى » أي مثل ذلك يحبي الله الموتى بعد أن كانوا جماًداً
« وهو على كل شيء قدير » أي قادر وفيه مبالغة .

قوله تعالى:

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ
يَكْفُرُونَ ﴾ (٥١) فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءِ إِذَا
وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ
إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ
ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا
وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) وَيَوْمَ تَقُومُ
السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ * مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا
يُؤْفَكُونَ ﴿ (٥٥) .

ست آيات مدني وخمس في ما عدها عد المدني « يقسم المجرمون » ولم
يعده الباقون .

قرأ ابن كثير ﴿ ولا تسمع ﴾ بفتح التاء ﴿ الصم ﴾ رفعاً الباقون - بضم
التاء - ﴿ الصم ﴾ نصباً . وهذا مثل ضربه الله للكفار ، والمعنى كما إنك يا محمد
لا تسمع الميت لتعذر استماعه فكذلك لا تسمع الكفار . والمعنى انه لا ينتفع
استماعه ، لانه لا يعمل به ، فاذا كان كذلك فاللعنيان متقاربان ، لان المعنى إنك

لا تسمع الكافر ما في القرآن من حكمة وموعظة ، كما لا تسمع الاصم المدبر عنك .
 وضم التاء ونصب الميم أحسن . لتشاكل ما قبله من اسناد الفعل اليك أيها
 المخاطب وحكم المعطوف يجب ان يكون مشاكلاً لحكم المعطوف عليه . وقرأ
 عاصم وحمة ﴿ من ضعف ﴾ بفتح الضاد في الثلاثة . الباقيات بالضم فيهن ،
 وهما لغتان .

يقول الله سبحانه ﴿ ولئن أرسلنا ريحاً ﴾ مؤذنة بالهلاك ﴿ فرأوه مصفراً ﴾
 فالهاء يجوز أن يكون كناية عن السحاب ، وتقديره فرأوا السحاب مصفراً
 لأنه إذا كان كذلك كان غير ممطر ، ويحتمل أن يكون راجعاً الى الزرع ،
 وتقديره ، فرأوا الزرع مصفراً - والثاني قول الحسن - وجواب لئن في الشرط
 أغنى عنه جواب القسم ، لأن المعنى ليظان كما أن (أرسلنا) بمعنى أن يرسل
 لجواب القسم قد ناب عن الأمرين . وكان أحق بالحكم لتقدمه على الشرط
 ولو تقدم الشرط لكان الجواب له ، كقواك : ان أرسلنا ريحاً ظلوا والله
 يكفرون . و (الاصفرار) لون بين الحمرة والبياض ، وهو من النباتات الذي
 يصفر بالريح للجناف ويحول عن حال الأخضرار ، فيصير الى الهلاك ويقنط
 صاحبه الجاهل بتدبير ربه في ما يأخذه من الشدة بأمره تارة والرخاء أخرى
 ليصح التكليف بطريق الترغيب والترهيب ، ومعنى (ظل يفعل) أي جعل
 يفعل في صدر النهار ، وهو الوقت الذي فيه الى ظل الشمس . و (أضحى
 يفعل) نظير ظل يفعل إلا أنه كثر حتى صار بمنزلة (جعل يفعل) .

ثم قال لنبيه « إنك » يا محمد « لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء
 إذا ولوا مدبرين » شبه الكفار في ترك تدبرهم لما يدعونه اليه النبي ﷺ تارة
 بالأموات ، وتارة بالصم ، لأنهم لا ينتفعون بدعاء داع ، لأنهم لا يسمعون ،

وكذلك من يسمع ولا يصغى ولا يفكر فيه ، ولا يتدبره فكأنه لم يسمعه .
 وقوله « إذا ولوا مدبرين » معناه إذا أعرضوا عن أدلتنا وعن الحق ذاهبين
 الى الضلال غير طالبين لسبيل الرشاد . ولذلك لزمهم الذم وصفة النقص ،
 وقوله « وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم » معناه ليس في هؤلاء حيلة
 أن يقبلوا الهداية فصار العمي بالضلال صنفين أحدهما - يطلب الهداية فهو
 يجدها عندك . والآخر لا يطلب الهداية ، فليس فيه حيلة . ثم قال ﴿ إن ﴾ يعني
 ليس ﴿ تسمع إلا من يصدق بآياتنا وأدلتنا ﴾ لانهم المنتفعون بدعائك واسمائك
 ﴿ فهم مسلمون ﴾ لك ما تدعوهم اليه .

ثم قال ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ﴾ وفيه لغتان - الضم ، والفتح -
 مثل الفقر والفقر ، والكره والكره ، والجهد والجهد ، والمعنى انه خلقهم ضعفاء
 لانهم كانوا نطفاً ، فحولهم الى أن صاروا أحياء أطفالاً لا قدرة لهم ﴿ ثم جعل ﴾
 لهم ﴿ من ، بعد ضعف ﴾ أي من بعد هذا الضعف ﴿ قوة ﴾ إذا شبوا وترعرعوا
 وكمّلوا ﴿ ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ﴾ في حال الشيخوخة والشيب
 ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ كيف يشاء ﴿ وهو العليم ﴾ بما فيه مصالح خلقه قادر على فعله
 فهو يفعل بحسب ما يعلمه من مصالحهم .

ثم اخبر تعالى عن حال الكفار أنهم ﴿ يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ﴾
 أنهم ﴿ ما لبثوا غير ساعة ﴾ وقيل : في قسمهم بذلك مع أن معارفهم
 ضرورية قولان :

أحدهما - قال ابو بكر بن الاخشاد : ذلك يقع منهم قبل اكمل عقولهم . ويجوز
 قبل الاجزاء ان يقع منهم قبيح .

والثاني - قال الجبائي : ان المراد أنه منذ ما انقطع عنا عذاب القبر

﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾ أي يكذبون لأنه اخبار عن غالب الظن بما لا يعلمون قال: ولا يجوز أن يقع منهم القبيح في الآخرة ، لان معارفهم ضرورة . وقيل: ﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾ في دار الدنيا ويحدثون البعث والنشور مثل ما حلفوا أنهم لم يلبثوا إلا ساعة ، قال الفراء : وتقديره كما كذبوا في الدنيا بالبعث كذلك يكذبون بقولهم ما لبثنا غير ساعة . ومن استدل بذلك على نفي عذاب القبر فقد أبطل ، لأن المراد أنهم ما لبثوا بعد انقطاع عذاب القبر إلا ساعة .

قوله تعالى :

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦)
فِيَوْمِئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧)
وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَكِنْ جَسَّتْهُمْ بَايَةٌ لِيَقُولُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ خمس آيات بلاخلاف

قرأ أهل الكوفة « لا ينفع » بالياء ، لان تأنيث الماعدة غير حقيقي . الباقيون

﴿ج ٨ م ٣٤ من التبيان﴾

بالتاء ، لان اللفظ لفظ التأنيث .

يقول الله تعالى مخبراً عن المدين قد أعطاهم الله العلم وآتاهم إياه بما نصب لهم من الأدلة الموجبة له ، ونظروا فيها فحصل لهم العلم ، فلذلك أضافه الى نفسه لما كان هو الناصب للدلالة الدالة على العلوم ، والتصديق بالله ورسوله ﴿ لقد لبثتم ﴾ أي مكثتم ﴿ في كتاب الله ﴾ . ومعناه إن لبثكم مذكور ثابت في كتاب الله بينه الله فيه ، فصار من أجل ان بيانه في كتابه كأنه في الكتاب ، كما تقول كلما يكون فهو في اللوح المحفوظ أي هو مبین فيه ، وقيل ﴿ في كتاب الله ﴾ أي في كتابه الذي أخبرنا به ، واللبث لا يكون إلا في المكان ، كما لا يكون السكون إلا فيه ، والبقاء قد يكون لا في مكان ، ولذلك يوصف تعالى بالباقي ، ولا يوصف بـ (لا بـ) و ﴿ الى يوم البعث ﴾ يعني يوم يبعث الله فيه خلقه ويمحشرهم . واصل البعث جعل الشيء جارياً في أمه ، ومنه انبعث الماء إذا جرى وانبعث من بين الاموات إذا خرج خروج الماء ، ويوم البعث يوم اخراج الناس من قبورهم الى أرض المحشر .

ثم يقول المؤمنون للكفار « فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون » صحة ذلك وكنتم شاكين فيه . وقال الحسن : لقد قدرنا اجالكم الى يوم البعث ولكنكم لا تعلمون ان البعث حق .

ثم اخبر تعالى ان ذلك اليوم لا تقبل معذرتهم ، والمعذرة إظهار ما يسقط اللأمة ، وانما لا تقبل معذرتهم لانهم ملجئون في تلك الحال ، ولا يصح اعتذارهم وقوله « ولا هم يستعتبون » أي لا يقبل عتبتهم ، ولا يطلب منهم الاعتاب . والاستعتاب طلب صلاح المعاتب بالعتاب وذلك بذكر الحقوق التي تقتضي خلاف ما عمله العامل بما لا ينبغي أن يكون عليه . مع الحق اللازم له وليس في قولهم

ما علمنا أنه يكون ولا أننا نبعث عذراء ، لأنه قد نصب لهم الدلالة عليه ودعوا اليه .

ثم اخبر تعالى انه ضرب للناس المكلفين في القرآن الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ من كل مثل يحشهم به على الحق واتباع الهدى . ثم قال لنبيه « ولئن جئتكم بآية » يا محمد أي معجزة باهرة « ليقولن الذين كفروا ان انتم إلا مبطلون » في دعواكم البعث والنشور ، عناداً وجحداً للامور الظاهرة . ثم قال مثل ما طبع الله على قلوب هؤلاء بأن حكم عليهم بانهم لا يؤمنون كذلك حكم في كل من لا يؤمن . وقيل : الطبع علامة يجعلها الله في قلوب الكافرين يفصل بها الملائكة بينه وبين المؤمن . ثم قال لنبيه « فاصبر » يا محمد على أذى هؤلاء الكفار ومقامهم على كفرهم « ان وعد الله حق » في ما وعدك به من النصر واعزاز دينك « ولا يستخفك » أي ولا يستفزك « الذين لا يوقنون » فالاستخفاف طلب الخفة .

٣١ - سورة لقمان

هي مكية - في قول مجاهد وقتادة - ليس فيها ناسخ ولا منسوخ ، وقال الحسن : هي مكية إلا آية واحدة وهي قوله ﴿ الَّذِينَ يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ لان الصلاة والزكاة مدينتان وهي ثلاث وثلاثون آية حجازي وأربع وثلاثون آية في ما عدا الحجازي .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً
لِّلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ هُم عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ (٥) خمس آيات كوفي وأربع بلا خلاف فيما عدا الكوفي .

قرأ حمزة « هدى ورحمة » رفعاً . الباقون نصباً . من رفع جملة خبر إبتداه محذوف ، وتقديره هو هدى ورحمة ، ويجوز أن يكون بدلاً من « تلك آيات » أي تلك هدى ورحمة ، ومن نصب فعلى المصد وتقديره يهدي به هدى ويرحم به رحمة ، ويجوز أن يكون على الحال ، وتقديره هادياً أي في حال الهداية والرحمة - ذكره الزجاج - « للمحسنين » الذين يفعلون الافعال الحسنة من الطاعات ويتفضلون على غيرهم . وقد بينا أن اقوى الأقوال في معنى « الم » قول من

قال هو اسم للسورة ، وذكرنا ما في الأقوال في ما تقدم . قال الرماني : إنما جعل اسم السورة على الاشتراك المناسبة بينها وبين ما يتصل بها مع الفصل بالصفات وذلك أنها استحققت بذكر الكتاب والمؤمنين به غير العادلين عنه ، كما هو في البقرة .

وقوله « تلك آيات الكتاب » إشارة إلى آيات الكتاب التي وعدهم الله بانزالها عليهم في الكتب الماضية ، قال أبو عبيدة « تلك » بمعنى هذه « وآيات الكتاب » وإن كانت هي الكتاب فهو جائز ، كما قال « حق اليقين » (١) وكما قالوا : مسجد الجامع ، وغير ذلك . وقد بيناه في مامضى « الحكيم » من صفة الكتاب ، فلذلك جره وإنما وصف الكتاب بأنه (حكيم) مع أنه محكم لأنه يظهر الحق والباطل بنفسه ، كما يظهره الحكيم بقوله ، ولذلك يقال : الحكمة تدعو إلى الاحسان وتصرف عن الاساءة . وقال أبو صالح : احكمت آياته بالحلل والحرام . وقال غيره : احكمت بأن اتقنت « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل » (٢) .

ثم قال هذا الكتاب « هدى ورحمة للمحسنين » أي دلالة موصلة لهم إلى الصواب وما يستحق به الثواب ، ورحمة رحمهم الله بها وأضافه إلى المحسنين وإن كان هدى لغيرهم لما كانوا هم المنتفعين به دون غيرهم كما قال « هدى المتقين » (٣) والاحسان النفع الذي يستحق به الحمد فكل محسن يستحق الحمد وكل مسيء يستحق الذم ، وما يفعله الفاعل على أنه لا ظلم فيه لأحد لينقطع به عن قبيح في أنه احسان فهو احسان يستحق عليه الحمد ، لأن الحكمة تدعو إلى

(١) سورة ٥٦ الواقعة آية ٩٠ (٢) سورة ٤١ حم السجدة (فصلات) آية ٤٢

(٣) سورة ٢ البقرة آية ٢

فعله على هذا الوجه، ولا يدعو الى ان يفعله للشهوة، ولا للهوى..
ثم وصف المحسنين فقال «الذين يقيمون الصلاة» أي يديمون فعلها
ويقومون بشرائطها واحكامها ويخرجون الزكاة الواجبة عليهم في أموالهم..
وهم بالآخرة مع ذلك يوقنون، ولا يرتابون بها. ثم اخبر أن هؤلاء الذين وصفهم
بهذه الصفات «على هدى من ربهم» أي على حجة من ربهم «وأولئك هم
الفلحون» الفازون بثواب الله ورحمته.

قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ
 اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (٦) وَإِذَا
 تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ
 وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ
 الْحَكِيمُ (٩) خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْأَرْضِ فِي الْأَرْضِ
 رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
 فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿ (١٠) خمس آيات بلاخلاف
 قرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر «ويتخذها» نصباً ، الباقون رفعاً من قرأ بالنصب
 عطفه على «ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها» أي يشتري لهو الحديث

للأمة . ومن رفع عطف على قوله « يشتري » هو الحديث ليضل عن سبيل الله . . . ويتخذها هزواً » ومن قرأ « ليضل » - بضم الياء وكسر الضاد - أراد يفعل ذلك ليضل غيره . ومن - فتح الياء - أراد ليضل هو نفسه بذلك .

أخبر الله تعالى ان « من » جملة « الناس » من يشتري هو الحديث « أي يستبدل هو الحديث . وقيل في معناه قولان :

أحدهما - انه يشتري كتاباً فيه هو الحديث .

الثاني - انه يشتري هو الحديث عن الحديث . واللهو الأخذ في ما يصرف الهم من غير الحق ، تقول : هلى فلان يلهو لهواً ، فهو لاه ، وتلهى تلهياً وألهاه إلهاء ، واللهو واللعب والهزل نظائر . والحديث الخبر عن حوادث الزمان . وقال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد : هو الحديث الغناء ، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام . وقال قوم : هو شراء المغنيات . وروى أبو أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم تحريم ذلك . وقال قتادة : هو استبدال حديث الباطل على حديث الحق . وقيل : كلما كان من الحديث ملهياً عن سبيل الله الذي أمر باتباعه الى ما نهى عنه ، فهو لهو الحديث . وقيل : الآية نزلت في النضر ابن الحارث بن كلفة كان اشترى كتباً فيها أحاديث الفرس : من حديث رستم واسفنديار ، فكان يلهيهم بذلك ويطرف به ، ليصد عن سماع القرآن وتقدر ما فيه .

وقوله « ليضل عن سبيل الله » أي يتشاغل بما يلهيه عن سبيل الله . وقال ابن عباس : سبيل الله قراءة القرآن ، وذكر الله ، لان حجة الله قائمة عليه بالدواعي التي تزججه الى النظر فيما يؤديه الى العلم بالواجب ليعمل ، فيتشاغل ليخف ذلك الأزعاج . ومن قرأ بالضم أراد ليضل غيره بذلك ،

وقوله « ويتخذها هزواً » أي يتخذ سبيل الله سخرية ، فلا يتبعها ويشغل غيره عن اتباعها . والضمير في قوله « ويتخذها » يجوز أن يكون راجعاً الى الحديث ، لأنه بمعنى الاحاديث . ويجوز أن يكون راجعاً الى (سبيل الله) والسبيل يؤنث ويذكر . ويجوز أن يكون راجعاً الى (آيات الله) في قوله « تلك آيات الكتاب » .

ثم اخبر تعالى أن من هذه صفته « له عذاب مهين » أي عذاب يذله . والاذلال بالعداوة هو الهوان . فأما اذلال الفقر والمرض ، فليس بهوان ، ولا اذلال على الحقيقة . واذلال العقاب لا يكون إلا هواناً ، وإن كان العذاب على وجه الامتحان ، فلا يكون هواناً أيضاً .

ثم اخبر تعالى عن صفة هـ — ذا الذي يتخذ آيات الله هزواً ويشترى لهو الحديث أنه « إذا تلى عليه آياتنا » التي هي القرآن « ولى مستكبراً » أي اعرض عنها تكبراً عن استماعها . والفكر فيها ، كأنه « لم يسمعها » من حيث لم ينكر فيها ، ولم يعتبر بها و « كأن في اذنيه قرأ » أي ثقلاً يمنع من سماعه . ثم امر نبيه ﷺ أن يدشر من هذه صفة « بعذاب اليم » أي مؤلم موجه .

ثم اخبر تعالى عن صفة المؤمنين المصدقين بتوحيد الله وصدق انبيائه فقال « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات » أي صدقوا بالله ونبيه وفعّلوا الطاعات « لهم جنات النعيم » يوم القيامة يتنعمون فيها ﴿ خالدين فيها ﴾ أي مؤبدين في تلك البساتين ﴿ وعد الله حقاً ﴾ أي وعده الله حقاً ، لا خلف لوعده ﴿ وهو العزيز ﴾ في انتقامه ﴿ الحكيم ﴾ في أفعاله ، إذ لا يفعل إلا ما فيه المصلحة ووجه من وجوه الحكمة

ثم اخبر تعالى عن نفسه بأنه ﴿ خلق السموات ﴾ فأنشأها واختراعها

﴿بغير عمد ترونها﴾ أي ليس لها عمد يسندها ، لأنه لو كان لها عمد لرأيتموها فلما لم تروها دل على أنه ليس لها عمد ، لأنه لو كان لها عمد لكانت أجساماً عظيمة حتى يصح منها إقلال السموات ، ولو كانت كذلك لاحتاجت الى عمد آخر ، فكان يتسلسل . فإذا لا عمد لها ، بل الله تعالى سكنها حالا بعد حال بقدرته التي لا توازيها قدرة قادر . وقال مجاهد : لها عمد لا ترونها ، وهذا فاسد لأنه لو كان لها عمد لكانت أجساماً عظيمة ، لأنه لا يقل مثل السموات والارض إلا ما فيه الاعتمادات العظيمة . ولو كانت كذلك لرأيت ، وكان يؤدي الى ما ذكرناه من التسلسل .

ثم قال ﴿والتي في الارض رواسي﴾ يعني الجبال الثابتة ﴿أن تميد بكم﴾ وقيل معناه لئلا تميد بكم ، كما قال الراجز :

والمر يأبى أن يزال ملهيا

بمعنى لا يزال . وقال قوم : معناه كراهة أن تميد بكم ﴿وبث فيها من كل دابة﴾ أي فرق فيها من كل دابة أي من كل ما يدب على الارض « وأنزلنا من السماء ماء » يعني غيثاً ومطراً « فأنبثنا فيها » بذلك الماء ﴿من كل زوج كريم﴾ أي من كل نوع حسن النبت طيب الريح والطعم .

قوله تعالى :

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١١) وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ

﴿ج ٨ م ٣٥ من التبيان﴾

أَشْكُرُ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ (١٥) خمس آيات بلا خلاف .

هذا اشارة الى ما تقدم ذكره من خلق السموات والارض على ما هي به من عظمها وكبر شأنها من غير عمد يمنع من انحدارها ، وألقى الرواسي في الارض لثلاثيمد بأهلها « وبث فيها من كل دابة » للاعتبار والانتفاع بها ، وأنزل من السماء ماء لاخراج كل نوع كريم على ما فيه من بهجة ولذة يستمتع بها . فهذا كله خلق الله فأين خلق من اشركتموه في عبادته حتى جاز لكم أن تعبدوه من دونه ، وهذا لا يمكن معه معارضة ، وفيه دليل على توحيده تعالى .

ثم اخبر تعالى فقال « بل الظالمون » لانفسهم بترك الاعتبار بآيات الله « في ضلال مبين » أي عدول عن الحق بين ظاهر وما دعاهم الى عبادتها انها تخلق شيئاً ولكن ضلالهم بالجهل الذي اعتقدوه من التقرب بذلك الى الله وانها

تقربهم الى الله زلفى .

ثم اخبر تعالى انه اعطى لقمان الحكمة ، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : لم يكن لقمان نبياً . وقال عكرمة : كان نبياً . وقيل : انه كان عبداً أسوداً حبشياً ذا سفة . فقال له بعض الناس : أأنت الذي كنت ترعى معنا ؟ فقال : نعم . فقال له : من اين أوتيت ما أرى ؟ فقال : بصدق الحديث والصمت عما لا يعنيني . والحكمة التي آتى الله لقمان هو معرفته بتوحيده ، ونفي الشرك عنه . وما فسرناه في ما بعد وهو ان أمره بأن يشكر الله على نعمه التي أنعم بها عليه .

ثم اخبر تعالى فقال « ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه » أي من يشكر نعمة الله ونعمة من أنعم عليه ، فانه يشكر لنفسه ، لأن ثواب شكره عائد عليه « ومن كفر فان الله غني حميد » أي من جحد نعمة الله ، فانه تعالى غني عن شكره حميد على أفعاله ، وعقاب ذلك عائد على الكفار دون غيرهم ، والشكر لا يكون إلا على نعمة سبقت ، فهو يقتضي منعماً ، فلا يصح على ذلك أن يشكر الانسان نفسه ، لأنه لا يجوز أن يكون منعماً عليها ، وهو جرى مجرى الدين في أنه حق اخبره عليه يلزمه أدائه ، فكما لا يصح أن يقرض نفسه فيجب أن يقضي ذلك الدين لنفسه ، فكذلك لا يصح أن ينعم على نفسه فيلزمه شكر تلك النعمة . ثم قال تعالى وأذكر يا محمد « إذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » إذ قال له لا تعبد مع الله غيره . فان من فعل ذلك فقد ظلم نفسه ظلماً عظيماً . ويجوز أن يتعلق قوله « إذ قال لقمان » بقوله « ولقد آتينا لقمان الحكمة ... إذ قال لابنه ... لا تشرك بالله » ثم قال تعالى « ووصينا الانسان بوالديه » أي وصيناه وأمرناه بالاحسان الى والديه . والرفقي بهما « حملته امه وهنا على وهن » قال الضحاك : معناه ضعفاً على ضعف

أي ضعف نطفة الوالد الى ضعف نطفة الأم . وقيل : هو ما يلحقها بحملها إياه مرة بعد مرة من الضعف . وقيل : بل المعنى شدة الجهد ، قال زهير :
فإن يقولوا بعمل واهن خلق لو كان قومك في اسبابه هلكوا (١)
وقال ابن عباس « وهن على وهن » أي شدة على شدة . وقيل : ضعف الولد حالا بعد حال ، لانه كان نطفة ثم علقه ثم مضغه ثم عظمًا ثم مولوداً . وقوله « وفصاله في عامين » يعني قطامه في انقضاء عامين . وقيل : نزلات في سعد بن ابي وقاص حلفت أمه لا تأكل طعاماً حتى تموت أو يرجع سعد ابنها فلما رآته بعد ثلاث لا يرجع عن الاسلام أكت . ثم قال « أن اشكر لي ولوالديك » أي وصيناه بأن اشكر لي على نعمي ، واشكر والديك أيضاً على ما أنعمما عليك . ثم قال « إلي المصير » فيه تهديد أي إلي مرجعكم ، فجازيكم أيها الناس على حسب عملكم .

ثم قال « وإن جاهدك » يعني الوالدين أيها الانسان « على أن تشرك بي » معبوداً آخر « فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معرفاً » أي احسن اليهما في الدنيا وارفق بهما . ثم قال « واتبع سبيل من أناب إلي » أي رجع الى طاعني من النبي والمؤمنين « ثم إلي مرجعكم » أي منقلبكم « فانبئكم » أي اخبركم « بما كنتم تعملون » في دار الدنيا من الاعمال . واجازيكم عليها بحسبه ، وقرأ ابن كثير ، إلا ابن فليح « يا بني لا تشرك بالله » بسكون الياء الباقيون بتشديدها وكسرها ، إلا حفصاً فانه فتحها على اصله « يا بني أقم

(١) هو زهير بن ابي سلمى . ديوانه (دار بيروت) ٥١ وروايته (فلان)

الصلاة» بفتح الياء ، وابن كثير إلا قبلاً وحفص ، الباقون بكسر الياء . فوجه السكون أنه أجرى الوصل كالوقوف ، ووجه الفتح على الإضافة وحذف ما قبلها لاجتماع ثلاث ياءات . والكسر على الاجتزاء بها من ياء الإضافة ، وعندنا أن الرضاع بعد الحولين يحرم لقوله « وفصّاله في عامين » ولقوله ﷺ لا رضاع بعد الحولين .

قوله تعالى :

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ
أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ
خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ
خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ
مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ
أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً
وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا
كِتَابٍ مُنِيرٍ) (٢٠) خمس آيات بلا خلاف .

— ٢٧٨ — يا بني انها أن تك مثقال حبة من خردل ٠٠٠ [١٦ - ٢٠]

قرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر « ولا تصغر » بغير ألف في التصغير .
الباقون « تصاعر » بألف . وقرأ أهل المدينة « مثقال حبة » رفعاً . الباقون نصباً
من رفعه جعل (كان) بمعنى حدث ، ووقع ، ولم يجعل لها خبراً . ومن نصب
فعلى أنه خبر (كان) والاسم مضمَر فيها أي إن تك الحبة مثقال . وقرأ نافع
وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم « نعمه » على لفظ الجمع .
الباقون « نعمة » على التوحيد .

يقول الله تعالى مخبراً عن لقمان ووصيته لابنه ، وأنه قال « يا بني أنها
إن تك مثقال حبة من خردل » من خير أو شر (فتكن) عطف على الشرط
فلذلك جزمه . وتقديره : إن تلك الحبة لو كانت في جوف صخرة ، وهي الحجر
العظيم أو تكون في السموات أو الأرض « يأت بها الله » ويحاسب عليها
ويجازي لأنه لا يخفى عليه شيء منها ، ولا يتعذر عليه الاتيان بها أي موضع
كانت ، لأنه قادر لنفسه لا يعجزه شيء عالم لنفسه لا تخفى عليه خافية .

وقوله « يأت بها الله » معناه إنه يجازي بها ويواقف عليها فكأنه أتى بها
وإن كانت أفعال العباد لا يصح إعادتها ، ولو صح إعادتها لما كانت مقدورة لله .
وإنما أراد ما قلناه ، وفي ذلك غاية التهديد والحث على الأخذ بالحزم . والهاء
في قوله « أنها » قيل : أنها عماد وهو الضمير على شريطة التفسير . وقيل :
(إنها) كناية عن الخطيئة أو الفعلة التي تقتضي الجزاء ، وهي المضمرة في تلك
وإنما أنث مثقال ، لأنه مضاف إلى مؤنث وهي الحبة ، كما قيل : ذهبت بعض
أصابعه . وكما قيل :

[وتشرق بالقول الذي قد اذعته] كما شرقت صدر القناة من الدم (١)

والصخرة وإن كانت في الأرض أو في السماء ، فذكر السموات والأرض بعدها مبالغة كقوله « اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق » (١) وقد قال بعض المفسرين : ان الصخرة خارجة عن السموات والأرض ، وهو أيضاً جائز . وقرأ قتادة « فتكن في صخرة » بكسر الكاف مخففاً من (وكن يكن) أي جعل الصخرة كالوكنة . وهو عش الطائر . ذكره ابن خالويه . ووحكاه عن ابن مجاهد سماعاً ، واستحسنه .

وقوله « ان الله لطيف خبير » قال قتادة : معناه - هاهنا - لطيف باستخراجها ، خبير بمستقرها . واللطيف القادر الذي لا يحفو عن عمل شيء ، لأن من القادرين من يحفو عن عمل أشياء كثيرة كإخراج الجزء الذي لا يتجزأ وتأليفه إلى مثله ، فهو فان كان قادراً عليه ، فهو ممتنع منه ، لأنه يحفو عن عمل مثله . والخبير العالم وفيه مبالغة في الصفة ، مشتق من الخبر . ولم يزل الله خبيراً عالماً بوجوه ما يصح أن يخبر به ، والمثقال مقدار يساوي غيره في الوزن ، فمقدار الحبة مقدار حبة في الوزن . وقد صار بالعرف عبارة عن وزن الدينار ، فإذا قيل : مثقال كافور أو عنبر ، فمعناه مقدار الدينار بالوزن .

ثم حكى ما قاله لقمان لابنه أيضاً قال له « يا بني اقم الصلاة » أي دم عليها وأقم حدودها وشرائطها « وأمر بالمعروف » والمعروف هو الطاعات « وإنه عن المنكر » وهي القبائح سواء كانت قبائح عقلية أو شرعية « واصبر على ما أصابك » من الناس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من المشقة والأذى وفي ذلك دلالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن كان فيه

بعض المشقة . ثم قال « إن ذلك ، أي ما ذكره من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » من عزم الامور « من العقد الصحيح على فعل الحسن بدلا من القبيح ، والعزم العقد على الأمر لتوطين النفس على فعله ، وهي الارادة المتقدمة للفعل بأكثر من وقت ، لان التلون في الرأي يناقض العزم . قال الله تعالى « فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل » (١) .

ثم حكى ما قال لقمان لابنه ، فانه قال له ايضاً ، ولا تصغر خدك للناس « ومعناه لا تعرض بوجهك عن الناس تكبراً - ذكره ابن عباس - واصل الصغر داء يأخذ الابل في اعناقها أو رؤسها حتى يلفت أعناقها فتشبه به الرجل المتكبر على الناس . وقال عمر بن جني الشعبي واصله المبرد الى الفرزدق :

وكنا إذا الجبار صغر خده أقناله من مثله فتقوما (٢)

قال ابو علي الفارسي : يجوز أن يكون تصغر وتصاعر بمعنى ، كقولهم ضعف وضاعف ، قال ابو الحسن (لا تصاعر) لغة اهل الحجاز و (لا تصغر) لغة بني تميم . والمعنى ولا تتكبر ، ولا تعرض عنهم تكبراً « ولا تمش في الأرض مرحاً » أي مشي مختال متكبر « ان الله لا يحب كل مختال فخور » فالاختيال مشية البطر ، قال مجاهد : المختال المتكبر ، والفخر ذكر المناقب للتطاول بها على السامع ، يقال : فخر فخر فخرأ وفاخره مفاخرة وفخاراً ، وتفاخرا تفاخراً وافتخرا افتخاراً . ثم قال له « واقصد في مشيك » أي اجعل مشيك مشي قصد ، لا تمشي مشي مختال ولا متكبر « واغضض من صوتك » أي لا ترفع صوتك متطاولاً لانه مذموم « ان انكر الاصوات لصوت الحير » قال الفراء : معناه إن اشد

الأصوات . وقال غيره : معناه أفصح الأصوات - في قول مجاهد - كما يقال : هذا وجه منكر . ثم نبههم على وجوه نعم الله على خلقه . فقال ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي ذلله لكم لتتصرفون فيه بحسب ما تريدون من أنواع الحالات من اثمار والبهائم ، وغير ذلك ﴾ واسبغ عليكم نعمه ﴾ ظاهرة أي وسع عليكم نعمه ، والسابغ الواسع الذي يفضل عن مقدار القوت . وقوله ﴿ ظاهرة وباطنة ﴾ أي من نعمه ما هو ظاهر لكم لا يمكنكم جعده : من خلقكم ، وحيائكم واقداركم ، وخلق الشهوة فيكم وضروب نعمه ، ومنها ما هو باطن مستور لا يعرفها إلا من آمن النظر فيها وقيل : النعم الباطنة مصالح الدين والدنيا ، مما لا يشعرون به . وقيل : سخر لكم ما في السموات من شمس وقر ونجم وسحاب ، وما في الأرض من دابة وشجر وثمار ، وغير ذلك مما تنتفعون به في اقواتكم ومصالحكم .

ثم قال تعالى ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ﴾ أي يخاصم ولا علم له بما يقوله ، ويجادل فيه ﴿ ولا هدى ﴾ أي ولا حجة على صحة ما يقوله ﴿ ولا كتاب منير ﴾ أي ، ولا كتاب من عند الله منير أي ظاهر عليه نور وهدى .

قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْأَوْ كَانِ الشَّيْءُ أَنْ يَدْخُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ

﴿ ج ٨ م ٣٦ من التبيان ﴾

بِالزُّورَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ (٢٥) خمس آيات بلاخلاف .

حكى الله سبحانه عن الكفار وسوء اختيارهم أنه ﴿ إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ﴾ من القرآن والاحكام واعملوا بموجبه واقتدوا به ﴿ قالوا ﴾ في الجواب عن ذلك ﴿ بل نتبع ما وجدنا عليه آياته ﴾ من عبادة الأصنام ، ولا نتبع ذلك ، فقال الله تعالى منكرآ عليهم ﴿ أو لو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير ﴾ ومعناه إنكم تتبعون ما وجدتم عليه آباءكم ، ولو كان ذلك يدعوكم الى عذاب جهنم ! . وادخل على واو العطف ألف الاستفهام على وجه الانكار . ثم قال ﴿ ومن يسلم وجهه الى الله ﴾ أي يوجه طاعته الى الله ويقصد وجهه بها دون الرياء والسمعة ﴿ وهو محسن ﴾ أي لا يخلط طاعانه بالمعاصي ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ أي من فعل ما وصفه فقد تعلق بالعروة الوثيقة التي لا يخشى انتقاضها ، والتوثق امتناع سبب الانتقاض ، لأن البناء الموثق قعد جعل على امتناع سبب الانتقاض ، وما ليس بموثق على سبب الانتقاض . ثم قال ﴿ والى الله عاقبة الأمور ﴾ أي اليه ترجع أواخر الأمور على وجه

لا يكون لأحد التصرف فيها ، ولا الأمر والنهي .

ثم قال لنبيه ﴿ ومن كفر ﴾ يا محمد من هؤلاء الناس ﴿ فلا يحزنك كفره ﴾ .
 اى لا يغمك ذلك ﴿ ايتنا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ﴾ اى نعلمهم باعمالهم
 ونجازيهم على معاصيهم بالعقاب ، ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ اى بما تضره
 الصدور ، لا يخفى عليه شيء منها . ثم قال ﴿ ننتعهم قليلا ﴾ اى نتركهم يتمتعون
 في هذه الدنيا مدة قليلة ﴿ ثم نضطرهم ﴾ اى نصيرهم مكرهين ﴿ الى عذاب
 غليظ ﴾ يغلظ عليهم ويصعب وهو عذاب النار . ثم قال ﴿ ولئن سألتهم ﴾
 يعني هؤلاء الذين كفروا بآيات الله ﴿ من خلق السموات والارض ﴾ ؟ ليقولان
 في جواب ذلك : الله خلق ذلك ، لانهم لا يمكنهم أن يقولوا خلق ذلك
 الاصنام والاونان ، لانهم يقرون بالنشأة الاولى ، ولأنهم لو قالوا ذلك لعلم
 ضرورة بطلان قولهم ، فقل عند ذلك يا محمد ﴿ الحمد لله ﴾ على هدايته وتوفيقه
 لنا بالمعرفة له ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ انكم وفقكم الله لمعرفته .

قوله تعالى :

﴿ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦)
 وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٍ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ
 سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧)
 مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨)
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ

الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ
الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ خمس آيات بلا خلاف .

قرأ أبو عمرو ويعقوب وابن شاهي ﴿والبحر يمدّه﴾ نصباً . الباقر
رفعاً . من نصبه عطفه على (ما) في قوله ﴿أَنَّ مَا﴾ لأن موضعها نصب بـ (أن)
لأن الكلام لم يتم عند قوله ﴿أفلام﴾ فاشبهه المعطوف قبل الخبر . قال ابن خالويه :
وهذا من حلق أبي عمرو ، وجودة تميزه . وإنما لم يتم الكلام مع الاتيان بالخبر
لأن (لو) يحتاج الى جواب . ومن رفع استأنف الكلام .

أخبر الله تعالى أن له جميع ما في السموات والأرض ملك له يتصرف
فيه بحسب إرادته لا يجوز لأحد الاعتراض عليه . ثم أخبر أنه تعالى ﴿هو
الغني﴾ الذي لا يحتاج الى شيء . من جميع المخلوقات كما يحتاج غيره من الأحياء
المخلوقين وأنه ﴿الحميد﴾ مع ذاك ، يعني المستحق للحمد العظيم ، ونقيضه الدميم
ويقال (محمود) بمعنى حميد . ومعناه أنه أهل الحمد .

ثم قال تعالى ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من
بعده سبعة أبحر﴾ وفيه حذف ، لأن المعنى يكتب به كلام الله ﴿ما نفدت
كلمات الله﴾ والآية تقتضي أنه ليس الكلمات الله نهاية بالحكم ، لأنه يقدر منها
على ما لا نهاية له . وقال قوم : المعنى أن وجه الحكمة وعجيب الصنعة وإتقانها
لا ينفد ، وليس المراد به الكلام . وقال أبو عبيدة : المراد بالبحر - ههنا -
العذب ، لأن المالح لا ينبت الأفلام . وقال ابن عباس : نزلت الآية جواباً

لليهود ، لما قالوا قد أوتينا التوراة ، وفيها كل الحكمة ، فبين الله تعالى أن ما يقدر عليه من الكلمات لا حصر له ولا نهاية . والشجر جمع شجرة مثل تمرة وتمر ، وهو كل نبات يقوم على ساق ويورق الاغصان . ومنه اشتقت المشجرة بين الناس في الأمر . ومنه قوله ﴿ في ما شجر بينهم ﴾ وشجر تشجير أو تشاجروا تشاجراً ، ومد البحر إذا جرى غيره إليه حالا بعد حال . ومنه المد والجزر . ومد النهر وـمده نهر آخر يمدده مدأ . وقال الفراء : يقولون : أمددتك ألفاً فددت .

﴿ ان الله عزيز حكيم ﴾ معناه عزيز في انتقامه من اعدائه (حكيم) في أفعاله . ثم قال ﴿ ما خلقكم ﴾ معشر الخلق ﴿ ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ أي إلا كبعث نفس واحدة أي لا يشق عليه ابتداء جميع الخلق ولا إعادتهم بعد إفنائهم ، وأن جميع ذلك من سعة قدرة الله كالنفس الواحدة ، إذ المراد أن خلقها لا يشق عليه .

وقوله ﴿ إن الله سميع ﴾ أي يسمع ما يقول القائلون في ذلك ﴿ بصير ﴾ بما يضمرونه في قوله « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » وفي ذلك تهديد على المخالفة فيه . ثم قال « ألم تر » يا محمد ، والمراد به جميع المكلفين « أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل » قال قتادة : معناه ينقص من الليل في النهار ، ومن النهار في الليل . وقال غيره : معناه إن كل واحد منهما يتعقب الآخر ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري ﴾ لأنهما يجريان على وتيرة واحدة لا يختلفان بحسب ما سخرها له ، كل ذلك يجري ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ قدره الله ان يفنيه فيه . وقال الحسن : الأجل المسمى القيامة ﴿ وإن الله عطف على ﴾ ﴿ ألم تر ﴾ فلذلك نصبه ، وتقديره : وتعلم ﴿ أن الله بما تعملون خبير ﴾ من

قرأ بالياء - وهو عياش عن أبي عمرو - أراد الاخبار . ومن قرأ بالتاء حمله على الخطاب . وهو الأظهر . والمعنى ﴿ أن الله بما تعملون ﴾ معشر المكلفين ﴿ خير ﴾ أي عالم ، فيجازيكم بحسب ذلك لي مطابق قوله ﴿ ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ﴾ ثم قال ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ الذي يجب توجيه العبادة اليه ﴿ وأن ما تدعون من دونه الباطل ﴾ . ومن قرأ بالياء فعلى الاخبار عنهم . ومن قرأ بالتاء على وجه الخطاب .

يقول الله تعالى : ألم تعلم أن ما يدعون هؤلاء الكفار من الاصنام هو الباطل . ومن قرأ بالياء فعلى : قل لهم يا محمد ﴿ وأن الله هو العلي الكبير ﴾ فالعلي هو الذي علا على الأشياء واقتدر عليها ، والكبير معناه العظيم في صفاته لا يستحق صفاته غيره تعالى . وذكر ابو عبيدة - في كتاب المجاز - ان البحر المذكور في الآية البحر العذب ، لأن المالح لا ينبت الأفلام .

قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ * فَلَمَّا نَجَّيَهُمْ إِلَى الْبَرِّ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ (٣٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ
السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا
تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ .

خمس آيات بصرى وشامى واربع فيما عداها عدوا ﴿مخلصين له الدين﴾
ولم يعده الباقون .

يقول الله تعالى مخاطباً لنبيه ﷺ والمراد به جميع المكلفين منبهاً لهم على
جهات نعمه التي انعم بها عليهم وما يدهم على انه يستحق العبادة خالصاً ، فقال
﴿الم تر﴾ ومعناه ألم تعلم ﴿ان الفلك﴾ وهي السفن تجري في البحر بنعمة الله
عليكم ﴿ليرىكم من آياته﴾ اى ليرىكم بعض ادلته الدالة على وحدانيته ، ووجه
الدلالة في ذلك ان الله تعالى يجري الفلك بالرياح التي يرسلها في الوجوه التي
تريدون المسير فيها ، ولو اجتمع جميع الخلق ليجروا الفلك في بعض الجهات
مخالفاً لجهة الرياح لما قدروا على ذلك . وفي ذلك اعظم دلالة على ان
المجري لها بالرياح هو القادر الذى لا يعجزه شيء ، وذلك بعض الأدلة التي
تدل على وحدانيته ، فلذلك قال ﴿من آياته﴾ ثم قال ﴿ان في ذلك لآيات﴾
يعني في تسخير الفلك وإجرائها في البحر على ما بيناه لدلالات ﴿لكل صبار﴾
يعني الصبار على مشاق التكليف . وعلى المصائب ، وأذى الكفار ﴿شكور﴾
لنعم الله عليهم واضاف الآيات اليهم لما كانوا هم المنتفعين بها ، وانما ذكر
﴿كل صبار شكور﴾ لأن الصبر عليه بأمر الله ، والشكر لنعم الله من افضل

ما في المؤمن . وقال الشعبي : الصبر نصف الإيمان ، والشكر نصف الإيمان
فكأنه قال : لكل مؤمن .

ثم قال تعالى ﴿ وإذا غشيهم موج ﴾ يعني إذا غشي أصحاب السفن
الراكبي البحر موج ، وهو هيجان البحر ﴿ كالظلل ﴾ أي الماء في ارتفاعه وتغطيته
ما تحته كالظلل ، قال النابغة الجعدي : يصف البحر :

يغاشيهم اخضر ذو ظلال على حافته فلق الدنان (١)

شبه الموج لأنه يجي منه شيء بعد شيء بالسحاب الذي يركب بعضه
فوق بعض ، ويكون اسوداً بما فيه من الماء « دعوا الله مخلصين له الدين » أي
طاعة العبادة ، فالإخلاص أفراد المعنى من كل شائب كان من غيره ، أي يخلصون
الدعاء في هذه الحال لله تعالى دون الأصنام وجميع ما يعبدونه من دون الله
« فلما نجاهم » أي خلصهم إلى البر وسلمهم من هول البحر « فمنهم مقتصد » قال
قتادة: يعني منهم مقتصد في قوله مضمير لكفره . وقال الحسن : المقتصد المؤمن .
وقيل: مقتصد على طريقة مستقيمة « وما يجد بآياتنا إلا كل ختار كفور »
فالختار الغدار بعده أقبح الغدر ، وهو صاحب ختل وختر أي غدر قال عمرو
ابن معدي كرب :

فأنك لو رأيت أبا عمير ملأت يدك من غدر وختر (٢)

وقال الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد : الختار الغدار .

ثم خاطب تعالى جميع المكلفين من الناس فقال « يا أيها الناس اتقوا ربكم »
أمرهم باجتناب معاصيه خوفاً من عقابه « واخشوا يوماً لا يجزي والد عن

ولده . . . » يعني يوم القيامة الذي لا يغني فيه أحد عن أحد ، لا والد عن ولده ولا ولد عن والده ، يقال : جزيت عنك أجزى إذا أغنيت عنك . وفيه لغة أخرى : أجزأ يجزىء من أجزأت بالهمزة . ثم قال « ان وعد الله حق » اي الذي وعده من الثواب والعقاب حق لا خلف فيه « فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » قال مجاهد وقتادة والضحاك : الغرور الشيطان . وقال سعيد بن جبير : هو يمنيك المغفرة في عمل المعصية . قال ابو عبيدة : الغرور كل شيء غرك حتى تعصي الله ، وتترك ما أمرك به الله ، شيطاناً كان أو غيره ، فهو غرور . وهو أحسن ، لأنه أعم . ثم قال تعالى « إنا الله عنده علم الساعة » يعني وقت قيام القيامة يعلمه تعالى لا يعلمه سواه « وينزل الغيث » أي وهو الذي يعلم وقت نزول الغيث بعينه وهو الذي « يعلم ما في الارحام » من ذكر او أنثى « وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت » يقال : بأي أرض وبأية أرض . من قال : بأي ، فلأن تأنيث الأرض بالصيغة لا باللفظ . ومن قال : بأية أرض فلان الأرض مؤنثة . والمعنى انه لا يعلم موت الانسان في أي موضع من البلاد يكون سواه . وقد روي عن النبي ﷺ ان هذه الخمسة اشياء مما لا يعلمها غيره تعالى على التفصيل والتحقيق « إن الله عليم » بتفصيل ذلك « خير » به لا يخفى عليه شيء من ذلك . وسأل البلخي نفسه ، فقال : إذا قلتم : إن من اعتقد الشيء على ما هو به تقليداً أو تخميناً أو تنجيماً يكون عالماً ، فلو أن إنساناً اعتقد ان امرأة تلد ذكراً أو رجلاً يموت في بلد بعينه او يكسب في الغد كذا ، فوافق ذلك اعتقاده ، فيجب

﴿ ج ٨ م ٣٧ من التبيان ﴾

ان يكون عالماً ، ويبطل الاختصاص في الآية ١؟ وأجاب : إن ذلك وإن كان جائزاً ، فإنه لا يقع لظاهر الآية . وهذا غير صحيح ، لأن من المعلوم ضرورة أن الإنسان يخبر شيئاً فيعتقده ، فيكون على ما اعتقده من هذه الأشياء الخمسة ، وإنما لا يكون عالماً ، لأنه لا تسكن نفسه الى ذلك ، فأما المنع من وقوعه فمعلوم خلافه .

٣٢ - سورة السجدة

مكية في قول قتادة ومجاهد وغيرهما . وقال الكلبي ومقاتل : ثلاث آيات منها مدنية قوله « أفمن كان مؤمناً » الى تمام ثلاث آيات . وهي ثلاثون آية كوفي وحجازي وشامي . وتسع وعشرون آية بصري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)
أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَيْهِمْ
مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ
مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ
السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ
سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٥) •

خمس آيات كوفي وأربع فيما عداه عدوا « ألم » آية ولم يعدها الباقون .
روي عن النبي ﷺ أنه كان يقرأ في كل ليلة سورة السجدة « الم تنزيل »
و « تبارك الذي بيده الملك » .

و « تنزيل » رفع على انه خبر ابتداء محذوف ، وتقديره « الم » هو تنزيل .
ويجوز أن يكون (تنزيل) رفعاً بالابتداء ، وخبره « لاريب فيه » ذكره الزجاج .
وقد تكرر القول بأن أوائل امثال هذه السور أقوى الأقوال فيها انها أسماء
للسورة ، ورجحناه على غيره من الأقوال . والتلفظ بحروف الهجاء ينبغي ان
يكون على الوقف ، لأنها مبنية على السكون من حيث كانت حكاية للاصوات .
وقوله « تنزيل الكتاب » أي هذه الآيات هي تنزيل الكتاب الذي
وعدهم به « لاريب فيه » أي لاشك فيه أنه وحي من الله . والمعنى أنه لاريب
فيه عند المهتدين ، وإن كان ارتاب به خلق من المبطلين . وهو مثل قول
القائل : لاريب في هذا انه ذهب أي عند من رآه واعتبره . وقيل : معنى
« لاريب فيه » خبر والمراد به النهي ، والمعنى لا ترتابوا به ، والريب الشك .
وقيل : هو اقبح الشك . ووجوه الحكم في الكتاب البيان عن كل ما تدعو الحكمة
الى تميز الحق فيه من الباطل بالبرهان عليه مما يحتاج اليه في الدين الذي يرضى
به رب العالمين ، وهو على وجهين : حجة ، وموعظة ، واعتماد الحجة على تبيين ما يؤدي
الى العلم بصحة الأمر ، واعتماد الموعظة على الترغيب والترهيب ، وفي الموعظة
من جهة التحذير بما تضمنه أي يقرب ما في السورة المسمى به من الحكم ، وفيه
حجة على العبد من جهة انه قد دل به على ما يجب أن يعتقد تعظيمه وبعمل به .
وقوله « من رب العالمين » أي هو تنزيل من عند الله الذي خلق الخلائق .
وقوله « ام يقولون افتراه » فهذه (أم) منقطعة ، ومعناها (بل) وتقديره :

بل يقولون افتراه ، ففيها معنى (بل) والألف إذا كانت معادلة فمعناها (او) مع الاستفهام ، و (افتراه) معناه افتعله ، بل قال تعالى ليس الأمر على ما قالوه « بل هو الحق » من عند الله والحق هو كل شيء كان معتقده على ما هو به مما يدعو العقل اليه واستحقاق المدح عليه . وتعظيمه الكتاب حق ، لأن من اعتقد أنه من عند الله كان معتقده على ما هو به . والباطل نقيض الحق ، وهو ما كان معتقده لاعلى ما هو به .

وقوله « بل هو الحق من ربك » فيه دلالة على بطلان مذهب المجبرة لان الله تعالى أنزله ليهتدي به الخلق لا ليضلوا به عن الدين ، والمجبرة تزعم انه أراد ضلال الكفار عن الدين فيجب كونه منزلا ليضل الكفار عن الدين .

وقوله « لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك » لا ينافي قوله « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » (١) لان الحسن ، قال : المعنى وإن من أمة أهلكت بالعذاب إلا من بعد أن جاءهم نذير ينذرهم بما حل بهم . وهذا خطاب للنبي ﷺ يقول الله تعالى له « لتنذر » أي لتخوف يا محمد « قوماً » لم يأتهم مخوف قبلك ، يعني أهل الفترة من العرب ، فكانوا كأنهم في غفلة عما لزمهم من حق نعم الله وما خلقهم له من العباداة . وقد كانت اسماعيل عليه السلام نذيراً لمن أرسل اليه .

ثم قال « الله الذي خلق السموات والارض » أي اخترعهما وانشأها وخلق « ما بينهما في ستة أيام » أي في ما قدره ستة أيام ، لانه قبل خلق الشمس لم يكن ليل ولا نهار . وقوله « ثم استوى على العرش » أي استوى عليه بالقهر والاستعلاء ، وقد فسر ناد في ما مضى (٢) ودخلت « ثم » على (استوى على العرش)

وإن كان مستعليًا على الاشياء قبلها ، كما دخلت حتى في قوله « ولنبلوكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين » (١) وتقديره ثم صح معنى استوى على العرش باحدثه ، وكذلك حتى يصح معنى « نعلم المجاهدين » أي معنى وصفهم بهذا وذلك لا يكون إلا بعد وجود الجهاد من جهتهم .

وقوله « مالكم من دونه من ولي ولا شفيع » نفي منه تعالى أن يكون للخلق ناصر ينصرهم من دون الله أو شفيع يشفع لهم ، كما كانوا يقولون : نعبدكم ليقربونا الى الله زلفى .

ثم قال « افلا تتذكرون » في ما قلناه وتعتبرون به ، فتعلموا صحة ما بيناه لكم . وقوله « يدبر الأمر من السماء الى الارض » معناه ان الذي خلق السموات والارض وما بينهما في هذه المدة يدبر الامور كلها ، ويقدرها على حسب إرادته في ما بين السماء والارض ، وينزله مع الملك الى الارض « ثم يعرج اليه » يعني الملك يصعد الى المكان الذي أمره الله تعالى أن يعرج اليه ، كما قال ابراهيم : « اني ذاهب الى ربي » (٢) أي ارض الشام التي امرني ربي . ولم يكن الله بأرض الشام ، ومثله قوله تعالى « ومن يخرج من بيته مهاجراً الى انه ورسوله » (٣) يريد الى المدينة . ولم يكن الله في المدينة . وقوله « في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » قال ابن عباس ، والضحاك : معناه يوم كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة مما يعده البشر . وقيل : معناه خمس مئة عام نزول وخمس مئة عام صعود ، فذلك ألف سنة . وقال قوم : يجوز ان يكون يوم القيامة يوماً له اول وليس له آخر . وقته اوقافاً يسمى بعضها الف سنة وبعضها خمسين الف

سنة . وقيل : ان معنى « وإن يوماً عند ربك كألف سنة » انه فعل في يوم واحد من الأيام الستة التي خلق فيها السموات والارض ما لو كان يجوز أن يفعل غير لما فعله إلا في ألف سنة . وقيل : ان معناه إن كل يوم من الأيام الستة التي خلق فيها السموات كألف سنة من أيام الدنيا .

قوله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٩) وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * بَلْ هُمْ بَلِيقَاءَ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ (١٠)

خمس آيات عراقية لم يعدوا « جديد » آية . وست في ما عداها ، لأنهم عدوا « جديد » آية .

قرأ ابن كثير ، وابو عمرو ، وابن عامر « احسن كل شيء خلقه » باسكان اللام . الباقون بفتحها . من سكن اللام فعلى تقدير : الذي أحسن خلق كل شيء . اي جعلهم يحسنونه والمعنى انه ألهمهم جميع ما يحتاجون اليه . قال الزجاج : ويجوز ان يكون على البدل ، والمعنى : احسن كل شيء . ويجوز أن يكون على المصدر وتقديره الذي خلق كل شيء خلقه . ومن فتح اللام جعله فعلا ماضياً ، ومعناه

احسن الله كل شيء خلقه على إرادته ومشيئته ، وأحسن الانسان وخلقه في احسن صورة . وقيل : معناه إن وجه الحكمة قائم في جميع أفعاله ، ووجوه القبح منتفية منها ، ووجه الدلالة قائم فيها على صانعها ، وكونه عالماً . والضمير في قوله « خلقه » كناية عن اسم الله .

لما اخبر الله تعالى انه الذي خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام واستولى على العرش ، وانه الذي يدبر الأمور ما بين السموات والارض بين - ههنا - ان الذي يفعل ذلك ويقدر عليه هو « عالم الغيب والشهادة » أي يعلم السر والعلانية « العزيز » في انتقامه من أعدائه « الرحيم » بعباده ، المنعم عليهم ، و (الغيب) خفاء الشيء عن الادراك . والشهادة ظهوره لادراك فكأنه قال : يعلم ما يصح أن يشاهد ، وما لا يصح أن يشاهد فيدخل في ذلك المعدم والحياة والموت والقدرة وجميع ما لا يصح عليه الرؤية . والعزير : هو القادر على منع غيره ولا يقدر الغير على منعه ، وأصله المنع من قولهم : من عز بز ، من غلب سلب ، لأن من غلب أسيره فمنعه أخذ سلبه .

ثم قال الذي احسن كل شيء خلقه ، ومعنى ذلك في جميع ما خلقه الله تعالى وأوجده فيه وجه من وجوه الحكمة ، وليس فيه وجه من وجوه القبح . وذلك يدل على ان الكفر والضلال وسائر القبائح ليست من خلقه . ولفظة (كل) وإن كانت شاملة للأشياء كلها ، فالمراد به الخصوص - ههنا - لأنه أراد ما خلقه الله تعالى من مقدراته دون مقدور غيره ، ونصب قوله « خلقه » بالبدل من قوله « كل شيء » كما قال الشاعر :

وظعني اليك الليل حضنيه اني لتلك إذاهاب الهداي فاعول (١)

وتقديره وظفني حضني الليل اليك . وقال الآخر :

كأن هندا ثناياها وبهجتها يوم التقينا على ادحال دباب (١)

والمعنى كأن ثنايا هندو بهجة هند . وقوله « وبدأ خلق الانسان من طين » أي ابتداء خلق الانسان من طين ، يريد انه خلق آدم الذي هو أول الخلق من طين ، لأن الله تعالى خلق آدم من تراب ، فقلبه طيناً ، ثم قلب الطين حيواناً ، وكذلك قال ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ (٢) وقال - ههنا - « وبدأ خلق الانسان من طين » وكل ذلك لما في التصريفين دليل وقوله « ثم جعل نسله من سلالة » يعني نسل الانسان الذي هو آدم وولده من سلالة ، وهي الصفوة التي تنسل من غيرها خارجة ، قال الشاعر :

نجاهت به غضب الاديم غضنفرأ سلالة فرج كان غير حصين (٣)

« من ماء مهين » قال قتادة : المهين الضعيف . وهو (فعيل) من المهنة . وقوله « ثم سواه » أي عدله ورتب جوارحه « ونفخ فيه » يعني في ذلك المخلوق من روحه ﴿ فأضافه الى نفسه اضافة اختصاص وإضافة ملك على وجه التشريف . ثم قال « وجعل لكم » معاشر الخلق « السمع » لتسمعوا به الاصوات « والابصار » لتبصروا بها المرئيات « والافئدة » أي وخلق لكم القلوب لتعقلوا بها ﴿ قليلا ما تشكرون ﴾ أي تشكرون نعم الله قليلا من كثير . (ما) زائدة ، ويجوز ان تكون مصدرية ، والتقدير قليلا شكركم ، لأن نعم

(٢) سورة ٣ آل عمران آية ٥٩

(١) مجاز القرآن ٢ / ١٣٠

(٣) مر تخريجه في ٧ / ٣٥٣

الله لا تحصي . ثم حكى عن الكفار فقال ﴿ وقالوا أنذا ضللنا في الارض ﴾ وفيه لغتان فتح اللام وكسرها ، وكل شيء غلب عليه غيره حتى يغيب فيه ، فقد ضل فيه ، قال الاخطل :

كنت القذي في موج اكدر مزبد قذف الآتي به فضل ضلالا (١)
وقال مجاهد وقتادة : معنى ﴿ ضللنا ﴾ هلكنا . وقال ابو عبيدة : همدنا فلم يوجد لهم دم ولا لحم ﴿ أننا في خلق جديد ﴾ حكاية عن تعجبهم وقولهم كيف نخلق خلقاً جديداً ، وقد هلكنا وتمزقت أجسامنا . ثم قال ﴿ بل ﴾ هؤلاء الكفار ﴿ بلقاء ربهم ﴾ بالعذاب والعقاب ﴿ كفرون ﴾ أي جاحدون ، فلذلك قالوا : أإذا ضللنا في الأرض أننا في خلق جديد، جعل ﴿ إذا ﴾ منصوبة بـ (ضللنا) وتكون في معنى الشرط ، ولا توصل إلا بذكر الفاء بعدها ، لأن (إذا) قد وليها الفعل الماضي ولا يجوز أن تنصب (إذا) بما بعدها إذ لا خلاف بين النحويين فيه . وقرأ الحسن ﴿ ضللنا ﴾ بالصاد غير منقوطة . ومعناه احد شيئين : احدها - انتنا وتغيرنا وتغيرت صورنا ، يقال صل اللحم ، وأصل إذا أنتن ، والثاني - ضللنا صرنا من جنس الصلة وهي الأرض اليابسة .

قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّيْكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ

شَعْنًا لَا تَبْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ
 جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ
 يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ
 تَعْمَلُونَ (١٤) إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا
 وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) خمس آيات بلاخلاف
 أمر الله نبيه ﷺ أن يخاطب المكلفين بأن يقول لهم « يتوفاكم ملك الموت »
 أي يقبض أرواحكم ، قال قتادة يتوفاكم ومعه أعوان من الملائكة ، والتوفي
 أخذ الشيء على تمام ، قال الراجز :
 ان بني أدرد ليسوا من أحد ولا توفاهم قريش في العدد (١)
 ومنه قوله « الله يتوفى الأنفس حين موتها » (٢) ويقال : استوفى الدين
 إذا قبضه على كماله ، فملك الموت يتوفى الانسان باخذ روحه على تمام فيخرج بها
 الى حيث امره الله تعالى . وقوله « يتوفاكم » يقتضي أن روح الانسان هي الانسان
 فالإضافة فيها وقعت كما وقعت في نفس الانسان ، والملك مشتق من الألوكه
 وهي الرسالة كما قال الهذلي .

الكني اليها وخير الرسو ل أعلمهم بنواحي الخبر (٣)
 وقوله « الذي وكل بكم » صفة للملك الذي يتوفى الأنفس ، وأن الله

(١) مر في ٣ / ٣٠٤ و ٤ / ١٦٩ (٢) سورة ٣٩ الزمر آية ٢٤

(٣) مر في ٨ / ١١

قد و كله بمعنى فوض اليه قبض الأرواح . والتوكيل تفويض الأمانة الى غيره للقيام به ، و كله توكيلاً ، وتوكل عليه توكلاً ، و و كله يو كله وكالة .

وقوله « ثم الى ربكم ترجعون » معناه إنكم الى جزاء الله من الثواب والعقاب تردون . وإنما جعل الرجوع الى الجزاء رجوعاً اليه تفخيماً للامر . وقيل : معناه تردون الى ان لا يملك لكم أحد ضراً ولا نفعاً إلا الله تعالى . وفيه تعظيم لهذه الحال . واقتضى الوعيد . ثم قال لنبيه ﷺ « ولو ترى » يا محمد « إذ المجرمون » فجواب (لو) محذوف وتقديره : ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم إذا بعثوا ، من الندم على تفريطهم في الايمان لرأيتم ما تعتبرون به . والخطاب للنبي ﷺ والمراد به الأمة « ناكسوا رؤسهم » من الغم . وقيل : من الحياء والحزي مما ارتكبوه من المعاصي « عند ربهم » يعني يوم القيامة الذي يتولى الله تعالى حساب خلقه . وفي الكلام حذف لان تقديره قائلين « ربنا أبصرنا وسمعنا » ومعناه أبصرنا الرشد وسمعنا الحق . وقيل : معناه أبصرنا صدق وعذك وسمعنا تصديق رسلك . وقيل معناه : إنا كنا بمنزلة العمي ، فقد أبصرنا ، وبمنزلة الصم ، فسمعنا « فارجعنا » أي ردنا الى دار التكليف « نعمل صالحاً » من الطاعات غير الذي كنا نعمل من المعاصي « إنا موقنون » اليوم لا نرتاب بشيء من الحق والرسالة .

ثم قال تعالى مخبراً عن نفسه « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » ومعناه الاخبار عن قدرته انه يقدر على إجلائهم الى الايمان بان يفعل أمراً من الامور يلجئهم الى الاقرار بتوحيد الله ، لكن ذلك يبطل الغرض بالتكليف ، لان المقصود استحقاق الثواب ، والالغاء لا يثبت معه استحقاق الثواب وقال الجبائي يجوز أن يكون المراد ولو شئنا لأجبنهم الى ما سألوا ولرددتهم الى دار التكليف

ليعملوا بالطاعات « ولكن حق القول مني » أن اجازيهم بالعقاب ، ولا أردم وقيل : ولو شئنا لهديناهم الى الجنة « ولكن حق القول مني » أي أخبرت وأوعدت أنني « لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » بكفرهم بالله وجحدهم وحدانيته وكفرانهم نعمه . ثم حكى تعالى ما يقال لمن تقدم ذكره الذين طلبوا الرجوع الى دار التكليف ، فانه يقال لهم يوم القيامة ، إذا حصلوا في العذاب « فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا » أي انما فعلتم فعل من نسي لقاء جزاء هذا اليوم ، فتركتم ما أمركم الله به وعصيتموه « انا نسيناكم » أي فعلنا معكم جزاء على ذلك فعل من نسيكم يعني من ثوابه ، وترككم من نعمه . والنسيان الترك . ومنه قوله « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي » (١) وقال النابغة :

سفود شرب نسوه عند مفتاد (٢)

أي تركوه فلم يستعملوه ، قال المبرد ، لانه لو كان المراد النسيان الذي هو ضد الذكر لجاز أن يكونوا استعملوه « وذوقوا عذاب الخلد » الذي لا فناء له جزاء « بما كنتم تعملون » من المعاصي .

ثم اخبر تعالى عن حال المؤمنين ووصفهم بأن المؤمن على الحقيقة الكامل الايمان بآيات الله وبحججه « هم الذين إذا ذكروا » بحجج الله وتليت عليهم آياته خروا سجداً شكراً على ما هداهم لمعرفته وأنعم عليهم من فنون نعمه ونزهوا الله تعالى عما لا يليق به من الصفات وعن الشرك به حامدين لربهم غير مستكبرين ولا مستنكفين من الطاعة .

(١) سورة ٢٠ طه آية ١١٥

(٢) من هذا البيت كاملاً في ٦ / ٨٧

قوله تعالى:

﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ
قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ
كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ
فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا
وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ (٢٠)

خمس آيات بلاخلاف.

قرأ « اخفي » باسكان الياء حمزة ويعقوب . الباقون - بفتح الياء - من
سكن الياء جعله فعلا مستقبلا وحجته قراءة عبد الله « ما تخفي لهم » ومن فتح
جعله فعلا ما ضيا على ما لم يسم فاعله ، فعلى قراءة حمزة (ما) نصب مفعول به ،
وعلى ما في القرآن إن موضع (ما) رفع بما لم يسم فاعله . والله فاعله و ﴿ قررة
أعين ﴾ شيء أعده الله لعباده لم يطلعهم عليه في دنياهم ، كما قال النبي ﷺ (هو
ملاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) وصف الله تعالى
المؤمنين الذين ذكرهم في الآية الأولى في هذه الآية بأن قال : وهم الذين
لا يستنكفون عن عبادته « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » أي يرتفعون عن

مواضعهم التي ينامون عليها فالتجافي تعاطي الارتفاع عن الشيء ، ومثله النبو يقال جفأ عنه يحفو جفأ إذا نبا عنه . وتجافى عنه يتجافى تجافياً ، واستجفأ استجفأ والمضجع موضع الاضطجاع ، والاضطجاع هو القاء النفس « يدعون ربهم » أي داعين ربهم الذي خلقهم وأوجدهم ﴿ خوفاً ﴾ من عذابه يسألونه المغفرة ﴿ وطمعاً ﴾ في ثوابه . وانتصب ﴿ خوفاً ، وطمعاً ﴾ على انه مفعول له أي للخوف وللطمع ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ في طاعة الله وسبيل ثوابه ، ووجه المدح بذلك أن هؤلاء المؤمنين يقطعهم اشتغالهم بالدعاء لله عن طيب المضطجع لما يأملون به من الخير والبركة من الله تعالى ، لأن آمالهم مصروفة إليه ، واتكلهم في أمورهم عليه ، وقال الشاعر في التجافي :

وصاحبي ذات هباب دمشق وابن ملاط متجاف ادفق (١)

أي متنج عن كركرتها ، وقال أنس وقتادة : انه مدح قومًا كانوا يتنفلون بين المغرب والعشاء . وقال الضحاك : انهم كانوا يذكرون الله بالدعاء والتعظيم وقال قتادة : ﴿ خوفاً ﴾ من عذاب الله ﴿ وطمعاً ﴾ في رحمة الله ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ في طاعة الله . وقال ابو جعفر ، وابو عبد الله عليه السلام الآية متناولة لمن يقوم الى صلاة الليل عن لذيذ مضجعه وقت السحر ، وبه قال معاذ والحسن ومجاهد ، وقال عبد الله بن رواحة في صفة النبي صلى الله عليه وآله :

يبست يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

ثم قال تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ تحتل (ما) في قوله ﴿ ما أخفي ﴾ أن تكون بمعنى الذي ويكون موضعها النصب ، ويحتل أن تكون بمعنى (أن) ويكون موضعها الرفع ، وتكون الجملة في موضع نصب ، والمعنى

ليس يعلم أحد كنهه ما أعد الله لهؤلاء المؤمنين الذين تقدم وصفهم من انواع اللذات والاشياء التي تقر أعينهم بها على كنه معرفتها . وقولهم قرت عيناه أي فرحها الله ، لأن المستبشر الضاحك يخرج من عينه ماء بارد من شؤونه . والباقي جزءاً يخرج من عينيه ماء سخن من الكبد ، ومنه قولهم : سخنت عينه - بكسر الحاء - (جزء بما كانوا يعملون) من الطاعات في دار التكليف ، وانما انفي العلم عنهم مع أن المؤمن يعلم أنه مستحق للثواب ، لأن العلم بالشيء يكون من وجهين : احدهما - ان يعلم الشيء على طريق الجملة ، وهو الذي يحصل للمؤمن في دار التكليف .

والآخر - ان يحصل على طريق التفصيل ، وذلك موقوف على مشاهدتهم للثواب الذي يرونه عند زوال التكليف وحضور الثواب .

ثم قال تعالى ﴿ أفمن كان مؤمناً ﴾ مصداقاً بالله عارفاً به وبأنبيائه عاملاً بما اوجبه الله عليه ونذبه اليه ﴿ كمن كان فاسقاً ﴾ خارجاً عن طاعة الله بارتكاب معاصيه على وجه الانكار لذلك ، فلذلك جاء به على لفظ الاستفهام ، ثم اخبر تعالى بأنهم ﴿ لا يستوون ﴾ قط ، لان منزلة المؤمن الثواب وانواع اللذات ، ومنزلة الفاسق العذاب وفنون العقاب . ثم فسر ذلك بما قال بعده فقال ﴿ اما الذين آمنوا ﴾ بالله وصدقوه وصدقوا أنبياءه ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ وهي الطاعات مع ذلك ﴿ فلهم جنات المأوى ﴾ فلأوى المقام اي لهم هذه البساتين التي وعدم الله بها يأوون اليها ﴿ نزلاً بما كانوا يعملون ﴾ أي في مواضع لهم ينزلون فيها مكافأة لهم على طاعاتهم التي عملوها . وقال الحسن : ﴿ نزلاً ﴾ أي عطاء نزله ﴿ وأما الذين فسقوا ﴾ بخروجهم عن طاعة الله الى معاصيه ﴿ فأوهم النار ﴾ يأوون اليها نعوذ بالله منها ﴿ كلما أرادوا ان يخرجوا منها ﴾ أي كلما كادوا وهموا

بالخروج منها لما يلحقهم من العذاب ﴿ اعبدوا فيها ﴾ أي رهبوا فيها وقال الحسن :
 كلما كادوا الخروج منها لأنها ترميهم بلهبها ضربوا بمقامع حتى يعودوا فيها ، وقيل :
 لهم مع ذلك على وجه التقريع والتبكيك ﴿ ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به
 تكذبون ﴾ أي العذاب الذي كنتم به تبحدون في دار الدنيا ولا تصدقون به .
 وقال ابن أبي ليلى : نزلت الآية في رجل من قريش وعلي عليه السلام وقال غيره :
 إن هذه الآيات نزلت في علي ابن أبي طالب عليه السلام والوليد بن عقبة بن أبي
 معيط ، فالمراد به علي عليه السلام والفاسق هو الوليد بن عقبة ، روي أنه لقيه
 يوماً فقال لعلي : أنا أبسط منك لساناً واحداً منك سنناً ، فقال علي : عليه السلام ليس
 كما قلت يا فاسق . فنزل قوله ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ﴾ فقال
 قتادة : والله ما استووا ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ولا عند الموت .

قوله تعالى :

﴿ وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ
 لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ
 عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
 فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ (٢٣)
 وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا
 يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا
 ﴾ ج ٨ م ٣٩ من التبيان ﴿

فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ خمس آيات بلا خلاف .

قرأ حمزة والكسائي ورويس ﴿لما صبروا﴾ بكسر اللام والتخفيف أى لصبرهم . الباقر بالتشديد وفتح اللام بمعنى حين صبروا .
اقسم الله تعالى في هذه الآية ، لان اللام في قوله ﴿ولنذيقنهم﴾ هي التي يتلقى بها القسم ، وكذلك النون الثقيلة ، بأنه يذيق هؤلاء الفساق الذين تقدم وصفهم العذاب الأدنى بعض ما يستحقونه . وقيل : العذاب الأدنى هو العذاب الأصغر وهو عذاب الدنيا بالقتل والسبي والقحط والفقر والمرض والسقم وما جرى هذا المجرى . وقيل : هو الحدود . وقيل : عذاب القبر . وعن جعفر بن محمد عن الصادق عليه السلام : ان العذاب الأدنى هو القحط ، والأكبر خروج المهدي بالسيف . والعذاب الاكبر عند المفسرين هو عذاب الآخرة بالنار التي يستفزع الانسان بالآلام وفي الأدنى معنى الأقرب . وقد يكون الأدنى من الاشياء في الحسن ، وهو أن يفعل على انه ليس فيه ظلم لاحد إذا فعل للشهوة ، والأدنى في القبح ما يفعل وفيه ظلم يسير اتباعاً للشهوة ، والاعلى في الحسن هو ما ليس فوقه ما هو اعلى منه يستحق به العبادة . والأدنى في العذاب اكبر في الآلام ، لان العذاب استمرار الألم ، وليس فوق عذاب الكفر عذاب ، لأن عذاب الفسق دونه . وقال ابن عباس : وابي بن كعب والحسن : العذاب الأدنى مصائب الدنيا . وقال ابن مسعود : هو القتل يوم بدر . والعذاب الاكبر عذاب الآخرة . وهو قول الحسن ومجاهد وابن زيد وابن مسعود .

وقوله ﴿لعلهم يرجعون﴾ إخبار منه تعالى أنه يفعل بهم ما ذكره من العذاب الأدنى ، ليرجعوا عن معاصي الله الى طاعته ويتوبوا منها . وهو قول

عبدالله وابي العالية وقتادة .

ثم قال الله تعالى على وجهه التقريع لهم والتبكيث « ومن أظلم » لنفسه بارتكاب المعاصي وإدخالها في استحقاق العقاب « ممن ذكر آيات ربه » أي ينبه على حججه تعالى التي توصله الى معرفته ومعرفة ثوابه ، « ثم أعرض عنها » جانباً ، ولم ينظر فيها . ثم قال « إنا من المجرمين » الذين يفعلون المعاصي بقطع الطاعات وتركها « منتقمون » بأن نعذبهم بعذاب النار .

ثم اخبر تعالى فقال « ولقد آتينا موسى الكتاب » يعني التوراة « فلا تكن في مرية من لقاءه » أي في شك من لقاءه يعني لقاء موسى ليلة الاسراء بك الى السماء - على ما ذكره ابن عباس - وقيل : فلا تكن في مرية من لقاء موسى في الآخرة ، وقال الزجاج : فلا تكن يا محمد في مرية من لقاء موسى الكتاب . والمرية الشك . وقال الحسن : فلا تكن في شك من لقاء الاذى ، كما لقي موسى كأنه قال : فلا تكن في شك من أن تلقى كما لقي موسى « وجعلناه هدى لبني اسرائيل » قال قتادة : وجعلنا موسى هادياً لبني اسرائيل ، وضع المصدر في موضع الحال . وقال الحسن : معناه جعلنا الكتاب هادياً لهم « وجعلناه منهم أئمة يهدون بأمرنا » قال قتادة : معناه جعلنا منهم رؤساء في الخير يقتدى بهم يهدون الى فعل الخير بأمر الله « لما صبروا » قيل : فيه حكاية الجزاء ، وتقديره قيل لهم : إن صبرتم جعلناكم أئمة ، فلما صبروا جعلوا أئمة - ذكره الزجاج - و « كانوا بآياتنا » أي بحججنا « يوقنون » أي لا يشكون فيه . واليقين وجدان النفس بالثقة على خلاف ما كانت عليه من الاضطراب والحيرة .

ثم قال لنبيه « إن ربك » يا محمد « هو » الذي « يفصل بينهم يوم القيامة » أي يحكم بينهم ، يعني بين المؤمن والكافر والفاسق « في ما كانوا فيه يختلفون »

في دار الدنيا من التصديق بالله وبرسوله والايمان بالبعث والنشور وغير ذلك.

قوله تعالى :

(أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ (٣٠)

خمس آيات بلاخلاف .

الفرء كلهم على الياء في قوله « أو لم يهد لهم » بمعنى أو لم يهد إهلاكنا لهم لمن مضى من القرون . وقرىء بالنون بمعنى الاخبار عن الله تعالى أنه الذي بين لهم هلاك الماضين وأرشدهم بذلك إلى الحق وأتباعه ، فاضافه إلى نفسه . يقول الله تعالى منبهاً لخلقته على وجه الاعتبار بحججه « أو لم يهد لهم » ومعناه أو لم يبصرهم ويرشدهم من غوايتهم ، يقال : هداه يهديه في الدين هدى ، وهدى إلى الطريق هداية ، واهتدى إذا قبل الهداية . والواجب من الهدى : هو ما يؤدي إلى ما ليس للعبد عنه غنى في دينه ، فاللطف على هذا هدي ، والنظر المؤدي إلى معرفة الله هدي . وفاعل « يهد » مضمرفيه ،

وتقديره أو لم يهد لهم إهلاكنا من أهلكناهم من القرون الماضية جزاء على كفرهم بالله وإرتكابهم لمعاصيه ، ولا يجوز أن يكون فاعل « يهد » « كم » في قوله « كم أهلكنا » لأن « كم » لا يعمل فيها ما قبلها إلا حروف الاضافة ، لأنها على تقدير الاستفهام الذي له صدر الكلام ، واجاز الفراء أن يكون فاعل « يهد » « كم » ولم يجزه البصريون .

وقوله « يمشون في مساكنهم » أي أهلكناهم بغتة وهم متشاغلين بنفوسهم ويمشون في منازلهم . ثم قال « إن في ذالك لآيات » أي لحججاً واضحات « أفلا يسمعون » ومعناه أفلا يتدبرون ما يسمعون من هذه الآيات ، لأن من لا يتدبر ما يسمعه ، ولا يفكر فيه . فكأنه لم يسمعه . ثم نبههم على وجه آخر فقال « أو لم يروا » ومعناه أو لم يعلموا « أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم » فالصوق الحث على السير ، ساقه يسوقه سوقاً ، فهو سائق ، يقول الله تعالى نسوق ماء المطر إلى هذه الأرض الجرز ، فنبت به ضرزاً من النبات الذي يتغذى به الاضمان والانعام وغيرهم والأرض الجرز هي الأرض اليابسة التي ليس فيها نبات ، انقطع ذاك لانقطاع الامطار ، وهو مشتق من قولهم : سيف جراز أي قطاع ، لا يلقى على شيء إلا قطعه وناقه جراز ، إذا كانت تأكل كل شيء لأنها لا تبقى شيئاً إلا قطعت به فيها وأرض جروز ، وهي التي لا تبقى على ظهرها شيئاً إلا أهلكته ، كالناق الجراز ورجل جروز أكل ، قال الرازي :

خب جروز إذا جاع — [يأكل التمر ولا يلقي النوى] (١)
وفيه أربع لغات أرض جرز - بضم الجيم والراء ، وبضم الجيم واسكان

الراء وبفتح الجيم والراء ، وبفتح الجيم واسكان الراء .
وقال ابن عباس ﴿ نسوق الماء ﴾ بالسيول ، لانها مواضع عالية ، قال وهي :
قرى بين اليمن والشام . ثم قال ﴿ أفـلا يبصرون ﴾ بأن يفكروا في ذلك
فيدلهم على انه لا يقدر على ذلك أحد غير الله الذي لا شريك له . ثم حكى
عنهم أنهم ﴿ يقولون متى هذا الفتح ان كنتم صادقين ﴾ مستعجلين لما وعد الله
تعالى من الفصل بينهم في قوله ﴿ ان ربك هو يفصل بينهم ﴾ يعنون متى يجي .
فتح الحكم بيننا وبينكم في الثواب والعقاب ، والفتح القضاء والحكم ، وقيل : انه
أراد به فتح مكة ، فعلى هذا قوله ﴿ يوم الفتح ﴾ يوم فتح مكة ﴿ لا ينفع الذين
كفروا إيمانهم ﴾ لا يليق به . وقيل : لا ينفع الذين قبلهم خلدـ من بني كنانةـ
إيمانهم . والتأويل هو الأول ، فقال الله تعالى لنبيه محمد ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ يوم
الفتح ﴾ أي يوم القضاء والفصل . وقال مجاهد : يوم القيامة ﴿ لا ينفع الذين
كفروا ﴾ بآيات الله ﴿ إيمانهم ﴾ لان التكليف قد زال عنهم ، ومعارفهم تحصل
ضرورة ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي ولا يؤخرون ايضاً ، فلا ينبغي أن يستعجلوا
مجيئه . ثم قال لنبيه ﷺ ﴿ فأعرض عنهم ﴾ يا محمد ، فانه لا ينفع فيهم
الدعاء والوعظ . وقيل : كان ذلك قبل أن يؤمر بالجهاد . وقيل : أعرض
عن أذاهم ﴿ وانتظر ﴾ حكم الله تعالى فيهم وإهـلاكهم ﴿ فانهم منتظرون ﴾
أيضاً الموت الذي يؤديهم الى ذلك . وقيل : انه سيأتيهم ذلك ، فكأنهم
كانوا ينتظرونه .

٣٣- سورة الاحزاب

مدنية في قول مجاهد والحسن وهي ثلاث وسبعون آية بلا خلاف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ أَتَى اللَّهُ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ
وَكِيلًا (٣) مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ
أَزْوَاجَكُمْ أَلَلًا يُتَظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ
أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي
السَّبِيلَ (٤) أَدْعُوهُمْ لَا بِأَنْفُسِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا
أَبَاءَهُمْ فَآخُوهُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ

فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾ خمس آيات ٠

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ، ونافع وأبو جعفر ﴿ اللاء ﴾ بهمزة ليس بعدها ياء ، إلا أن أبا عمرو لين الهمزة . وقرأ ابن عامر واهل الكوفة بهمزة بعدها ياء ، وقرأ ﴿ تظاهرون ﴾ بفتح التاء مشددة الظاء بغير ألف - ابن كثير ونافع وأبو عمرو - وقرأ عاصم إلا الكسائي عنه ﴿ تظاهرون ﴾ بضم التاء خفيفة الظاء والفاء بعدها . وقرأ ابن عامر بتشديد الظاء والألف وفتح التاء . فمن قرأ ﴿ تظاهرون ﴾ بتشديد الظاء اراد تتظاهرون ، فأدغم إحدى التاءين في الظاء . ومن قرأ بغير الف مشدداً اراد تتظاهرون ، وادغم إحدى التاءين في الظاء . وعاصم جعل الفعل بين اثنين . فقال ﴿ تظاهرون ﴾ بضم التاء وتخفيف الظاء مع الالف . وقرأ أبو عمرو ﴿ بما يعملون خبيراً ﴾ و ﴿ بما يعملون بصيراً ﴾ بالياء فيهما . الباقون بالتاء . وجه قراءة أبي عمرو قوله « ولا تطع الكافرين والمنافقين » بأن الله يعلم ما يفعلونه ، فيجازيهم بحسبه . ووجه التاء الخطاب لهم . هذا خطاب من الله تعالى للنبي ﷺ والمراد به جميع الأمة كما قال « يا أيها النبي إذا طلقتم » (١) فخصه بالخطاب ، وأراد به جميع المكلفين ، يأمرهم الله بتقواه ، وتجنب معاصيه ، وفعل طاعاته ، فنهاهم عن طاعة الكافرين الذين يجحدون نعم الله ويتخذون معه إلهاً سواه ، ومثل ذلك نهاء عن طاعة المنافقين ومتابعتهم لما يريدونه .

وسبب نزول الآية أن أبا سفيان وجماعة من الكفار قدموا على النبي ﷺ

المدينة ، ودعوه الى اشياء عرضوها عليه ، فأراد المسلمون قتلهم . فأنزل الله سبحانه « يا أيها النبي اتق الله » في نقض العهد ، وقتل هؤلاء الكفار « ولا تطع الكافرين » في ما يدعونك اليه . ولا « المنافقين » في قتلهم ونقض العهد . والمنافق هو الذي يظهر الايمان ويبطن الكفر ، والكافر هو الذي يظهر الكفر ويبطنه .

ثم قال « إن الله كان عليماً حكيماً » في ما يوحى اليك من أمرهم ويأمرك بالطاعة وترك المعصية في متابعتهم في ما يريدونه ولما نهاهم عن متابعة الكفار والمنافقين قال « واتبع ما يوحى اليك من ربك » أمره ان يتبع الذي يوحى الله اليه من أمره ونهيه ، فعلى موجب هذه الآية لا يجوز لأحد أن يطيع الكفار والمنافقين ، وإن دعوهم الى الحق ، ولكن يفعل الحق ، لأنه حق للأجل دعائهم اليه « إن الله كان بما تعملون خبيراً » تهديد لهم ، لأن المراد أنه لا يخفى عليه شيء من أعمالكم فيجازيكم بحسبها إن كان سوء أعاقبكم ، وإن كان طاعة أنا بكم عليها . ومن قرأ - بالياء - أراد الاخبار عن الكفار والخطاب متوجه الى النبي ﷺ . ومن قرأ - بالتاء - خاطباً للجميع . ثم أمر النبي ﷺ والمراد به جميع المكلفين فقال « وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً » أمرهم ان يتوكلوا على الله ويفوضوا أمورهم اليه ، فإن الله تعالى كاف في ما يوكل اليه . و (الوكيل) القائم بالتدبير غيره بدعاء من له ذلك اليه ، فالحكمة تدعو الى أن الله تعالى القائم بتدبير عباده ، فهو وكيل عليهم من أوكد الوجوه .

ثم قال تعالى « ما جعل الله لرجل من قبلين في جوفه » قال ابن عباس : كان المنافقون يقولون : لمحمد قلبان ، فأكذبهم الله . وقال مجاهد وقتادة ، وهو ﴿ ج ٨ م ٤٠ من التبيان ﴾

في رواية عن ابن عباس : أنه كان رجل من قریش يدعى ذا القليين من دهانه وهو أبو معمر جميل بن اسد ، فنزلت هذه الآية فيه . وقال الحسن : كان رجل يقول : لي نفس تأمرني ونفس تنهاني ، فأنزل الله فيه هذه الآية . وقال الزهري : هو مثل في ان هذا ممتنع كامتناع أن يكون ابن غيرك ابنك . وروي عن جعفر الصادق عليه السلام أنه قال : ما جعل الله لرجل من قبلين في جوفه يحب بهذا قوماً ويحب بهذا اعداءهم . ولا يمكن أن يكون لانسان واحداً قلبان في جوفه ، لأنه كان يمكن أن يوصل إنسانان فيجعلان إنساناً واحداً ، وقد يمكن أن يوصل بما لا يخرجهما عن أن يكونا انسانين ، وليس ذلك إلا من جهة القلب الواحد أو القليين ، لانه إذا جعل لهما قلبان يريد أحدهما بقلبه ما لا يريد الآخر ويستهي ما لا يشتهي الآخر ، ويعلم ما لا يعلم الآخر فهما حيان لا محالة ، وليساً حياً واحداً . وقال الرماني : لا يجوز أن توجد الارادة والمعرفة في جزئين من القلب أو أجزاء وانما يصح أن توجد في جزء واحد ، قال : لان ما يوجد في جزئين بمنزلة ما يوجد في قليين ، وقد بطل أن يكون لانسان واحد قلبان . وهذا الذي ذكره ليس بصحيح ، لأنه لا يمتنع أن يوجد معنيان مختلفان في جزئين من القلب ، لانهما وإن وجدا في جزئين فالحالان الصادران عنهما يرجعان الى الجملة وهي جملة واحدة وليساً يوجبان الصفة للمحل الواحد فيتنافى ، فعلى هذا لا يجوز أن يوجد في جزئين من القلب معنيان ضدان ، لاستحالة اجتماع معناه في الحي الواحد ، ويجوز أن يوجد معنيان مختلفان او مثلان في جزئين من القلب ويوجبان الصفتين للحي الواحد ، وعلى هذا القياس ليس يمتنع ان يوجد قلبان في جوف واحد إذا كان ما يوجد فيهما يرجع الى حي واحد ، وانما المتنافي أن يرجع ما يوجد منهما الى حيين ، وذلك محال .

وقوله « وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم » أي ليس نساؤكم وأزواجكم إذا قلتم لهن أنتن علي كظهر أمي يصرن أمهاتكم على الحقيقة لان أمهاتكم على الحقيقة هن اللائي ولدنكم وأرضعنكم . وقال قتادة : إذا قال لزوجته أنت علي كظهر أمي ، فهو مظاهر ، وعليه الكفارة . وعندنا إن الظاهر لا يقع إلا ان تكون المرأة طاهراً ، ولم يقربها في ذلك الطهر بجماع ، ويحضر شاهدان رجلان مسلمان ، ثم يقول لها أنت علي كظهر أمي ، ويقصد التحريم . فاذا قال ذلك حرم عليها وحرمت عليه أن يطأها حتى يكفر . وإن اختل شيء من شرائطه ، فلا يقع ظهار أصلاً .

وقوله « وما جعل أديعاهم أبناءكم » قال قتادة ومجاهد وابن زيد : نزلت في زيد بن حارثة ، فإنه كان يدعى ابن رسول الله ، والادعياء جمع دعي ، وهو الذي تبناه الانسان . وبين الله تعالى أن ذلك ليس بابن على الحقيقة ، ولذلك قال في آية أخرى « ما كان محمد أباً احد من رجالكم » (١) وقوله « ذلکم قولکم بأفوهکم » يعني أن قولكم في الدعي أنه ابن الرجل قول تقولونه بألسنتكم لاحقيقة له عند الله . ثم قال « والله يقول الحق » في ما بينه « وهو يهدي السبيل » يعني طريق الحق الذي يفضي بكم الى الثواب . ثم أمر المكلفين بأن يدعوا الادعياء « لا آبائهم » الذين ولدوهم وينسبونهم اليهم أو الى من ولدوا على فراشهم « اقسط » أي ، فان ذلك اعدل عند الله ، واقسط بمعنى أعدل « فان لم تعلموا آباءهم » ولا تعرفوهم باعيانهم فهم « اخوانكم في الدين » أي في الملة فادعوهم بذلك « ومواليكم » أي بنو عمكم أو لكم ولأهملهم إذا كنتم اعتمدتموهم من رقب . ثم قال « وليس عليكم جناح » أي حرج « في ما أخطأتم به » فنسبتموه

الى من انتمى اليه وإن الله لا يؤاخذكم به « ولكن ما تعمدت قلوبكم » فقصدتموه من ذلك وارادتموه هو الذي تؤاخذون به ، وموضع (ما) جر ، تقديره ولكن في ما تعمدت قلوبكم « وكان الله غفوراً رحيماً » يغفر لكم ما لم تنعمدوا من ذلك ، ويستره عليكم ويرحمكم بترك مؤاخذتكم به .

قوله تعالى :

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦) ، وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صَدَقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿ (١٠) خمس آيات ٥

قرأ بن كثير والكسائي وحفص عن عاصم « الظنونا » بألف في الوقف دون الوصل . وقرأ نافع وابو جعفر وابو بكر عن عاصم وابن عامر - بالالف - فيهما . وقرأ ابو عمرو ويعقوب وحمة . - بغير الف - فيهما وفي المصحف بألف . من أثبت الالف أثبتته لأجل الفواصل التي يطلب بها تشاكل المقاطع ، ولأن الالف ثابتة في المصاحف ، فاتبعوا المصحف ، ومن حذف قال : لأن هذا الالف يكون بدلا من التنوين في حال الوقف ، فاذا دخلت الالف واللام اسقطت التنوين ، فسقط ايضا ما هو بدل منه ، ولأن مثل ذلك إنما يجوز في القوافي وذلك لا يليق بالقرآن ، قال الشاعر :

أقلى اللوم عاذل وانعتابا [وقولي ان اصبحت لقد اصابا] (١)

اخبر الله تعالى ان « النبي » ﷺ « اولى بالمؤمنين من انفسهم » بمعنى احق بتدبيرهم ، وبأن يختاروا ما دعاهم اليه . واحق بأن يحكم فيهم بما لا يحكم به الواحد في نفسه لوجوب طاعته التي هي مقرونة بطاعة الله ، وهو اولى في ذلك واحق من نفس الانسان ، لأنها ربما دعت الى اتباع الهوى ، ولأن النبي ﷺ لا يدعو إلا الى طاعة الله ، وطاعة الله اولى ان تختار على طاعة غيره . وواحد الأنفس نفس ، وهي خاصة الحيوان الحساسة المدركة التي هي انفس ما فيه . ويحتمل ان يكون اشتقاقه من التنفس ، وهو التروح ، لان من شأنها التنفس به ، ويحتمل ان يكون مأخوذاً من النفاسة ، لأنها اجل ما فيه واكرمه . ثم قال « وأزواجه امهاتكم » والمعنى أنهن كلامهات في الحرمه ، وتحريم العقد عليهن . ثم قال « وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين » أولوا الارحام هم أولوا الأنساب . لما ذكر الله أن ازواج النبي أمهاتهم

في الحكم من جهة عظم الحرمة ، قال « وأولوا الارحام بعضهم اولى ببعض » أي إلا ما بين الله في كتابه مما لا يجوز لازواج النبي ﷺ أن يدعين أمهات المؤمنين . وقال قتادة : كان الناس يتوارثون بالهجرة ، فلا يرث الاعرابي المسلم المهاجر حتى نزلت الآية . وقيل : إنهم كانوا يتوارثون بالمؤاخاة الاولى . ثم نسخ ذلك ، فبين الله تعالى أن « اولى الارحام بعضهم اولى ببعض » أي من كان قريبا أقرب فهو أحق بالميراث من الأبعد ، وظاهر ذلك يمنع أن يرث مع البنت والام احد من الأخوة والاخوات ، لأن البنت والام اقرب من الأخوة والاخوات ، وكذلك يمنع أن يرث مع الاخت أحد من العمومة والعمات وأولادهم ، لأنها اقرب . والخبر المروي في هذا الباب أن (ما أبقت الفرائض فلاولي عصبه ذكر) خبر واحد مطعون على سنده ، لا يترك لأجله ظاهر القرآن الذي بين فيه ان اولى الارحام الأقرب منهم اولى من الأبعد « في كتاب الله من المؤمنين » الموأخين والمهاجرين .

وقوله « إلا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفاً » استثناء منقطع ، ومعناه لكن إن فعلتم الى أوليائكم معروفاً من المؤمنين وحلفائكم ما يعرف حسنه وصوابه فهو حسن ، ولا يكون على وجه نهى الله تعالى عنه ، ولا أذن فيه . وقال مجاهد معروفاً من الوصية لهم بشيء ، والعقل عنهم والنصرة لهم ، ولا يجوز أن يكونوا القرابة المشركين على ما قال بعضهم ، لقوله « لا تتخذوا عدوى وعدوكم اولياء » (١) وقد أجاز كثير من الفقهاء الوصية للقرابات الكفار . وعندنا ان ذلك جائز للوالدين والولد .

ويقوله « كان ذلك في الكتاب مسطوراً » يعني أن ما ذكره الله كان مكتوباً

في الكتاب المحفوظ اثبتته الله وأطلع عليه ملائكته لما لهم في ذلك من اللطف فلا يجوز خلاف ذلك، وقيل: مسطوراً في القرآن. و (من) يحتمل أمرين: احدهما - أن يكون دخلت (أولى) أي بعضكم أولى ببعض من المؤمنين والثاني - أن يكون التقدير، وأولوا الأرحام من المؤمنين والمهاجرين أولى بالميراث.

وقوله « وإذ اخذنا من النبيين » تقديره واذكر يا محمد حين اخذ الله من النبيين ميثاقهم ، قال ابن عباس : الميثاق العهد والميثاق الغليظ اليمين بالله تعالى على الوفاء بما حملوا . وقوله « ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم واخذنا منهم ميثاقاً غليظاً » يعني ما عهد الله تعالى الى الانبياء المذكورين وأمرهم به من اخلاص العبادة له ، وخلع الانداد من دونه، والعمل بما أوجبه عليهم ونذبههم اليه ، ونهاهم عن معاصيه ، والاخلال بواجباته . وقال البلخي : معناه ما أمرهم الله به من أداء الرسالة والقيام بها .

وقوله « ليسأل الصادقين عن صدقهم » قال مجاهد : معناه فعل ذلك ليسأل الأنبياء المرسلين ما الذي أجاب به أممكم ، ويجوز ان يحمل على عمومه في كل صادق ، ويكون فيه تهديد للكاذب ، فان الصادق إذا سئل عن صدقه على أي وجه قال فيجازي بحسبه ، فكيف يكون صورة الكاذب .

ثم قال « واعد للكافرين عذاباً اليماً » أي اعد لهم عذاباً مؤلماً ، وهو عذاب النار - نعوذ بالله منها .

ثم خاطب المؤمنين فقال « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود » أي في حال ما جاءكم جنود يعني يوم الاحزاب ، وهو يوم الخندق حيث اجتمعت العرب على قتال النبي ﷺ قريش وغطفان وبنو قريظة

وتضافروا على ذلك « فارسنا عليهم » اي فارس الله تعالى عليهم نصرة
لنبيه ونعمة على المؤمنين « ريحاً » استقبلتهم ورمت في اعينهم الحصباء واكفئت
قدورهم واطفئت نيرانهم، وقلعت بيوتهم واطنا بهم وارسل الله عليهم « جنوداً »
من الملائكة نصرة للمؤمنين ، روى ذلك يزيد بن رومان « لم تروها » اي لم
تروا الملائكة أنتم بأعينكم ، لانها اجسام شفافة لا يصح إدراكها « وكان الله بما
تعملون بصيراً » من قره بالياء اراد ان الله عالم بما يعمله الكفار . ومن قرأ
بالتاء وجه الخطاب الى المؤمنين .

ثم قال واذكر « إذ جاؤكم » يعني جنود المشركين ﴿ من فوقكم ﴾ وهم
عينه بن حصين بن بدر في اهل نجد ﴿ ومن اسفل منكم ﴾ وهم ابو سفيان في
قريش وواجهتهم قريظة ، وهو قول مجاهد : ﴿ وإذ زاغت الأبصار ﴾ أي اذكر
إذ عدلت الابصار عن مقرها . قال قتادة معناه : شجست من الخوف ﴿ وبلغت
القلوب الحناجر ﴾ أي نأت عن أماكنها من الخوف . وقيل : قال المسلمون :
يا رسول الله بلغت القلوب الحناجر فهل من شيء نقوله قال : نعم قولوا
(اللهم استر عورتنا وأمن روعتنا) فضرب الله وجوه أعدائه بريج الصبا ، فهزمهم
الله بها ، والحناجر جمع حنجرة ، وهي الحلق ، قيل : لأن الرثة عند الخوف
تصعد حتى تلحق بالحلق ﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾ قال الحسن : كانت الظنون
مختلفة ، فظن المنافقون انه يستأصل ، وظن المؤمنون انه سينصر . وقيل : كانت
الريح شديدة البرد تمنع المشركين من الحرب وكانت الملائكة تفتقد بعضهم
عن بعض .

قوله تعالى:

﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْإِفْرَارَ (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَا تَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلِّثُونَ الْإِدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ

مَسْئُولًا ﴿ (١٥) خمس آيات •

قرأ حفص بن عاصم ﴿ لا مقام ﴾ بضم الميم أي لا إقامة لكم . الباقر - بفتح الميم - يعني لا موضع لكم تقومون فيه . وقرأ ابن كثير ونافع و أبو جعفر وابن عامر ﴿ لا توها ﴾ قصرًا بمعنى لجأوها . الباقر بالمد ، يعني لا أعطوها . وقالوا : هو أليق بقوله « ثم سئلوا الفتنة » لأن إعطاء يطابق سؤال السائل . لما وصف الله تعالى شدة الأمر يوم الخندق ، وخوف الناس وأن القلوب بلغت الحناجر من الرعب . قال ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي اختبروا ليظهر بذلك حسن نياتهم وصبرهم على ما أمرهم الله به من جهاد أعدائه و (هنا) للقريب . ﴿ ج ٨ م ٤١ من التبيان ﴾

من المكان و (هنالك) للبعيد منه ، و (هناك) المتوسط بين القريب والبعيد وسيله سبيل (ذا ، وذاك وذاك) .

والابتلاء إظهار ما في النفس من خير او شر ، ومثله الاختبار والامتحان والبلاء النعمة ، لاظهار الخير على صاحبه ، والبلاء النعمة لاظهار الشر عليه .

وقوله ﴿ وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾ معناه وحركوا بهذا الامتحان تحريكاً عظيماً ، فالزلزال الاضطراب العظيم ومنه قوله « إذا زلزلت الأرض زلزالها » والزلزلة اضطراب الأرض ، وقيل : انه مضاعف زل ، وزلزه غيره . والشدة قوة تدرك بالحاسة ، لأن القوة التي هي القدرة لا تدرك بالحاسة ، وانما تعلم بالدلالة ، فلذلك يوصف تعالى بأنه قوي ، ولا يوصف بأنه شديد .

ثم قال واذكري يا محمد ﴿ إذ يقول المنافقون ﴾ الذين باطنهم الكفر وظاهرهم الايمان ﴿ والذين في قلوبهم مرض ﴾ أي شك من الايمان بالله ورسوله ﴿ ما وعدنا الله ورسوله ﴾ اي لم يعدنا الله ورسوله من الظفر والظهور على الدين ﴿ إلا غروراً ﴾ وقيل : ان النبي ﷺ بشرهم بأنه يفتح عليهم مدائن كسرى وبلاد قيصر وغير ذلك من الفتوح ، فقالوا : يعدنا بهذا ، والواحد منا لا يقدر على ان يخرج ليقضي حاجة ﴿ ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾ غرانا به ، فالغرور ايهام المحبوب بالمر ، يقال : غره يغره غروراً ، فهو غار ، والغرور الشيطان قال الحارث بن حلزة :

لم يغروكم غروراً ولكن يرفع الآل جمعهم والضحاء

وقال يزيد بن رومان : الذي قال هذا القول معتب بن قشيرة . وقال العتابي : ليس عاقل يقول : إن الله وعده غروراً ، لكنهم لما كذبوا رسوله وشكوا في خبره ، فكانهم كذبوا الله ، وإذا نسبوا الرسول بأنه غرهم ، فقد نسبوا الله الى

ذلك في المعنى ، وإن لم يصرحوا به .

ثم قال واذكر يا محمد ﴿ اذ قالت طائفة منهم ﴾ يعني من المنافقين ﴿ يا اهل يثرب ﴾ أي يا اهل المدينة . قيل : ان يثرب اسم ارض المدينة . وقال ابو عبيدة : ان مدينة الرسول في ناحية من يثرب . وقيل : يثرب هي المدينة نفسها ﴿ لا مقام لكم ﴾ أي ليس لكم مكان تقومون فيه للقتال . ومن ضم أراد : لا إقامسة لكم - ذكره الاخفش - وقال يزيد بن رومان : القائل لذلك أوس بن قبيط . ومن وافقه على رأيه ﴿ فارجعوا ﴾ أي امرهم بالرجوع الى منازلهم . وحكي ان جماعة منهم جاؤا الى النبي ﷺ فاستأذنوه للرجوع . وقالوا ﴿ إن بيوتنا عورة ﴾ أي هي مكشوفة نخشى عليها السرقة - ذكره ابن عباس ومجاهد - فكذبهم الله تعالى في قوله ﴿ وما هي بعورة ٠٠٠ ﴾ وليس يريدون بهذا القول إلا الفرار ، والهرب من القتال .

ثم قال ﴿ ولو دخلت عليهم من اقطارها ﴾ أي من نواحيها يعني المدينة او البيوت ، فهو جمع قطر ، وهو الناحية ﴿ ثم سئلوا الفتنة ﴾ يعني الكفر والضلال وقيل : انهم لو دعوا إلى القتال على وجه الحمية والعصبية لجأوا إليها - على قراءة من قصر - ومن مد اراد لأعطوا ما سئلوا إعطاءه من ذلك ﴿ وما تلبثوا بها إلا يسيراً ﴾ قال الفراء : وما تلبثوا بالمدينة إلا قليلاً حتى يهلكوا . وقال قتادة : معناه ، وما احتبسوا عن الاجابة الى الكفر إلا قليلاً .

ثم قال ﴿ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل ﴾ يعني عندما بايعوا النبي ﷺ وحلفوا له انهم ينصرونه ويدفعون عنه ، كما يدفعون عن نفوسهم ، وانهم ﴿ لا يولون الادبار ﴾ أي لا يفرون من الزحف ﴿ وكان عهد الله مستولاً ﴾ يعني العهد الذي عاهدوا الله عليه ، وحلفوا له به يسألهم عن الوفاء به يوم القيامة .

قوله تعالى :

﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنْ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلْهُمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشْجَةٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠)

• خمس آيات

لما أخبر الله تعالى عن المنافقين الذين استأذنوا النبي ﷺ في الرجوع واعتلوا بأن بموتهم يخاف عليها ، وكذبهم الله في ذلك ، وبين أنهم يريدون

الهرب ، قال لنبيه ﷺ ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ ان ينفعكم الفرار إن فررتم ﴾ يعني الهرب إن هربتم ﴿ من الموت أو القتل ﴾ فإنه لا بد من واحد منهما ، وإن هربتم وبقيتم بعده فلا تبقون ﴿ ولا تتمتعون إلا قليلا ﴾ من الزمان . ثم لا بد من الموت . والفرار الذهاب عن الشيء خوفاً منه ، ومثله الهرب ، فرّ يفر فراراً وأفتر إذا باعد بين شفتيه كتباعد الفارّ ، وإنما فرق الله بين الموت والقتل لأن القتل غير الموت ، فالقتل نقض بينة الحي ، والموت ضد الحياة عند من أثبتهم معنى . والقول بقدر عليه غير الله ، وإنما رفع بعد (اذن) لوقوع (اذن) بين الواو والفعل ، فصارت بمنزلة ما لم يقع بعده الفعل ، كقولك أنا آتيك اذن لأنه مما يجوز فيه الالغاء بأنه يصح الاستدراك ، كالأستدراك بالظن ، وقد اعلمت بعد (ان) في قوله :

لا تتركني فيهم شطيراً إني اذن أهلك أو اطيروا (١)

ثم قال لنبيه ﷺ قل لهم يا محمد من الذي يمنعكم من الله ان اراد أن يفعل بكم سوءاً يعني عذاباً أو اراد بكم رحمة ، فإن احداً لا يقدر على منعه مما يريد الله فعله به ﴿ ولا يجدون ﴾ هؤلاء ﴿ لهم من دون الله ولياً ﴾ ينصرهم ﴿ ولا نصيراً ﴾ يدفع عنهم ، ثم قال تعالى ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم ﴾ يعني الذين يعوقون غيرهم عن القتال ويثبطونهم عنه ، فالتعويق التثبيط والشغل للعود عن أمر من الأمور ، فكأن هؤلاء يدعون اخوانهم من المنافقين الى القعود عن الجهاد ويشغلونهم لينصرفوا عنه ﴿ والقائلين لاخوانهم هلموا إلينا ﴾ أي يعلم القائلين لهم تعالوا ﴿ ولا يأتون البأس ﴾ يعني الحرب ﴿ إلا قليلا ﴾ أي ان يكلفوا الحضور الى القتال فلا يحضرون إلا قدر ما يوهمون أنهم معكم ، ولا يقاتلون

معكم ، فهو تعالى عالم بأحوال هؤلاء ، لا يخفى عليه شيء منها .
ثم قال ﴿ اشحة عليكم ﴾ بالغنيمة والنفقة في سبيل الله - في قول قتادة :
ومجاهد - ونصبه على تقدير يأتونه أشحة وإن شئت على الدم . وقال ابن اسحاق
﴿ اشحة عليكم ﴾ بالضغن الذي في أنفسهم ، فهو نصب على الحال - في قول
الزجاج - وفي قول غيره على المصدر ، وتقديره يشحون عليكم اشحة ﴿ فاذا جاء
الخوف ﴾ يعني الفرع ﴿ رأيتم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذي يغشى
عليه من الموت ﴾ يعني من شدة ما يخافون يلحقهم مثل ما يلحق من شارف الموت
وأحواله ، ويغشى عليه ﴿ فاذا ذهب الخوف ﴾ والفرع ﴿ سلقوكم بالسنة حداد ﴾
أي خصموكم طلباً للغنيمة أشد مخاصمة . وقال الحسن : سلقوكم حاوروكم
يقال : خطيب مصقع ومسلق أي بليغ في الخطابة فصيح فيها ﴿ أشحة على الخير ﴾
يعني الغنيمة . ثم قال ﴿ أولئك ﴾ يعني من تقدم وصفه ﴿ لم يؤمنوا فأحبط
الله أعمالهم ﴾ يعني نفى أعمالهم على وجوه لا يستحق عليها الثواب ، لانهم
لا يقصدون بها وجه الله . ثم قال ﴿ وكان ذلك ﴾ يعني احباط أعمالهم . وقيل :
وكان نفاقهم ﴿ على الله يسيراً ﴾ قليلاً . ثم وصف هؤلاء المنافقين الذين تقدم
ذكرهم بالجن ، فقال ﴿ يحسبون الأحزاب ﴾ الذين انهزموا ورجعوا من شدة
فزعهم انهم ﴿ لم يذهبوا ﴾ بعد . وقيل : لفرط جهلهم يعتقدون انهم لم يذهبوا
بعد ﴿ وإن يأت الأحزاب يودوا لو انهم بادون في الاعراب ﴾ أي وإن جاؤا
الأحزاب تمنوا أن يكونوا في البوادي مع الاعراب ﴿ يسألون عن انبائكم ﴾ أي
أخباركم ولا يكونون معكم فيتربصون بكم الدوائر ويتوقعون الهلاك . ثم قال
لنبيه ﴿ ولو كانوا ﴾ يعني هؤلاء المنافقون معكم ﴿ وفيكم ما قاتلوا إلاً قليلاً ﴾ أي
قدراً يسيراً ليوهموا أنهم في جملتكم ، لا لينصروكم ويجهدوا معكم . وقال

عاصم الجحدري : يساءلون عن انبائكم بتشديد السين بمعنى يتساءلون ، فيضأل بعضهم بعضاً ، وهو شاذ لا يقرأ به . وقرأ طلحة بن مصرف « يودوا لو انهم بدى في الاعراب » جمع باد ، مثل غاز وغزى ، وهي أيضاً شاذة لا يقرء بها .
 و (هلم) بمعنى أقبل واهل الحجاز يقولون للواحد والاثنين والجمع والاثني (هلم) بلفظ واحد ، وانما هي (لم) ضمت اليها (ها) التي للتنبيه ، ثم حذفت الألف من (ها) إذ صاراً شيئاً واحداً ، كقولهم (ويلمه) واصله (ويل أمه) فلما جعلوها شيئاً واحداً حذفوا ، وغيروا . وأما بنوا تميم فيصرفونه تصرف الفعل ، فيقولون : هلم يا رجل وهلم يا رجلان ، وهلموا يا رجال وهلمي يا امرأة وهلمي يا امرأتان ، وهلمن يا نساء ، إلا انهم يفتحون آخر الواحد البتة ، فيقولون : هلم يا رجل وهلم يا امرأة .

قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤)

وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ خمس آيات .

قرأ عاصم «أسوة» - بضم الهمزة - الباقون بكسر ها ، وهما لغتان . والكسر
أكثر . ومثله (كسوة ، وكسوة ، ورشوة ورشوة) .

هذا خطاب من الله تعالى المكلفين ، يقول لهم : ان لكم معاشر المكلفين
« في رسول الله أسوة حسنة » أي اقتداء حسن ، في جميع ما يقوله ويفعله متى
فعلتم مثله كان ذلك حسناً ، والمراد بذلك الحث على الجهاد والصبر عليه في
حروبه ، والتسليية لهم في ما ينالهم من المصائب ، فان النبي ﷺ شج رأسه
وكسرت رباعيته في يوم احد وقتل عمه حمزة . فالتأسي به في الصبر على جميع ذلك
من الاسوة الحسنة . وذلك يدل على ان الاقتداء بجميع افعال النبي ﷺ حسن
جائز إلا ما قام الدليل على خلافه ، ولا يدل على وجوب الاقتداء به في افعاله .
وإنما يعلم ذلك بدليل آخر . فالأسوة حال لصاحبها يقتدي بها غيره في ما يقول
به ، فالأسوة تكون في إنسان وهي أسوة لغيره ، فمن تأسى بالحسن ففعله حسن
« لمن كان يرجو الله » فالرجاء توقع الخير ، فرجاء الله توقع الخير من قبله ومثل
الرجاء الطمع والامل ، ومنى طمع الانسان في الخير من قبل الله ، فيكون
راجياً له .

وقوله « وذكر الله كثيراً » معناه يذكره تعالى بجميع صفاته ، ويدعوه بها
فيستحق بذلك الثواب من جهته .

ثم قال وقد عاد تعالى الى ذكر المؤمنين وانهم حين عاينوا الأحزاب التي
اجتمعت على قتل النبي ﷺ وتظاهروا عليه ، وهم ابو سفيان ومن معه من

المشركين « قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله » من الجهاد في سبيله « وصدق الله ورسوله » في ما أخبرا به ، لأن النبي ﷺ كان أخبرهم أنه يتظاهر عليكم الأحزاب ، ويقاتلونكم فلما رآهم المؤمنون تبيينوا صدق قوله وكان ذلك معجزاً له « وما زادهم » مشاهدة عدوهم « إلا إيماناً » وتصديقاً بالله ورسوله « وتسليماً » لأمره . ثم بين أن « من المؤمنين رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه » من مجاهدة عدوهم ، وألا يولوا الأدبار . وقيل : ذلك يوم تأخروا عن بدر ، ثم عاهدوا ألا يفارقوا النبي ﷺ في غزواته . وقوله « فمنهم من قضى نحبه » أي منهم من صبر حتى قتل في سبيل الله ، وخرج إلى ثواب ربه « ومنهم من ينتظر » ذلك « وما بدلوا تبديلاً » أي لم يبدلوا الإيمان بالإنفاق ولا العهد بالحنث . وروي أن الآية نزلت في حمزة بن عبد المطلب ، وجعفر بن أبي طالب ، وعلي بن أبي طالب ﷺ فالذي قضى نحبه حمزة ، وجعفر والذي ينتظر علي ﷺ ثم بين تعالى أنه يجزي الصادقين على صدقهم في تنزيله فوعدهم بالثواب الدائم والنعيم المقيم . وقوله « ويعذب المنافقين إن شاء » لا يدل على أن ما يجب غفرانه من الكبائر عند التوبة يجوز تعليقه بالمشيئة ، لأن على مذهبنا إنما جاز ذلك ، لأنه لا يجب إسقاط العقاب بالتوبة عقلاً ، وإنما جاز ذلك وعلمناه بالسمع وإن الله يفضل بذلك . وقوله « أو يتوب عليهم » معناه إن شاء قبل توبتهم وأسقط عقابهم إذا تابوا ، وإن شاء لم يقبل ذلك . وذلك أخبار عن مقتضى العقل . وأما مع ورود السمع وهو قوله « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات » (١) فنقطع على أنه تعالى يغفر مع حصول التوبة .

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ٢٥

﴿ ج ٨ م ٤٢ من التبيان ﴾

وقوله « إن الله كان غفورا رحيما » يؤكد ذلك لأنه إنما يكون فيه مدح إذا غفر ماله المؤاخنة به ، ويرحم من يستحق العقاب . وأما من يجب غفران ذنبه ويوجب رحمته ، فلا مدح في ذلك . وقال قوم : معناه « ويعذب المنافقين إن شاء » بهذاب عاجل في الدنيا أو يتوبوا ، قالوا : وإنما علق بالشرط في قوله « إن شاء أو يتوب عليهم » لأنه علم أن من المنافقين من يتوب ، فقيد الكلام ليصح المعنى - ذكره الجبائي - وقيل : إن الذي وعد الله المؤمنين في الأحزاب هو أنه وعدهم إذا لقوا المشركين ظفروا بهم واستعلوا عليهم في نحو قوله « اظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (١) مع فرض الجهاد . وقيل : إن الذي وعدهم الله به في قوله « أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا أن نصر الله قريب » (٢) - ذكره قتادة - و (النحب) النذراي قضى نذره الذي كان نذره في ما عاهد الله عليه . وقال مجاهد : قضى نجه أي عهده . وقيل : أن المؤمنين كانوا نذروا إذا لقوا حزبا مع رسول الله أن يثبتوا ولا ينهزموا ، وقال الحسن : قضى نجه أي مات على ما عاهد عليه ، والنحب الموت كقول ذي الرمة :

قضى نجه في ملتقى الخيل هوبر (٣)

أي منيته . وهو بر اسم رجل والنحب الخطر العظيم قال جرير :

بطخفة جالدا الملوك وخيلنا عشية بصطام جرين على نحب (٤)

(١) سورة ٩ التوبة آية ٣٤ وسورة ٦١ الصف آية ٩

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٢١٤ (٣) مجاز القرآن ٢ / ١٣٦٠ الشاهد (٧١٨)

(٤) ديوانه ٥٤ ومجاز القرآن ٢ / ١٣٥

أي على خطر وإنحجب المد في السير يوماً وليلة ، قال الفرزدق .
 وإذ نجت كلب على الناس أنهم أحق نتاج الماجد المتكرم (١)
 ثم اخبر تعالى أنه ردّ المشركين من الأحزاب عن قتال النبي ﷺ بغیظهم
 الذي جاؤا به وخيبهم لم ينالوا خيراً أملوه من الظفر بالنبي ﷺ وبالمؤمنين
 « وكفى الله المؤمنين القتال » عند رجوعهم ، وقيل وكفى الله المؤمنين القتال
 بالريح والملائكة . وقيل : وكفى الله المؤمنين القتال بعلي عليه السلام وهي قراءة ابن
 مسعود ، وكذلك هو في مصحفه ، في قتله عمرو بن عبد ود ، وكان ذلك سبب
 هزيمة القوم . « وكان الله قوياً عزيزاً » أي قادراً لا يغالب ، وعزيراً لا يقهر ،
 لانه قوي في سعة مقدوره ، عزيز في انتقامه .

قوله تعالى :

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ
 فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ
 أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ
 الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨)
 وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ

لِّلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ
مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ
عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ خمس آيات .

قرأ ابن كثير ، وابن عامر « نضعف » بالنون وتشديد العين « العذاب »
نصباً ، أسند الفعل الى الله تعالى . وقرأ ابو عمرو « يضعف » بالياء وتشديد العين
بلا ألف على ما لم يسم فاعله . الباقيون ﴿ يضاعف ﴾ بالياء والألف .
والذي عليه أكثر المفسرين إن المعنى بقوله « وانزل الذين ظاهروهم من
اهل الكتاب » هم بنو قريظة من اليهود ، وكانوا نقضوا العهد بينهم وبين
النبي ﷺ وعاونوا أبا سفيان ، فلما هزم الأحزاب أمر النبي ﷺ مناديه بأن
ينادي لا يصلين أحد العصر إلا ببني قريظة ، لأن جبرائيل عليه السلام نزل عليه .
وقال إن الملائكة لم تضع أسلحتها بعد ، ففيهم من لحق ذلك بعد وصلى العصر
في الوقت ، وفيهم من صلاها قبل ذلك . وكل صوبه رسول الله . ثم حكم سعد
ابن معاذ فيهم رضوا بحكمه ، فحكم سعد أن تقتل الرجال ، وتسبي الذراري والنساء
وتقسم الأموال وتكون الارض للمهاجرين دون الأنصار ، فقبل له في ذلك
فقال لكم دار ، وليس للمهاجرين دار ، فقال رسول الله ﷺ حكم فيهم بحكم
الله تعالى . وفي بعض الأخبار لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة ، وهو
جمع رقيق اسم من اسماء السماء الدنيا . وقال الحسن : الآية نزلت في بني النضير
والاول أصح وأليق بسياق الآيات ، لان بني النضير لم يكن لهم في قتال
الأحزاب شيء ، وكانوا قد انجلوا قبل ذلك .

والمظاهرة المعاونة ، وهي زيادة القوة بأن يكون المعاون ظهراً لصاحبه في الدفع عنه ، والظهر المعين . وفي قراءة ابن مسعود آزرهم ، ومعناه عاونوهم .
والصيافي الحصون التي يمتنع بها واحداً صيصية . ويقال جذ الله صيصية فلان أي حصنه الذي يمتنع به . والصيصية قرن البقرة وشوكة الديك أيضاً ، وهي شوكة الحائك أيضاً ، قال الشاعر :

[ماراعني إلا الرماح تنوشه] كوقع الصياصي في النسيج الممدد (١)

وقوله « وقذف في قلوبهم الرعب » أي ألقى في قلوبهم يعني اليهود والمشركون خوفاً من النبي ﷺ « فريقاً تقتلون » منهم يعني الرجال « وتأسرون فريقاً » يعني النساء والذراري ثم قال « وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم » يعني ديار بني قريظة وأرضهم وأموالهم . جعلها الله للمسلمين مع ذلك ونقلها اليهم « وأرضاً لم تطؤها » معناه وأورثكم أرضاً لم تطؤها ، قال الحسن : هي أرض فارس والروم . وقال قتادة : هي مكة . وقال يزيد بن رومان وابن زيد : هي خير « وكان الله على كل قدير » أي قادراً على توريثكم أرض هؤلاء وأموالهم ونصركم وغير ذلك . الى ههنا انتهت قصة الأحزاب . ثم انتقل الى خطاب النبي ﷺ فقال له « يا ايها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعنن وأسرحن سراحاً جميلاً » قال الحسن لم يكن ذلك تخيير طلاق ، انما هو تخيير بين الدنيا والآخرة . وكان انزول الآية سبب معروف من بعض أزواج النبي ﷺ فعاتبهن الله تعالى وخبرهن بين المقام مع النبي ﷺ واختيار ما عند الله من الثواب ونعيم الأبد

(١) تفسير القرطبي ١٤ / ١٦٦ وحجاز القرآن ٢ / ١٦١ ويروى (خفيت

ومن مفارقتة بالطلاق وتعجيل المنافع يأخذونها ، وبين ذلك بقوله « وإن كنتم تردن الله ورسوله والدار والآخرة ، فإن الله اعد للمحسنات منكم أجراً عظيماً » . وقيل ذلك بالمحسنات لعله أن فيهن من ربما ارتكبت ما يستحق به الخروج عن ولاية الله تعويلاً على ما وعد الله تعالى به من النعيم ، فزجرهن بالتهديد المذكور في الآية .

وروي أن سبب نزول هذه الآية أن كل واحدة من نسائه طلبت شيئاً فسألت أم سلمة سترأ معلقة وسألت ميمونة حلة وسألت زينب بنت جحش برداً يملأها وسألت أم حبيبة ثوباً سحوائياً وسألت حفصة ثوباً من ثياب مصر وسألت حويرية معجراً وسألت سودة قطيفة خيرية ، فلم يقدر على ذلك ، لان الله تعالى كان خيره بين ملك الدنيا ونعيم الآخرة فاختر الآخرة . وقال : (اللهم أخيني مسكيناً وامتنى مسكيناً واحشني مسكيناً في جملة المساكين) فحينئذ أمره الله تعالى بتخير النساء ، فاخترن الله ورسوله فعوضهن الله عن ذلك أن جعلهن أمهات المؤمنين . وقيل : وأمر الله أن لا يطلقهن ولا يتزوج عليهن بقوله « لا يحل لك النساء من بعد » (١) ذكره ابن زيد .

ثم خاطب نساء النبي ﷺ فقال « يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة يضاعف لها العذاب » من شدد أراد التكثير ، ومن أثبت الألف أراد من المضاعفة ، ومن قرأ بالنون أضاف الفعل الى الله ، لأن الفاعل لذلك هو الله وإنما جاز ان يضعف عقابهن بالمعصية لعظم قدرهن ، وأن معصيتهن تقع على وجه يستحق بها ضعف ما يستحق غيرهن ، كما أن طاعاتهن يستحق بها ضعف

ما يستحق به غيرهن ، من حيث كن قدوة في الاعمال وأسوة في ذلك .
ثم اخبر تعالى أن تضعيف ذلك عليه يسير سهل . والضعف مثل الشيء الذي يضم اليه ، ضاعفته ازدادت عليه مثله ، ومنه الضعف ، وهو نقصان القوة بأن يذهب احد ضعفيها ، فهو ذهاب ضعف القوة . قال أبو عبيدة : يضاعف لهاضعفين أي يجعل لها العذاب ثلاثة أعذبة لان ضعف الشيء مثله ، وضعفي الشيء مثلاه ومجاز يضاعف أن يجعل الى الشيء شيئين حتى يكون ثلاثة ، فأما من قرأ ﴿ يضعف ﴾ أراد أن يجعل الشيء شيئين ، وذكر بعضهم أن ذلك غلط على أبي عمرو في تشديد يضعف ، لأن ذلك نقل عنه على حكاية الفرق بين يضعف ويضعف بالتشديد ، وليس بينهما فرق ، لان المضاعفة والتضعيف شيء واحد وإنما قرأ أبو عمرو ﴿ يضعف ﴾ بضم اياء وتسكين الضاد وتخفيف العين وفتحها والفرق يقع بين هذين بين يضاعف لانك تقول لمن اعطاك درهما فأعطيته مكانه درهمين : أضعفت لك العطية ، فان أعطيته مكان درهم خمسة او ستة قلت ضاعفت له العطية وضعفت بالتشديد أيضاً ، فلما رأى أبو عمرو أن من احسن من أزواج النبي أعطي اجرين علم أن من اذنب منهن عوقب عقوبتين ، فقرأ يضعف لها للعذاب ضعفين .

وكان الحسن لا يرى التخيير شيئاً . وقال : إنما خيرن بين الدنيا والآخرة لا في الطلاق ، وكذلك عندنا ان الخيار ليس بشيء غير أن اصحابنا قالوا إنما كان ذلك لنبي الله خاتمة ، ولما خيرهن لمواخيرهن لمواخيرهن لبن ، فاما خبره فلا يجوز له ذلك . وقال قتادة : خيرهن الله تعالى بين الدنيا والآخرة في شيء ، كن أردن من الدنيا . وقال عكرمة : في غيرة كانت غارتها عائشة ، وكان تحت يومئذ تسع نسوة خمس من قریش : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان

وأم سلمة بن أبي أمية ، وسودة بنت زمعة. وكان تحتها صفية بنت حي ابن خطب
وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الاسدية ، وحويرية بنت
الحارث من بني المصطلق ، فلما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، فرح بذلك
رسول الله ﷺ ،

قوله تعالى:

﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا
مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ
مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقِيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ
مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقرن في بيوتكن ولا تبرجن
تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلوة وأتين الزكاة وأطعن الله
ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت
ويطهركم تطهيرا (٣٣) وأذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات
الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا (٣٤) إِنَّ الْمُسْلِمِينَ
وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ
وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ
وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ

وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ
أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ خمس آيات .

قرأ حمزة والكسائي « ومن يقنت منكن لله ورسوله ويعمل صالحاً » . بالياء .
فيهما على اللفظ ، لأن لفظة (من) مذكور . الباقيون « ومن يقنت » - بالياء - حملا
على اللفظ « وتعمل » . بالتاء حملا على المعنى ، لأن المعنى من النساء ، فكفى بلفظ
التأنيث ، ولأنه قد ظهر علامة التأنيث في قوله « منكن » فكأن الرد عليه أولى
من رده على اللفظ . وروي في الشواذ « ومن تقنت » . بالتاء حملا على المعنى
وذلك جائز في العربية غير أنه ليس بمعروف ، ولا يقرأ به . وقرأ عاصم ونافع
« وقرن » بفتح القاف بمعنى أقرن « في بيوتكن » من قررت في المكان أقر
قراراً إلا أنه نقل حركة العين إلى القاف ، فانفتحت وسقطت الراء الأولى
لالتقاء الساكنين كقولهم : في ظلت ظلت . وفي أحسست احست ، وقالوا
في يحططن من الجبل يحطن . وقال الزجاج : فيه لغتان (قررت في المكان
واقرت) . الباقيون بكسر القاف بمعنى كن أهل قر ، أي هدوه وسكنة
من قر فلان في منزله يقر وقورا إذا هدأ فيه واطمأن . ويجوز أن يكون المراد
الاستقرار ، على لغة حكاهما الزجاج والكسائي .

لما تهدد الله تعالى نساء النبي ﷺ بأن من يأت منهن بفاحشة ظاهرة من
ارتكاب محذور ، وما نهى الله تعالى عنه أنه يضاعف لها العذاب ضعفين لوقوع
أفعالهن على وجه يستحق به ذلك من حيث كن سواء أسوة يتأسى بهن غيرهن
ورغبهن في هذه الآية بأن قال « ومن يقنت منكن » أي من داوم منكن على
(ج ٨ م ٤٣ من التبيان)

الطاعة لله ورسوله « وتعمل » مع ذلك الافعال « صالحاً نؤتها » اي يعطيها الله « أجرها مرتين » كما لو عصت عاقبها ضعفين . والقنوت المداومة على العمل فمن داوم على العمل لله فهو مطيع . ومنه القنوت في صلاة الوتر ، وهو المداومة على الدعاء المعروف . والعمل الصالح هو المستقيم الذي يحسن أن يحمد عليه ويستحق به الثواب . والاجر الجزاء على العمل ، وهو الثواب ، آجره يأجره اجراً والأجر مرتين ليس يجب بالوعد بل إنما هو مستحق ، لأن أفعالهن تقع على وجه يستحق مثلي ما لو استحق الغير ، لأنه في مقابلة العذاب ضعفين ، ولا يجوز أن يضاعف ضعفين إلا مستحقاً ، وكذلك الثواب المقابل له .

وقوله « واعتدنا لها رزقاً كريماً » معنى اعتدنا اعددنا ، وابدل من احدى الدالين تاء . والرزق الكريم هو الثواب الذي لا يحسن الابتداء بمثله .

ثم قال « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء » انما قال كأحد ، ولم يقل كواحدة لان احداً نفي عام المذكر والمؤنث والواحد والجماعة أي لا يشبهكن احد من النساء في جلاله القدر وعظم المنزلة ولمكانكن من رسول الله ﷺ بشرط أن تتقين عقاب الله باجتناب معاصيه ، وامتنثال أوامره . وانما شرط ذلك بالانقاء لئلا يعوان على ذلك ، فيرتكبن المعاصي ، ولولا الشرط كان يكون اغراء لهن بالمعاصي ، وذلك لا يجوز على الله تعالى .

ثم قال لهن « فلا تخضعن بالقول » أي لا تلين كلامكن الرجال ، بل يكون جزلاً قوياً لئلا يطمع من في قلبه مرض . قال قتادة : ومعناه من في قلبه نفاق . وقال عكرمة : من في قلبه شهوة للزنا .

ثم قال لهن « وقلن قولاً معروفًا » مستقيماً جليلاً بريئاً من التهمة بعيداً من الريبة موافقاً للمدين والاسلام . ثم امرهن بالاستقرار في بيوتهن وألا يتبرجن

تبرج الجاهلية - على قراءة من فتح القاف. ومن كسر أرادكن وقورات عليكن
سكينة ووقار « ولا تبرجن » قال قتادة : التبرج التبخر والتكبر ، وقال غيره :
هو اظهار المحاسن للرجال .

وقوله « تبرج الجاهلية الأولى » نصب تبرج على المصدر ، والمعنى مثل
تبرج الجاهلية الأولى ، وهو ما كان قبل الاسلام . وقيل ما كان بين آدم ونوح .
وقيل ما كان بين موسى وعيسى ، وقيل ما كان بين عيسى ومحمد . وقيل ما كان
يفعله اهل الجاهلية ، لانهم كانوا يجوزون لامرأة واحدة رجلا وخـلا
فللزوجة النصف السفلاي وللخل فوقاني من التقيبيل والمعانقة ، فنهى الله تعالى
عن ذلك ازواج النبي ﷺ واشتقاق التبرج من البرج وهو السعة في العين
وطعنة برجاء اي واسعة وفي اسنانه برج إذا تفرق ما بينها ، واما الجاهلية
الأخرى ، فهو ما يعمل بعد الاسلام بعمل اركلثك ،

ثم أمرهن باقامة الصلاة والدوام عليها بشرروطها وايتاء الزكاة لمن وجبت
عليه ، وأمرهن بطاعة الله وطاعة رسوله ، في ما يأمرانهن به . ثم قال
« انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا » روى ابو
سعيد الخدري وانس بن مالك وعائشة وأم سلمة وواثلة بن الاسقع أن الآية
نزلت في النبي ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ واهل البيت نصب
على النداء او على المسدح ، فروي عن أم سلمة انها قالت إن النبي ﷺ كان
في بيتي فاستدعا علياً وفاطمة والحسن والحسين ، وجللهم بعباء خيبرية ، ثم قال :
اللهم هؤلاء اهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، فأنزل الله تعالى
قوله « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا » فقالت
أم سلمة قلت : يا رسول الله هل انا من اهل بيتك ؟ فقال : لا ، ولكنك

إلى خير .

واستدل أصحابنا بهذه الآية على أن في جملة أهل البيت معصوماً لا يجوز عليه الغلط وإن أجمعهم لا يكون إلا صواباً بأن قالوا ليس يخلو إرادة الله لإذهاب الرجس عن أهل البيت من أن يكون هو ما أراد منهم من فعل الطاعات واجتناب المعاصي ، أو يكون عبارة عن أنه أذهب عنهم الرجس بأن فعل لهم لظفاً اختاروا عنده الامتناع من القبائح . والأول لا يجوز أن يكون مراداً ، لأن هذه الإرادة حاصلة مع جميع المكلفين ، فلا اختصاص لأهل البيت في ذلك ولا خلاف أن الله تعالى خص بهذه الآية أهل البيت بأمر لم يشركهم فيه غيرهم فكيف يحمل على ما يبطل هذا التخصيص ويخرج الآية من أن يكون لهم فيها فضيلة ومزية على غيرهم ؟ على أن لفظة (إنما) تجري مجرى ليس ، وقد دللنا على ذلك في ما تقدم وحكيناه عن جماعة من أهل اللغة ، كالزجاج وغيره ، فيكون تلخيص الكلام : ليس يريد الله إلا إذهاب الرجس على هذا الحد عن أهل البيت ، فدل ذلك على أن إذهاب الرجس قد حصل فيهم . وذلك يدل على عصمتهم ، وإذا ثبت عصمتهم ثبت ما اردناه .

وقال عكرمة هي في أزواج النبي خاصة . وهذا غلط ، لأنه لو كانت الآية فيهن خاصة لكنى عنهن بكناية المؤنث ، كما فعل في جميع ما تقدم من الآيات نحو قوله « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن ، واطعن الله واقمن الصلاة وآتين الزكاة » فذكر جميع ذلك بكناية المؤنث ، فكان يجب أن يقول إنما يريد الله لينذهب عنكن الرجس أهل البيت ويطهركن ، فلما كنا بكناية المذكور دل على أن النساء لمدخل لهن فيها .

وفي الناس من حمل الآية على النساء ومن ذكرناه من أهل البيت هرباً

بما قلته . وقال : إذا اجتمع المذكر والمؤنث غلب المذكر ، فكفى عنهم بكناية المذكر . وهذا يبطل بما بيناه من الرواية عن أم سلمة . وما يقتضيه من كون من تناولته معصوماً . والنساء خارجات عن ذلك . وقد استوفينا الكلام في ذلك - في هذه الآيات - في كتاب الامامة من أراده وقف عليه هناك .

ثم عاد تعالى الى ذكر النساء فأمرهن بأن يذكرن الله تعالى بصقائه ، وبالدهاء والتضرع اليه ، وان يفكرن في آيات الله التي تتلى في بيوتهن من القرآن المنزل ، ويعملن بها وبما فيها من الحكمة « ان الله كان لطيفاً » في تدبير خلقه ، وفي إيصال المنافع الدينية والدنيوية اليهم « خيراً » اي عالمًا بما يكون منهم ، وبما يصلحهم . وبما يفسدهم ، وأمرهم بأن يفعلوا ما فيه صلاحهم واجتناب ما فيه فسادهم .

ثم اخبر تعالى بـ « ان المسلمين والمسلمات » وهم الذين استسلموا لأوامر الله وانقادوا له ، وأظهروا الشهادتين ، وعملوا بموجبه « والمؤمنين والمؤمنات » فالاسلام والايمان واحد ، عند اكثر المفسرين ، وإنما كرر لاختلاف اللفظين . وفي الناس من قال : المؤمن هو الذي فعل جميع الواجبات ، وانتهى عن جميع المقبحات ، والمسلم هو الملتزم لشرائط الاسلام المستسلم لها و « القانتين والقانتات » يعني الدائمين على الاعمال الصالحات « والصادقين » في اقوالهم « والصادقات » مثل ذلك « والصابرين والصابرات » على طاعة الله وعلى ما يتليهم الله من المصائب وما يأمرهم به من الجهاد في سبيله « والخاصعين » يعني المتواضعين غير المتكبرين « والخاصعات » مثل ذلك « والمتصدقين » يعني الذين يخرجون الصدقات والزكوات « والمتصدقات » مثل ذلك « والصائمين والصائمات » والحافظين فروجهم « من الزنا واتكاب انواع الفجور » والحافظات « فروجهن

وحذف من الثاني لدلالة الكلام عليه « والذاكرين الله كثيراً والذاكرات » الله كثيراً، وحذف مثل ما قلناه . ثم قال « اعد الله لهم » يعني من قدم ذكرهم ووصفهم « مغفرة واجراً عظيماً » يعني ثواباً جزيلاً . لا يوازيه شيء .
وقيل : إن سبب نزول هذه الآية أن أم سلمة قالت : يا رسول الله ما للرجال يذكرون في القرآن ولا يذكر النساء ؟ فنزلت الآية . فلذلك قال « ان المسلمين والمسلمات » وإن كن المسلمات داخلات في قوله « المسلمين » تغليبا للمذكر فذكرهن بلفظ يخصهن إزالة للشبهة .

قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِإِنِّي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لَكِي لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ

اللَّهُ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩)
مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ
وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) خمس آيات .

قرأ أهل الكوفة « ان يكون لهم الخيرة » بالياء ، لان التانيث غير حقيقي .
للباقون بالتاء لتانيث الخيرة . والخيرة جمع خير وحكي خيرة بفتح الياء وسكونها
وقرأ عاصم « وخاتم » بفتح التاء . الباقون بكسر ها . وهو الأقوى ، لأنه مشتق من
ختم ، فهو خاتم . وقال الحسن : خاتم وهو الذي ختم به الانبياء . وقيل : هما
لغتان - فتح التاء وكسر ها - وفيه لغة ثالثة (خانام) وقرى به في الشواذ .
وحكي ايضاً (ختام) .

وروي عن ابن عباس ، وذهب اليه مجاهد ، وقتادة أنه نزل قوله « وما
كان لمؤمن ولا مؤمنة . . . » الآية ، في زينب بنت جحش ، لما خطبها رسول
الله ﷺ لزيد بن حارثة فامتنعت لنسبها من قريش وإن زيدا كان عبداً ،
فأنزل الله الآية فرضيت به . وقال ابن زيد : نزلت في أم كلثوم بنت عقبة
ابن ابي معيط ، وكانت وهبت نفسها لرسول الله ﷺ فزوجها زيد بن حارثة .
بين الله تعالى في هذه الآية انه لم يكن « لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله
ورسوله امراً » بمعنى إزاماً وحكماً « أن يكون لهم الخيرة » اي ليس لهم ان
يتخيروا مع امر الله بشيء يترك به ما امر به الى ما لم يأذن فيه . والخيرة إرادة
اختيار الشيء على غيره . وفي ذلك دلالة على فساد مذهب المجبرة في القضاء
والقدر ، لأنه لو كان الله تعالى قضى المعاصي لم يكن لأحد الخيرة ، ولوجب

عليه الوفاء به . ومن خالف في ذلك كان عاصياً ، وذلك خلاف الاجماع .
ثم قال « ومن يعص الله ورسوله » في ما قضيا به وامر به وخالفهما « فقد
ضل » عن الحق وخاب عنه « ضللاً مبيناً » أي ظاهراً .

ثم خاطب النبي ﷺ فقال واذكر يا محمد حين « تقول للذي انعم الله
عليه » يعني بالهداية الى الايمان « وانعمت عليه » بالعتق « أمسك عليك
زوجك » اي احبسها ، ولا تطلقها ، لأن زيداً جاء الى النبي ﷺ مخاصماً زوجته
زينب بنت جحش على ان يطلقها ، فوعظه النبي ﷺ ، وقال له : لا تطلقها
وامسكها « واثق الله » في مفارقتها « وتخفي في نفسك ما الله مبديه » فالذي
اخفي في نفسه انه إن طلقها زيد تزوجها وخشي من إظهار هذا للناس ، وكان
الله تعالى امره بتزوجها إذا طلقها زيد ، فقال الله تعالى له ان تركت إظهار هذا
خشية الناس فترك اضماره خشية الله احق وأولى . وقال الحسن : معناه وتخشي
عيب الناس . وروي عن عائشة انها قالت لو كنتم رسول الله ﷺ شيئاً من
الوحي لكنتم « وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشي الناس والله احق ان
تخشاه » وقيل : إن زيداً لما جاء مخاصماً زوجته ، فرآها النبي ﷺ استحسناها
وتمنى ان يفارقها زيد حتى يتزوجها ، فكنتم . قال البلخي : وهذا جائز ، لأن
هذا التمني هو ما طبع الله عليه البشر ، فلا شيء على احد إذا تمنى شيئاً استحسناه .
ثم قال تعالى ﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها ﴾ فالوطر الارب والحاجة
وقضاء الشهوة يقال : لي في هذا وطر ، أي حاجة وشهوة ، قال الشاعر :

ودعني قبل ان اودعه
لما قضى من شبابنا وطراً (١)
وقال آخر :

وكيف ثوابي بالمدينة بعد ما قضى وطراً منها جميل بن معمر
 وقوله ﴿زوجنا كما﴾ يعني لما طلق زيد إمرأته زينب بنت جحش اخذ
 الله تعالى لنبه في تزويجها ، وإراد بذلك نسخ ما كان عليه أهل الجاهلية من
 تحريم زوجة الدعي على ما بيناه ، وهو قوله ﴿لكي لا يكون على المؤمنين حرج﴾
 أي اثم في أزواج ادعيائهم أن يتزوجوهن ﴿إذا قضوا﴾ الادعياء ﴿منهن﴾
 وطراً ﴿وفارقوهن﴾ ، فبين الله تعالى أن الغرض بهذا أن لا يكون المتبني به إذا
 طلق المرأة يجري مجرى تحريم إمرأة الابن إذا طلقت أو مات عنها الابن .
 وقوله ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ معناه وكان تزويج النبي ﷺ زينب بنت
 جحش كائناً لا محالة .

واستدل بقوله ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ على حدوث كلام الله ، لأن
 الله تعالى قص كلامه . وقد بين أنه مفعول ، والمفعول والمحدث واحد . ثم
 قال تعالى ﴿ما كان على النبي من حرج في ما فرض الله له﴾ أي لم يكن عليه إثم
 في ما قدره الله أن يتزوج زينب بنت جحش التي كانت زوجة زيد ، وإن كان
 دعيًا له ، وفي جمعه بين التسع . وقال ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾ أي
 ما أمرنا به محمدًا من هذه السنن والعادات مثل سنة من تقدم من الانبياء ، وما
 أمرهم الله تعالى به ، لأنه تعالى أباح لكل نبي شيئاً خصه به ورفع به شأنه من
 بين سائر الأمم ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾ فالقدر المقدر هو ما كان
 على مقدار ما تقدم من غير زيادة ولا نقصان ، قال الشاعر :

واعلم بان ذا الجلال قد قدر في الصحف الاولى التي كان سطر (١)

(١) مر تخريجه في ٦ / ٤٩٢

﴿ج ٨ م ٤٤ من التبيان﴾

وقوله ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ﴾ ولا يكتُمونها بل يؤدونها الى من بعثوا اليهم ﴿ ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله ﴾ أي لا يخافون سوى الله أحداً وقوله ﴿ وكفى بالله حسيماً ﴾ أي كافياً ومجازياً . ثم قال ﴿ ما كان محمد أباً احد من رجالكم ﴾ نزلت في زيد بن حارثة لأنهم كانوا يسمونه : زيد بن محمد ، فبين الله تعالى أن النبي ليس بـ (أب احد) منهم من الرجال وإنما هو أبو القاسم والطيب والمطهر وإبراهيم ، وكلهم درجوا في الصغر . ذكره قتادة . ثم قال ﴿ ولكن ﴾ كان ﴿ رسول الله ﴾ ونصب باضمار (كان) وتقديره ولكن كان رسول الله ﷺ ، وروى عبد الوارث عن ابي عمرو ﴿ ولكن ﴾ بالتشديد ﴿ رسول الله ﴾ نصب بـ (لكن) ﴿ وخاتم النبيين ﴾ أي آخرهم ، لأنه لاني بعده الى يوم القيامة ﴿ وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ أي عالماً لا يخفى عليه شيء مما يصلح العباد . وقيل إنما ذكر ﴿ وخاتم النبيين ﴾ ههنا ، لان المعنى أن من لا يصلح بهذا النبي الذي هو آخر الانبياء ، فهو مأبوس من صلاحه من حيث انه ليس بعده نبي يصلح به الخلق . ومن استدل بهذه الآية ، وهي قوله ﴿ ما كان محمد أباً احد من رجالكم ﴾ على انه لم يكن الحسن والحسين ﷺ ابنيه ، فقد أبعد ، لان الحسن والحسين كانا طفلين ، كما انه كان أباً إبراهيم وإنما بقي أن لا يكون أباً للرجال البالغين .

قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١)
وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ
لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣)

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۖ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) يَا أَيُّهَا
النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ
بِأَذْنِهِ وَسَرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ
فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذْيَهُمْ
تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨) ثمان آيات .

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين المصدقين بوحدة دانيته المقربين بصدق
أنبيائه ، يأمرهم بأن يذكروا الله ذكراً كثيراً ، والذكر الكثير أن تذكره بصفاته
التي يختص بها ، ولا يشاركه فيها غيره ، ونزهه عما لا يليق به . وروي في اخبارنا
أن من قال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ثلاثين مرة ،
فقد ذكر الله كثيراً ، وكل صفة لله تعالى فهي صفة تعظيم ، وإذا ذكر بأنه شيء
وجب أن يقال : إنه شيء . لا كالأشياء ، وكذلك أحد ليس كمثله شيء .
وكذلك القديم هو الأول قبل كل شيء ، والباقي بعد فناء كل شيء . ولا يجوز
أن يذكر بفعل ليس فيه تعظيم ، لأن جميع ما يفعله يستحق به الحمد والوصف
بالجميل على جهة التعظيم ، مثل الذكر بالغنى والكرم بما يوجب اتساع النعم ،
والذكر احضار معنى الصفة للنفس إما بايجاد المعنى في النفس ابتداء من غير
طلب . والآخر بالطلب من جهة الفكر . والذكر قد يجمع العلم ، وقد يجمع
الشك . والعلم لا يجمع الشك في الشيء على وجه واحد . والذكر أيضاً يضاد
السهو ، ولا يضاد الشك ، كما يضاده العلم . وقوله ﴿ وسبحوه بكرة واصيلاً ﴾
أمر لهم بأن ينزهوا الله تعالى عن كل قبيح وجميع ما لا يليق به ، بالغداة

والعشي . قال قتادة : يعني صلاة الغداة وصلاة العصر ، والاصيل العشي وجمعه أصائل ، ويقال اصل وأصال ، وهو اصل الليل أي اوله ومبدؤه ، وقوله ﴿ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ﴾ يترحم عليكم بالحباب الرحمة ، ويصلي عليكم الملائكة بالدعاء والاستغفار ، فالأول كالدعاء ، والثاني دعاء . وقيل : معناه يثني عليكم بطريقة الدعاء ، كقوله عليك رحمتي ومغفرتي . وقيل : معناه هو الذي يوجب عليكم الصلاة ، وهي الدعاء بالخير ، ويوجبه الملائكة بفعل الدعاء ، وهذا مما يختلف فيه معنى صفة الله تعالى وصفة العباد ، ككتاب بمعنى كثير القبول للتوبة وتواب بمعنى كثير فعل التوبة ، وقال الاعشى :

عليك مثل الذي صليت فاعتصمي يوماً فان لجنب المرى مضطجعاً (١)
فمن رفع (مثل) . فاعلم دعا لها مثل ما دعت له . ومن نصب أمرها بأن
تزداد من الدعاء أي عليك بمثل ما قلت . وقوله ﴿ ليخرجكم من الظلمات الى
النور ﴾ معناه ليخرجكم من الجهل بالله الى معرفته ، فشبه الجهل بالظلمات ، والمعرفة
بالنور . وانما شبه العلم بالنور ، لانه يعود الى الجنة ، فهو كالنور . والكفر
يقود الى النار - نعوذ بالله منها - وقال ابن زيد : معناه ليخرجكم من الضلالة
الى الهدى .

ثم اخبر تعالى انه ﴿ كان بالمومنين رحيماً ﴾ حين قبل توبتهم وخلصهم من
العقاب الى الثواب بما لطف لهم في فعله . وقوله ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ أي
يحيي بعضهم بعضاً يوم يلقون ثواب الله بأن يقولوا السلامة لكم من جميع الافات
والفوز بنعيم ثواب الله . ولقاء الله لقاء ثوابه لا رثوته ، لانه بمنزلة قوله

﴿ فَأَعْقِبْهُمْ نِقَافًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ (١) وَبِمَنْزِلَةِ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ (مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ يَقْتَطِعْ بِهَا مَالَ اسْرَى . مُسْلِمٌ لِقَى اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضِبَان) وَلَا خِلَافَ أَنْ هَؤُلَاءِ لَا يَرُونَ اللَّهَ . وَقَوْلُهُ ﴿ وَأَعِدْ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ أَيِ ثَوَابٍ بِأَجْزِيلًا .

ثُمَّ خَاطَبَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أَيِ شَاهِدًا عَلَى أَمْتِكَ فِي مَا يَفْعَلُونَهُ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ أَوْ مَعْصِيَتِهِ أَوْ إِيْمَانٍ بِهِ أَوْ كُفْرٍ ، لِتَشْهَدَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ عَلَيْهِمْ ، فَأَجَازِبُهُمْ بِحِسْبِهِ ، وَمُبَشِّرًا لَهُمْ بِالْخُسْةِ وَثَوَابٍ لِلْأَبَدِ إِنْ أَطَاعُونِي وَاجْتَبَوْا مَعْصِيَتِي . ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ أَيِ مَخَوْفًا مِنَ النَّارِ وَعَقَابِ الْأَبَدِ بِارْتِكَابِ الْمَعَاصِي وَتَرْكِ الْوَاجِبَاتِ ﴿ وَدَاعِيًا ﴾ أَيِ وَبَعَثْنَاكَ دَاعِيًا لَهُمْ تَدْعُوهُمْ ﴿ إِلَى اللَّهِ بِأَذْنِهِ ﴾ وَالْإِقْرَارَ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَأَمْتِثَالِ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ ، وَالْإِنْتِهَاءَ عَنْ مَا نَهَاهُمْ عَنْهُ ﴿ وَسَرَاجًا مُنِيرًا ﴾ أَيِ أَنْتَ بِمَنْزِلَةِ السَّرَاجِ الَّذِي يَهْتَدِي بِهِ الْخَلْقُ . وَالْمُنِيرُ هُوَ الَّذِي يَصْدُرُ النُّورُ مِنْ جِهَتِهِ إِمَّا بِفَعْلِهِ ، وَإِمَّا لِأَنَّهُ سَبَبٌ لَهُ ، فَالْقَمَرُ مُنِيرٌ ، وَالسَّرَاجُ مُنِيرٌ بِهَذَا الْمَعْنَى ، وَاللَّهُ مُنِيرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . وَقَالَ الزَّجَلِجُ ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِأَذْنِهِ وَسَرَاجًا ﴾ وَبَعَثْنَاكَ ذَا سَرَاجٍ ، وَحَذَفَ الْمُضَافَ وَأَقَامَ الْمُضَافَ إِلَيْهِ سَقَامَهُ وَأَرَادَ بِالسَّرَاجِ الْقُرْآنَ الَّذِي يَحْتَاجُونَ إِلَى الْعَمَلِ بِهِ .

ثُمَّ أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ بِأَنْ ﴿ يَبْشُرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ أَيِ زِيَادَةٍ عَلَى مَا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنَ الثَّوَابِ كَثِيرًا . ثُمَّ نَهَاهُ عَنِ طَاعَةِ الْكُفْرَانِ الْجَاهِلِينَ لِلَّهِ وَالْمُنْكَرِينَ لِنُبُوَّتِهِ فَقَالَ ﴿ وَلَا تَطْعَمِ الْكَافِرِينَ ﴾ الَّذِينَ يَتَظَاهَرُونَ بِالْكَفْرِ ، وَلَا « الْمُنَافِقِينَ » الَّذِينَ يَظْهَرُونَ الْإِسْلَامَ ، وَيُطْنُونَ الْكُفْرَ ، وَلَا تَسَاعُدْهُمْ عَلَى مَا يَرِيدُونَهُ ﴿ وَدَعِ أَذَاهُمْ ﴾ أَيِ اعْرِضْ عَنْ أَذَاهُمْ . قَانَا أَكْفَيْكَ أَمْرَهُمْ إِذَا تَوَكَّلْتَ عَلَيَّ ، وَعَمَلْتَ بِطَاعَتِي فَإِنَّ جَمِيعَهُمْ فِي سُلْطَانِي

بمنزلة ما هو في قبضة غيري . ثم قال ﴿ وتوكل على الله ﴾ أي اسند أمرك اليه واكتف به ﴿ وكفى بالله وكيلًا ﴾ أي كافيًا ومتكفلاً ما يسنده اليه . وقوله (وشاهدًا ومبشراً ونذيراً ، وداعياً ، وسراجاً) كل ذلك نصب على الحال .
قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ
مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَعَهُنَّ
وَسْرٌ حُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ
أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ
عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ
اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ
النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا
عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لَكَ لَا يَكُونُ عَلَيْكَ حَرَجٌ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٥٠) آيتان .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ تماسوهن ﴾ بألف . الباقون بلا الف . وقد مضى

تفسيره في البقرة (١) .

خاطب الله نبيه بأنه إذا نكح واحد من المؤمنين المصدقين بوحدايته المقرين بنبوة نبيه مؤمنة نكاحاً صحيحاً ، ثم طلقها قبل ان يمسه بمعنى قبل ان يدخل بها بأنه لا عدة عليها منه ، ويجوز لها أن تتزوج بغيره في الحال . وأمرهم أن يتمتعوها ويسرحوها سراحاً جميلاً ، الى بيت أهلها . وهذه المتعة واجبة إن كان لم يسم لها مهرأ وإن كان سمي لها مهر ألزمه نصف المهر ، ويستحب المتعة مع ذلك ، وفيه خلاف . وقال ابن عباس : إن كان سمي لها صداقاً فليس لها إلا نصف المهر ، وإن لم يكن سمي لها صداقاً متعها على قدر عسره أو يسره وهو السراح الجميل . وهذا مثل قولنا سواء . وحكي عن ابن عباس أن هذه الآية نسخت بإيجاب المهر المذكور في البقرة (١) ومثله روي عن سعيد بن المسيب والصحيح الأول . ثم خاطب النبي ﷺ فقال ﴿ يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن ﴾ يعني مهورهن ، لأن النكاح لا ينفك من المهر وأحللنا لك ما ملكت من الاماء أن تجمع منهن ما شئت ﴿ مما آفاه الله عليك ﴾ من الغنائم والانفال ﴿ وبنات عمك ﴾ أي وأحللنا لك بنات عمك ﴿ وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك ﴾ أن تعقد عليهن وتعطينهن مهورهن .

ثم قال ﴿ وإمراة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي ﴾ فالقراء كلهم على كسر (ان) على انه شرط، وقرأ الحسن بفتحها على انه بمعنى أحللنا لك لان وهبت ، والمعنى واحد ، لانه بمنزلة قولك سرني إن ملكت وسرني أن ملكت أي سرني ما ملكت ﴿ إن أراد النبي ﴾ وأحللنا لك المرأة إذا وهبت نفسها لك إن أردتها ورغبت فيها . فروي عن ابن عباس انه لا تحل امرأة بغير مهر وإن وهبت نفسها إلا للنبي

ﷺ خاصة. وقال ابن عباس: لم يكن عند النبي امرأة وهبت نفسها لله، وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنه كانت عنده ميمونة بنت الحارث بلامهم وكانت وهبت نفسها للنبي. وروى عن علي بن الحسين (عليه السلام) أنها امرأة من بني أسد يقال لها أم شريك. وقال الشعبي: هي امرأة من الانصار. وقيل زينب بنت خزيمة من الانصار. وعندنا أن النكاح بلفظ الهبة لا يصح وإنما كان ذلك للنبي ﷺ خاصة. وقال قوم: يصح غير أنه يلزم المهر إذا دخل بها، وإنما جاز بلا مهر للنبي ﷺ خاصة غير أنه يبين حجة ما قلناه. قوله (إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) فيين أن هذا الضرب من النكاح خاص له دون غيره من المؤمنين.

وقوله (قد علمنا ما فرضنا عليهم) يعني على المؤمنين (في أزواجهم) قال قتادة: معناه أي لا نكاح إلا بولي وشاهدين وصداق وألا يتجاوز الأربع. وقال مجاهد: ما فرضنا عليهم ألا يتزوجوا أكثر من أربع. وقال قوم (ما فرضنا عليهم في أزواجهم) من النفقة والقسمة وغير ذلك.

وعندنا أن الشاهدين ليسا من شرط صحة انعقاد العقد، ولا الولي إذا كانت المرأة بالغة رشيدة، لأنها ولية نفسها. والمعنى على مذهبنا إنا قد علمنا ما فرضنا على الأزواج من مهرهن ونفقتهن وغير ذلك ومن الحقوق مع (ما ملكت أيمانهم) (ما) في موضع جر لأنها عطف على (في) وتقديره: في أزواجهم وفي ما ملكت أيمانهم (لكيلا يكون عليك حرج) إذا تزوجت المرأة بغير مهر إذا وهبت لك نفسها وأردتها. ثم قال (وكان الله غفوراً رحيماً) أي سائراً للذنوب على المسيئين. رحيماً بهم ومنعماً عليهم.

عَلَيْمًا (٥٤) لَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِمْ وَلَا نِسَائِهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾

خمس آيات •

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ﴿ترجي﴾
مهموزة • الباقون بغير همز • من همز خففتها ومن ترك الهمز أين ، وهما لغتان
يقال : أرجئت وأرجيت • وقرأ أبو عمرو وحده ﴿لا تحل﴾ بالتاء • الباقون
بالياء • فمن قرأ بالتاء ، فلان النساء مؤنثة • ومن قرأ بالياء حمله على اللفظ
لأن المعنى : لا يحل لك شيء من النساء •

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ يخبره في نسائه بين أن يرجي •
منهن من شاء أي تؤخر وتبعد • قال ابن عباس : خيره الله بين طلاقهن
وإمساكن • وقال قوم : معناه ترك نكاح من شئت وتنكح من شئت من
نساء أمتك • وقال مجاهد : معناه تعزل من شئت من نسائك فلا تأنيها
وتأتي من شئت من نسائك فلا تقسم لها ، فعلى هذا يكون القسم ساقطاً عنه
فكان ممن أرجى ميمونه وأم حبيبة وصفية وسودة ، فكان يقسم لهن من نفسه
وماله ما شاء ، وكان ممن يأوي عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب ، فكان يقسم
نفسه وماله بينهما بالسوية • وقال زيد بن اسلم : نزلت في اللاتي وهبن أنفسهن
فقال الله له تزوج من شئت منهم وارك من شئت ، وهو اختيار الطبري
وهو أليق بما تقدم • فالأرجاء هو التأخير وهو من تباعد وقت الشيء عن

وقت غيره ومنه الارزاء في فساق أهل الصلاة : وهو تأخير حكمهم بالعقاب الى الله ﴿ وتؤوي منهم من تشاء ﴾ فالايواء : ضم القادر غيره من الاحياء الذين من جنس ما يعقل الى غيره أو ناحيته ، تقول آويت الانسان آويه إيواء وأوى هو يأوي أوياً إذا انضم الى مأواه .

وقوله ﴿ ومن ابتغيت ﴾ يعني من طلبت ﴿ ممن عزلت ﴾ قال قتادة : كان نبي الله يقسم بين أزواجه ، فأحل الله تعالى له ترك ذلك . وقيل ﴿ ومن ابتغيت ﴾ أصابته ممن كنت عزلت عن ذلك من نسائك . وقال الحسن ﴿ ترجي من تشاء منهم ﴾ تذكر المرأة للتزويج ثم ترجيها فلا تزوجها ﴿ فلا جناح عليك ﴾ أي لا جناح عليك في ابتغاء من شئت وإرجاء من عزلت وإيواء من شئت ﴿ ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ﴾ أي اقرب إذا علم أن الرخصة من قبل الله كان ذلك اقر لعينهن ، وإنهن لا يطلقن وأشد لسرورهن . وهو قول قتادة ، وقيل ﴿ ذلك أدنى ان تقر أعينهن ﴾ إذا طمعت في ردها الى فراشها بعد عزلها ﴿ ويرضين بما آتيتهن كلهن ﴾ رفع (كلهن) على تأكيد الضمير وهو النون في (يرضين) لا يجوز غير ذلك ، لان المعنى عليه . ثم قال ﴿ والله يعلم ما في قلوبكم ﴾ من الرضا والسخط والميل الى بعض النساء دون بعض ﴿ وكان الله عليماً ﴾ بذلك ﴿ حليماً ﴾ عن ان يعاجل أحداً بالعقوبة .

وقوله ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن ﴾ قال ابن عباس والحسن : بعد التسع اللاتي كن عنده واخترنه مكافأة لهن على اختيارهن الله ورسوله . وقال ابي بن كعب لا يحل لك من بعد أي حرم عليك ما عدا اللواتي ذكرن بالتحليل في « إنا أحلنا لك . . . » الآية . وهن ست أجناس النساء اللاتي هاجرن معك وإعطائهن مهورهن وبنات عمه وبنات عماته وبنات خاله

وبنيت خالته اللاتي هاجرن معهن ، ومن وهبت نفسها له بجميع ما شاء من الغنم ، ولا يحل له خبرهن من النساء ، وقال حجاج : « لا يحل لك النساء » من أهل الكتاب ولا يحل لك المسلمات .

وروي أن حكم هذه الآية نسخ ، وأبيح له ما شاء من النساء أي أي يجنس : أراد ، ولكم أراد ، فووي من عائشة إنها قالت : لم يخرج النبي ﷺ من دار الدنيا حتى تحلل الله لها أراد من النساء ، وهو مذهب أكثر الفقهاء . وهو الروي من أصحابنا في أخبارنا .

« ولا أن تبذل بهن من أزواج » قال ابن زيد : معناه أن تعطي زوجتك لغيرك وتأخذ زوجته ، لأن أهل الجاهلية كانوا يتبادلون الزوجات ، وقيل : معناه عطلق واحدة وتزوج أخرى بمعناها « ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكك يمينك » استثناء الأماء أي اللاتي تملكهن من جملة ما حرم عليه من النساء « وكان الله على كل شيء رقيباً » أي عالماً مخاضاً ، فالقريب الحفيظ - في قول الحسن : وقفاة - قال الشاعر :

لو أخذ الرقباء للضرباء أيديهم نولهم (١)

ثم خاطب المؤمنين فقال « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم » نههم عن دخول دور النبي بغير إذن ، إلى طعام غير ناظرين إياه ، أي بلوغه ، وكان يذاريهم ، وهو نصب على الحال ، يقال في الطعام : أتأى تأني إذا بلغ مكال التضع ، قال الشاعر [الشيباني] .

تمنخت البنوت له يوم تأتي ولكل حادثة تمام (٢)

وقال الخطيب :

وأخبرت العشاء الى سيدى
 وقال البصريون : لا يجوز (غير ناظرين) بالجر على صفة (طعام) لان
 المصفة اذا جرت على خبر من هي له لم يضر الضمير، واجاز ذلك الفراء
 وانشد الاعشى :

فقلت له هذه هاتما الينا بأدماء مقتادهما (٢) .

والمعنى على يدي من اقتادهه ، وقال الكسائي : سمعت العرب تقول : يدك
 باسطها ، أي انت ، وقال الزجاج : لو سجر (غير) ملقأ : إلى طعام غير ناظرين
 إنه انتم ، لا يجوز إلا ذلك . والمعنى غير منتظرين بلوغ الطعام .

ثم قال « ولكن إذا دعيتهم فادخلوا » والمعنى إذا دعيتهم الى طعام فادخلوا
 « فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث » أي تفرقوا ولا تقيموا ولا
 تستأنسوا بطول الحديث ، وإنما مضوا من الاستئناس من اجل طول الحديث
 لان الجلوس يقتضي ذلك ، والاستئناس هو ضد الاستيحاش ، والانس ضد
 الوحشة ، وبين تعالى فقال « لان ذلك » الاستئناس بطول الجلوس « كان
 يؤذي النبي فيستحيي منكم » أي من الحاضرين ، فيسكت على مضض ومشقة
 « والله لا يستحيي من الحق » ثم قال « وإذا سألتوهن متاعا » يعني إذا
 سألتم أزواج النبي شيئا يحتاجون اليه « فاسألهن من وراء حجاب » وسير
 « ذلكم اطهر لقلوبكم وقلوبهن » من الميل الى الفجور .

ثم قال « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله » قال ابو عبيدة (كان) زائدة
 والمعنى ليس « لكم أن تؤذوا رسول الله » بطول الجلوس عنده ، وحكمة نسائه

(١) تفسير القرطبي ١٤ / ٢٢٦ (٢) ديوانه (دار بirt) روايته :

فقلنا له هذه هاتما بأدماء في حبل مقتادهما

« ولا » يحل لكم ايضاً « أن تنكحوا أزواجه من بعده ابدأ » لانهن صرن بمنزلة أمهاتكم في التحريم . وقال السدي : لما نزل الحجاب قال رجل من بني تميم أنحجب من بنات عمنان مات عرسنا بهن ، فنزل قوله « ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده ابدأ إن ذلكم » إن فعلتموه « كان عند الله عظيماً » .

. ثم قال لهم « إن تبدوا شيئاً » أي إن اظهروا ثيوبهم من . واقعة النساء « او تخفوه فان الله كان بكل شيء عليماً » لا يخفى عليه شيء من أعمالكم لا ظاهرة ولا باطنة . ثم استثنى لأزواج النبي ﷺ من يجوز لهما محادثتهم ومكالمتهم ، فقال « لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن » ولم يذكر العلم والخال لانه مفهوم من الكلام ، لان قرباتهم واحدة ، لأنهن لا يحلان لواحد من المذكورين بعقد نكاح على وجه ، فهن محرم لهن « ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن » قال قوم : من النساء والرجال . وقال آخرون من النساء خاصة . وهو الأصح . وقال مجاهد : رفع الجناح - ههنا - في وضع الجلباب للمذكورين . وقال قتادة : في ترك الاحتجاب ، ثم أمرهن بأن يتقين الله ويتركن معاصيه فقال « واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيذاً » أي عالماً لا يخفى عليه شيء من ذلك . وقال الشعبي وعكرمة : وإنما لم يذكر العلم والخال ، لئلا ينعتاهن لابنائهما . وكان سبب نزول الآية لما نزل الحجاب ، قوله « فاسألوهن من وراء حجاب » قال آباء النساء وابناؤهن : ونحن ايضاً مثل ذلك ، فانزل الله الآية وبين أن حكم هؤلاء بخلاف حكم الاجانب .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧)
وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ
أَحْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٥٨) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ
وَبَنَاتُكُمْ وَنِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ
أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٩) لَكِنَّ
لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ
لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٦٠) خمس آيات

يقول الله تعالى مخبراً انه يصلي وملائكته على النبي ﷺ وصلاة الله تعالى
هو ما فعله به من كراماته وتفضيله وإعلاء درجانه ورفع منازلته وثنائه عليه وغير
ذلك من انواع إكرامه . وصلاة الملائكة عليه مسألتهم الله تعالى أن يفعل به مثل
ذلك ، وزعم بعضهم أن « يصلون » فيه ضمير الملائكة دون اسم الله مع إقراره
بأن الله سبحانه يصلي على النبي ، لكنه يذهب في ذلك الى انه في افراده
بالذكر تعظيماً ، ذكره الجبائي .

ثم أمر تعالى المؤمنين المصدقين بوحدايته المقربين بنبوة نبيه أن يصلوا أيضاً عليه ، وهو أن يقولوا : اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم - في قول ابن عباس .

ثم أمر المؤمنين أيضاً أن يسلموا لأمره تعالى وأمر رسوله تسليماً ، في جميع ما يأمرهم به ، والتسليم هو الدعاء بالسلامة . كقولهم سلمك الله . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . وكقولك : السلام عليك يا رسول الله .

ثم أخبر تعالى « أن الذين يؤذون الله ورسوله » وأذى الله يقال هو أذى أوليائه ، وإنما أضافه إلى نفسه تعظيماً لأوليائه ومبالغة في عظم المعصية به ، « لعنهم الله » أي يستحقون اللعنة من الله ، لأن معنى « لعنهم الله » أي حل بهم وباللعن بالابعاد من رحمة الله . وقول القائل : لعن الله فلاناً معناه الدعاء عليه بالابعاد من رحمة . وقوله « في الدنيا والآخرة » أي هم مبعودون من رحمة تعالى في الدنيا والآخرة ، ومع ذلك « أعد لهم » في الآخرة « عذاباً مهيناً » أي مذلاً لهم . والهوان الاختقار ، يقال : اهانة اهانة ، وإنما وصف العذاب بأنه مهين ، لأنه تعالى يبين الكافرين والفاسقين به ، حتى يظهر الذلة بغيه عند العقاب .

ثم قال « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا » يعني يؤذونهم من غير استحقاق على شيء فعلوه يستوجبون به ذلك : « فقد احتملوا بهتاناً . . . » .

وكان سبب نزول الآية أن قوماً من الزناة كانوا يعيشون في الطرقات فإذا رأوا امرأة غمزوها . وقال النقاش : نزلت في قوم كانوا يؤذون علياً عليه السلام وقيل : نزلت في من تكلم في عائشة في قصة الافك .

نفوسهم وإخلائهم إيانا . وقيل معناه عذاب الدنيا والآخرة « واللهم لعنا كثيراً » أي مرة بعد أخرى . ومن قرأ بالبلاء أراد اللعن الذي هو أكبر من لعن الفاسق ، لأن لعنة الكافر أعظم .

ثم خاطب تعالى المؤمنين فقال « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى » أي لا تؤذوا نبيكم مثل ما أودى موسى يعني آذاه قومه بغيب اضافوه اليه لم يقم حجة بتعيبه . وقيل : إن الآية نزلت في المناققين عابوا النبي ﷺ باصطفائه صفته بذت حي ، فنهاهم الله عن ذلك . واختلف المفسرون في العيب الذي اضافوه قوم موسى اليه . فقال قوم : انهم آذوا موسى بأن اشاعوا أن هارون قتله موسى فأحياه الله - عز وجل - حتى أخبرهم ان موسى لم يقتله وأن الله تعالى هو الذي أماته عند انقضاء أجله ، وهو معنى قوله « فبرأه الله مما قالوا » وقيل : انهم قالوا : إنه أبرص . وقيل : انهم اضافوه الى انه ادر الخصيتين ، فبرأه الله من ذلك ، واجاز البلخي حديث الصخرة التي ترك موسى ثيابه عليها على ان يكون ذلك معجزاً له . وقال قوم : ذلك لا يجوز لأن فيه اشتهار النبي وابداه سوائه على رؤس الأشهاد . وذلك ينفر عنه ، فبرأه الله من ذلك .

وقوله « وكان عند الله وجيها » أي عظيم القدر ، رفيع المنزلة إذا سأل الله تعالى شيئاً أعطاه . وأثبت الألف في قوله « الرسولا والسبيلا » لأجل الفواصل في رؤس الآي تشبيهاً بالقوافي .

قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً (٧٠)

يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾ أربع آيات .

امر الله تعالى المصدقين بوحدانيته المقرين بنبوة نبيه بأن يتقوا عقابه
باجتناب معاصيه وفعل واجباته وأن يقولوا « قولا سديداً » أي صواباً بريئاً
من الفساد خالصاً من شائب الكذب والتمويه والغو . وقوله « يصلح لكم
اعمالكم » جزم بأنه جواب الأمر ، وفيه معنى الجزاء . وتقديره : إن فعلتم
ما أمرتكم به يصلح لكم اعمالكم . وإصلاحه أعمال العباد أن يلطف لهم فيها حتى
تستقيم على الطريقة السليمة من الفساد ، وذلك مما لا يصح إلا في صفات الله
تعالى ، لانه القادر الذي لا يعجزه شيء ، العالم الذي لا يخفى عليه شيء . « ويغفر
لكم ذنوبكم » قيل : إنما وعد الله بغفران الذنوب عند القول السديد ، ولم يذكر
التوبة ، لأن التوبة داخلة في الاقوال السديدة ، كما يدخل فيه تجنب الكذب في
كل الأمور فيدخل فيه الدعاء الى الحق وترك الكفر والمزل واجتناب
الكلام القبيح .

ثم قال « ومن يطع الله ورسوله » في ما أمراه به ونهياه عنه ودعواه اليه

« فقد فاز فوزاً عظيماً » أي افلح فلاحاً عظيماً ، لأنه يفوز بالجنة ، والثواب الدائم . وقيل : معناه فقد ظفر بالكرامة من الله والرضوان ، وهو الفوز العظيم . ثم اخبر تعالى بأنه عرض الأمانة على السموات والأرض ، فالأمانة هي العقد الذي يلزم الوفاء به مما من شأنه أن يؤتمن على صاحبه ، وقد عظم الله شأن الأمانة في هذه الآية وأمر بالوفاء بها ، وهو الذي امر به في اول سورة المائدة وعنه بقله « يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود » وقيل في قوله « عرضنا الامانة على السموات والأرض والجبال » مع أن هذه الاشياء جمادات لا يصح تكليفها أقوال :

احدها - ان المراد عرضنا على اهل السموات واهل الارض واهل الجبال وثانيها - ان المعنى في ذلك تفخيم شأن الأمانة وتعظيم حقها ، وأن من عظم منزلتها انها لو عرضت على الجبال والسموات والأرض مع عظمها ، وكانت تعلم بأمرها لأشفقت منها ، غير انه خرج مخرج الواقع لانه ابلغ من المقدر ، وقوله « فأبين ان يحملنها » أي منعهن ان يحملن الأمانة « واشفقن منها » أي خفن من حملها « وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً » أي ظلوماً لنفسه بارتكاب المعاصي ، جهولاً بموضع الأمانة واستحقاق العقاب على ارتكاب المعاصي وقال ابن عباس : معنى الأمانة الطاعة لله ، وقيل لها أمانة لأن العبد أوتمن عليها بالتمكين منها ومن تركها . وقال تعالى « ليلوكم أيكم احسن عملاً » (١) فرغب في الأحسن ، وزهد في تركه . وقيل : من الأمانة ان المرأة أوتمنت على فرجها والرجل على فرجه ان يحفظاها من الفاحشة . وقيل : الامانة ما خلق الله تعالى في هذه الاشياء من الدلائل على ربوبيته وظهور ذلك منها ، كأنهم أظفروها

والانسان جحد ذلك وكفر به . وفائدة هذا العرض إظهار ما يجب من حفظها وعظم المعصية في تضييعها .

وقيل معنى « حملها الانسان » أي خانها ، لأن من خان الأمانة فقد حملها وكذلك كل من اثم فقد حمل الاثم ، كما قال تعالى « ولا يحملن أثقالهم وثقالا مع أثقالهم » (١) وقال البلخي : يجوز ان يكون معنى العرض والاباء ليس هو ما يفهم بظاهر الكلام ، بل انما أراد تعالى أن يخبر بعظم شأن الأمانة وجلالة قدرها ، وقضاعة خيلاتها وترك ادائها ، وانه اوجد السموات مع عظمها لا تحملها وإن الانسان حملها ، وليس الانسان - ههنا - واحداً بعينه ، ولا هو للطليع المؤمن ، بل هو كل من خان الأمانة ولم يرد الحق فيها ، وحمل الانسان الأمانة هو ضمانة القيام بها وإداء الحق فيها . لان ذلك طاعة منه لله ، واتباع لأمره والله لا يعتب على طاعته وما امر به ودعا اليه لكن معنى « حملها » انه احتملها ثم خانها ولم يؤد الحق فيها ، كأنه حملها فذهب بها واحتمل وزرها ، كما يقولون : فلان أكل املاته أي خان فيها ، والعرب تقول : سألت الربيع ، وخاطبت الدار فأجذبني بكذا ، وقالت كذا ، وربما قالوا : فلم يجب ، وامتنعت من الجواب . وليس هنالك سؤال ولا جواب ، وإنما هو اخبار عن الخصال التي تدل عليه ، وعبر عنه بذكر السؤال والجواب ، كما قال تعالى « اثبتنا طوعاً ولو كرهاً » للسموات والارض « قالتا أتينا طائعين » (٢) وهو تعالى لا يخاطب من لا يفهم ولا يعقل ، وقال تعالى « لقد جئتم شيئاً إداً تمكداً للسموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هداً » (٣) ونحن نعلم ان السموات لم تشر بما كان من

(١) سورة ٢٩ العنكبوت آية ١٣ (٢) سورة ٤١ حم السجدة (فضلت) آية ١١

(٣) سورة ١٩ مريم آية ٩١ - ٩٢

وقوله « فقد احتملوا بهتاناً » اي كذباً « بوائماً مبيناً » اي ظاهراً . ثم خاطب النبي ﷺ بقوله « يا ايها النبي » وامره بأن يقول لازواجه وبناته ونساء المؤمنين ، ويأمرهم بأن يدين عليهم من جلايبهن ، فالجلايب جمع جلباب وهو خمار المرأة . وهي المقنعة تغطي جبينها ورأسها إذا خرجت الحاجة بخلاف خروج الاماء اللاتي يخرجن مكشفات الرؤس والحياء - في قول ابن عباس ومجاهد - وقال الحسن : الجلايب الملاحف تدينها المرأة على وجهها « ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين » ثم قال « وكان الله غفوراً رحيماً » اي ستر الذنوب على عباده « رحيماً » بهم .

ثم قال لنبيه ﷺ « لئن لم ينته المنافقون » أي لئن لم يرجعوا « والذين في قلوبهم مرض » اي شك ونفاق . وقيل : شهوة الزنا « والمرجفون في المدينة » فالارجاف اشاعة الباطل للاغتمام به . والمرجفون هم الذين كانوا يطرحون الأخبار الكاذبة بما يشغلون به قلوب المؤمنين « لنغرينك بهم » يا محمد ، والاغراء الدعا الى تناول الشيء . بالتحريض عليه اغراء يغريه اغراء وغري به يغري مثل اولع به كأنه أخذ بلزومه . وقيل : معناه لنسلطنك عليهم - في قول ابن عباس - .

وقوله « ثم لا يحاورونك فيها إلا قليلاً » يعني ينفون عن المدينة ولا يحاورونك يا محمد فيها .

قوله تعالى :

﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَ مَا تُقَفُّوا أَخْنُوا وَقَتُّلُوا تَقْتِيلًا ﴾ (٦١) سُنة

(ج ٨ م ٦٨ من التبيان)

اللَّهُ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢)
يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ
سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥)
خمس آيات •

لما أخبر الله تعالى ، وتوعد « المنافقين والذين في قلوبهم مرض » أي شك
« والمرجفون في المدينة » بما يشغل قلوب المؤمنين وأنهم إن لم يتوبوا عن ذلك
نفوا عنها ، وصفهم بانهم « ملعونين » أي مبعدون « أينما ثقفوا » ونصب
(ملعونين) على الحال من الضمير في قوله « يجاورونك » وقيل : انه نصب على
الذم ، والصفة لـ (قليلا) ، كأنه قال : إلا أذلاء ملعونين ، (وأينما) منصوب
بـ (ثقفوا) ، وانجزم به (ثقفوا) على طريق الجزاء . وإنما جاز ذلك ، لأن
الجازم في الأصل (إن) المحذوفة ، وصار (أينما) تقوم مقامها ، وتغني عنها
ولا يجوز ان يعمل فيه (اخذوا) لأنه جواب الجزاء ، ولا يعمل الجواب فيما
قبل الشرط ، لئلا يختلط احد الأمرين بالآخر .

وفي الآية دلالة على انهم انتهوا ، وإلا كان يوقع الاغراء بهم ويجعلهم
بالصفة التي ذكرها .

وقوله « سنة الله التي قد خلت من قبل » فالسنة الطريقة في تدبير الحكيم
ومنه سنة رسول الله ، وهي الطريقة التي أجراها بأمر الله تعالى ، فأضيفت اليه

لأنه فعلها بأمر الله . واصل السنة الطريقة . ومن عمل الشيء مرة أو مرتين لا يقال : إن ذلك سنة ، لأن السنة الطريقة الجارية ، ولا تكون جارية بما لا يعتد به من العمل القليل ، وسنة الله في المتمردين في الكفر - الذين لا يقلع أحد منهم ولا من نسلهم - الإهلاك في العذاب في الدنيا والآخرة .

وقوله « وإن تجد لسنة الله تبديلاً » معناه إن السنة التي أراد الله أن يسنها في عبادته لا يتبناها لأحد تغييرها ، ولا قلبها عن وجهها لأنه تعالى القادر الذي لا يتبناها لأحد منعه مما أراد فعله .

ثم قال « يسألك الناس عن الساعة » يعني عن يوم القيامة « قل » لهم « إنما علمها عند الله » لا يعلمها أحد غيره « وما يدريك » يا محمد « لعل الساعة تكون قريباً » مجيئها .

ثم قال تعالى مخبراً « إن الله لعن الكافرين » يعني أبعدهم من رحمته « وأعد لهم سعيراً » يعني النار التي تستعر وتلتهب « خالدين فيها أبداً » أي مؤبدين فيها لا يخرجون منها « ولا يحمدون ولياً » ينصرهم من دون الله « ولا نصيراً » يدفع عنهم .

واستدل قوم بذلك على النار أنها مخلوقة الآن ، لأن مالا يكون مخلوقاً لا يكون معداً . وهذا ضعيف ، لأنه يجوز أن يكون المراد إن الجنة والنار معدتان في الحكم كائنتان لاحالة ، فلا يمكن الاعتماد على ذلك .

قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُفَرَاءَنَا

فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُهُمْ
 لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا
 مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩)
 آيات أربع .

قرأ ابن عامر ويعقوب « ساداتنا » بألف بعد الدال . الباقر بن عمار
 علي جمع التكسير ، والأول على جمع الجمع ، وقرأ عاصم وابن عامر - في رواية
 الداجوني عن هشام « لعناً كبيراً » بالباء . بالباقر بن عمار .

العامل في قوله « يوم تقلب » قوله « واعد لهم سعيراً ٠٠٠ يوم تقلب وجوههم »
 فالتقلب تصريف الشيء في الجهات ، ومثله التنقل من جهة إلى جهة فهو لا
 تقلب وجوههم في النار ، لأنه ابلغ في ما يصل اليهم من العذاب . وقوله « يقولون
 ياليتنا اطعنا الله واطعنا الرسول » حكاية ما يقول هؤلاء الكفار الذين تقلب
 وجوههم في النار ، فانهم يقولون متعنين : ياليتنا كنا اطعنا الله في ما امرنا به
 ونهانا عنه ، ويا ليتنا اطعنا الرسول في ما دعانا اليه . وحكى أيضاً أنهم يقولون
 يا « ربنا إنا اطعنا » في ما فعلنا « ساداتنا وكبراءنا » والسادة جمع سيد وهو
 الملك المعظم الذي يملك تدبير السواد الأعظم ، ويقال للجمع الأكثر السواد
 الأعظم يراد به السواد المنافي لشدة البياض والضياء الأعظم « فأضلونا السبيل »
 يعني هؤلاء الرؤساء أضلونا عن سبيل الحق .

وقيل الآية نزلت في الاثني عشر الذين أطعموا الكفار يوم بدر من
 قريش . ثم حكى أنهم يقولون « ربنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ » لضلالهم في

الكفار وانه لا سبيل لها الى الانفطار في ذات نفسها ، ويقول القائل أنيت
بكذب لا تحتمله الجبال الراسيات ، قال الشاعر :

فقال لي البحر إذ جثته كيف يجيز ضرير ضريرا

وقال جرير :

لما اتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع (١)

وقال آخر :

فاجهشت للتوباد حين رأيته وكبر الرحمن حين رأيته

فقلت له أين الذين عهدتهم فقلت له أين الذين عهدتهم

فقال مضوا فاستودعوني بلادهم فقلت له أين الذين عهدتهم

والتوباد جبل ، وقال آخر :

امتلاً الحوض وقال قطني ومن ذا الذي يبقى على الحدان

وقال بعض المحدثين :

يا قصر ويحك هل اوعيت من خبر فقال هل خبر أنباء من العبر

قد كان يسكنني قوم ذو خطر بادوا على الدهر والأيام والغير

وقد أتاني وقرب العهد يذكرني منصور أمتكم في الشوك والشجر

حتى أنساخ على بابي فقلت له أما كفئك الذي نبئت من خبري

إن لا أكن قلته نطقاً فقد كتبت به الحوادث في صخري وفي حجري

خطاً قديماً جليلاً غير ذي عوج بقرأ بكل لسان ظاهر الأثر

(١) ديوانه ٢٧٠ وقد مر في ١ / ٣١٢ ، ٢٠٤ و ٧ / ١٥٢ ، ٢٠٩

(٢) مر في ١ / ٤٣١

فخاني ثم أفناه الزمان ولم يطق
 وكلهم قائل لي أنت لي ولمن
 فما تملئ بنو الآباء بعدهم
 ولا هم سكنوا إلا على غرر
 وقد قال بعض الحكماء : سل الأرض من شق انهارك وغرس اشجارك
 وجنى ثمارك ؟ فان لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً ، والعرض على وجوه
 يقال : عرضت المال والعمل على فلان ، فهذا بالقول والخطاب ، وعرضت هذا
 الأمر على فكري البارحة ، وهذا أمر إن عرض على العقول لم تقبله ، ومنه
 قولهم : عرضت الناقة على الحوض ، يريدون عرضت الحوض على الناقة
 و (الآباء) على وجوه : فمنه الامتناع وإن لم يكن قصد لذلك ، ومنه ألا يصلح
 لما يريد ، تقول : أردت سل سيفي فأبى علي . وتقول : هذه الأرض تأبى
 الزرع والغرس أي لا تصلح لهما ، فعلى هذا يكون معنى قوله « فأبين أن
 يحملنها » أي لا تصلح لحملها ، وليس في طباعها حمل ذاك ، لأنه لا يصلح لحمل
 الأمانة إلا من كان حياً عالمًا قادراً سميعاً بصيراً . بل لا يلزم أن يكون سميعاً
 بصيراً ، وإنما يكفي ان يكون حياً عالمًا قادراً . وقال قوم : معناه إنا عرضنا
 الأمانة على أهل السموات وأهل الأرض وأهل الجبال ، كما قال « فما بكت عليهم
 السماء والأرض » (١) يعني أهل السماء وأهل الأرض ، فأبوا حملها على أن
 يؤدوا حق الله فيها إشفاقاً من التقصير في ذلك ﴿ وحملها الانسان ﴾ يعني الكافر
 جهلاً بحق الله واستخفافاً بعرضه ﴿ إنه كان ظلوماً ﴾ لنفسه ﴿ جهولاً ﴾ بما يلزمه
 القيام بحق الله ، وإنما قال ﴿ فأبين ﴾ ولم يقل : فأبوا حملها على اللفظ ، ولم يردده
 الى معنى الآدميين ، كما قال ﴿ والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾ (٢) وقوله

﴿ فظلت اعناقهم لها خاضعين ﴾ (١) حملا على المعنى دون اللفظ ، وكل ذلك واضح بحمد الله .

ثم قال ﴿ ليعذب المنافقين والمنفقات والمشركين والمشركات ﴾ يعني بتضييع الأمانة ، وقال الحسن وقتادة : كلاهما خانا الأمانة ﴿ ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ﴾ بحفظهما الأمانة لانهما كليهما أديا الأمانة ﴿ وكان الله غفورا رحيما ﴾ أي ستارا لعيوب خلقه رحيما بهم في اسقاط عقابهم إذا تابوا ورجعوا الى الطاعة .

٣٤ - سورة سبأ

مكية في قول مجاهد وقتادة : والحسن وغيرهم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.
وقيل إن آية واحدة منها مدنية ، وهي قوله « وترى الذين أوتوا »
وهي أربع وخمسون آية عند الكل إلا الشامي فإنها عنده خمس وخمسون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ
الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي
الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ
الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ
بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَ نَكْمٌ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي
السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ

مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ (٥) خمس آيات .

قرأ حمزة والكسائي « علام الغيب » بتشديد اللام وألف بعدها وخفض الميم . وقرأه اهل المدينة وابن عامر ورويس بألف قبل اللام وتخفيف اللام وكسرها ورفع الميم . الباقرن كذلك إلا أنهم خفضوا الميم ، وهم ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وخلف وروح . وقرأ ابن كثير وحفص ويعقوب ﴿ من رجز اليم ﴾ برفع الميم - ههنا - وفي الجاثية ، و ﴿ معجزين ﴾ قد مضى ذكره ، (١) وقرأ الكسائي وحده (يعزب) بكسر الزاي . الباقرن بضمها . و ﴿ الحمد ﴾ رفع بالابتداء . و ﴿ لله ﴾ خبره .

والحمد هو الشكر ، والشكر هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم . والحمد هو الوصف بالجميل على جهة التعظيم ، ونقيضه الذم ، وهو الوصف بالقبيح على جهة التحقير ، ولا يستحق الحمد إلا على الاحسان ، فلما كان احسان الله لا يوازيه احسان احد من المخلوقين ، فكذلك لا يستحق الحمد احد من المخلوقين مثل ما يستحقه ، وكذلك يبلغ شكره الى حد العباداة ولا يستحق العباداة سوى الله تعالى ، وإن استحق بعضنا على بعض الشكر والحمد .

ومعنى قوله ﴿ الحمد لله ﴾ أي قولوا ﴿ الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الارض ﴾ معناه الذي يملك التصرف في جميع ما في السموات ، وجميع ما في الأرض ، وايس لاحد منعه منه ولا الاعتراض عليه ﴿ وله الحمد ﴾ في الأولى يعني بما أنعم عليه من فنون الاحسان و ﴿ في الآخرة ﴾ بما يفعل بهم من الثواب

والعوض وضروب التفضل في الآخرة . والآخرة وإن كانت ليست دار تكليف فلا يسقط فيها الحمد والاعتراف بنعم الله تعالى ، بل العباد ملجأون الى فعل ذلك لمعرفة الضرورية بنعم الله تعالى عليهم وما يفعل من العقاب بالمستحقين فيه أيضاً إحسان لما للمكلفين به في دار الدنيا من اللطاف والزرع عن المعاصي ويفعل الله العقاب بهم لكونه مستحقاً على معاصيه في دار الدنيا ، ومن حمد أهل الجنة قولهم : الحمد لله الذي صدقنا وعده . وقولهم ! الحمد لله الذي هدانا لهذا . وقيل : إنما يحمده أهل الآخرة من غير تكليف على وجه السرور به ﴿ وهو الحكيم ﴾ في جميع أفعاله ، لأنها كلها واقعة موقع الحكمة ﴿ الخير ﴾ العالم بجميع المعلومات . ثم وصف نفسه بأنه ﴿ يعلم ما يلج في الأرض ﴾ من سائر أنواع الاشياء ﴿ وما يخرج منها ﴾ كذلك . وقال الحسن : معناه يعلم ما يلج في الأرض من المطر ، وما يخرج منها من النباتات ، والولوج الدخول ، ولج يلج ولوجاً ، قال الشاعر :

رأيت القوافي يلجن موالجا تضايق عنه ان تولجه الابر (١)

ومعنى ﴿ ما ينزل من السماء ﴾ قال الحسن : يعني من الماء ﴿ وما يعرج فيها ﴾ من ملائكة فهو يجري جميع ذلك على تدبير عالم به وتوجيه المصلحة فيه . ثم حكي عن الكفار أنهم يقولون ﴿ لا تأتينا الساعة ﴾ يعني القيامة تكذيباً للنبي ﷺ في ذلك ف ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ بلى ﴾ تأتيناكم ﴿ و ﴾ حق الله ﴿ ربي ﴾ الذي خلقتني وأخرجني من العدم الى الوجود ﴿ لتأتيناكم ﴾ الساعة ﴿ عالم الغيب ﴾ من جر (عالم) جعله صفة لقوله ﴿ وربى ﴾ وهو في موضع جر بواو القسم . ومن رفعه ، فعلى انه خبر ابتداء محذوف ، وتقديره هو عالم

الغيب . ومن قرأ ﴿ علام ﴾ أراد المبـالغة في وصفه بأنه عالم الغيب ، والغيب كل شيء غاب عن العباد علمه ﴿ لا يعزب عنه ﴾ أي لا يفوته ﴿ مثقال ذرة في السموات ولا في الارض ﴾ بل هو عالم بجميع ذلك ، يقال : عزب عنه الشيء يعزب ويعزب لغتان ، في المضارع ﴿ ولا اصغر من ذلك ولا أكبر ﴾ أي ولا يعزب عنه علم ما هو اصغر من مثقال ذرة ، ولا علم ما هو أكبر منه ﴿ إلا في كتاب مبین ﴾ يعني اللوح المحفوظ الذي أثبت الله تعالى فيه جميع ما هو كائن الى يوم القيامة ليطلع عليه ملائكته ، فيكون لطفاً لهم ، ويكون للمكلفين أيضاً في الاخبار عنه لطف لهم .

ثم بين أنه إنما أثبت ذلك في الكتاب المبين ﴿ ليجزي ﴾ على ذلك ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ بنعيم الجنة وهو قوله ﴿ أولئك لهم مغفرة ﴾ لذنوبهم وستر لها ، ولهم مع ذلك ﴿ رزق كريم ﴾ قال قتادة: الرزق الكريم الجنة . وقال غيره: هو الهنيء الذي ليس فيه تنغيص ، ولا تكدير . ثم بين أن الذين يسعون في آيات الله وحججه ﴿ معاجزين ﴾ له أي متعاونين مجاهدين في ابطال آياته ﴿ أولئك لهم عذاب ﴾ على ذلك ﴿ من رجز اليم ﴾ فمن جر ﴿ أليم ﴾ جعله صفة (رجز) والرجز هو الرجز ، وقال قوم: هو سيء العذاب وقال آخرون : هو العذاب . والرجز بضم الراء الصنم ومنه قوله ﴿ والرجز فاهجر ﴾ (١) وقال ابو عبيدة ﴿ معاجزين ﴾ بمعنى سابقين و﴿ معجزين ﴾ معناه مثبتين - في قول الزجاج .

قوله تعالى :

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ

هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا يَبْنِي أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلَفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَاءُ نَخِثِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩) وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرَ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) ست آيات .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ إِنْ يَشَاءُ نَخِثِفْ بِهِمْ ﴾ بالياء كناية عن الله تعالى أنه إن شاء خسف، الباقر بالنون كناية على أنه إخبار منه تعالى عن نفسه .
يقول الله تعالى مخبراً أن الذين أوتوا العلم والمعرفة بوحداية الله تعالى .
قال قتادة : هم أصحاب محمد ﷺ وقال غيره : يجوز أن يكون المراد كل من أوتي العلم بالدين ، وهو الأولى ، لأنه أعم ﴿ الذي أنزل إليك من ربك ﴾ يعني القرآن ﴿ هو الحق ﴾ فـ ﴿ الذي ﴾ في موضع نصب بأنه المفعول بـ ﴿ يرى ﴾ وقوله ﴿ هو ﴾ فصل ، ويسميه الكوفيون عماداً ، قال الشاعر :

ليت الشباب هو الرجيع الى الفتى والشيب كان هو البدء الاول
أنشده الكسائي على أن ﴿ هو ﴾ الاول عماد والثاني اسم. و﴿ الحق ﴾ هو المفعول
الثاني، و﴿ يرى ﴾ في الآية بمعنى (يعلم) وموضعه يحتمل أن يكون نصباً عطفاً على
﴿ ليحزي ﴾ ويحتمل أن يكون رفعاً بالاستئناف، وإيتاء العلم اعطاؤه إما بخلق العلم
او بنصب الأدلة المسببة له، فهو لطف الله تعالى لهم بما أداهم الى العلم، فكان كأنه قد
أتمهم ﴿ الذي أنزل اليك ﴾ يعني القرآن، وما أنزله الله عليه من الاحكام يعلمونه
حقاً صحيحاً لمعرفةهم بالله وآياته الدالة على صدق نبيه ﴿ ويهدي ﴾ يعني القرآن
ويرشد إلى ﴿ صراط العزيز الحميد ﴾ يعني إلى دين الله القادر الذي لا يغالب،
والحميد يعني المحمود على جميع أفعاله، وهو الله تعالى.

ثم حكى ان الكفار يقول بعضهم لبعض ﴿ هل ندلكم على ﴾ ونرشدكم
الى ﴿ رجل ينبئكم ﴾ أي يخبركم ﴿ إذا مرقتم كل ممزق ﴾ أي مرقّت أعضاؤكم
بعد الموت، وصرتم تراباً ورميماً ﴿ إنكم لفي خلق جديد ﴾ ابتداء بأن لم يعمل
فيها ﴿ ينبئكم ﴾ لانه لو أعمل فيها لنصبها، يعيدكم ويحييكم، ويقولون: هذا على
وجه الاستبعاد له والتعجب من هذا القول. ومعنى ﴿ مرقتم ﴾ بليتم وتقطعت
أجسامكم. والعامل في (إذ) يقول - في قول الزجاج - وتقديره هل ندلكم على رجل
يقول لكم إنكم إذا مرقتم تبعثون، ويكون (إذا) بمعنى الجزاء تعمل فيها التي
تليها، قال قيس:

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها خطانا الى أعدائنا فنضارب

والمعنى يكن وصلها، فلذلك جزم فنضارب. وقيل العامل فيه معنى الجملة
كأنه قيل: يجدد خلقكم، ولا يجوز أن يعمل فيه ما بعد لام الابتداء، ولا ما
﴿ ج ٨ م ٤٨ من التبيان ﴾

بعد ان لأنها حروف لا تتصرف في نفسها ولا في معمولها . وقوله « أفترى على الله كذباً » قال قوم : اسقط ألف الاستفهام من (أفترى) للدلالة (أم) عليه . وقال الرماني : هذا غلط ، لأن الف الاستفهام لا تحذف إلا في ضرورة وإنما القراءة بقطع الألف ، فألف الاستفهام ثابتة وألف (افتعل) سقطت ، لأنها زائدة ، ومثله قوله ﴿ يسدي أستكبرت ﴾ (١) وقوله ﴿ أصطفى النبات ﴾ (٢) وقوله « سواء عليهم أستغفرت لهم » (٣) ونظائره كثيرة . ولم يفصل بينهما بعدة لان الثانية مكسورة ففارق همزة « الله خير اما يشركون » (٤) ولو لم تقطع لكان خبراً بعده استفهام ، والمعنى إن هؤلاء الكفار الذين يتعجبون من قول النبي ﷺ إن الله يعيد الخلق بعد اماتتهم خلقاً جديداً ، هل كذب على الله متممداً « أم به جنة » يعنون جنونا فيتكلم بما لا يعلم فقال الله تعالى ليس كما يقولون : « بل الذين لا يوقنون » أي لا يصدقون بالآخرة وبما فيها من الثواب والعقاب « في العذاب والضلال البعيد » يعني العدول البعيد عن الحق ، فلذلك يقولون ما يقولون ، بل نبههم على صحة ما يقول النبي ﷺ من الاعادة فقال « افلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض » فيفكروا فيه ويعتبروا به وإن الله تعالى خلقه واختره وأنه « ان نشأ نخسف بهم الارض » من تحت أرجلهم « او نسقط عليهم كسفاً » يعني قطعة من السماء ثم قال « إن في ذلك لآية » ودلالة « لكل عبد منيب » أي راجع الى الله تعالى . ووجه التنبيه بالآية أن ينظروا فيعلموا أن السماء تحيط بهم ، والارض حاملة لهم ، فهم في قبضتنا « إن نشأ نخسف بهم الارض او نسقط عليهم للسماء » أفما يحذرون

(١) سورة ٣٨ ص آية ٧٥ (٢) سورة ٢٧ الصافات آية ١٥٣

(٣) سورة ٦٣ المنافقون آية ٦ (٤) سورة ٢٧ النمل آية ٥٩

هذا فيرتدعون عن التكذيب بآيات الله . و (المنيب) المقبل التائب - في قول قتادة - .

ثم اخبر تعالى فقال « واقد آتينا داود » يعني أعطاه « منا فضلا » من عند الله . وقيل : معناه النبوة . وقيل : الزبور . وقيل : حسن الصوت . وقيل : هو ما فسرهُ أي قلنا « يا جبال أوبي معه » ومعناه أنه نادى الجبال وأمرها بأن أوبي معه أي ارجعي بالتسبيح معه ، قال الشاعر :

يومان يوم مقامات واندية ويوم سير الى الاعداء تأويب (١)
أي رجوع بعد رجوع . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك : أمر الله الجبال أن تسبح معه إذا سبح « والطير » في نصبه وجهان : أحدهما وسخرنا الطير . والثاني - بالعطف على موضع المنادى الاول كما قال الشاعر :
ألا يازيد والضحاك سيرا [فقد جاوزتماحد الطريق] (٢)
والاول أقوى عندهم لان الحمل على لفظة المنادى أشكل . ويكون كقولهم
(أطعمتها تبنًا وماء باردًا) أي وسقيتها .

وقيل معنى « أوبي » سيري معه حيث شاء ، وليس المعنى إن الله خاطب الجبال ، وهي جماد بذلك ، بل المراد أنه فعل في الجبال ما لو كانت حية قادرة لكان يتأني منها ذلك .

وقوله « وألنا له الحديد » قال قتادة : كان الحديد في يده مثل الشمع يصرفه كيف يشاء من غير نار ولا تطريق . ثم قال وقلنا له « أن اعمل سابغات » وهي الدروع التامة والسابغ التام من اللباس ، ومنه اسباغ النعمة إتمامها ، وثوب سابغ تام « وقدر في السرد » معناه لا تجعل الحلقة واسعة لا تقي صاحبها

وسرد الحديد نظمه . وقيل : السرد حلق الدرع - في قول ابن عباس وابن زيد - قال الشاعر :

اجاد السدي سردها وأدالها (١)

وقال قتادة : السرد المسامير التي في حلق الدرع ، وهو مأخوذ من سرد الكلام سرده يسرده سرداً إذا تابع بين بعض حروفه وبعض كالتابعة في الحلق والمسامير ، ومنه السرد للطعام وغيره للاستتباع في خروج ما ليس منه ، قال الشاعر :

وعليهما مسرودتان قضاها داود او صنع السوابع تبع (٢)

ويقولون : درع مسرودة أي مسمورة الحلق . وقيل : معنى « وقدر في السرد » عدل المسامير في الحلقة لا يدق فينكسر او يغلف فيفصم ، ذكره مجاهد . والحكم . « واعملوا صالحاً » أمرهم بأن يعملوا الاعمال الحسنة التي ليست قبيحة وما يكون بفعله مطيعاً لله « إني بما تعملون بصير » أي عالم بما تفعلونه ، لا يخفى عليه شيء . من أعمالكم ، فالبصير العليم بالامور بما يتبين في تميزه بعضه من بعض وكان الكسائي يدغم الفاء في الباء في قوله « إن نشأ نخسف بهم » وهذا لا يجوز عند البصريين ، لان الفاء من باطن الشفة العليا ، واحرف الثنايا العليا ، والباء يخرج من بين الشفتين ، ولان الفاء فيه نفس ، فاذا أدغم في الباء بطل ، وأيضاً فهو من مخرج التاء ، فكما لا يجوز ادغامه في التاء ، فكذلك لا يجوز ادغامه في الباء ، وأجاز ذلك الفراء . وأما إدغام التاء في الفاء ، فلا خلاف فيه .

قوله تعالى:

﴿وَلَسْلَيْمِنَ الرِّيحِ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسْلَمْنَا لَهُ
عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ
مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُنْذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ
مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ أَعْمَلُوا
آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ
الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا
خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنَ كَوُ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي
الْعَذَابِ الْمُمِينِ (١٤) لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ
يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ
غَفُورٌ (١٥) ٠

خمس آيات شامي ، لانهم عـدوا « عن يمين وشمال » وأربع في ما عداه ،
لانهم لم يعدوا ذلك .

قرأ نافع « من سانه » بغير هـز . الباقون « من سانه » بالهمزة . وقرأ
الكسائي وحده « مسكنهم » بكسر الكاف . وقرأ حمزة بفتحها . الباقون
(مساكنهم) على الجمع . ونصب الريح في قوله « ولسليمان الريح » على تقدير :

وسخرنا لسليمان الريح . وقرأ أبو بكر عن عاصم بضم الحاء ، والمعنى في ذلك أنه اضاف الريح اليه إضافة الملك يصرفه كيف شاء . وقوله « غدوها شهر ورواحها شهر » قال قتادة : كان مسيرها به الى انتصاف النهار مقدار مسير شهر « ورواحها شهر » من انتصاف النهار الى الليل - في مقدار مسير شهر - وقال الحسن كان يغدو من الشام الى بيت المقدس ، فيقبل باصطخر من ارض اصبهان ويروح منها ، فيكون بكابل .

وقوله « واسلنا له عين القطر » قال ابن عباس وقتادة : أذنبنا له النحاس والقطر النحاس . ثم قال « ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه » أي بأمر الله « ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير » معناه من يعدل من هؤلاء الجن الذين سخرناهم لسليمان حتى يعملوا بين يديه عما أمرهم الله به من طاعته « نذقه من عذاب السعير » يعني عذاب النار تقول : زاعغ يزيع زيعاً وأزاعه إزاعة .

ثم اخبر تعالى ان الجن الذين سخرهم الله لسليمان « يعملون له ما يشاء من محاريب » قيل : معناه شريف البيوت . وقال قتادة : قصور ومساجد ، قال المبر : لا يسمى محراباً إلا ما يرتقى اليه بدرج ، لقوله « إذ تسوروا المحراب » (١) قال عدى بن زيد :

كدمي العاج في المحاريب أو كالأبيض في الروض زهره مستنير (٢)
وقال وضاح اليمن :

ربة محراب إذا جثتها لم القها أو ارتقي سلماً (٣)

(١) سورة ٣٨ ص آية ٢١ (٢) تفسير الطبري ٢٢ / ٤٣ والقرطبي ١٤ / ٢٧١

(٣) مجاز القرآن ٢ / ١٤٤

و « تماثيل » جمع تمثال وهو صورة . فبين أنهم كانوا يعملون أي صورة أرادها سليمان . وقال قوم: كانوا يعملون له صورة الملائكة . وقال آخرون : كانوا يعملون له صورة السباع والبهائم على كرسيه ليكون أهيب له ، فذكر أنهم صوروا أسدين وفوق عمودي الكرسي نسرين ، فكان إذا أراد صعود الكرسي بسط له الأسد ذراعه ، فاذا علا فوق الكرسي نشر النسران جناحيهما ، فظللا عليه لئلا يسقط عليه شيء من الشمس ، ويقال : إن ذلك مما لا يعرفه أحد من الناس ، فلما حاول بنحت نصر صعود الكرسي بعد سليمان حين غاب على بني إسرائيل لم يعرف كيف كان يصعد سليمان ، فرفع الأسد ذراعه فضرب ساقه ففقدوها فوقع مغشياً عليه ، فما جسر أحد بعده أن يصعد على ذلك الكرسي .

« وجفان كالجواب » واحدها جفنة وهي القصعة الكبيرة ، والجوابي جمع جابية ، وهي الحوض الذي يجيء الماء فيه ، قال ابو علي النحوي : إثبات الياء مع الألف واللام أجود ، وحذفها يجوز ، وقال الاعشى في جفنة :

تروح على آل المخلق جفنة كجابية الشيخ العراقي تفهق (١)
وقال آخر :

فصبحت جابية صها وجا كانه جلد السماء خارجا (٢)

وقال ابن عباس : الجوابي الحياض « وقدور راسيات » يعني عاليات ثابتات لا تنزل ، ثم نادى آل داود وأمرهم بالشكر على ما أنعم عليهم من هذه النعمة العجيبة التي أنعم بها عليهم ، لأن نعمته على داود نعمة عليهم ، فقال « اعملوا آل داود شكراً » ثم قال تعالى « وقليل من عبادي الشكور » أي من يشكر نعمي قليل ، والاكثر يمجحدون نعم الله لجهلهم به ، وتركهم معرفته .

ثم اخبر تعالى أنه لما قضى على سليمان الموت وقدره عليه وقبضه اليه لم يعلموا بذلك من حاله حتى دهم على موته دابة الارض وهي الأرضة ، فأكلت عصاه فانكسرت ، فوقع لأنه روي أنه قبض وهو في الصلاة ، وكان قال للجن اعملوا ما دمتم تروني قائماً ، واتكأ على عصاه من قيام ، وقبضه الله اليه وبقي مدة فيمجيء الجن فيطالعونه فيرونه قائماً فيعودون فيعملون الى أن دبت الأرضة فأكلت عصاه فوقع وخر ، فعلموا حينئذ موته وتبينت الجن أن لو كانوا يعلمون ما غاب عنهم من . وت سليمان لم يلبثوا في العذاب الذي أهانهم وأذلهم والمنساء العصابة الكبيرة التي يسوق بها الراعي غنمه قال أبو عبيدة : معنى « تبينت الجن » أي أبانت الجن للناس « أن لو كانوا » الجن « يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين » والمنساء أصلها الهمزة من نسأت الى سقت ، وقد يترك الهمز ، قال الشاعر :

إذا دببت على المنساء من هرم فقد تباعد عنك اللهو والغزل (١)

إلا أنه يترك همزها ، كما يترك في (البرية) وهي من برأت . وقيل : إنه كان متوكئاً على عصاه سنة لا يدرك أنه مات . وقيل : المعنى « فلما خر تبينت » جماعة من عوام « الجن » أغواهم مردتهم أن المتمردين « لو كانوا يعلمون الغيب » لأنهم كانوا يقولون لهم نحن نعلم الغيب ، وفي قراءة أهل البيت « فلما خر تبينت الانس أن لو كان الجن يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين » قالوا : لان الجن كانت تعلم أنها لا تعلم الغيب قبل ذلك . وإنما تبينت الانس ذلك من حال الجن .

ثم اخبر تعالى فقال « لقد كان لسبا في مسكنهم آية » أي دلالة وعلامة

ف (سبأ) قيل : إنه أبو عرب اليمن كلها ، فقد تسمى به القبيلة نحو هذه تميم . فمن قرأ على التوحيد ، فلا أنه يدل على القليل والكثير . ومن جمع أراد المساكن المختلفة . والفرق بين فتح الكاف وبين كسرها في (مسكنهم) أن الفتح تفيد المصدر ، والكسر تفيد الموضع ، وقيل : إنها لغتان في الموضع .

والآيتان قيل : إنهم لم يكن بينهما شيء من هوام الأرض ، نحو البق والبرغوث والعقرب وغير ذلك . وكان الغريب إذا دخل بلدهم وفي ثيابه قمل متن فهذه آية . والثانية أن المرأة كانت تأخذ على رأسها مكتلا فيمتلي . بالفواكه من غير أن تمس يدها شيئاً ، ثم فسر الآيتين فقال « جنتان » أي هي جنتان . « عن يمين وشمال » قيل : عن يمين الوادي وشماله . « كلوا من رزق ربكم » أي كلوا من رزق الله الذي رزقكم في هاتين الجنتين ، فلفظه لفظ الأمر والمراد به الإباحة « واشكروا له » هذه النعمة التي أنعم بها عليكم . ثم بين أن تلك الجنتين « بلدة طيبة » التربة . وقيل البلدة الطيبة صنعاء أرضها طيبة ليس فيها مسبخة و « رب غفور » .

قوله تعالى :

﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمُ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ (ج ٨ م ٤٩ من التبيان)

سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ
أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ
مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) وَلَقَدْ صَدَّقَ
عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾
خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابو عمرو « ذواتي أكل خط ، مضافاً . الباقون « أكل خط » منوناً .
والاختيار عندهم التنوين ، لأن الأكل نفس الخط والشيء لا يضاف إلى
نفسه ، ومن أضاف قال (الخط) هو جنس مخصوص من المأكولات ، والأكل أشياء
مختلفة فأضيفت إلى الخط ، كما تضاف الأنواع إلى الاجناس . والخط ثمر الاراك
وهو البربر أيضاً . واحدها بربرة وسميت به جارية عائشة . والبربر شجر السواك
و (الأثل) شجر ، واحدها أثلة .

وقرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر « وهل نجازي » بالنون « إلا الكفور »
نصباً أضافوا الفعل إلى الله تعالى . الباقون - بالياء - على ما لم يسم فاعله
« الكفور » بالرفع ، وقرأ ابو عمرو وابن كثير « بعد بين أسفارنا » بالتشديد
من التبعيد . الباقون « باعد » من المباعدة على لفظ الأمر ، إلا يعقوب ، فانه
قرأ « باعد » على لفظ الخبر ، لانهم لما سألوا أن يبعد الله بينهم ، ففعل ذلك
بينهم جاز حينئذ الاخبار بأنه تعالى فعل ذلك . وقرأ اهل الكوفة (ولقد صدق)
بتشديد الدال . الباقون بتخفيفها .

لما اخبر الله سبحانه عن « سبأ » وهي القبيلة من اليمن انه أنعم عليهم

بالجنتين وبالبلدة الطيبة ، وأمرهم بشكر نعمه « فأعرضوا » عن ذلك ، فلم يشكروه وكفروه وجحدوا نعمه ، ولم يقبلوا ممن دعاهم إلى الله من أنبيائه ورسله جازاهم الله على ذلك بأن أرسل عليهم سيل العرم ، وسلبهم تلك النعمة وانزل بهم البلية ، فالسيل الماء الكثير الذي لا يمكن ضبطه ولا دفعه ، وقيل : انه كانت تجتمع مياه وسيول في هذا الوادي فسدوه بين جبليين بالحجارة والقار وجعلوا له ابواباً يأخذون منه ما شاءوا ، فلما تركوا أمر الله بعث عليهم جرذاً فنقبه فأغرق الله عليهم جنتهم وأفسد أرضهم . وقيل : العرم : ماء كثير أرسله الله في السد فشقه وهدمه . قال الراجز :

اقبل سيل جاء من أمر الله يحرد حرد الجنة المغلة (١)

وقيل : ان العرم المسناة التي تحبس الماء ، واحدها عرمة وهو مأخوذ من عرامة الماء وهو ذهابه كل مذهب ، قال الاعشى :

ففي ذاك للمؤتسي اسوة وما رب قفى عليه العرم

رجام بنته لهم حمية إذا جاء مأوهم لم ترم (٢)

وقيل : كان سببه زيادة الماء حتى غرقوا . وقيل : كان سببه نقب جرذ نقب عليهم السكر . وقيل العرم السكر . وقيل المطر الشديد . وقيل هو اسم وادي وقيل : هو الجرذ الذي نقب السكر ، قال كثير :

ايادي سبا يا عز ما كنت بعدكم فلم يحل للعينين بعدك منظر (٣)

وقال آخر :

من صادر او وارد ايدي سبا (٤)

(١) اللسان (غال) (٢) تفسير الطبري ٢٢ / ٤٧

(٣) اللسان (سبأ) وروايته (منزل) بدل (منظر) (٤) اللسان (سبأ)

وقال جرير :

الواردون وتتم في ذرى سبأ قدعض اعناقهم جلد الجواميس (١)
ثم قال « وبدلناهم بجنتيهم » التي فيها أنواع الفواكه والخيرات « جنتين »
آخر اوين وسماها جنتين لازدواج الكلام ، كما قال « ومكروا ومكر الله » (٢)
و « يخادعون الله وهو خادعهم » (٣) « ذواتي أكل خبط » أي صاحبتني خبط
فالأكل جني الثمار الذي يؤكل ، والخبط نبت قد أخذ طعماً من المرارة حتى
لا يمكن أكله - في قول الزجاج - وقال أبو عبيدة هو كل شجر ذي شوك .
وقال ابن عباس والحسن : هو شجر الأراك ، وهو معروف . واللائل الطرفا
قال قتادة : بدلوا بخير الشجر شر الشجر ، فالخبط شجر له ثمر مر . واللائل ضرب
من الخشب كالطرفا ، إلا أنه أكبر . وقيل : اللائل التمر « وشيء من سدر
قليل » أي فيهما مع الخبط ، واللائل قليل من السدرة .
ثم قال « ذلك جزيناكم بما كفروا » في نعم الله « وهل يجازي » بهذا الجزاء
« إلا الكفور » من كفر نعم الله ، فمن قرأ بالنون فلقوله « جزيناكم » . ولا يمكن
الاستدلال بذلك على أن مرتكب الكبيرة كافر من حيث هو معذب ، لأن الله
تعالى بين أنه لا يجازي بهذا النوع من العذاب الذي هو الاستئصال إلا من هو
كافر ، وإن جاز أن يعذب الفاسق بغير ذلك من العذاب . وقال الفراء : المجازاة
المكافأة ، ومن الثواب الجزاء ، تقول : جازاه على معصيته ، وجزاه على طاعته .
وقال غيره : لا فرق بينهما .

ثم بين تعالى أنه جعل بين سبأ ، وبين القرى التي بارك فيها . قال قتادة

(٢) سورة ٣ آل عمران آية ٥٤

(١) مر تخرجه في ٦ / ٣٨٨

(٣) سورة النساء آية ١٤١

ومجاهد : هي قرى الشام ، وقال ابن عباس : هي بيت المقدس « قرى ظاهرة »
قال قتادة : معناه متواصلة ، لانه يظهر الثانية من الأولى لقربها منها « وقدرنا
فيها السير » معناه جعل بين القرية الأولى والثانية مسيرة يوم لراحة المسافر
ونزوله فيها « سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين » لاتخافون جوعاً ولا عطشاً ولا
ظلماً من أحد ، كأنه قيل لهم سيروا كذا ، فقالوا « ربنا باعد بين أسفارنا »
معناه إنهم نظروا وملوا النعمة ، فقالوا لو كان جني ثمارنا أبعد مما هي كان
أجدر أن نشتهي ، كما قالت بنو إسرائيل « فادع لنا ربك يخرج لنا مما
تنبت الارض من بقلها » (١) بدلا من المن والسلوى « وظلموا أنفسهم »
بارتكاب المعاصي « فجعلناهم أحاديث » فضرب بهم المثل فيقال (تفرقوا أيادي
سبأ) أي تشتتوا أعظم تشتت قال الشعبي : أما غسان فلحقوا بالشام ، وأما
الانصار فلحقوا بيثرب ، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة ، وأما الازد فلحقوا
بعمان . وقيل : معنى « جعلناهم احاديث » أي اهلكناهم والهمنا الناس حديثهم
ليعتبروا « ومزقناهم كل ممزق » قال ابن عباس : مزقوا بين الشام وسبأ ،
كل ممزق .

ثم قال تعالى « إن » في ما ذكر « لآيات » ودلالات « لكل صبار
شكور » أي صبار على الشدائد شكور على النعماء .

ثم قال تعالى « ولقد صدق عليهم إبليس » صدق « ظنه » فيهم باجابتهم
إلى معصية الله وقبولهم منه « فاتبعوه » باجمعهم « إلا فريقاً من المؤمنين »
العارفين بالله وبوحدانيته ، فخالفوه فلم يتبعوه . فمن شدد (صدق) اسند الفعل
إلى إبليس وجعل الظن المفعول به ، لأن إبليس لما قال تظننني ولا أمرهم

فليستن آذان الانعام ﴿ (١) فلما تبعه قوم على ذلك صدق ظنه . ومن خفف فالعنى مثله ، لانهما لغتان يقال : صدقت زيدا وصدقته ، وكذبتـه وكذبتـه وينشد :

وصدقتني وكذبتني والمرء ينفعه كذابه (٢)

وقرأ ابو الهجهاج ﴿ إبليس ﴾ بالنصب ﴿ ظنه ﴾ بالرفع جعل الظن الفاعل وإبليس المفعول به ، وذلك جائز عند النحويين ، لانهم يقولون : صدقني ظني وكذبتني إلا انه شاذ لا يقرأ به ، وقيل : ان إبليس لما اغوى آدم قال ذريته أولى بأن أغويهم ، وقال ﴿ لاحتكن ذريته إلا قليلا ﴾ (٣) فصدق ذلك ظنه حتى تابعوه . وقال ﴿ فوعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ (٤) وكانت أجابتهم له تصديقا لظنه .

قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْفِي مَنْ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ (٢١)
قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنْ ظَهِيرٌ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ

(١) سورة ٤ النساء آية ١١٨ (٢) اللسان (صدق)

(٣) سورة ١٧ الاسرى آية ٦٢ (٤) سورة ٣٨ ص آية ٨٢

عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ
 الْكَبِيرُ (٢٣) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ
 وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ
 عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ (خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابو عمر وحزمة والنكسائي وخلف ، والاعشى والبرجي عن أبي بكر
 ﴿أذن له﴾ بضم الهمزة . الباقون بفتحها . وقرأ ابن عامر ويعقوب ﴿فزع﴾
 بفتح الفاء والزاي . الباقون ﴿فزع﴾ بضم الفاء وكسر الزاي . فمن فتح الهمزة
 من ﴿أذن﴾ فمعناه أذن الله له ، ومن ضمها جعله لما لم يسم فاعله ، يقال :
 أذنت للرجل في ما يفعله اي اعلمته وأذنته أيضاً ، وأذن زيد الى عمرو ، إذا
 استمع اليه . روي في الحديث ما أذن الله لشيء قط كأذنه لني حسن الصوت
 يتغنى بالقرآن . ومثل ذلك القول في فزع عن قلوبهم ، ومعنى فزع . قال ابو
 عبيدة : فزع عن قلوبهم نفس عنها . وقال ابو الحسن : المعنى حكي عنها . وقال
 ابو عبيدة : معناه أذهب ، وقال قوم : الذين فزع عن قلوبهم الثلاثكة ، ويقال :
 فزع وفزع إذا أزيل الفزع عنها ، ومثله جاء في (افعال) يقولون : أشكاه إذا
 أزال عنه ما يشكو منه انشد ابو زيد :

تمد بالاعناق او تلويها وتشتكي لو أننا نشكيها (١)

والمعنى فلما ان اشكيت أزال الشكوى ، كذلك فزع وفزع أزال الفزع
 وقال قتادة : معنى فزع عن قلوبهم خلا من قلوبهم ، قال يرحي الله تعالى الى

جبرائيل فيعرف الملائكة ، ويفزع عن أن يكون شيء من امر الساعة ، فاذا ﴿ خلا عن قلوبهم ﴾ وعلموا أن ذلك ليس من امر الساعة ﴿ قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق ﴾ وتقديره قالوا قال الحق . فمن قرأ بفتح الفاء أسند الفعل إلى الله ، ومن ضمها بنى الفعل للمفعول به ، وكان الجار والمجرور في موضع رفع . وقال الحسن : فزع بمعنى كشف الفزع عن قلوبهم ، وفزعت منه ، والمفزع على ضربين : احدهما - من ينزل به الافزاع . الثاني - من يكشف عنه الفزع . وقوله ﴿ وفزع ﴾ له معنيان احدهما بمعنى ذعر ، والثاني - ازال الفزع وقال اليربوعي :

حللنا الكشيبي من زرود لنفزعاً

أي لنغيث . لما اخبر الله تعالى ان إبليس صدق ظنه في الكفار باجابتهم له إلى ما دعاهم اليه من المعاصي بين انه لم يكن لا بليس عليهم سلطان . و (من) زائدة تدخل مع النفي نحو قولهم ما جاءني من احد . والسلطان ألحجة ، فينبه بهذا ان الشيطان لم يقدر على اكثر من أن يغويهم ويوسوس اليهم ويزين لهم المعاصي ، ويحرضهم عليها . وقوله ﴿ إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك ﴾ تقديره إنا لم نمكنه من اغوائهم ووسوستهم إلا لنميز من يقبل منهم ومن يمتنع ويأبى متابعتهم ، فنعذب من تابعه ونثيب من خالفه ، فعبء عن تمييزه بين الفريقين بالعلم ، وهو التمييز مجرداً ، لأنه لا يكون العذاب والثواب إلا بعد وقوع ما يستحقون به ذلك ، فأما العلم ، فأنه تعالى عالم بأحوالهم ، وما يكون منها في ما لم يزل ، وقيل : إن معناه إلا لنعلم طاعتهم موجودة أو عصيانهم إن عصوا فنجازيهم بحسبها ، لأنه تعالى لا يجازي احداً على ما يعلم من حاله إلا بعد ان يقع منهم ما يستحق به من ثواب او عقاب ، وقيل : معناه إلا لنعامل معاملة

من كأنه لا يعلم، وإنما نعمل لنعلم ﴿ من يؤمن بالآخرة ﴾ أي من يصدق بها ويعترف ممن يشك فيها ويرتاب .

ثم قال ﴿ وربك ﴾ يا محمد ﴿ على كل شيء حفيظ ﴾ أي رقيب عالم لا يفوته علم شيء من أحوالهم من إيمانهم وكفرهم أو شكهم . ثم أمر نبيه ﷺ بأن يقول لهؤلاء الكفار ﴿ ادعوا الذين زعمتم من دون الله ﴾ أنهم آلهة ومعبود ، هل يستجيبون لكم ؟ إلى ما تسألونهم ، لأنه لا يستحق العبادة إلا من كان قادراً على إجابة من يدعوه . ثم أخبر تعالى عنها فقال ﴿ لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيها من شرك ﴾ يعني وما لله في السموات والأرض شريك ﴿ وما له منهم من ظهير ﴾ أي معاون ، والملك هو القدرة على ما للقادر عليه التصرف فيه ، وليس لاحد منعه منه ، وذلك - في الحقيقة - لا يستحق الوصف به مطلقاً إلا الله ، لأن كل من عداه يجوز أن يمنع على وجه .

ثم أخبر تعالى فقال ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده ﴾ أي عند الله ﴿ إلا لمن اذن ﴾ الله ﴿ له ﴾ في الشفاعة من الملائكة والنبيين والأئمة والمؤمنين ، لأنهم كانوا يقولون : نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، فحكم الله تعالى ببطلان ذلك . وقوله ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾ قال ابن عباس وقادة : حتى إذا خلى عن قلوبهم الفزع ، كقوالك رغب عنه أي رفعت الرغبة عنه فلا يرغب ، بخلاف رغب فيه ، ففي أحد الأمرين وضع وفي الآخر رفع . وقيل : هم الملائكة يلحقهم غشى عن سماع الوحي من الله بالآية العظيمة ، فاذا ﴿ فزع عن قلوبهم ﴾ أي خلى عنها ﴿ قالوا ماذا قال ربكم ﴾ - ذكره ابن مسعود ومسروق وابن عباس في رواية - وقال الحسن : حتى إذا كشف عن قلوب المشركين الفزع ، قالت ﴿ ج ٨ م ٥٠ من التبيان ﴾

الملائكة ﴿ ماذا قال ربكم ﴾ في الدنيا ﴿ قالوا ﴾ قال ﴿ الحق وهو العلي الكبير ﴾ اي الله تعالى المستعلي على الاشياء بقدرته ، لامن علو المكان ﴿ الكبير ﴾ في اوصافه دون ذاته ، لأن كبر الذات من صفات الاجسام . ثم قال له ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ من يرزقكم من السموات والارض ﴾ فانهم لا يمكنهم ان يقولوا يرزقنا آلمتنا التي نعبدها ﴿ قل ﴾ لهم عند ذلك الذي يرزقكم ﴿ الله ﴾ وقل ﴿ وإنا اوبياكم لعلى هدى او في ضلال مبين ﴾ وقيل : إنما قال ﴿ وإنا او إياكم ﴾ على وجه الانصاف في الحجاج دون الشك ، كما يقول القائل لغيره : احدنا كاذب ، وإن كان هو عالماً بالكاذب ، وعلى هذا قال ابو الأسود الدؤلي يمدح اهل البيت :

يقول الارذلون بنو قشير	طوال الدهر ما تنسى علياً
احب محمداً حبا شديداً	وعباساً وحمزة والوصيا
بنو عم النبي وأقربوه	احب الناس كلهم اليها
فان يك حبيبهم رشداً أصبه	ولست بمخطيء ان كان غياً (١)

ولم يقل هذا مع أنه كان شاكاً في محبتهم ، وانه هدى وطاعة ، وقال اكثر المفسرين : إن معناه إنا لعلى هدى وإياكم لعلى ضلال وقال ابو عبيدة (او) بمعنى الواو ، كما قال الاعشى :

اتغلبة الفوارس او رياحا	عدلت بهم طهية والحشايا (٢)
بمعنى اتغلبة ورياحا	

ثم قال ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ لا تسألون ﴾ معاشر الكفار ﴿ عما اجرنا ﴾ اي عما اقترفناه من المعاصي ﴿ ولا نسأل ﴾ نحن ايضاً ﴿ عما تعملون ﴾ انتم بل كل إنسان يسأل عما يعمل ، وهو يجازى على أي فعل فعله دون غيره ،

وتقدير قوله « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » ان يشفع له ، فزع
بسماعه أذنه حتى إذا فزع عن قلوبهم وخلي عنها وكشف الفزع عنهم قالوا ماذا
قال ربكم قالت الملائكة قال الحق وهو العلي الكبير ،
قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ
الْفَتْاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا
بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ
بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ
مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ
لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٣٠) خمس آيات بلاخلاف .

لما امر الله تعالى نبيه ان يخاطب الكفار ويقول لهم ان كل انسان يسئل
عما عمله دون ما عمل غيره ، قال له ايضاً ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ يجمع بيننا ربنا ﴾ يوم
القيامة ﴿ ثم يفتح بيننا ﴾ اي يحكم والفتح الحكم ، والفتح الحاكم بالحق ، لا بالظلم
﴿ وهو الفتح ﴾ أي الحاكم ﴿ العليم ﴾ بما يحكم به لا يخفى عليه شيء منه .

ثم قال ﴿ قل اروني الذين االحقتم به شركاء ﴾ تعبدونهم معه وتشركون بينهم
في العبادة على وجه التوبيخ لهم في ما اعتقدوه من الاشراك مع الله ، كما يقول
الفسائل لمن أفسد عملاً : ارني ما عملته توبيخاً له بما افسده ، فانهم سيفتضحون
بذلك إذا اشاروا إلى الاصنام والاثوان ويضمونها إلى الله ويشركون بينهما في

العبادة فقال تعالى ﴿ كلا ﴾ ومعناه الردع والتنبية أي ارتدعوا عن هذا القول وتنبهوا عن ضلالكم ﴿ بل هو الله ﴾ الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له ﴿ العزيز ﴾ يعني انقادر الذي لا يغالب ﴿ الحكيم ﴾ في جميع افعاله . وقيل ﴿ العزيز ﴾ في انتقامه ممن كفر به ﴿ الحكيم ﴾ في تدبيره لخلقه ، فكيف يكون له شريك في ملكه .

ثم قال لنبية ﷺ ﴿ وما ارسلناك ﴾ يا محمد بالرسالة التي حملنا كها ﴿ إلا كفاة ﴾ ومعناه ارسلناك إلى الخلق كافة بأجمعهم . وقيل : معناه إلا مانعاهم وكافأ لهم من الشرك ودخلت الهاء للمبالغة ﴿ للناس بشيراً ﴾ لهم بالجنة أي مبشراً بها ﴿ ونذيراً ﴾ أي مخوفاً بالنار ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ صدق قولك وإنك رسول اليهم ، لتفريطهم في النظر في معجزك .

ثم حكي عن الكفار انهم يستبطلون العذاب الذي يخوفهم به النبي ﷺ والمؤمنون ، فانهم كانوا يحذرونهم نزول العذاب عليهم ﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ الذي تعدونا به ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في ما تقولونه معاشر المؤمنين ثم امره ان يقول لهم في الجواب عن ذلك ﴿ قل لكم ميعاد يوم ﴾ ينزل عليكم ما وعدتم به من الثواب والعقاب ﴿ لا تستأخرون عنه ساعة ﴾ أي لا تؤخرون من ذلك اليوم لحظة ﴿ ولا تستقدمون ﴾ عليه ، وهو يوم القيامة .

قوله تعالى :

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى

بَعْضِ الْقَوْلِ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا كَوْلَا أَنْتُمْ
لَكِنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا نَحْنُ
صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْإِلَهِ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢)
وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا
رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ
إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ
مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ
أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) خمس آيات بلاخلاف .

حكى الله تعالى عن الكفار أنهم يقولون ان نصدق بهذا القرآن الذي أنزل
عليك وتدعيه انه من عند الله ولا بالذي بين يدي القرآن من أمر الآخرة والنشأة
الثانية ، فجدوا أن يكون القرآن من الله او أن يكون لما دل عليه من الاعادة
للجزاء حقيقة . وقيل : معناه الكتب التي قبله من التوراة والانجيل وغيرها .

ثم قال « ولو ترى » يا محمد « إذ » أي حين « الظالمون موقوفون عند
ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول » أي يرد بعضهم على بعض « يقول
الذين استضعفوا الذين استكبروا » قيل : كانوا رؤساء الضلالة يأمرون
الاتباع بعبادة الأوثان لضعفهم عن استخراج صواب الرأي عند أنفسهم ،

فلاستضعاف طلب الضعف فكل من يجاهر غيره بما يقتضي ضعفه يقال قد استضعفه ، والاستكبار طلب الكبر بغير حق ، وكانوا يتعظمون بهؤلاء الكفار بالجهل الذي صمموا عليه وصاروا رؤساء فيه ليحققهم به « لولا أنتم لكننا مؤمنين » لكن بسببكم يمنع ، فهؤلاء إذا أخبروا عن ظنهم ، فقد صدقوا كأنهم قالوا في ما نظن ، لأنه هكذا يقتضي ظاهر خبرهم ، كما إذا أخبروا عما يفعلونه في المستقبل ، فهو اخبار عن عزمهم ، ولو كان كذباً لانكر الله ذلك واتبعه بما يدل على انكاره ، كما قال « انظر كيف كذبوا على انفسهم » (١) ثم حكى ما أجابهم به المستكبرون فانهم يقولون في جوابهم « أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم » ١٩ منكرين عليهم قولهم انهم منعوه من الايمان بعد تبين الحق فيه ، وايس الأمر على ما تقولونه « بل كنتم » أنتم « مجرمين » ثم حكى تعالى ما يقول الذين استضعفوا فانهم يقولون « بل مكر الليل والنهار » معناه مكركم في الليل والنهار - في قول الحسن - كما قال الشاعر :

لقد لمتنا يا ام غيلان في السرى ونمت وما ليل المطي بناثم (٢)
أي بناثم فيه . وقيل : كأن الليل والنهار يمكران بطول السلامة فيهما .
(الترف) المنعم البطر بالنعمة « إذ تأمرونا » أي حين تأمرونا « أن نكفر بالله » أي ان نجحد بالله « ونجعل له انداداً » أي أمثالا في العبادة « واسروا الندامة » أي اخفوا الندامة بينهم « لما رأوا العذاب » نزل بهم ، ولام بعضهم بعضاً . وقال الجبائي : معناه اظهروا الندامة ، قال : وهذا مشترك . وهذا غلط ، لان لفظه الاخفاء هي المشتركة دون لفظ الاسرار ، فحمل أحدهما على الآخر قياس في اللغة « وجعلنا الأغلال في اعناق الذين كفروا » الاغلال جمع غل والله

تعالى يجعل الغل في رقاب الكفار عقوبة لهم .

ثم قال موبخاً لهم « هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » أي يجزون على قدر استحقاقهم لا يجازفون ، فلفظه لفظ الاستفهام والمراد به النفي ، فكأنه قال : لا يجزون إلا على قدر أعمالهم التي عملوها .

ثم أخبر تعالى أنه ما يرسل في قرية نذيراً أي مخوفاً بالله في ما مضى إلا إذا سمع أهلها المترفون منهم المنعمون « قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون » أي جاحدون ، ثم حكى بأنهم « قالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً » منكم « وما نحن بمعدين » على ما تقولونه ، لأنه لو أراد عقابنا لما أنعم علينا في الدنيا وجعلنا أغنياء وجعلهم فقراء ، فقال الله تعالى رداً عليهم « قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » .

قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآلَتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ

جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾

خمس آيات بلا خلاف ٠

قرأ حمزة وحده « وهم في الغرفة آمنون » لقوله تعالى « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا » (١) وفي الجنة غرفات وغرف ، غير أن العرب تجزئ بالواحد عن الجماعة إذا كان اسم جنس كما قالوا : اهلك الناس الدينار والدرهم . الباقون على الجمع « غرفات » على وزن (ظلمة ، رظلمات) وحجتهم « لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف » (٢) .

لما حكى الله تعالى عن الكفار أنهم قالوا : إن الله لا يعذبنا على ما نقولونه لأنه أغنانا في دار الدنيا ، ولم يجعلنا فقراء ، فكذلك لا يعذبنا في الآخرة ، قال الله رداً عليهم « قل » لهم يا محمد « إن ربي » الذي خلقتني « يبسط الرزق » أي يوسع الرزق لمن يشاء على حسب ما يعلم من مصلحته ومصلحة غيره « ويقدر » أي يضيق . وهو مثل قوله « الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر » (٣) أي يوسع ويضيق ، ومنه قوله « ومن قدر عليه رزقه » (٤) أي ضيق ، وعلى هذا : يحتمل قوله « فظن أن ان تقدر عليه » (٥) أي ان تضيق عليه ، فبسط الرزق هو الزيادة فيه على قدر الكفاية ، والقدر تضيقه على قدر الكفاية .

ثم قال « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ما قلناه لجهلهم بالله وبحكمته .

(١) سورة الفرقان آية ٢٥ (٢) سورة الزمر آية ٢٠

(٣) سورة ٢٩ المنكبوت آية ٦٢ (٤) سورة ٦٥ الطلاق آية ٧

(٥) سورة ٢١ الأنبياء آية ٨٧

ثم قال تعالى: «وما أموالكم» أي ليس أموالكم التي خولتموها «وإولادكم» التي رزقتموها «بالتى تقربكم عندنا زلفى» قال الفراء: (التى) يجوز أن يقع على الأموال والأولاد، لأن الأولاد يعبر عنها بـ (التى)، وقال غيره: جاء الخبر بلفظ أحدهما - وإن دخل فيه الآخر، ولو قال بالذى يقربكم لكان جائزاً و (زلفى) قربى، وإنما يقربكم إليه تعالى أفعالكم الجميلة وطاعاته الحسنة.. ثم قال «إلا من آمن وعمل صالحاً» معناه، لكن من آمن بالله وعرفه وصلى نبيّه وعمل الصالحات التى أمره بها، وانتهى عن القبائح التى نهاه عنها، فإن هؤلاء «جزاء المضعف بما عملوا» ومعناه أنه تعالى يجازيهم أضعاف ما عملوا، فإنه يعطى بالواحد عشرة، والمضعف من الأضعاف، لأنه اسم جنس يدل على القليل والكثير.

ويجوز في أعراب (جزاء) أربعة أوجه: الرفع والنصب بالتثنية وتركه، وفي (المضعف) ثلاثة أوجه: الجر والنصب والرفع. إلا أن القراءة بوجه واحد وهو رفع (جزاء) على الإضافة بلا تنوين، بوجز «المضعف» بالاضافة إليه - ثم قال إن هؤلاء مع أن لهم جزاء المضعف على ما عملوه «هم في الغرفات» جمع غرفة وهي العلية «آمنون» فيها لا يخافون شيئاً مما يخاف مثله في دار الدنيا. ثم قال «والذين يسعون في آياتنا معاجزين» أي مسابقين: فيمن قرأه بألف. ومشبطين خيهم عن أفعال الخير عند من قرأه بغير ألف «أولئك في العذاب محضرون» أي يحصلون في عذاب النار.

ثم قال «قل» يا محمد «إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء» أي يوسع «ويقدر» أي يضيقه لمن يشاء. وإنما كرر قوله «قل إن ربي يبسط الرزق» (ج ٨ ص ٥١ من التبيان)

لاختلاف الفائدة ، لأن الاول على معنى إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر من غير أن يعلم أكثر الناس لم فعل ذلك ، والثاني - بمعنى أن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر له على أن ما انفق في ابواب البر فالله يخلفه عليه وهو قوله « وما انفقتم من شيء فهو يخلفه » أي يعطيكم عوضه ، وليس المراد ان يخلف في دار الدنيا على كل حال ، لان الله يفعل ذلك بحسب المصلحة ، وإنما أراد انه يعوض عليه إما في الدنيا بأن يخلف بدله او يثيب عليه « وهو خير الرازقين » أي الله تعالى خير من يرزق غيره ، لأنه يقال : رزق السلطان الجنـد ، ثم قال ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ﴾ يعني يوم القيامة الذي يبعث الله فيه الخلائق ﴿ ثم يقول للملائكة ﴾ الذين عبدتم جماعة من الكفار ﴿ اهؤلاء ﴾ يعني الكفار الذين عبدوهم ﴿ إياكم كانوا يعبدون ﴾ على وجه التقرير لهم وإن كان بلفظ الاستفهام ، كما قال لعيسى ﴿ أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ (١) وقرأ حفص ﴿ ويوم يحشرهم ثم يقول ﴾ بالياء ردآ على قوله ﴿ قل ان ربي ﴾ الباقيون بالنون على الجمع .

قوله تعالى :

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مَنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ
الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ
نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ

بِهَآ تُكَذِّبُونَ (٤٢) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ (خمس آيات بلا خلاف .

لما حكى الله تعالى انه يقول للملائكة إن هؤلاء الكفار إياكم كانوا يوجهون عبادتهم ، حكى ما يجب به الملائكة ، فانهم يقولون ﴿ سبحانك أنت وإلينا ﴾ تنزيهاً لك أن نعبد سواك ، ونتخذ معك معبوداً غيرك ، ويقولون ؛ أنت ياربنا وإلينا أي ناصرنا وأولى بنا ﴿ من دونهم ﴾ يعني دون هؤلاء الكفار ودون كل احد وأنت الذي تقدر على ذلك من دونهم ، فما كنا نرضى بعبادتهم مع علمنا بأنك ربنا وربهم ، ما أمرناهم بهذا ولا رضينا به لهم « بل كانوا يعبدون الجن » بطاعتهم إياهم في ما يدعونهم اليه من عبادة الملائكة . وقيل : انهم صوروا لهم صورة قوم من الجن ، وقالوا هذه صورة الملائكة فاعبدوها ، وهم وإن عبدوا الملائكة ، فإن الملائكة لم يرضوا بعبادتهم إياهم ولا دعواهم اليها ، والجن دعواهم إلى عبادتهم ورضوا به منهم فتوجهه الذم إلى العابد والمعبود ، وفي الملائكة لا يستحق الذم غير العابد ، فلذلك أضرب عن ذكر الملائكة .

ثم حكى تعالى ما يقول للكفار يوم القيامة ، فإنه يقول لهم « فاليوم لا يملك
بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا » ولا يقدر على ذلك « ونقول للذين ظلموا »
نفوسهم بأن تكتب المعاصي « ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون » أي
تجحدونه ، ولا تعترفون به . ثم عاد تعالى إلى الحكاية عن حال الكفار في الدنيا
فقال « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات » أي تقرأ عليهم حججنا واضحات
من القرآن الذي أنزله على نبيه « قالوا » عند ذلك « ما هذا إلا رجل يريد أن
يصدكم عما كنتم عبداً أبائكم ، أي يمنعكم عن عبادة ما كان يعبده آبائكم « وقلوا »
أيضاً « ما هذا » القرآن ، « إلا إفك مفترى » يعني كذب مخترعه وافتراه
« وقال الذين كفروا للحق » يعني القرآن « لما جاءهم إن هذا » أي ليس
هذا « إلا سحر مبين » أي ظاهر ، والسحر حيلة خفية توهم المعجزة .

ثم قال تعالى « وما آتيناهم من كتب يدرسونها » قال الحسن : معناه ما آتيناهم
من كتب قبل هذا الكتاب ، فصدقوا به وبما فيه ان هذا كلام عموماً « وما أرسلنا
اليهم قبلك من نذير » ويجوز أن يكون المراد وما أرسلنا اليهم قبلك يا محمد من
نذير إلا وفعلوا به وقلوا له مثل ما قالوا لك ، وحذف للدلالة الكلام عليه ،
ودلك عليه بقوله « وكذب الذين من قبلهم » بما أتاهم الله من الكتب ، وبما
بعث اليهم من الرسل « وما بلغوا » أي وما بلغ هؤلاء ﴿ معشار ما آتيناهم ﴾
أولئك الكفار ، قال الحسن : معنى معشار أي عشر . والمعنى ما بلغ الذين
أرسل اليهم محمد ﷺ من أهل مكة عشر ما أوتي الأمم قبلهم من القوة والعدة
في قول ابن عباس وقتادة - ﴿ فكذبوا رسلي ﴾ أي كذبوا بآيات الله وجحدوا
رسله ﴿ فكيف كان نكير ﴾ أي عقوبتي وتغييرى لأن الله أهلكتهم واستأصلهم
وهو نكير الله تعالى في الدنيا .

قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بَوَاحِدَةً أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفَرَادِي ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَآمُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ أَهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠) خمس آيات بلا خلاف .

هذا امر من الله تعالى لنبيه ﷺ أن يقول للكفار ﴿ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بَوَاحِدَةً ٠٠٠٠ ﴾ والمعنى يكفيني منكم أن يقوم الرجل وحده أو هو وغيره ثم تتساءلون هل جربنا على محمد كذباً، أو هل رأينا به جنة ؟ ! ففي ذلك دلالة على بطلان ما أنتم عليه وما ذكرتم فيه ، فالوعظ الدعاء إلى ما ينبغي أن يرغب في ما ينبغي أن يجوز منه مما يلين القلب إلى الاستجابة للحق بالنبي ﷺ والنبي اجل وأعظم واكبر داع بما اعطاه الله من الحكمة .

وقوله ﴿ مِثْلِي وَفَرَادِي ﴾ معناه ان تقوموا اثنين اثنين ، وواحدًا واحدًا لئذا كر أحدهما صاحبه ، فيستعين برأيه على هذا الأمر . ثم يجوز بفكرته حتى يكرره حتى يتبين له الحق من الباطل وبني ﴿ مِثْلِي ﴾ وإن لم يكن صفة لانه مما

يصلح ان يوحد ، كما قال تعالى ﴿ أولي اجنحة مثنى وثلاث ورباع ﴾ (١) وهو - ههنا - في موضع حال ، وقال مجاهد في قوله ﴿ اعظمكم بواحدة ﴾ أي بطاعة الله تعالى وقال غيره (بواحدة) بتوحيد الله خصلة واحدة ، فقولوا: لا إله إلا الله . وقوله ﴿ ثم تفكروا ما بصاحبكم ﴾ في موضع نصب عطفاً على ﴿ أن تقوموا لله ﴾ وتفكروا أي وتنظروا وتعتبروا ، ليس بصاحبكم يعني محمداً ﷺ ﴿ من جنة ﴾ أي جنون ، لأنهم كانوا ينسبونهم إلى الجنون وحاشاه من ذلك . ثم بين انه ليس ﴿ إلا نذير ﴾ أي مخوف من معاصي الله وترك طاعاته ﴿ بين يدي عذاب شديد ﴾ يعني عذاب القيامة . ثم قال لنبيه ﷺ يا محمد ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ ما سألتكم من أجر فهو لكم ﴾ وليس ﴿ اجري إلا على الله ﴾ والمعنى أني ابلغكم الرسالة ، ولا اجر لي إلى نفسي عرضاً من اعراض الدنيا بل ثمرة ذلك لكم ، وليس أجري إلا على الله .

وقال ابن عباس ﴿ من أجر ﴾ أي من مودة ، لان النبي ﷺ سأل قريشاً أن يكفوا عن أذاه حتى يبلغ رسالات ربه ﴿ وهو على كل شيء شهيد ﴾ أي عالم به . ثم قال أيضاً ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ إن ربي يقذف بالحق ﴾ أي يلقيه على الباطل ، كما قال تعالى ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ﴾ (٢) ﴿ علام الغيوب ﴾ إنما رفع بتقدير هو علام الغيوب ، ولو نصب على انه نعت ل (ربي) لكان جائزاً ، لكن هذا اجود ، لانه جاء بعد تمام الكلام كقوله ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ (٣) والمعنى انه عالم بجميع ما غاب عن جميع الخلائق علمه .

ثم أمره ﷺ أن يقول لهم قد ﴿ جاء الحق ﴾ يعني أمر الله بالاسلام والتوحيد ﴿ وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ لأن الحق إذا جاء اذهب الباطل فلم يبق له بقية يبدىء بها ولا يعيد . وقال قتادة : الباطل إبليس لا يبدؤ الخلق ولا يعيدهم . وقيل : إن المراد به كل معبود من دون الله بهذه الصفة . وقال الحسن : وما يبدىء الباطل لاهله خيراً ولا يعيد بخير في الآخرة ،

ثم قال ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ إن ضللت ﴾ أي ان عدت عن الحق ﴿ فانما اضل على نفسي ﴾ لأن ضرره يعود عليّ ، لأنني أوأخذ به دون غيري ﴿ وإن اهتديت ﴾ إلى الحق ﴿ فبما يوحى إلي ربي إنه سميع قريب ﴾ أي يسمع دعاء من يدعوه قريب إلى إجابته .

وفي الآية دلالة على فساد قول المجبرة ، لأنه قال ﴿ إن ضللت ﴾ فأضاف الضلال إلى نفسه ، ولم يقل فبقضاء ربي وإرادته .

قال الزجاج : وما يبدىء الباطل أى اي شيء يبدىء الباطل ؟ وأي شيء يعيد ؟ ويجوز ان تكون (ما) نافية ، والمعنى وليس يبدىء إبليس ولا يعيد . قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝ (٥١)
وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَنَا التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝ (٥٢) وَقَدْ
كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝ (٥٣) وَحِيلَ
بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا
فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ۝ (٥٤) أربع آيات بلاخلاف .

قرأ حمزة والكسائي واو عمرو ﴿التناوش﴾ بالهمز . الباقون بغير همز .
يقول الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ولو ترى﴾ يا محمد ﴿إذ فزعوا﴾ من
العذاب يوم القيامة ﴿فلا فوت﴾ أى لا مهرب ولا يفوته . فالفوت خروج
وقت الشيء كفوت الصلاة ، وفوت وقت التوبة وفوت عمل اليوم بانقضائه .
والفزع والجزع والخوف والرعب واحد ، والفزع يتعاضم في الشدة بحسب اسبابه
وقوله ﴿وأخذوا من مكان قريب﴾ قال ابن عباس والضحاك : أخذوا من
عذاب الدنيا . وقال الحسن : حين يخرجون من قبورهم . وقيل : من بطن
الارض الى ظهرها . والمعنى انهم اذا بعثوا من قبورهم ، ولو ترى فزعهم يا محمد
حين لا فوت ولا ملجأ . وجواب (لو) محذوف ، والتقدير لرأيت ما تعتبر به
عبرة عظيمة . وقوله ﴿وقالوا آمنا به﴾ أى يقولون ذلك الوقت آمنا به وصدقنا
به . فقال تعالى ﴿وأنى لهم التناوش من مكان بعيد﴾ قيل : معناه بفوتهم
تناول التوبة في الآخرة الى الدنيا ، والتناوش التناول من قولهم نشته أنوشه اذا
تناولته من قريب ، قال الشاعر :

فهي تنوش الحوض نوشاً من علا نوشاً به تقطع اجواز الفلا (١)
وتناوش القوم اذا دنا بعضهم الى بعض ، ولم يلتحم بينهم قتال ، وقد
همز بعضهم ، فيجوز أن يكون من هذا ، لأن الواو اذا انضمت همزت كقوله
﴿أقمت﴾ (٢) . ويجوز أن يكون من النش وهو الا بطلا ، وانتاشه اخذ به من
مكان بعيد ، ومثله ناشه قال الشاعر :

تمنى نثيشاً أن يكون اطاعني وقد حدثت بعد الأمور امور (٣)

وقال رؤبة :

اقحمني جار ابي الجـاموش اليك فأش اللهـدر المتؤش (١)
﴿ وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ﴾ معناه كيف
تقبل توبتهم أو يردون الى الدنيا ، وقد كفروا بالله ورسوله من قبل ذلك ، وهو
قوله ﴿ بالغيب من مكان بعيد ﴾ يعني قولهم هو ساحر وهو شاعر وهو مجنون .
وقيل : هو قولهم لا بعث ولا جنة ولا نار - ذكره قتادة - وقال البلخي : يجوز
ان يكون اراد انهم يفعلون ذلك بحجة داحضة وأمر بعيد . وقال قوم :
يقذفون بالظن ان التوبة تنفعهم يوم القيامة عن مكان بعيد الا ان في العقل انها
لا تقبل . ثم قال ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ أى فرق بينهم وبين
شهواتهم ، من قبول توبتهم وايصالهم الى ثواب الجنة أو ردهم الى دار الدنيا
﴿ كما فعل ﴾ مثل ذلك ﴿ بأشياعهم من قبل ﴾ وهو جمع الجمع تقول شيعه وشيع
وأشياع ، ولان أشياعهم تمنوا أيضاً مثل ذلك فحيل بينهم وبين تمنيمهم . ثم اخبر
﴿ انهم كانوا في شك من ذلك ﴾ في الدنيا ﴿ مريب ﴾ والريب أقبح الشك
الذى يرتاب به الناس .

وقال سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير قوله « ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت »
نزالت في الجيش الذى يخسف بهم بالبيداء فيبقى رجل يخبر الناس بما رآه ، ورواه
حذيفة عن النبي ﷺ .

(٧) مجاز القرآن ٢ / ١٥١

﴿ ج ٨ م ٥٢ من التبيان ﴾

٣٥ - سورة فاطر

مكية في قول مجاهد وقتادة : لا ناسخ فيها ولا منسوخ ، وبه قال الحسن
إلا آيتين قوله « إن الذين يتلون كتاب الله » إلى قوله « الفضل الكبير » وهي
خمس وأربعون آية عراقي وحجازي إلا اسماعيل . وست وأربعون في عدد
اسماعيل والشاميين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكَةِ
رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ
اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا
مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ
خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
فَأَنِّي مُتَوَفِّكُمْ (٣) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ

وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾ خمس آيات بلاخلاف .

قرأ حمزة والكسائي « هل من خالق غير الله » جراً على أنه صفة لـ (خالق) الباقون - بالرفع - على تقدير هل من خالق هو غير الله ، ويجوز ان يكون التقدير : هل غير الله من خالق ، ويجوز أن يكون رفعاً على موضع (من) وتقديره هل خالق غير الله .

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ قل يا محمد « الحمد لله » أي الشكر له على جميع نعمه « فاطر السموات والارض » أي خالقهما ومخترعهما . والفطر الشق عن الشيء باظهـاره للحس ، ومعنى فطر السموات والارض أي خلقهما وأظهرهما للحس بعد ان لم تكونا ظاهرتين ، وروى عن ابن عباس أنه قال : ما كنت أدري ما معنى فطر السموات حتى احتكم إلي اعرابي في بئر ، فقال أحدهما أنا فطرتها ، أي اخترعتها وابتدأتها . ومن كان خالق السموات والارض لا يفعل إلا ما يستحق به الشكر والحمد ، لأنه غني حكيم ، فلا يعدل عما يستحق به الحمد إلى مالا يستحق به ذلك .

وقوله « جاعل الملائكة رسلاً » أي جعل الملائكة رسلاً بعضهم إلى بعض وبعضهم إلى البشر . ثم ذكر اوصافهم وهو أنهم « أولي اجنحة » أي اصحاب أجنحة « مثنى وثلاث ورباع ٠٠٠٠ » أي اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة واربعة اربعة ، فهذه الألفاظ معدولة عن الاثنين والثلاث والاربع ، مع انها

صفات فلذلك ترك صرفها قال الشاعر :

ولكنما أهلي بواد أنيسه ذئاب تبغي الناس مثني وموحد (١)
 وإنما جعلهم أولي أجنحة ، ليتمكنوا بها من العروج إلى السماء ومن
 النزول إلى الأرض ، قال قتادة : منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ومنهم
 من له أربعة ، ثم قال « يزيد في الخلق ما يشاء » قيل حسن الصوت وقيل
 من الأجنحة من حيث خلق للملائكة زيادة عما خلق لسائر الخلق من البشر
 والامم . فان قيل : الطائر لا يحتاج إلى أكثر من جناحين فما معنى خلق الملائكة
 أولي ثلاث وأربع ؟ قيل : يجوز أن يكون كل جناح بعليه باثنين ، ويجوز أن
 يكون الزينة الزائدة ، وقد يكون للسمة أجنحة في ظهرها . ثم بين « أن الله
 على كل شيء قدير » أي لا شيء إلا وهو تعالى قادر عليه بعينه أو قادر على مثله .
 ثم قال تعالى « ما يفتح الله للناس من رحمة » معنى (ما) الذي وتقديره
 الذي يفتح الله للناس من نعمة ورحمة « فلا ممسك لها وما يمسك » من نعمة على
 خلقه « فلا مرسل له من بعده » أي من بعد الله « وهو العزيز » يعني القادر
 الذي لا يقهر « الحكيم » في جميع أفعاله ، إن انعم وإن أمسك ، لأنه عالم
 بمصالح خلقه لا يفعل إلا ما لهم فيه مصلحة في دينهم أو دنياهم .

ثم خاطب المؤمنين فقال « يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم » بأن
 خلقكم وأوجدكم وأحياكم وأقدركم وشهاكم ، وخلق لكم المنافع التي تنتفعون بها
 « هل من خالق غير الله » تقريراً لهم على أنه لا خالق غير الله في السموات
 والأرض « يرزقكم من السماء » بالمطر ومن « الأرض » بالنبات « لا إله إلا هو ،
 أي لا معبود يستحق العبادة سواه تعالى . فأنى تؤفكون » أي كيف تقلبون

عن طريق الحق إلى الضلال . وإنما قال « هل من خالق غير الله » وإن كل من
أحدنا يخلق الشيء . لأن هذه الصفة لا تطلق إلا عليه تعالى ، فاما غيره فانهما
تقيد له . وايضاً فقد فسر ما أراد وهو أنه هل من خالق رازق للخلق من
السموات والأرض غير الله أي لا خالق على هذه الصفة إلا هو . هذا صحيح
لأنه لا أحد يقدر على ان يرزق غيره من السماء والأرض بالمطر والنبات
وأنواع الثمار .

ثم قال تعالى تعزية للنبي ﷺ وتسلية له عن تكذيب قومه إياه « وإن
يكذبوك » يا محمد هؤلاء الكفار « فقد كذبت رسل من قبلك » أرسلهم الله
فكذبوهم ولم يقبلوا منهم فلك أسوة بمن كان قبلك « وإلى الله ترجع الأمور »
يعني ترد الأمور الى حيث لا يملك التصرف فيها مطلقاً غير الله يوم القيامة .

ثم خاطب الخلق فقال « يا أيها الناس إن وعد الله حق » يعني ما وعدهم
به من البعث والنشور والجنة والنار صحيح كائن لا محالة « فلا تغرنكم الحياة
الدنيا » فتغترون بملاذها وزينتها وتتركون ما امركم الله به وترتكبون ما نهاكم
عنه « ولا يغرنكم بالله الغرور » فالغرور هو الذي عادته ان يغر غيره ، والدنيا
وزينتها بهذه الصفة ، لأن الخلق يغترون بها ، وقال الحسن الغرور الشيطان
الذي هو إبليس ، وهو قول مجاهد . والرزق يطلق على وجهين :

أحدهما - ان الله جعله يصلح للغذاء يتغذى به الحيوان والملبس يلبسونه
فالعباد من هذا الوجه لا يأكلون ولا ينتفعون إلا بما جعله الله رزقاً لهم .
والثاني - انه ملكه الله وحكم انه له فهم يتظالمون من هذا الوجه .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ أَلَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْنُشُورُ (٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ ﴾ (١٠) .

خمس آيات حجازي وكوفي ، وست بصري وشامي ، عدد البصريون والشاميون ﴿ شديد ﴾ ولم يعده الباقون .

قرأ أبو جعفر ﴿ فلا تذهب ﴾ بضم التاء وكسر الهاء ﴿ نفسك ﴾ بنصب السين .
الباقون - بفتح التاء والهاء ، ورفع السين .

يقول الله تعالى مخبراً لخلقه من البشر ﴿ إن الشيطان لكم عدو ﴾ فيعدل

بكم عن افعال الخير ويدعوكم إلى ما فيه الهلكة ، فالعداوة ضد الولاية ، ولا يجوز ان يكون احد عدواً من وجه ولياً من وجه ، كما لا يجوز أن يكون موجوداً من وجهه معدوماً من وجهه ، لان الصفتين متنافيتان . ثم امرهم بأن يتخذوا الشيطان عدواً كما هو عدوهم ، وبين تعالى أن الشيطان ليس يدعو إلا حزبه أي اصحابه وجنده ، وهم الذين يقبلون منه ويتبعونه . وبين أنه إنما يدعوهم ليكونوا من اصحاب السعير بارتكاب المعاصي والكفر بالله تعالى ، والسعير النار المستعرة .

ثم اخبر تعالى ﴿ إن الذين كفروا ﴾ بآيات الله ويكذبون رسله ﴿ لهم عذاب شديد ﴾ جزاء على كفرهم وتكذيبهم ، وإن ﴿ الذين آمنوا وعملوا ﴾ الأفعال ﴿ الصالحات لهم مغفرة ﴾ من الله لذنوبهم ولهم ﴿ أجر ﴾ أي ثواب ﴿ كبير ﴾ ثم قال مقررآ لهم ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ يعني الكفار زينوا نفوسهم لهم أعمالهم السيئة فتصوروها حسنة او الشيطان يزنيها لهم فيميلهم الى الشبهة وترك النظر في الأدلة الدالة على الحق باغوائه حتى يتشاغلوا بما فيه اللذة وطرح الكلفة .

وخبر (من) في قوله ﴿ أفمن زين له سوء عمله ﴾ محذوف وتقديره يتحسر عليه ، وقيل : إن الخبر قوله ﴿ فان الله يضل من يشاء ﴾ إلا أنه وقع ﴿ من يشاء ﴾ موقعه . وقيل : جواب ﴿ افمن زين ﴾ محذوف بتقدير : كمن علم الحسن من القبيح ، وعمل بما علم . وقيل : كمن هداه الله .

وفي ذلك دلالة على بطلان قول من يقول : إن المعارف ضرورة ، لأنه دل على انهم رأوا اعمالهم السيئة حسنة . وهذا رأي فاسد ، ثم قال لنبيه ﷺ ناهياً له ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم ﴾ يا محمد ﴿ حسرات ﴾ . ومن فتح التاء جعل

الفعل للنفس . والحسرة شدة الحزن على ما فات من الأمر ﴿ إن الله عليم بما يصنعون ﴾ من المعاصي والطاعات فيجازيهم بحسبها .

ثم قال ﴿ والله الذي ارسل الرياح فتنير سحاباً ﴾ أي تنشئه وتجمعه وتجيء به وتحركه ﴿ فسقناه ﴾ أي فساقه الله ﴿ إلى بلد ميت ﴾ لم يمطر أي قحط وجذب فيمطر على تلك الأرض فيحيي بذلك الماء والمطر الأرض بعد موتها بالزرع بعد أن لم يكن فيها زرع . ثم قال : كما فعل هذا بهذه الأرض الجذبة القحطة من احيائها بالزرع بعد أن لم يكن فيها زرع مثل ذلك ينشر الخلائق بعد موتهم ويحشرهم إلى الموقف للجزاء من ثواب وعقاب . وقيل : إن الله تعالى اذا اراد احياء الخلق امطر السماء أربعين يوماً فینبت بذلك الخلق نباتاً .

ثم قال تعالى ﴿ من كان يريد العزة ﴾ يعني القدرة على القهر والغلبة ﴿ فله العزة جميعاً ﴾ أي له القهر على جميع الاشياء لا يقدر احد ان يمنعه مما يريد فعله به . وقيل : معناه من كان يريد علم العزة لمن هي ، فهي لله . وقيل : معناه من اراد العزة فليطع الله حتى يعزه ،

وقوله ﴿ اليه يصعد الكلم الطيب ﴾ قيل : معناه انه تعالى يقبله ويثيب عليه . وقيل : اليه يصعد اي الى حيث لا يملك الحكيم فيه إلا الله ، كما يقال : ارتفع امرهم الى القاضي . وقوله ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ اي يقبله . وقيل : في الضمير الذي في (يرفعه) ثلاثة اوجه : احدها - يرفع الكلم الطيب من الفعل .

الثاني - يرفعه الكلم الطيب . الثالث - يرفعه الله .

ثم قال ﴿ والذين يمكرون السيئات ﴾ اي يحتالون لفعل السيئات من الشرك والكبائر . وقيل : هم اصحاب الرياء ﴿ لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ﴾ قال قتادة : معناه مكرهم يفسد . وقيل : معنى يبور يكسد ، فلا ينفذ في ما يريدون

وقال مجاهد : هو ما عمل الرياء فانه يفسد ، قال ابن الزبيرى :

يارسول المليك ان لسانى راتق ما فتقت اذ انا بور (١)

قوله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا
وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا
يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَمَا
يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ
وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا
وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازٍرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ (١٢) يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنَّ
تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ
الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) يَا أَيُّهَا

(١) مرتخریجة فی ٦ / ٢٩٤ و ٧ / ٤٧٩

(ج ٨ م ٥٣ من التبيان)

النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَاكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧)

ست آيات بصرى وسبع في ما عداها عدوا ﴿بخلق جديد﴾ ولم يعده البصريون .
 قرأ يعقوب ولا ﴿ينقص من عمره﴾ بفتح الياء وضم القاف . الباقون على
 ما لم يسم فاعله . وقرأ قتيبة ﴿والذين تدعون﴾ بالتاء على الخطاب . الباقون
 بالياء على الخبر .

هذا خطاب من الله سبحانه لجميع خلقه من البشر انه خلقهم من تراب ،
 ويريد ان آدم الذى هو ابوهم ومنه اتسلوا خلقه من تراب ومنه توالدوا .
 وقيل : إن المراد به جميع الخلق ، لانهم إذا خلقهم من نطفة والنطفة تستحيل
 من الغذاء ، والغذاء يستحيل من التراب ، فكأنه خلقهم من تراب ، ثم جعل
 التراب نطفة بتدريج . وعلى الأول يكون قوله « ثم من نطفة » معناه ثم خلق
 اولاد آدم من نطفة ثم استثننا منه عيسى في قوله « إن مثل عيسى عند الله كمثل
 آدم خلقه من تراب » (١) فقوله « ثم جعلكم ازواجاً » أي اشكالا ، لان
 الزوج هو الذي معه آخر من شكله ، والاثنان زوجان « وما تحمل من أنثى
 ولا تضع إلا بعلمه » معناه ليس تحمل الانثى من حمل يولد ولا تضعه لتمام ولغير
 تمام إلا والله تعالى عالم به ، لا أن علمه آلة في ذلك ، ولا يدل ذلك على أن له .
 علماً يعلم به ، لأن المراد ما ذكرناه من انه لا يحصل شيء من ذاك إلا وهو
 عالم به .

وقوله « وما يعمر من معمر » والعمر مدة الأجل للحياة وهو تفضل من

الله سبحانه وتعالى يختلف مقداره بحسب ما يعلم من مصالح خلقه ، كما يختلف الغنى والفقر ، والقوة والضعف ، والمعنى : وليس يطول عمر احد ولا ينقص من عمره بأن يذهب بعضه بمضي الليل والنهار إلا وذلك في الكتاب المحفوظ أثبتته الله تعالى قبل كونه . وقال الحسن والضحاك وابن زيد : معنى « ولا ينقص من عمره » أي من عمر معمر آخر ، وقال ابو مالك : معناه ولا ينقص من عمره ينقضي ما ينقضي منه . وقال الفراء : هو كقوالك : عندي درهم ونصفه أي ومثل نصف الدرهم من غيره .

ثم قال ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ يعني تعمير من يعمره ونقصان من ينقصه وإثبات ذلك في الكتاب سهل على الله غير متعذر .

ثم قال تعالى ﴿ وما يستوي البحران ﴾ أي لا يستويان لان ﴿ هذا عذب فرات سائغ شرابه ﴾ أي مریء شهی ﴿ وهذا ﴾ الآخر ﴿ ملح أجاج ﴾ فالفرات أعذب العذب والأجاج أشد المر . والأجاج مشتق من أججت النار كأنه يحرق من مرارته . و ﴿ اللؤلؤ والمرجان ﴾ (١) يخرج من الملح دون العذب . وقيل : في الملح غيون عذبة ، وفي ما بينهما يخرج اللؤلؤ .

ثم قال ﴿ ومن كل ﴾ يعني من البحرين العذب والأجاج ﴿ تأكلون لحماً طرياً ﴾ يعني سميكاً ﴿ وتستخرجون حلية تلبسونها ﴾ من اللؤلؤ والمرجان ﴿ وترى الفلك ﴾ يعني السفن ﴿ فيه مواخر ﴾ أي تشق الماء في جريانها شقاً . وقيل : معناه إنها تذهب وتجيء ، بلغة قريش وهذيل . وقال الحسن : يعني مواخير كقوله ﴿ الفلك المشحون ﴾ (٢) ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ معناه إنه تعالى خلق ذلك لخلق

(١) سورة ٥٥ الرحمن آية ٢٢ (٢) سورة ٢٦ الشعراء آية ١١٩

وسورة ٣٦ يس آية ٤١ وسورة ٣٧ الصافات آية ١٤٠

ليلتمسوا من فضل الله بركوب البحر للتجارة والمسير فيها طلباً للمنافع وما يخرجون منها من انواع الاشياء لكي يشكروا الله على نعمه ويحمده على فضله ثم قال ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ معناه انه ينقص من الليل في النهار عند منقلب الصيف ، ومن النهار في الليل عند منقلب الشتاء . وقيل : معناه انه يدخل كل واحد منهما على صاحبه ويتعقبه ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى ﴾ قدره الله لهما بحسب ما علم من مصالح خلقه إلى الوقت الذي يفنيهما الله فيه . فتسخير الشمس نزولها في بروج مخصوصة في أوقات مخصوصة كل فصل منها لنوع آخر من المنافع لا يختلف الحال فيه ، وتسخير القمر جريانه على وتيرة واحدة ، فيستدل به على السنين والشهور ، وذلك يدل على أن مدبره عالم حكيم .

ثم قال ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ الذي يقدر على تسخير الشمس والقمر ، وإيلاج الليل في النهار والنهار في الليل وخلق البحرين العذب والمالح ، ومنع أحدهما أن يختلط بالآخر لا يقدر عليه غيره ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ وتوجهون عبادتكم إليهم من الاصنام والاولثان ﴿ ما يملكون من قطير ﴾ وهو قشر النواة - في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وعطية - فدل على أن من لا يملك هذا القدر لا يستحق العبادة ولا يكون إلهاً .

ثم قال ﴿ إن تدعوهم ﴾ يعني الاصنام ﴿ لا يسمعون دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ﴾ لانها جمادات يستحيل ذلك عليها ، ولا يقدر على ضرر ولا نفع ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ قيل : إن الله تعالى يحيي الاصنام يوم القيامة لينكروا على المشركين ، ويوبخوهم على عبادتهم إياهم . وقال البلخي : يجوز ان يكون المراد به الملائكة وعيسى . وقوله ﴿ لا يسمعون ﴾

دعاءكم ﴿أي هم بحيث لا يسمعونهم أو هم مشتغلون عنهم لا يلتفتون إليهم ولا يصغون ويجوز أن يكون المراد بها الأصنام ويكون ما يظهرونه من بطلان ما ظنوه ككفرًا بشركم وجحدًا له كما حصل ما في الجداد من الدلالة على الله مسبحًا له وهو كقولهم: سل الأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك، فإن لم تجبك حوارًا اجابتك اعتبارًا ﴿ولا ينبئك﴾ يا محمد بالشيء على حقيقته ﴿مثل خير﴾ عالم بما أخبر، والله تعالى هو العالم بالاشياء على حقائقها.

ثم قال تعالى ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله﴾ أي محتاجون إليه ﴿والله هو الغني﴾ عن جميع المخلوقات لا تجوز عليه الحاجة، لأنه ليس بجسم فالحاجة من صفة الأجسام ﴿الحميد﴾ يعني الحمود المستحق للحمد على جميع أفعاله، والله تعالى لا يفعل إلا ما يستحق به حمدًا.

ثم أخبر تعالى عن قدرته فقال ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ معاشر الخلق ويفنيكم ﴿ويأت بخلق آخر﴾ جديد ﴿وهو ما كان قريب عهد بانقطاع العمل عنه، واصله القطع من جده يحده إذا قطعه. والجد أبو الأب لا تقطاعه عن الولادة بالأب والجد الماضي فيه بقطعه أولًا أولًا من غير تفتير﴾ وما ذلك على الله بعزيز ﴿أي بمتنع فالعزيز المنيع بوجه من الوجوه الذي يتعذر معها الفعل.

قوله تعالى:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَهُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا
الْظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا
يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ
بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) .

ست آيات حجازي وكوفي وخمس آيات شامي واربع آيات بصري عد
الحجازيون والكوفي والشامي «البصير» و «النور» ولم يعده البصري وعد الحجازيون
والعراقيون « القبور » ولم يعده الشامي .

يقول الله تعالى مخبراً حسب ما تقتضيه حكمته وعدله أنه « لا تزر وازرة وزر
أخرى » معناه أنه لا تحمل حامله حمل أخرى من الذنب ، والوزر الثقل ، ومنه الوزير
لتحمله نقل الملك بما يتحمله من تدبير المملكة ، وتقديره أنه لا يؤاخذ أحد بذنوب
غيره ، وإنما يؤاخذ كل مكلف بما يقترفه من الاثم .

وقوله « وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى »
معناه وإن تدع مثقلة بالآثام غيرها - لا تتحمل عنها بعض الاثم لا يحمل عنها شيئاً
من آثامها ، وإن كان أقرب الناس إليها ، لما في ذلك من مشقة حمل الآثام
ولو تحملته لم يقبل تحملها ، لما فيه من مجانبة العدل ومنافاته له ، فكل نفس بما
كسبت رهينة ، لا يؤاخذ أحد بذنوب غيره ، ولا يؤاخذ إلا بجنائته .

وقوله « إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب » معناه ليس يذفع بتخويفك
يا محمد إلا الذين يخشون ربهم في غيبتهم وخلواتهم فيجتنبون معاصيه في سرهم
ويصدقون بالآخرة .

وقوله « واقاموا الصلاة » قال ابو عبيدة في مجازة : اي وقيمون ، فوقع الماضي مقام المستقبل ، والمعنى يديمون فعلها ويقومون بشرائها . وإنما عطف الماضي على المستقبل إشهاراً باختلاف المعنى ، لان الحسنة لازمة في كل وقت والصلاة لها اوقات مخصوصة ، و اضاف الانذار إلى الذين يخشون ربهم من حيث كانوا هم المنتفعون بها ، وإن كان النبي ﷺ ينذر كل مكلف .

ثم قال « ومن تزكى » أي فعل الطاعات وقام بما يجب عليه من الزكاة وغيرها من الواجبات فانما يتزكى لنفسه ، لان ثواب ذلك ونفعه عائد عليه . وقوله « وإلى الله المصير » معناه يرجع الخلق كلهم الى حيث لا يملك الأمر والنهي إلا الله ، فيجازي كل مكلف على قدر عمله . وقوله « وما يستوي الأعمى والبصير » معناه لا يتساوى الأعمى عن طريق الحق والعادل عنها ، والبصير الذي يهتدي إليها قط ، لأن الأول يستحق العقاب ، والثاني يستحق الثواب « ولا الظلمات ولا النور » يعني وكذلك لا يستوي المؤمن والكافر والمطيع والعاصي فشبه الايمان بالنور والكفر بالظلمات ، وكذلك لا يستوي « الظل ولا الحرور » فالظل هو الستر عن موقع الشمس ومنه الظلة ، وهي السترة عن موقع الشمس ، ومنه قولهم : ظل يفعل كذا إذا فعل زهارة في الوقت الذي يكون للشمس ظل ، والحرور السوموم وهو الريح الحارة في الشمس ، وقال الفراء : الحرور يكون بالليل والنهار والسوموم لا يكون إلا بالنهار . وقيل : الظل الجنة والحرور النار ، وما يستوي الاحياء ولا الاموات « أيها ايضاً لا يتساويان ولا يتماثلان ، فالاسواء حصول أحد الشيثيين على مقدار الآخر ، ومنه الاستواء في العود والطريق خلاف الاعوجاج ، لمره على مقدار أوله من غير انعдал . وهذه الأمثال أمثال ضربها الله لعبادة الله وعبادة الأوثان ، وبين أنه كما

لا تماثل هذه الاشياء ، ولا تتشاكل ولا تتساوى ، فكذلك عبادة الله لا تشبه عبادة الاصنام .

ثم قال تعالى « إِنْ اللَّهُ يَسْمَعُ مِنْ يَشَاءَ » ومعناه أن الله ينفع بسمع ذلك من يشاء ممن يعلم أن له لطفاً يفعل به دون غيره « وما أنت بمسمع من في القبور » أي لانك لا تقدر على نفع الكفار بسماعك إياهم إذا لم يقبلوا ، كما لا تسمع من في القبور من الأموات « ان أنت إلا نذير » أي لست إلا نذيراً مخوفاً بالله . شبه الكفار في تركهم قبول ما يسمعون وذهابهم عن تفهمه وتدبره بالموتى ، كما شبههم بالصم والعمي ، يقال : أصمهم وأعمى أبصارهم ليس أنهم كانوا لا يسمعون ولا يفهمون أو كان النبي ﷺ لا ينذرهم لكن على ما بيناه من التشبيه . وقيل في (لا) قولان : أحدهما - أنها زائدة مؤكدة للنفي . الثاني - أنها باقية لاستواء كل واحد منهما لصاحبه على التفصيل . فمن قال : إنها زائدة قال في مثل قولهم لا يستوي زيد ولا عمرو في هذا المعنى ، فلا تكون هنا إلا زائدة ، ومن قال : ليست زائدة ، قال تقديره لا يستوي الاعمى والبصير ولا يساوي البصير الاعمى .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (٢٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿ (٢٦) ثلاث آيات بلا خلاف .

لما قال الله تعالى لنبيه إن أنت إلا نذير ، ومعناه لست إلا مخوفاً من عقاب الله ومعاصيه قال له « انا ارسلتك يا محمد « بالحق » أي بالدين الصحيح « مبشراً أي مبشراً بالجنة وثواب الله لمن أطاعه » ونذيراً أي مخوفاً من عقابه لمن عصاه » وإن من أمة « أي ليس من أمة في ما مضى إلا مضى فيها مخوف من معاصي الله . وقال قوم : المعنى « إلا خلافيها نذير » منهم وقال آخرون : نذير من غيرهم ، وهو رسول اليهم ، كما أرسل نبينا ﷺ إلى العرب والعجم . وقال الجبائي : في ذلك دلالة على أنه لا أحد من المكلفين إلا وقد بعث الله اليهم رسولاً ، وأنه أقام الحجة على جميع الامم .

ثم قال على وجه التسلية له والتعزية عن تكذيب قومه اياه « فان كذبوك يا محمد ولم يصدقوك في انك نبي من قبل الله » فقد كذب الذين من قبلهم « من الكفار أنبياء أرسلوا اليهم » جاءتهم رسالهم « من الله » بالبينات « أي الحجج الواضحات » وبالزبر « يعني بالكتب » وبالكتاب المذير « الموضح بمنزلة ما فيه من نور يستضاء به » والزبر هي الكتب ، وإنما كرر ذكر الكتاب ، وعطف عليه ، لاختلاف الصنفين ، لان الزبر الكتابة الثابتة كالنقش في الحجر ، ثم بين تعالى ان الكفار لما كذبوا رسل الله الذين جاؤهم بالبينات ولم يعترفوا بنبوتهم انه اخذهم بالعذاب وبالعقوبة العاجلة واهلكهم ودمر عليهم .

قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ﴾
(ج ٨ م ٥٤ من التبيان)

وَعَرَابِيبُ سُودٍ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ
 أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
 غَفُورٌ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا
 مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُؤْفَفِهِمْ
 أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) أربع
 آيات بلاخلاف .

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه والمراد به جميع المكلفين منبها لهم على
 طريق الاستدلال على وحدانيته واختصاصه من الصفات بما لا يختص به سواه
 بأن قال « ألم تر » يا محمد ومعناه ألم تعلم « ان الله أنزل من السماء ماء » يعني
 غيثاً ومطراً « فأخرجنا به » اخبار منه تعالى عن نفسه انه أخرج بذلك الماء
 « ثمرات » جمع ثمرة ، وهي ما يجتنى من الشجر « مختلفاً ألوانها » لان فيها الاحمر
 والابيض والاصفر والاخضر وغير ذلك ، ولم يذكر اختلاف طعومها وروائحها
 لدلالة الكلام عليه . والاختلاف هو امتناع الشيء من ان يسد مسد صاحبه في ما
 يرجع إلى ذاته ألا ترى أن السواد لا يسد مسد البياض ، وذلك لا يقدر عليه
 سواه تعالى من جميع المخلوقين « ومن الجبال جدد » واحده جده نحو مدة ومدد
 واما جمع جديد فجدد - بضم الدال - مثل سرير وسرر . والجدد الطرائق
 بيض وحمرة مختلف ألوانها وغرايب سود ﴿ واحد الغرايب غريب وهو الذي
 لونه كلون الغراب من شدة سواده ، ولذلك قال (سود) لانه دل عليه من هذا

الوجه ، ثم بين بالافصاح أنها سود ، قال امرؤ القيس :

كأن سراته وجدة متنه كئنا من محري فوقهن دليص (١)

يعني بالحدة الخطاة السوداء تكون في متن الحمار ، والكئنا من جمع كئناه ، والدليص الذي يبرق من الذهب والفضة وما أشبهها ، فالجدد هي ألوان الطرق .
ثم قال ﴿ ومن الناس ﴾ أيضاً ﴿ ومن الدواب ﴾ التي تدب على وجه الأرض ﴿ والانعام ﴾ كالابل والبقر والغنم ﴿ مختلف ألوانه ﴾ ايضاً مثل ذلك مما في الجبال والثمار ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ما قدمنا ذكره .

ثم قال ﴿ انما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ومعناه ليس يخاف الله حق خوفه ولا يحذر معاصيه خوفاً من عقابه إلا العلماء الذين يعرفون حقيقة ذلك فأما الجهال ومن لا يعرف الله فلا يخافونه مثل ذلك ، وكذلك ينظر العلماء في حجج الله وبياناته ويفكرون في ما يفضي بهم إلى معرفته من جميع ما تقدم ذكره ثم اخبر تعالى فقال ﴿ إن الله عزيز ﴾ في انتقامه من أعدائه ﴿ غفور ﴾ لأوليائه والتائبين من خلقه الراجعين إلى طاعته .

ثم قال ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله ﴾ يعني يقرؤون القرآن ويعملون بما فيه ﴿ واقاموا الصلاة وانفقوا ﴾ في طاعة الله ﴿ مما رزقناهم ﴾ أي مما رزقهم الله وملكهم التصرف فيه ﴿ سرّاً وعلانية ﴾ أي في حال سرهم ، وفي حال علانيتهم ﴿ يرجون ﴾ في موضع الحال أي راجيين بذلك ﴿ تجارة لن تبور ﴾ أي لا تكسد . وقيل : لا تفسد ، يقال بارت السوق إذا كسدت وبار الطعام ، وبار الشيء إذا فسد ، قال الشاعر :

يا رسول الملك إن اساني راتق ما فتقت إذ أنا بور (١)
ثم بين انهم يقصدون بذلك أن يوفيهم الله أجور ما عملوا من الطاعات
بالثواب ويزيدهم من فضله زيادة على قدر استحقاقهم ، لانه وعد بأن يعطي
الواحد عشرة ﴿ إنه غفور ﴾ لعباده سائر لدنوبهم ﴿ شكور ﴾ معناه إنه يعامل
بالاحسان معاملة الشاكر . وقال الجبائي : وصفه بأنه شكور مجاز ، لان معناه
انه يجازي على الطاعات .

قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا
بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ
الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ
وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير (٣٢)
جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا
وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا
الْحُزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ
مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿ (٣٥)
خمس آيات بلا خلاف .

قرأ أبو عمرو ﴿يدخلونها﴾ بضم الياء على ما لم يسم فاعله ليشاكل قوله تعالى ﴿يحلون﴾ . الباقون بفتح الياء ، لانهم إذا أدخلوها فقد دخلوها ، والمعنيان متقاربان .

يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿والذي أوحينا إليك﴾ يا محمد وأنزلناه عليك ﴿من الكتاب﴾ يعني القرآن ﴿هو الحق﴾ معناه هو الصحيح الذي معتقده على ما هو به . وضده الباطل ، وهو ما كان معتقده لاعلى ما هو به . والعقل يدعو إلى الحق ويصرف عن الباطل ، وقوله ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ معناه مصدقاً لما قبله من الكتب بأنه جاء موافقاً لما بشرت به تلك الكتب من حاله وحال من أتى به . ثم قال ﴿إن الله﴾ تعالى بعباده ﴿لخير﴾ أي عالم بهم ﴿بصير﴾ بأحوالهم لا يخفى عليه شيء منها فيجازيهم على استعمال الحق بالثواب وعلى استعمال الباطل بالنار . ثم قال ﴿ثم أورثنا الكتاب﴾ يعني القرآن أورثناه من أصطفيناه من عبادنا . ومعنى الارث انتهاء الحكم اليه ومصيره لهم ، كما قال تعالى ﴿وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ (١) وقيل المراد أورثناهم الايمان بالكتب السالفة وكان الميراث انتقل الشيء من قوم إلى قوم . والأول أصح . والأصطفاء الاختيار باخراج الصفوة من العباد ، فاصطفى الله المؤمن يحمل على ثلاث طبقات مؤمن ظالم لنفسه بفعل الصغيرة ، ومقتصد بالطاعات في المرتبة الوسطى ، وسابق بالخيرات في الدرجة العليا ، وهم الذين لم يرتكبوا شيئاً من المعاصي ، وكل وعد الله الحسنى ، والذين اصطفاهم الله وأورثهم الكتاب قيل : هم الانبياء فمنهم ظالم لنفسه يعني أصحاب الصغائر . وقيل : هم اصحاب النار ، هذا من قول من أجاز على الانبياء الصغائر دون الكبار ، فأما

من لا يجوز عليهم شيئاً من المعاصي أصلاً لا صغيرة ولا كبيرة يقول : معنى الآية إن الله تعالى أورث علم الكتاب الذي هو القرآن الذين اصطفاهم واجتباهم واختارهم على جميع الخلق من الانبياء المعصومين ، والأئمة المنتجبين الذين لا يجوز عليهم الخطأ ولا فعل القبيح لا صغيراً ولا كبيراً ، ويكون قوله ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ راجعاً إلى (عباده) وتقديره فمن عبادنا ظالم لنفسه ، ومن عبادنا مقتصد ، ومن عبادنا سابق بالخيرات ، لأن من اصطفاه الله لا يكون ظالماً لنفسه ، فلا يجوز أن ترجع الكناية إلى الذين اصطفينا وقوله « بالخيرات » يعني يعلم من اقتصد أو ظلم نفسه أو سبق بالخيرات ،

ثم قال ﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ يعني السابق بالخيرات هو الفضل العظيم الذي لا شيء فوقه . وقال ابن عباس : الذين أورثهم الله الكتاب هم أمة محمد ، ورثهم الله كل كتاب أنزله ، فظالمهم يغفر له ، ومقتصدهم يحاسبهم حساباً يسيراً وسابقهم يدخلون الجنة بغير حساب . وقال ابن مسعود - بذلك - وكعب الاحبار . وقال الثلاث فرق - المذكورة في هذه الآية - كلهم في الجنة . وقال عكرمة عن ابن عباس : إن المصطفين من هذه الأمة الأنبياء ، والظالم لنفسه هو المنافق والمقتصد والسابق بالخيرات في الجنة ، والمنافق في النار . وقال الحسن ومجاهد : السابق بالخيرات من جميع الناس ، والظالم لنفسه أصحاب المشئمة ، والمقتصد أصحاب الميمنة من الناس كلهم . وهذا مثل ما قلناه من ان الكناية راجعة إلى العباد دون المصطفين ، وقال البلخي : الاصطفاء - ههنا - التكليف دون الثواب ، فعلى هذا يجوز أن ترجع الكناية الى المصطفين .

ثم قال « جنات عدن » فرفع جنات على تفسير الفوز ، كأنه قيل : ما ذلك الفوز ؟ فقال هي جنات أي جزاء جنات أو دخول جنات ، ويجوز أن يكون

بدلاً من الفوز ، كأنه قال ذلك جنات أي دخول جنات ، والجنات هي البساتين التي يجنحها الشجر ، والعدن الإقامة « يدخلونها » يعني من تقدم ذكره من الذين سبقوا بالخيرات والمقتصدين « يحلون فيها » بمعنى يلبسون فيها الحلي « من أساور من ذهب » وأساور جمع أسوار ، ومن قال سوار جمعه على أسورة « من ذهب وأؤلؤ » فيمن جر ، ومن نصب « لؤلؤاً » وهو نافع وعاصم فعلى تقدير ويحلون فيها لؤلؤاً « ولباسهم فيها حرير » معناه إن ما يلبسه أهل الجنة من اللباس ابريسم محض .

ثم اخبر تعالى عن حال من يدخل الجنة أنهم إذا دخلوها « قالوا الحمد لله » أي اعترافاً بنعمة الله وشكراً له على نعمه ، وهو الاعتراف منهم على وجه الاجراء ، لهم في ذلك سرور لا على وجه التكليف « الذي أذهب عنا الحزن » ومعناه أذهب الغم عنا بخلاف ما كما عليه في دار الدنيا . وقيل : الحزن الذي أصابهم قبل دخول الجنة ، فانهم يخافون من دخول النار إذا كانوا مستحقين لها ، فاذا تفضل الله عليهم بأن يسقط عقابهم ويدخلهم الجنة حمدوا الله على ذلك . وقيل : ما كان ينالهم في دار الدنيا من أنواع الاحزان والاهتمام بأمر المعاش والخوف من الموت وغير ذلك « إن ربنا الغفور شكور » لذنوب عباده إذا تابوا مجاز لهم على شكرهم لنعمه . وقيل : إن مكافاته لهم على الشكر لنعمه والقيام بطاعاته جرى مجرى أن يشكره لهم وإن كان حقيقة لا يجوز عليه تعالى من حيث كان اعترافاً بالنعمة ، ولا يصح عليه تعالى أن يكون منعماً عليه ، ثم وصفوا الله تعالى بأن قالوا « الذي أحلنا » أي أنزلنا دار المقامة يعني دار الإقامة وإذا فتحت الميم كان المراد موضع القيام قال الشاعر :

يومان يوم مقامات واندية ويوم سير إلى الاعداء تأويب (١)
 و « من فضله لا يمسنها فيها نصب » يعني تعب . وقال قتادة : معناه وجع
 « ولا يمسنها فيها لغوب » يعني اعياء . وقيل ! اللغوب العناء . ومنه قوله تعالى
 « وما مسندنا من لغوب » (٢) .

قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا
 وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ (٣٦) وَهُمْ
 يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ
 أَوْ لَمْ تُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ
 فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلَائِفَ
 فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ
 عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا لَا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩)
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا
 خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا

فَهُمْ عَلَىٰ يَبِينَتٍ مِنْهُ ۚ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ خمس آيات بلاخلاف .

قرأ أبو عمرو وحده « يجزى » بضم الياء على ما لم يسم فاعله . الباقيون بالنون على وجه الاخبار من الله عن نفسه . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص « على بينة » بالتوحيد ا قوله « قد جاءكم بينة من ربكم » (١) الباقيون « بينات » على الجمع ، لانها مكتوبة في المصاحف بالآف والتاء ، والبينة والبينات القرآن . وفي قوله « حتى تأتيهم البينة رسول من الله » (٢) وهو محمد ﷺ . ويقال : بان الشيء وأبان إذا تبين ، فهو باين ومبين ، وأبنته أنا وبينته لا غير والبينة وزنها (فيعلة) فاجتمع يا آن فأدغم احداهما في الأخرى .

لما اخبر الله تعالى عن أحوال اهل الآخرة وما أعد له لأهل الجنة من أنواع الثواب أخبر - ههنا - عن حال الكفار وما أعد لهم من أليم العقاب فقال « والذين كفروا » بوحدا نية الله وجحدوا نبوة نبيه « لهم نار جهنم » عقوبة لهم على كفرهم يعذبون فيها « لا يقضى عليهم فيموتوا » أي لا يحكم عليهم بالموت فيموتوا فيستريحوا ، يقال قضى فلان إذا مات « ولا يخفف عنهم من عذابها » معناه ولا ييسر عليهم عذاب النار ولا يسهل عليهم ومثل هذا العذاب ونظيره « كذلك نجزي كل كفور » جاحد لوحدا نية تعالى . ومكذب لانيابه .

ثم اخبر تعالى عن حال من هو في النار فقال « وهم يصطرون فيها » أي

(٢) سورة ٩٨ البينة آية ٢

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٥٧

يتصايحون بالاستغاثه ، فالاصطراخ الصياح والنداء بالاستغاثه ، وهو افتعال من الصراخ قلبت الناء طاء لاجل الصاد الساكنة قبلها ، وإنما فعل ذلك لتعديل الحروف بحرف وسط بين حرفين يوافق الصاد بالاستعلاء والاطباق ويوافق التاء بالخرج . ويقولون « ربنا أخرجنا » من عذاب النار « نعمل صالحاً » يعني نعمل بالطاعات والاعمال الصالحات التي أمرنا بها « غير الذي كنا نعمل » من المعاصي ، فيقول الله لهم - في جوابه تبكيثا لهم وإنكاراً عليهم « أو لم نعمركم في دار الدنيا . وقال ابن عباس ، ومسروق : العمر الذي ذكره الله أربعمون سنة ، وفي رواية أخرى ستون سنة ، وهو قول علي عليه السلام « ما يتذكر فيه من تذكر » أي عمرناكم مقدار ما يمكن أن يتذكر ويعتبر وينظر ويفكر من يريد أن يتفكر ويتذكر « وجاءكم النذير » يعني الخوف من معاصي الله ، قال ابن زيد : يعني به محمداً صلى الله عليه وآله وقال غيره : أراد الشيب . وقيل : الحمى « فذوقوا » معاشر الكفار عقاب كفركم ومعاصيكم « فما للظالمين من نصير » أي ليس لمن ظلم - وبخس نفسه حقها بارتكاب المعاصي - ناصر يدفع عنه العذاب .

ثم اخبر تعالى بأنه « عالم غيب السموات والارض » لا يخفى عليه شيء مما غاب عن جميع الخلائق علمه « إنه عليم بذات الصدور » ومعناه اتقوا واحذروا أن تضمروا في أنفسكم ما يكرهه الله تعالى ، فإنه عليم بما في الصدور لا يخفى عليه شيء منها .

وقوله « هو الذي جعلكم خلائف في الأرض » معناه جعلكم معاشر الكفار أمة بعد أمة وقرناً بعد قرن . وهو قول قتادة « فمن كفر » أي جحد وحدانيته وأنكر نبوة نبيه صلى الله عليه وآله « فعليه » عقاب « كفره » دون غيره « ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً » أي لا يزيدهم كفرهم بالله عند الله

إلا أشد البغض لان المقت اشد البغض « ولا يزيد الكافرين » أيضاً « كفرهم إلا خساراً » لانهم يخسرون الجنة ويحصل لهم النار بدلا منها « وذلك هو الخسران المبين » ثم قال موبخاً لهم « قل ارأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله » قيل : معناه ادعوا شركاءكم في الاموال التي جعلتم لها قسماً من السائبة والوصيلة والانعام والحرث ، وهي الأوثان . وقيل : شركاءكم الذين اشركتموهم في العبادة مع الله « اروني ماذا خلقوا من الارض » معناه أي شيء اخترعوه وانشؤه فيدخل عليكم بذلك شبهة « أم لهم شرك في السموات ؟ » أي لهم شركة في خلق السموات ؟ على وجه المعاونة لله ؟ أم آتيناهم كتاباً ؟ أي أعطيناهم كتاباً أمرناهم فيه بما يفعلونه ﴿ فهم على بينة منه ﴾ أي من ذلك الكتاب ، فان جميع ذلك محال لا يمكنهم ادعاء شيء من ذلك ، ولا إقامة حجة ولا شبهة عليه ﴿ بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً ﴾ ومعناه ليس شيء من ذلك لكم ، ليس يعد الظالمون أنفسهم بعضهم بعضاً إلا غروراً يغترون به وزوراً يتعدون به ، يقال : غره يغره غروراً إذا أطمعه في ما لا يطمع فيه .

فان قيل : الآية تدل أن الله سبحانه ينفرد بالخلق دون العباد ، لأنه بين أن من تهيأ له الخلق فهو إله .

قلنا : هذا كقوله ﴿ ألهم أرجل يمشون بها ؟ أم لهم أيدي يبطشون بها ﴾ (١) فكما لا يدل على ان من كان له يد أو رجل يكون إلهاً ، فكذلك لا يجب ان يكون من يخلق يكون إلهاً على انه بين المراد بالخلق ، فقيل ﴿ ماذا خلقوا من الارض ﴾ لا يقدر على خلق الارض ولا على شيء منه إلا الله تعالى . على أنا

لا نطلق اسم خالق إلا على الله ، ونقيده في الواحد منا .

قوله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ۖ وَلَئِنْ زَالَتَا
إِنْ أُمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١)
وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ
إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢)﴾ إِسْتِكْبَارًا
فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ
فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا لِسُنَّتِ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ
وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣)﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ
قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ
إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤)﴾ وَلَوْ يُدْخِلُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا
مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا
جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿ (٤٥) ۝

خمس آيات كوفي ومكي ومدني الأول . وست شامي ، وفي عدد اسماعيل .

وسمع بصري . عد البصري والشامي واسماعيل ﴿ تبديلاً ﴾ وعد البصري قبله ﴿ نزولاً ﴾ ولم يعد ذلك الباقيون .

لما بين الله تعالى أن الاصنام لا تقدر على شيء وأن ليس لها شرك في السموات والأرض ، أخبر عن عظيم قدرته وسعة سلطانه فقال ﴿ إن الله يمسك السموات ﴾ بأن يسكنها حالا بعد حال ، ولا يقدر على تسكينها غيره تعالى حال بعد حال ، لأنه يسكنها بغير عمد ، فالارضون ساكنة بلا عمد والسموات ساكنة باسكانه . وهي غير الأفلاك التي تجري فيها النجوم ، قال عبد الله بن مسعود ان السموات لا تدور ، ولو كانت تدور لكانت قد زالت . ومنعهما بهذا التسكين من أن تزولا عن مواضعها أو تهوي أو تسقط ، ومعنى ﴿ أن تزولا ﴾ كراهة أن تزولا . وقال الكوفيون : معناه ألا تزولا عن مراكزها ، خذف (لا) .

ثم قال ﴿ ولئن زالتا ﴾ معنى (لئن) (لو) ويوضع كل واحد منهما مكان الآخر ، لانهما يجابان بجواب واحد . ومثله ﴿ ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً ﴾ (١) ومعناه و (لو) ومعنى ﴿ ولئن زالتا ﴾ يعني عن مقرها ﴿ إن امسكها من احد من بعده ﴾ أي ليس يسكنها احد ولا يقدر عليه احد بعد الله تعالى ﴿ انه كان حليماً ﴾ يعني القادر الذي لا يعاجل واحداً بالعقوبة ، ولا يحلم إلا قادر ، لأن من ليس بقادر ، لا يصح ان يعاقب ، فلا يحلم وإنما حلمه أناة بمن استحق العقوبة ﴿ غفوراً ﴾ أي ستار آذنبهم إذا تابوا لا يفضحهم بها على رؤس الأشهاد ، و (الغفور) الكثير الغفران لذنوب عباده بالتوبة وبالفضل لمن يشاء منهم .

ثم حكى عن الكفار أنهم ﴿ أقسموا بالله ﴾ يعني حلفوا به ﴿ جهد أيمانهم ﴾

أي غاية وسعهم وطاعتهم ﴿لئن جاءهم نذير﴾ أي مخوف من جهة الله يخوفهم من معاصيه ﴿ليكونن أهدى﴾ إلى اتباعه والقبول منه ﴿من إحدى الأمم﴾ الماضية وأسبق إلى اتباعه ﴿فلما جاءهم نذير﴾ أي محمد ﷺ جاءهم يخوفهم بالله «ما زادهم» مجيئه «إلا نفوراً» أي ازدادوا عند مجيئه نفوراً عن الحق وهرباً منه لأن مجيئه زادهم ذلك . ثم بين تعالى انهم ينفرون عند مجيء النبي «استكباراً» أي طلباً للكبر والتجبر على غيرهم «في الأرض» من أن يقرؤا بالحق «ومكر السيء» أي وحيلة الأفعال القبيحة والمعاصي لانهم قصدوا بذلك الفرار من اتباع محمد والايمان به، والسيء الشرك - في قول قتادة - واضيف اليه كما قال «لحق اليقين» (١) وفي قراءة عبد الله بن مسعود «ومكراً سيئاً» وقد سكن حمزة وحده الهمزة . الباقيون جروها بالاضافه . والتسكين لحن عندهم اعني البصريين ، لا يجوز ان يقرأ به . وقيل الوجه في تسكين حمزة كثرة الحركات في الكلام ، كما قال الشاعر :

إذا اعوججن قلت صاحب قوم

فسكن الباء لكثرة الحركات ، والصحيح الأول ، لأن مثل هذا إنما يجوز في ضرورة الشعر ، قال ابو علي النحوي : يجوز أن يكون أجراه في الوصل مجرى الوقف ، وتقدير ومكراً المكر السيء ، فأضيف المصدر إلى صفة المصدر ، وتقديره ومكروا المكر السيء بدلالة قوله «ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله» ومعناه لا ينزل باحد جزاء المكر السيء إلا بمن فعله «فهل ينظرون» أي فهل ينتظرون «إلا سنة الاولين» من نزول العقاب بهم وحلول النقمة عليهم جزاء على كفرهم ، فان كانوا ينتظرون ذلك «فلن تجد» يا محمد والمراد به

الكفار « لسنة الله تبديلاً » أي لا يغير الله عادته من عقوبة من جحد ربوبيته « ولن تجد لسنة الله تحويلاً » ولا يبدلها بغيرها ، فالتبديل تصير الشيء مكان غيره ، والتحويل تصير الشيء في غير المكان الذي كان فيه ، والتغيير تصير الشيء على خلاف ما كان .

ثم قال « أو لم يسيروا في الأرض » يعني هؤلاء الكفار الذين أنكروا إهلاك الله الأمم الماضية . أما ساروا في الأرض « فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا » أو لئلك « أشد منهم » من هؤلاء « قوة وما كان الله ليعجزه من شيء » إذ لم يكن يفوته شيء « في السموات ولا في الأرض انه كان عليماً » عالماً بجميع الأشياء ﴿ قديراً ﴾ قادراً على ما لا نهاية له ، ويقدر على اجناس لا يقدرون عليها .

ثم اخبر تعالى ممننا على الناس بتأخير عقابهم بان قال ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ﴾ أي جزاء على معاصيهم عاجلاً ﴿ ما ترك على ظهرها ﴾ ظهر الأرض ﴿ من دابة ﴾ ندب على رجليها ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل ﴾ يعني إلى الوقت المعلوم الذي قدره لتعذيبهم ﴿ فإذا جاء أجلهم ﴾ يعني الوقت المقدر المعلوم ﴿ فإن الله ﴾ تعالى ﴿ كان بعباده بصيراً ﴾ أي عالماً بأحوالهم لا يخفى عليه شيء منها فيجازي كل انسان على قدر فعله من طاعة او معصية ، والضمير في قوله ﴿ على ظهرها ﴾ عائد إلى الأرض وإن لم يجر لها ذكر لدلالة الكلام عليه ، لأنه معلوم أنهم على ظهر الأرض دون غيرها ، على أنه قد تقدم قوله ﴿ أو لم يسيروا في الأرض ﴾ وفي قوله ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض ﴾ فيجوز أن يرد الكناية اليها .

٣٦ - سورة يس

في قول مجاهد وقتادة والحسن : ليس فيها ناسخ ولا منسوخ . وقال ابن عباس : آية منها مدنية وهي قوله ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ انْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ وهي ثلاث وثمانون آية كوفي . واثنان وثمانون آية في ما عداه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣)
عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لَتُنذِرَ قَوْمًا
مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ
فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا
فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ
تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠)

عشر آيات كوفي وتسع في ما عداه عد الكوفي (يس) ولم يعده الباقر .

قرأ الكسائي بامالة الألف من (يا سين) وكذلك حمزة إلا انه أقل إمالة
الباقون بغير امالة . وقرأ ابن كثير ونافع وابو عمرو وابو بكر عن عاصم
﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ بالرفع . الباقون بالنصب . فمن رفع ، فعلى تقدير
(ذلك) تنزيل العزيز ، ومن نصب ، فعلى تقدير (نزل) تنزيل العزيز الرحيم .
وقرأ اهل الكوفة إلا ابا بكر ﴿ سداً ﴾ بفتح السين في الموضعين . الباقون
بضمها ، وهما لغتان . وقال ابو عمرو : وما كان من فعل الله ، فهو بالفتح .
وعد اهل الكوفة (يس) آية ولم يعدوا (طس) لأن (طاسين) أشبه قايل وهابيل
في الوزن ، والحروف الصحاح ، ولم يشبهها (يا سين) لأن أوله حرف من
حروف العلة وليس مثل ذلك في الاسماء المفردة ، فاشبه الجملة والكلام التام
وشاكل ما بعده من رؤس الآي . وقد مضى في ما تقدم أن أفتتاح أوائل
السور بأمثال هذه الحروف الأقوى فيها أنها اسماء للسور . وقيل : إنها اسماء
القرآن ، وقيل إنها حروف إذا جمعت انبأت عن اسم الله الأعظم ، وغير ذلك من
الاقاويل لا نطول بذكره . وقال الحسن : معناه يا رجل . وقال محمد بن الحنفية
(يس) معناه يا إنسان يا محمد ، وروي عن علي عليه السلام أنه قال سمى الله تعالى
النبي ﷺ في القرآن بسبعة اسماء : محمد ، وأحمد ، وطه ، ويس ، والمزمل ،
والمدرثر ، وعبد الله ، وقيل : معناه بالسر يانية يا إنسان . وقيل : معناه ياسيد الأولين
والآخرين . وأخفى النون من (يا سين) الكسائي وابو بكر عن عاصم . الباقون ببيان
النون ، وهو الاجود لأن حروف الهجاء ينوى بها السكت والانقطاع عما
بعدها . ومن قال بالاول قال لان النون والتنوين إنما يظهران عند حروف الحلق

وليس ههنا شيء منها .
 وقوله ﴿ والقرآن الحكيم ﴾ قسم من الله تعالى بهذا القرآن ، وصفه بأنه
 حكيم من حيث أن فيه الحكمة ، فصار ذلك بمنزلة الناطق به للبيان عن الحق الذي
 يعمل به . والحكمة قد تكون المعرفة ، وقد تكون ما يدعو إلى المعرفة ، وأصله
 المنع من الخلل والفساد ، فالمعرفة تدعو إلى ما أدى إلى الحق من برهان أو بيان
 قال الشاعر :

أبني حنيفة احكموا سفهاءكم إني اخاف عليكم أن اغضبا (١)
 أي امنعوه . وقال قوم : إنما أقسم الله بالقرآن الحكيم لعظم شأنه وموضع
 العبرة به والفائدة فيه ، والمقسم عليه قوله ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ أقسم تعالى أن
 النبي ﷺ ممن أرسله الله بالنبوة والرسالة ، وأنه ﴿ على صراط مستقيم ﴾ وهو
 طريق الحق المستقيم الذي يؤدي إلى الجنة . ﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ من رفع
 فعلى تقدير ذلك تنزيل ، ومن نصب فعلى تقدير نزل تنزيل . وموضع ﴿ على
 صراط مستقيم ﴾ يجوز أن يكون رفعا على أنه خبر ، كأنه قال إنك هلى صراط
 مستقيم ، ويجوز أن يكون نصبا على الحال للارسال ، كأنه قال : أرسلوا
 مستقيما طريقتهم .

وقوله ﴿ لتندر قوما ﴾ معناه إنه أنزل القرآن لتخوف به من معاصي الله
 قوما ﴿ ما أنذر آباؤهم ﴾ من قبل اراد به قريشا أنذروا بنبوة محمد ، وقيل :
 في معناه قولان :

أحدهما - قال عكرمة : معناه لتندر قوما مثل الذي أنذر آباؤهم .

الثاني - قال قتادة : معناه لتندر قوما لم ينذر آباؤهم قبلهم - يعني في

زمان الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ ﴿ فهم غافلون ﴾ عما تضمنه القرآن وعما أنذر الله من نزول العذاب . ومثل الغفلة السهو ، وهو ذهاب المعنى عن النفس ومثله النسيان وهو ذهاب الشيء عن النفس بعد حضوره فيها .

ثم اخبر تعالى مقسماً انه ﴿ لقد حق القول على أكثرهم ﴾ اي وجب باستحقاق العقاب بادخالهم النار ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ لذلك ، وقد سبق في عالم الله . ثم اخبر تعالى فقال ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾ أي جعل الغل في أعناقهم وهو جمع عنق ﴿ فهي إلى الاذقان ﴾ والاذقان جمع ذقن وهو مجمع اللاحيين . وقيل بأيمانهم إلى اذقانهم ، فكفى عنها ، لانها معلومة . وقيل : التقدير بالاغلال بالايمان إلى الاذقان فهو محذوف ، قال الشاعر :

وما أدري إذا يممت أرضاً أريد الخير أيها يليني
أ الخير الذي أنا ابتغيه أم الشر الذي لا يأتليني (١)

﴿ فهم مقمحون ﴾ فالمقمح الغاض بصره بعد رفع رأسه ، وقيل هو المقنع وهو الذي يجذب ذقنه حتى يصير في صدره ثم يرفع . والقمح من هذا وهو رفع الشيء إلى الفم ، والبعير القامح الذي إذا أوردته الماء في الشتاء رفع رأسه وشال به نصباً لشدة البرد ، قال الشاعر :

ونحن على جوانبهم — ما قعود نغض الطرف كالابل القماح (٢)

وقيل : قد رفعوا رؤوسهم وشخصوا بأبصارهم - ذكره مجاهد - ثم قال ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً ﴾ ومعناه سداً عن الحق - في قول مجاهد وقتادة - اي على جهة الذم لهم ، وصفهم بذلك لا أنهم منعوا منه وكذلك ذكر الاغلال كما قال الأفوه الازدي :

كيف الرشاد إذا ما كنت في نفر لهم عن الرشاد اغلال واقباد
وفي تأويل الآيات قولان :

أحدهما - انه جعل جهلهم وذهابهم عن معرفة الحق غلا وسداً إذ كان المغلول
المنوع من التصرف امامه ووراءه ذاهب عما قد منع منه وحيل بينه وبين الدليل
عليه إن الله تعالى لم يجعل الكافر مغلولاً في الحقيقة ولا مسدوداً بين يديه ومن
خلفه ولا في عينه غشاوة، كقوله تعالى ﴿ وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِ آيَاتِنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً
كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا ﴾ (١) شبهه بمن في أذنيه وقراً، فعلنا بهذا
التشبيه أنه إنما يريد بوصف الكفار بالوقر والكن والغل والسد التشبيه الذي عناه
- ههنا - ولو كان في إذن الكافر وقراً على الحقيقة لم يحز تشبيهه بمن في أذنيه
وقراً، وهو كقولهم للجاهل : حمار وثور ، وإنما يريدون المبالغة في وصفه
بالجهل . ومعنى (جعلنا) يحتمل وجهين أحدهما - انه كما شبههم بمن جعله
مغلولاً مقيداً أجرى عليه صفة الجعل بأنه مشبه للمجمول مغلولاً مقيداً . والثاني -
انه اراد البيان عن الحالة التي شبه بها المغلول المقيد ، كما يقول القائل : جعلني
فلان حماراً وجعلني ميتاً إذا وصفه بالحارية والموت وشبهه بالحمار والميت
وهذا واضح .

والوجه الثاني - في تأويل الآيات انه أراد وصف حالهم في الآخرة ، لأنه تعالى
يرثقهم في الاغلال والسلاسل ، كما قال تعالى ﴿ خذُوهُمْ فَعْلَوْهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلَوْهُ ﴾ (٢)
وقال ﴿ إِذَا الْاَغْلَالُ فِي اعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسَجَّبُونَ فِي الْجَحِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ
يُسَجَّرُونَ ﴾ (٣) وقال في السد الذي جعله لهم : فلا يبصرون كما قال ﴿ يَوْمَ

(١) سورة ٣١ لقمان آية ٧ (٢) سورة ٦٩ الحاقة آية ٣٠ - ٣١

(٣) سورة ٤٠ المؤمن آية ٧١ - ٧٢

يقول المنافقون والمنافقات الذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهرة من قبله العذاب ﴿١﴾ وقال ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ماؤاهم جهنم ﴾ ﴿٢﴾ فلما كانت هذه حال الكفار في الآخرة ، وصف حالهم في الدنيا .

وقوله ﴿ فهم مقمحون ﴾ فقد فسرناه في آية أخرى وهي قوله ﴿ مهطعين ﴾ مقنعي رؤسهم ﴿٣﴾ والاقناع هو رفع الرأس واشخاصه فقد صح بما بيناه كلا الوجهين في الآية وزالت الشبهة بحمد الله . وقال السدي : إن ناساً من قريش ائتمروا على قتل النبي ﷺ فلما جاءوه جعلت ايديهم إلى اعناقهم فلم يستطيعوا ان يسطوا اليه يدأ . وقال قوم : حال الله بينهم وبين ما أرادوا فعبر عن ذلك بأنه غلت ايديهم . وقال البلخي : يجوز ان يكون المراد ﴿ جعلنا في اعناقهم اغلالاً ﴾ من الآيات والبيّنات ﴿ وجعلنا بين ايديهم سداً ومن خلفهم سداً ﴾ منها ﴿ فاغشيناهم ﴾ بها ﴿ فهم ﴾ مع ذلك ﴿ لا يبصرون ﴾ بدليل قوله ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض ﴾ ﴿٤﴾ وقرأ ابن مسعود وابن عباس ﴿ انا جعلنا في ايمانهم اغلالاً ﴾ لأن الغل لا يكون في العنق دون اليد ، ولا في اليد دون العنق ، والمعنى انا جعلنا في اعناقهم وفي ايمانهم اغلالاً وقوله ﴿ فهي ﴾ كناية عن الايدي لاعن الاعناق ، لأن الغل يجعل اليد تلي الذقن ، والعنق والعنق هو مقارب الذقن ، لأن الغل يجعل العنق إلى الذقن .

(٢) سورة ١٧ الاسرى آية ٩٧

(١) سورة ٥٧ الحديد آية ١٣

(٤) سورة ٣٤ سبأ آية ٩

(٣) سورة ١٤ ابراهيم آية ٤٣

وقرأ الحسن ﴿ فَاغْشِينَاهُمْ ﴾ بالعين المهملة ، وهو ما يلحق من ضعف البصر
وقيل : الآية نزات في أبي جهل ، لانه هم يقتل النبي ﷺ فكان إذا خرج
بالليل لا يراه ، ويحول الله بينه وبينه . وقيل : السد فعل الانسان ، والسد
بالضم خلقه تعالى ﴿ فَاغْشِينَاهُمْ ﴾ فهم لا يبصرون ﴿ أي حكمتنا عليهم بأنهم
كن غشي بصره فهم لا يبصرون لذلك . وقيل : اغشيناهم بظلمة الكفر فهم
لا يبصرون الهدى . وقيل : بظلمة الليل فهم لا يبصرون النبي ﷺ . ثم
قال ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم ﴾ يا محمد وخوفتهم ﴿ أم لم تنذرهم ﴾ وتخوفهم
بالعقاب ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ للعناد وترك الالتفات والفكر في ما يخوفهم منه ،
فاستوى علمه تعالى في تركهم الايمان وعدولهم عنه إلى الكفر بسوء اختيارهم .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ
فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ
مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢)
وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذَا
أَرْسَلْنَا إِلَيْنِهِمُ آثِنِينَ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَا إِلَيْكُمْ
مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ
شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ (١٥) خمس آيات .

قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿فعززنا﴾ مخففاً بمعنى فقهرنا من قولهم: من عزيز الباقون بالتشديد يعني قوينا الاثنين بثالث معيناً ، لما قال تعالى لنبيه ﷺ إن هؤلاء الكفار لا يؤمنون أبداً واخبره بأنه سواء عليهم الانذار وترك الانذار بين ههنا حال من ينتفع بالانذار فقال ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر﴾ ومعناه إنما ينتفع بانذارك وتخويفك من اتبع الذكر ، لان نفس الانذار قد حصل للجميع وأضافه - ههنا - إلى من اتبع الذكر لما كانوا المنتفعين به ، كما قال ﴿هدى للمتقين﴾ . والذكر المذكور - ههنا - القرآن - في قول قتادة - ﴿وخشي الرحمن بالغيب﴾ قيل في معناه قولان :

أحدهما - وخشي الرحمن وخاف ارتكاب معاصيه في غيبه عن الناس .

والثاني - وخشي الرحمن في ما غاب عنه من الآخرة وأمرها .

ثم قال لنبيه من هذه صفته ﴿فبشره بمغفرة﴾ من الله لذنوبه ﴿واجر﴾ أي ثواب ﴿كریم﴾ وهو ما يفعله الله على وجه الاجلال والاکرام . وقيل : الاجر الكريم الجنة .

ثم اخبر تعالى عن نفسه فقال ﴿إننا نحن نحي الموتى﴾ بعد أن افنيهم ﴿ونكتب ما قدموا﴾ من طاعاتهم ومعاصيهم في دار الدنيا ، وهو قول مجاهد وقتادة ﴿وآثارهم﴾ قال مجاهد : يعني خطاهم إلى المساجد ، لان بني سلمة من الانصار شكوا إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد والصلاة مع رسول الله ، فنزلت فيهم الآية . وقيل : معناه وآثارهم التي تبقى بعد رمهم ويقتدى بهم فيها .

ثم قال ﴿وكل شيء﴾ أحصيناه في إمام مبین ﴿ومعناه﴾ أحصيناه في كتاب ظاهر ، وهو اللوح المحفوظ . والوجه في احصاء ذلك في إمام مبین اعتبار

الملائكة به إذا قابلوا به ما يحدث من الامور ، وكان فيه دليل على معلومات الله على التفصيل .

ثم قال انبيه ﷺ واضرب لهم مثلاً ﴿ معناه اذكر لهم مثلاً ٠ وقيل : معناه مثل لهم مثلاً ، من قولهم : هؤلاء اضرب أي امثال ٠ وقوله ﴿ اصحاب القرية ﴾ قال عكرمة والفراء : هي انطاكية ﴿ إذ جاءها المرسلون ﴾ أي حيث بعث الله اليهم بالرسول ﴿ إذ ارسلنا اليهم اثنين ﴾ يعني رسولين ٠ وقال قوم : كانا رسولي عيسى من حواريه ٠ وقال آخرون : كانا رسولين من رسل الله وهو الظاهر ﴿ فكذبوها ﴾ أي جحدوا بنوتهما ﴿ فعززنا بثالث ﴾ أي فعززها الله بثالث فيمن قرأ بالتشديد وشد ظهرها به - في قول مجاهد وابن زيد - ومن خفف أراد فغلب الله بثالث أرسله اليهم ﴿ فقالوا ﴾ لهم يا اهل القرية ﴿ إنا اليكم مرسلون ﴾ أرسلنا الله اليكم ﴿ قالوا ﴾ لهم ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ أي ليس أنتم إلا بشر أمثالنا ، فدخلت عليهم الشبهة فاعتقدوا أنه من حيث انهم امثالهم في البشرية لا يصلح ان يكونوا رسلاً كما لا يصلحون هم لذلك ﴿ وما انزل الرحمن من شيء ﴾ مما تذكرونه وتدعوننا اليه ﴿ ان أنتم إلا تكذبون ﴾ أي ليس أنتم إلا كاذبون على الله ومتخرون عليه في ادعائكم الرسالة ، وذهب عنهم معنى ﴿ اخترناهم على علم على العالمين ﴾ (١) وأنه تعالى علم من حال هؤلاء صلاحهم الرسالة وتحملهم لآعبائها ولم يعلم ذلك من حالهم بل على خلاف ذلك ٠

قوله تعالى:

﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا
إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّآ تَطِيرُونَ بِكُمْ لَعْنٌ لَّمْ تَنْتَهُوا
لَنُرْجِمَنَّكُمْ وَلِيَمَسِّنَّكُمْ مِمَّا عَذَابُ آلِيمٍ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ
مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا
الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢٠) خمس آيات

لما حكى الله تعالى عن اهل القرية انهم قالوا المرسل ﴿إن انتم إلا تكذبون﴾
في ادعائكم الرسالة على الله حكى ما اجابهم به الرسل فانهم ﴿قالوا ربنا يعلم إنا
اليكم لمرسلون﴾ ووجه الاحتجاج بذلك انه يلزمهم بقولهم الحذر من مخالفتهم
والنظر في معجزاتهم ليعلموا انهم صادقون على الله ، ففي ذلك تحذير شديد . ثم
قال الرسل لهم أيضاً ﴿وما علينا إلا البلاغ المبين﴾ أي ليس يلزمنا أكثر من
البلاغ المبين ، والمعنى انه لو جاءكم رسول غيرنا هل كان عليه إلا البلاغ ؟ على
حد ما بلغنا . والبلاغ مجيء الشيء إلى حد يقف عنده ، بلغ الشيء . يبلغ بلوغاً
وبلاغاً ، فهو باغ . ومنه البلاغة ، ومثل البلاغ الافهام والايصال . والمبين
صفة البلاغ ، وهو الظاهر الذي لا شبهة فيه ، فقالوا لهم في الجواب عن ذلك
حين عجزوا عن إيراد شبهتهم ، وعدلوا عن النظر في معجزتهم ﴿إنا تطيرنا بكم﴾
أي تشاء منا بكم ، والتطير التشاؤم . ثم هددوهم فقالوا ﴿إئن لم تَنْتَهُوا﴾ عن
﴿ج ٨ م ٥٧ من التبيان﴾

ما تدعون من النبوة والرسالة ﴿ لَنَرْجِمَنَّكُمْ ﴾ بالحجارة - في قول قتادة - وقال مجاهد : معناه لنشتنكم ، فالرجم الرمي بالحجارة ، يقال : رجم يرحم رجماً ، ورجم بالغيب ترجيماً ﴿ وَلَيَمْسَنَكُمْ مِّنَّا عَذَابُ الْيَمِّ ﴾ عند ذلك ، فقال لهم الرسل ﴿ طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ أي الشؤم كله معكم باقلمتكم على الكفر بالله . وقال الفراء : معنى ﴿ طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ أي اعمالكم في رقابكم تجازون عليها . وقال المبرد : معنى (طائرکم) حظكم ونصيبكم من الخير والشر . وهو قول ابي عبيدة . والطيرة الشؤم . ومنه قوله ﷺ (لا عدوى ولا هامة ولا صقر ولا غول) . وفلان لا يطير غرابه ، وهو ساكن الطائر ، إذا كان ساكناً وقوراً ، وفلان لا يطور بنا أي لا يقربنا ، وما في الدار طوري ولا طوراني أي لا أحد . وعدا فلان طوره إذا جاوز قدره .

وقوله ﴿ اِنَّ ذَكَرْتُمْ ﴾ قرأه ابن كثير ونافع وابو عمرو والمفضل عن عاصم - بهمزة بعدها ياء - وهي همزة ييز ، بين . والباقون بهمزتين مخففتين : احداها همزة الاستفهام ، والاخرى - همزة (إن) وجواب (اِنَّ ذَكَرْتُمْ) محذوف وتقديره اِنَّ ذَكَرْتُمْ هَذَا الْقَوْلَ . وقال قوم : معناه اِنَّ ذَكَرْتُمْ طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ وقال قوم : جملة جزاء قدم خبره عليه لما كان غير مجزوم اللفظ . وقيل : اِنَّ ذَكَرْتُمْ تَطِيرُكُمْ قَلْتُمْ مَا قَلْتُمْ ، ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ على نفوسكم ، لانكم تجاوزتم حد العصيان حين كفرتم بالله وبوحدانيته . وقيل : كان اسم صاحب (يس) الذي قتله قومه حبيب بن مري .

حكى الله تعالى انه ﴿ جَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ أي رجل من أبعد المدينة جاء يعدوا ويشتد ﴿ فَقَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ الذين أرسلهم الله إليكم واقروا بنبوتهم وبرسالتهم . وقرأ ابو جعفر (اِنَّ) بفتح الهمزة الثانية .

وبه قال زوين بن حيش . ومعناه لان ذكرتم . الباكون بكسر ها . وقرأ ابو جعفر
(ذكرتم) بالتخفيف . الباكون بتشديدها .

قوله تعالى :

﴿ إِنِّ تَبِعُوا مِنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٢١) وَمَالِي
لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ
يُرِدْنَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣)
إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥)
قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي
رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ
مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً
وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ
مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿ (٣٠) عشر آيات .

قرأ ابو جعفر ﴿ ان كانت إلا صيحة ﴾ بالرفع في الموضعين جعلها اسم

(كان) . الباكون بالنصب على انها خبر كان .

لما حكى الله تعالى ما قال لهؤلاء الكفار الرجل الذي جاءهم من اقصى
المدينة وأمرهم بأن يتبعوا الرسل قال لهم ايضاً ﴿ اتبعوا ﴾ معاشر الكفار ﴿ من

لا يسألكم أجراً ﴿ أي لا يطلب الأجر والجزاء والمكافأة على ما يدعوكم إليه ويحكم عليه ، وإنما يدعوكم نصيحة لكم ﴾ ﴿ وهم ﴾ مع ذلك ﴿ مهتدون ﴾ إلى طريق الحق سالكون سبيله . ثم قال لهم الذي وعظهم وحشهم على طاعة الله واتباع رسله ﴿ ومالي لا أعبد الذي فطرني ﴾ ومعناه ولم لا أعبد الله واتبع رسله ، ومالي لا أعبد الذي فطرني ، ومعناه ولم لا أعبد الله الذي خلقتني وابتداني وهداني ﴿ واليه ترجعون ﴾ أي الذي تردون إليه يوم القيامة حيث لا يملك الأمر والنهي غيره . ثم قال لهم منكراً على قومه عبادتهم غير الله ﴿ أأخذ ﴾ أنا على قولكم ﴿ من دون الله ﴾ الذي فطرني وأنعم علي ﴿ آلهة ﴾ اعبدكم ؟ أهذه همزة الاستفهام والمراد بها الانكار ، لانه لا جواب لها على أصلهم إلا ما هو منكراً في العقول ثم قال ﴿ إن يردني الرحمن بضر ﴾ معناه ان أراد الله إهلاكه والاضرار بي لا ينفعني شفاعة هذه الآلهة شيئاً ، ولا يقدرّون على انقاذي من ذلك الضرر . ولا يغنون عني شيئاً في هذا الباب . وإذا كانوا بهذه الصفة كيف يستحقون العبادة ؟ !

ثم قال ﴿ إني إذا لفي ضلال مبين ﴾ أي إذا لو فعلت ما تفعلونه وتدعون اليه من عبادة غير الله أكن في عدول عن الحق . والوجه في هذا الاحتجاج أن العبادة لا يستحقها إلا من أنعم بأصول النعم ويفعل من التفضل ما لا يوازيه نعم منعم ، فإذا كانت هذه الاصنام لا يصح فيها ذلك كيف تستحق العبادة ؟ !

ثم قال مخبراً عن نفسه مخاطباً لقومه ﴿ إني آمنتم ﴾ أي صدقت ﴿ بربكم ﴾ الذي خلقكم وأخرجكم من العدم إلى الوجود ﴿ فاسمعون ﴾ مني هذا القول . وقيل : انه خاطب الرسل بهذا القول ليشهدوا له بذلك عند الله . وقال ابن مسعود : إن قومه لما سمعوا منه هذا القول وطؤوه بأرجلهم حتى مات . وقال

قتادة : رجوه حتى قتلوه . وقال الحسن : لما أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله اليه فهو في الجنة ، ولا يموت إلا بفناء السماء وهلاك الجنة . قال مجاهد : مثل ذلك . وقالوا الجنة التي دخلها يجوز هلاكها . وقال قوم : إنهم قتلوه إلا أن الله أحياه وادخله الجنة وقال الحسن ﴿ من بعده ﴾ يعني من بعد رفعه . وقال غيره : من بعد قتله .

ثم حكى الله تعالى ما يقول الملائكة لهذا الداعي من البشارة له بعد موته فانهم يقولون له ﴿ ادخل الجنة ﴾ مثاباً مستحقاً للثواب الجزيل على إيمانك بالله فيقول حينئذ ﴿ يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي ﴾ من الذنوب ﴿ وجعلني من المكرمين ﴾ عنده . فهذا المؤمن تمنى أن يعلم قومه بما أعطاه الله تعالى فيرغبوا فيه ويؤمنوا به لينالوا مثله . والاكرام هو اعطاء المنزلة الرفيعة على وجه التعظيم والتبجيل . وقد فاز من أكرمه الله بالرضوان ، كما قال تعالى ﴿ ورضوان من الله اكبر ﴾ (١) لانه سبب يؤدي إلى الجنة .

ثم حكى ما قال وانزل بهؤلاء الكفار من العذاب والاستئصال ، فقال ﴿ وما انزلنا على قومه من بعده من جند من السماء ﴾ أي كان إهلاكهم عن آخرهم بأيسر أمر : صيحة واحدة حتى صاروا خامدين ذكره ابن مسعود ومعنى « خامدين » هالكين بتلف أنفسهم ، والمعنى إنا لم نستعن على إهلاكهم بانزال الجند من السماء « وما كننا منزلين » لهم ليهلكوهم ، وما كننا إهلاكهم « إلا صيحة واحدة » عظيمة فحين سمعوها هلكوا من عظمها ، وماتوا من فزعها .

وقوله « يا حسارة على العباد » قيل : هو قول الذي جاء من أقصى المدينة

- ذكره البلخي - وقال غيره : معناه يحتمل شيئين :

احدهما - يا حسرة من العباد على أنفسهم - ذكره قتادة ومجاهد - .

الثاني - انهم قد حلوا محل من يتحسر عليه ، وقال ابن عباس : معناه يا ويل

للعباد « ما يأتيهم من رسول » أي ليس يأتيهم من رسول من عند الله « إلا كماوا به يستهزؤن » أي يسخرون منه ويهزؤن به ، والذي حكى الله تعالى عنه مخاطباً قومه هو ما قدمنا ذكره : حبيب بن مري - في اقوال المفسرين .

قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٣١) وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) وَأَيُّكُمْ لَمْ يَأْكُلْ مِنَ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٣٥) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ ابن عامر وعاصم وحزة « لما » بتشديد الميم ، الباقون بتخفيفها . وقرأ أهل المدينة « الميتة » بالتشديد ، لأنه يقال : لما كان حياً ومات ميتاً بالتشديد ، ولما لم يكن حياً بالتخفيف - ذكره الفراء - وقرأ أهل الكوفة إلا حفصاً « وما عملت » بغير هاء . الباقون بالهاء . من قرأ (لما) بالتخفيف فإنه يكون (ما) في قوله (لما) صلة مؤكدة ، وتكون (إن) هي الخففة من الثقيلة

وتقديره ، وإن كل لجميع لدينا محضرون ، ومن قرأ بالتشديد يحتمل شيئين :
 أحدهما - أن يكون بمعنى (إلا) وتقديره وإن كل إلا لجميع لدينا محضرون
 وتكون (إن) بمعنى الجحد ، وكأنه جحد دخل على جحد ، فخرج إلى معنى
 الإثبات . ومثله في الاستعمال سألتك لما فعلت ، بمعنى الأفعالت .
 والوجه الثاني - أن يكون معنى (لما) بمعنى (لأن ما) فحذفت إحدى
 الهمزات ، لاجل التضعيف كما قال الشاعر :

غداة طفت علماء بكر بن وائل وعجنا صدور الخيل نحو تميم
 أراد على الماء ، فحذف لالتقاء المضاعف ، وأما (ما) في قوله « وما عملت
 أيديهم » يحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها - أن يكون بمعنى الجحد وتقديره ليا أكلوا من ثمره ، ولم تعمله
 أيديهم ، ويقوي ذلك قوله « أفرايتم ما تحرثون أنتم تزرعونه أم نحن
 الزارعون » (١) .

والثاني - أن يكون بمعنى الذي .

والثالث - أن يكون مع ما بعده بمعنى المصدر ، فعلى هذا يكون في موضع
 جر ، وفتح - يديره ليا أكلوا من ثمره ومن الذي عملته أو من عمل أيديهم من أنواع
 الطعوم الذي أنبتوه ، والذي غرسوه ، ومن الذي يطحنونه ويخبزونه ، فمن
 أثبت الهاء أو حذفها تبع المصاحف ، لأن المصاحف مختلفة . والهاء عائدة على
 (ما) و (عملت) صلتها . ومن حذف اختصر ، لأنها للمفعول به ، وكل
 مفعول يجوز حذفه ، كقوله « ما ودعك ربك وما قلى » (٢) يريد وما قلاك

(١) سورة ٥٦ الواقعة آية ٦٣ - ٦٤

(٢) سورة ٩٣ الضحى آية ٣

ومثله « منهم من كلم الله » (١) يريد كله الله ، وكقوله « أهذا الذي بعث الله رسولا » (٢) يريد بعثه الله .

يقول الله تعالى منبهاً للكفار على وجه الاستدلال على وحدانيته بأن يقول « أَلَمْ يَرَوْا » ومعناه أَلَمْ يَعْلَمْ هَؤُلَاءِ الكفار « كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ » فمعنى (كم) ههنا للتكثير ، ويفسرهما (من القرون) وتقديره أَلَمْ يَرَوْا كَمْ قَرْنًا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ ، وموضع (كم) نصب بـ (يروا) - في قول الكوفيين ، وعند البصريين بـ (أهلكنا) على تقدير القرون أهلكنا أو أكثر « انهم اليهم لا يرجعون » ونصب (انهم) لأنه مفعول (الم يروا) وكسره الحسن على وجه الاستئناف ، ووجه الاحتجاج بذلك هو انه قيل لهم : انظروا لم لا يرجعون فانكم تجدون ذلك في قبضة ما لكم يردهم في الآخرة إذا شاء ردهم ، لأنه لا يخلو أهلاكهم اما بالاتفاق من غير اضافة او بالطبيعة او بحى قادر ، ولو كان بالاتفاق او بالطبيعة لم يمتنع ان يرجعوا الى الدنيا ، فاذا بطل ذلك ، ثبت أن إهلاكهم بحى قادر إذا شاء ردهم وإذا شاء لم يردهم . ووجه التذكير بكثرة المهلكين أى انكم ستصيرون الى مثل حالهم ، فانظروا لانفسكم واحذروا أن يأتىكم الاهلاك ، وانتم في غفلة عما يراد بكم .

والقرون جمع (قرن) وأهل كل عصر يسمى قرناً ، لاقتراانهم في الوجود والقرن - بكسر القاف - هو المقاوم في الحرب ، ومنه قرن الشاة لمقارنته القرن الآخر ، وكذلك كل ذى قرنين . وقال قتادة « انهم اليهم لا يرجعون » عاد وثمود ، وقرون بين ذلك كثيرة . ثم قال وهؤلاء الذين لا يرجعون كلهم « لدينا محضرون » يوم القيامة يحضرهم الله ويبعثهم ليجازيهم على اعمالهم .

وقوله « وآية لهم » على ذلك أى دلالة وحجة قاطعة « الارض » يعني هي الأرض « الميتة » القحطة المجذبة وهي التي لا تنبت « احييناها » بالنباتات « وأخرجنا منها حبا فمنه ياكلون » من انواع ما يأكلون « وجعلنا فيها » أى وخلقنا في الارض « جنات » يعني بساتين « من نخيل » جمع نخل « واعناب » جمع عنب « وفجرنا فيها » في تلك الجنات « من العيون » وهي عيون الماء تنبع فيها وتجري ثم بين انه إنما خلق ذلك « ليأكلوا من ثمره » أى غرضنا نفعهم بذلك وانتفاعهم بأكل ثمار تلك الجنات « وما عملته ايديهم » أى ولم تعمل تلك الثمار ايديهم اذا (ما) كانت بمعنى النفي ، واذا كانت معناها معنى الذى يكون تقديره ، والذى عملته ايديهم من انواع الاشياء المتخذة من النخل والعنب وكثرة منافعه . وقوله « من ثمره » رد الكناية إلى احدهما كما قال « والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله » (١) وكما قال الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والراي مختلف (٢)

وقوله « افلا تشكرون » معناه هلا تشكرونه على هذه النعم التي عديتها .

قوله تعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٦) وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ كَآذَلِكَ

(١) سورة ٩ التوبة آية ٣٥ (٢) مرفي ١ / ١١٧ / ٢٠٣٤ ،

تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ
كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا
اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ خمس
آيات بلا خلاف .

قرأ ابن كثير ونافع و أبو عمرو وروح « والقمر قدرناه » رفعا على الاستئناف ؛
لأن الفعل مشغول بالضمير العائد إلى القمر . وقال أبو علي : الأجود أن يكون
رفعا على تقدير وآية لهم القمر قدرناه ، لأنه أشبه بالجل قبلها ؛ ومن رفعه بالابتداء
جعل (لهم) صفة للمذكورة والخبر مضمرة ، وتقديره « وآية لهم » في المشاهدة أو
الوجود ، ويكون قوله « الليل نسلخ منه النهار » تفسير الآية . الباقيون
بالنصب بتقدير فعل مضمرة ، ما بعده تفسيره ، وتقديره : وقدرنا القمر قدرناه .
يقول الله تعالى منزهاً نفسه ومعظماً لها ودالاً بأنه هو الذي يستحق الحمد
بما نبه بقوله « سبحان الذي » أي تنزيهاً للذي « خلق الأزواج كلها » أي
تعظيماً وتبجيلاً له بجميع ما خلق من الأزواج ، وهي الأشكال ، والحيوان على
مشاكلة الذكر للأنثى ، وكذلك النخل والحبوب أشكال ، والتين والكرم ونحوه
أشكال ، فلذلك قال « مما تنبت الأرض » يعني من سائر النبات « ومن
انفسهم » من الذكر والأنثى « ومما لا يعلمون » مما لم يشاهدوه ولم يصل
خبره اليهم .

ثم قال « وآية لهم » يعني دلالة وحجة على صحة ذلك « الليل نسلخ منه
النهار » أي نخرج منه النهار « فاذا هم مظلومون » أي داخلون في الظلمة لاضياء

لهم فيه بالشمس ، فالسلخ إخراج الشيء من لباسه ، ومنه إخراج الحيوان من جلده ، يقال سلخ يسليخ سلخاً فهو سلخ ، ومنه قوله « فانسليخ منها » (١) أي فخرج منها خروج الشيء مما لا يسه ، ثم قال « والشمس تجري لمستقر لها » آية أخرى . وقيل في معنى المستقر ثلاثة اقوال :

احدها - لانتهاؤها عند انقضاء الدنيا .

الثاني - قال قتادة : لوقت واحد لها لا تعدوه ولا تختلف .

الثالث - إلى ابعاد منازلها في الغروب . وقال المبرد معنى « لمستقر لها » أي إلى . ومن قال الشمس لا تستقر بل تتحرك أبداً قال معنى « لمستقر لها » أنها كلما انتهت إلى منقلب الصيف عادت في الرجوع وإذا بلغت منقلب الشتاء عادت إلى الصعود . ثم قال « ذاك تقدير العزيز العليم » أي من قدر الشمس على ذلك إلا القادر الذي لا يضام ، العالم بما يفعله ؟ . ثم قال « والقمر قدرناه » فمن رفع عطف على قوله « والشمس تجري » ومن نصب قدر له فعلاً يفسره قوله « قدرناه منازل » كل يوم ينزل منزلاً غير المنزل الأول لا يختلف حاله إلى أن يقطع الفلك « حتى عاد كالعرجون القديم » فالعرجون العذق الذي فيه الشماريخ ، فإذا تقدم عهده يبس وتقوس ، فشبه به . وقال الفراء : العرجون ما بين الشماريخ إلى المنابت في النخلة من العذق ، والقديم الذي اشرف على حول . وقوله « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر » حتى يكون نقصان ضوءها كتنقصان القمر ، وقال أبو صالح : معناه لا يدرك أحدهما ضوء الآخر . وقيل معناه : « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر » في سرعة سيره « ولا الليل سابق النهار » أي ولا يسبق الليل النهار . وقيل : إن أحدهما لا يذهب إلى معنى

الآخر وكل له مقادير قدرها الله عليه . ثم قال « وكل في فلك يسبحون » يعني الشمس والقمر والكواكب يسبحون في الفلك . وإنما جمعه بالواو والنون لما أضاف اليها أفعال الآدميين . وقيل : الفلك مواضع النجوم من الهواء الذي يجري فيه . ومعنى يسبحون يسرون فيه بانسباط ، وكل ما انبسط في شيء فقد سبح فيه ، ومنه السباحة في الماء .

قوله تعالى :

﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٤٥) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ أهل المدينة وابن عامر ويعقوب « ذرياتهم » على الجمع . الباقون « ذريتهم » على التوحيد .

يقول الله تعالى ممتناً على خلقه بضر وبنعمه ، ودالا لهم على وحدانيته بأن حمل ذريتهم في الفلك المشحون . وقيل : معنى « حملنا ذريتهم » أي قويناهم وهديناهم ، كما يقول القائل : حملي فلان إذا أعطاه ما يحمل عليه أو هداه إلى ما يحمل عليه . ومن جمع (ذرياتهم) فلان كل واحد له ذرية . ومن وحد فلا أنه لفظ جنس يدل على القليل والكثير ، فالحمل منع الشيء أن يذهب إلى

جهة السفلى ، يقال حملة حملا ، فهو حامل والشيء محمول . و (الذرية) فعلية من الدر . وقيل : هو مشتق من (الدر) الذي هو الخلق . وقد بيناه في ما مضى (١) والفلك السفن ، لأنها تدور في الماء ، ومنه الفلكة لأنها تدور بالمغزل والفلك لأنه يدور بالنجوم ، وفلك ندي المرأة إذا استدار و (المشحون) المملوء يقال : شحنت الثغر بالرجال أشحنه شحناً إذا ملأته ، ومنه الشحنة ، لأنه يملأ بهم البلد ، وإنما خص الذرية - وهم الصبيان والنساء - باللفظ ، لأنهم لا قوة لهم على السفر كما يقوى الرجال ، فسخر الله لهم السفن بما جعلها على الماء وعدل الريح ليمكن الحمل في البحر ، وجعل الابل في البر . وقال قتادة والضحاك : المعنى بقوله « حملنا ذريتهم في الفلك المشحون » سفينة نوح . و « خلقنا لهم من مثله ما يركبون » قال ابن عباس ، وهو قول مجاهد : ان المراد به الابل وهي سفن البر .

وقوله « وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم » معناه إننا لو شئنا إذا حملناهم في السفن أن نغرقهم فعلنا « فلا صريخ لهم » أي لا مغيث لهم ولا صارخ بالاستغاثة ، قال الشاعر :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع كان الصراخ له قرع الطنابيب

أي لا شيء . اعانته إلا الجد في نصرته ، والطنبوب عظم الساق . وقيل : معنى الصريخ المعين عند الصراخ بالاستغاثة ، وكأنه قال : لا معين لهم يعنيهم عند ذلك « ولا هم ينقذون » أي ولا يخلصون أيضاً من الفرق إذا اردناه . وقوله « إلا رحمة منا » معناه إلا أن نرحمهم رحمة منا ونمنعهم « متاعاً » ويحتمل إلا رحمة منا ، فيكون مفعولاً له ، و « إلى حين » أي إلى وقت ما قدرناه

لا هلاككم وتقضي آجالهم ، ونخلصهم في الحال من أهوال البحر .
 وقوله « وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم » قال قتادة : معناه مل بين
 أيديكم من عذاب الله لمن خلا قبلكم اتقوا مثله باجتنب معاصيه « وما خلفكم »
 من أمر الساعة « لعلمكم ترجون » لكي ترجوا عند ذلك وحذف الجواب ،
 « كأنه إذا قيل لهم هذا أعرضوا » وقال مجاهد : معنى « ما بين أيديكم » هو
 ما يأتي من الذنوب اجتنوبه في المستقبل « وما خلفكم » يعني ما مضى من ذنوبكم
 « رتلافوه بالتوبة لترجوا » .

قوله تعالى :

﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا
 مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَتُطْعَمُ مِنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي
 ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨)
 مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا
 يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٥٠) خمس آيات بلاخلاف

قرأ ابن كثير وأبو عمرو « يَخِصِّمُونَ » بفتح الخاء وتشديد الصاد إلا أن
 أبا عمرو يختلس حركة الخاء . وقرأ نافع - بفتح الياء وتسكين - الخاء مشدد
 الصاد - يجمع بين ساكنين . وقرأ ابن عامر وعاصم والكسائي - بفتح الياء وكسر
 الخاء وتشديد الصاد - وقرأ حمزة - بفتح الياء وتسكين الخاء وتخفيف الصاد -

فعني هذه القراءة : وهم يخصمون ، عندما أنفسهم في دفع النشلة الثانية ، والقراءة ثان .
 الأوليتان ، يعني يختصمون ، فأدغمت الياء في الصاد بعد أن اسكنت . فمن
 أسكن الخاء ، فلا نها في الأصل ساكنة ، ومن فتحها نقل بحركة الياء اليها .
 ومن كسر الخاء اتبع كسرتها كسرة الصاد ، وفي القراءة من كسر الياء اتباعه
 لكسرة الخاء ، كما قالوا يهدي ، وهو يجي ، عن أبي بكر .

يقول : الله تعالى مخبر أعن عناد هؤلاء الكفار وشدة جهلهم بأنه « ما تأتيهم من آية » أي دلالة وحجة من حجج الله و (من) تزايد في النفي إذا أريد بها الاستفراق ، كقولهم : ما جاءني من أحد ، ومعناه ما جاءني أحد . و (من) الثانية للتبغيض ، لأنه ليس كل آيات الله تجاههم ، غير أنه تعالى قال ليس تأتيهم آية أي أي آية كانت « من آيات ربهم إلا كانوا » هؤلاء الكفار « غنها ، معرضين » أي ذاهبين عنها وتاركين لها ومعرضين عن النظر فيها ، وكل من عرض عن الداعي إلى كتاب الله وآياته التي نصبها لعباده ليعرفوه بها فقد ضل عن الهدى وخسر الدنيا والآخرة .

ثم أخبر تعالى أنه إذا قيل لهم : أيضاً « انفقوا مما رزقكم الله » في طاعته ، وأخرجوا ما أوجب الله عليكم في أموالكم من الزكوات وغيرها وطمعوا بها في مواضعها « قال الذين كفروا » بوحداية الله وحجده واربوبيته وكذبوا بنبوة نبيه « انطعم من لو يشاء الله أطعمه » احتجاجاً منهم في منع الحقوق ، بأن يقولوا كيف نطعم من الله قادر على إطعامه ؟ ولو شاء إطعامه أطعمه ، فإذا لم يطعمه دل على بانه لم يشأ إطعامه فنحن إذاً أحق بذلك ، وذهب عليهم أن الله تعبد بهم بذلك ، لما فيه من المصلحة واللفظ في فعل الواجبات وترك المقبحات ، فلذلك كلهم إطعام غيرهم . و (الرزق) هو ما خلق الله لخلقه لينفعوا به على وجهه .

لا يكون لاحد منعه منه فعلى هذا الوجه لا يكون الحرام رزقاً ، فان الله تعالى قد منع منه بالنهي وقد سمي رزقاً ما يصلح للانتفاع به مجازاً ، فعلى هذا ليس كل ما رزقه الله العبد جعل له الانفاق منه والنصرف فيه ، وعلى الأول - وهو الاصح - جعل له ذلك . ثم قال لنبيه ﷺ قل لهم يا محمد « إن أنتم إلا في ضلال مبين » أي ليس لكم هداية وما أنتم إلا في ذهاب عن الحق وعدول عنه بين ، فعلى هذا قول من قال : هو من قول الله تعالى صحيح . وقال قوم : هو من قول المشركين كأنهم لما قالوا : انطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟ قالوا لرسله ليس أنتم إلا في ضلال مبين في ما تدعوننا اليه .

ثم اخبر تعالى عن الكفار أنهم « يقولون متى هذا الوعد » الذي تعدنا به من نزول العذاب بنا استهزاء بخبره ﷺ وخبر المؤمنين وتجربياً على الله « ان كنتم صادقين » في ما تدعوننا اليه ونخوفونا منه . فقال الله تعالى في جوابهم « ما ينظرون » أي لا ينتظرون « إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون » في هل ينزل العذاب بهم أم لا ؟ وإنما جعلهم منتظرين لما قالوا : متى هذا الوعد ، لأن من يلتمس الوعد يكون منتظراً لما وعد به « تأخذهم » في حال خصامهم « فلا يستطيعون توصية » أي لا يقدر بعضهم على ان يوصي إلى بعض « ولا إلى أهلهم يرجعون » أي لا يردون إلى أهلهم فيوصون اليهم . والصيحة التي تأخذهم هي الصيحة الأولى في الدنيا عند قيام الساعة « تأتيهم بغتة » والرجل يسقى أبله وآخر يبيع سلعته على عادتهم في تصرفاتهم ، فاذا اخذتهم ونزلت بهم لم يستطيعوا توصية ولم يرجعوا إلى أهلهم المعاجلة ، وروي عن النبي ﷺ انه قال (هي ثلاث نفخات : نفخة الفزع ، ونفخة الصعق ، ونفخة القيام لرب العالمين) .

قوله تعالى:

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَآذَاهُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونِ (٥١) ﴾
 قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ
 الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَآذَاهُمْ جَمِيعٌ كَمَا كُنَّا
 مُخَضَّرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا
 كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) إِنْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ (٥٥)
 هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكَوِّنُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا
 فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ (٥٨)
 وَأَمَّا يَوْمَ الْيَوْمِ أَيْهَا الْمَجْرُمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ
 أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿ (٦٠) عشر آيات بلا خلاف

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو « في شغل » خفيفة . الباقيون بضم الغين
 مثقلة ، وهما لغتان . وقرأ أبو جعفر « فكهن » بغير ألف حيث وقع ، وافقه
 حفص والداحوني عن ابن ذكوان في (المطففين) . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما
 « في ظلال » على أنه جمع ظلة مثل ظلمة وظلم وتحفة وتحف ، الباقيون « في ظلال »
 مثل برمة وبرام ، وقلة وقلال . وقيل : هو جمع ظل وظلال ، وهو الكن ، كما
 ﴿ ج ٨ م ٥٩ من التبيان ﴾

قال ﴿ يتفيؤ ظلاله ﴾ (١) وقال أبو عبيدة : هو جمع الظل أظلال .
يقول الله تعالى مخبراً ﴿ ونفخ في الصور ﴾ وقيل : إن الصور قرن ينفخ فيه إسرافيل فيخرج من جوفه صوت عظيم يميل العباد اليه ، لأنه كاللداعي لهم إلى نفسه . وقال أبو عبيدة : الصور جمع صورة مثل بسرة وبسر ، ولو جعلوه مثل (ظلمة ، وظلم) لقالوا : صور بفتح الواو ، وهو مشتق من الميل ، صار به يصوره صوراً إذا أماله ومنه قوله ﴿ فصرهن اليك ﴾ (٢) أي أملهن اليك ومنه الصورة ، لأنها تميل إلى مثلها بالمشاكلة . وقوله ﴿ فاذا هم من الأحداث ﴾ وهو جمع جدث ، وهو القبر ، فلغة اهل العالية بالثاء ، ولغة أهل السافلة بالفاء يقولون : جدف إلى ربهم ينسلون أي يسرعون والنسول الاسراع في الخروج كما قال الشاعر :

عسلان الذئب أمسى قارباً برد الليل عليه فنسل (٣)

يقال : نسل ينسل وينسل نسولاً ، قال امرؤ القيس :

وإن تك قد ساءتكم مني خليقة فسلي ثيابي من ثيابك تنسل (٤)

وقال قتادة : الموتة بين النفتين . ثم حكى ما يقول الخلائق إذا حشروا ، فانهم ﴿ يقولون يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ أي من حشرنا من منامنا الذي كنا فيه نياماً ، ثم يقولون ﴿ هـذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ في ما أخبرونا عن هذا المقام وعن هذا البعث . فان قيل : هذا ينافي قول المسلمين الذين يقولون : الكافر يعذب في قبره ، لأنه لو كان معذباً لما كان في المنام . قيل : يحتمل ان يكون العذاب في القبر ولا يتصل إلى يوم البعث ، فتكون النومة

بين الحاليين . ويحتمل لو كان متصلاً أن يكون ذلك عبارة عن عظم ما يشاهدونه ويحضرون فيه يوم القيامة ، فكأنهم كانوا قبل ذلك في مرقد ، وإن كانوا في عذاب لما كان قليلاً بالاضافة الى الحاضر . وقال قتادة : قوله ﴿ هذا ما وعد الرحمن ﴾ حكاية قول المؤمن . وقال ابن زيد والجبائي : هو قول الكفار ، وهو أشبه بالظاهر ، لأنه تعالى حكى عنهم انهم يقولون : يا ويلنا ، والمؤمن لا يدعو بالويل لعلمه بما له من نعيم الجنة . وقال الفراء : هو من قول الملائكة .

وقال تعالى مخبراً عن سرعة بعثهم وسرعة اجتماعهم ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة ﴾ والمعنى ليست المدة إلا مدة صيحة واحدة ﴿ فاذا هم جميع لديننا ﴾ محضرون ﴿ ثم حكى تعالى ما يقوله - عزل وجل - يومئذ للخلائق فانه يقول لهم ﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ﴾ أي لا ينقص من له حق من حقه شيئاً من ثواب او عوض او غير ذلك ، ولا يفعل به ما لا يستحقه من العقاب بل الأمور جارية على العدل ﴿ ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ ومعناه لا يجازى الانسان إلا على قدر عمله ، إن كان عاملاً بالطاعة جوزي بالثواب ، وإن كان عاصياً جوزي بالعقاب على قدر عمله من غير زيادة عليه ولا نقصان ، إلا أن يتفضل الله باسقاط عقابه .

ثم قال تعالى ﴿ إن اصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ﴾ يعني يشغلهم النعيم الذي يغمرهم بسرورهم به عن غيره . وقال ابن مسعود وابن عباس : الشغل كناية عن افتضاض الابدان . وقيل استماع الألحان ﴿ فاكهون ﴾ قال ابن عباس : معناه فرحون . وقال مجاهد : عجبون ، وقيل : ذوافكة ، كما يقال لاحم شاحم أي ذو لحم وشحم ، وعاسل ذو عسل ، قال الخطيئة :

وعززني وزعت انك لابن في الصيف تامر (١)

أي ذو ابن وتمر . وقيل : فاكه وفكه مثل حاذر وحذر . والفكه الذي يتمرى بالشيء .

ثم اخبر عن حال أهل الجنة فقال ﴿ هم وأزواجهم في ظلال على الارائك ﴾ فالازواج جمع زوجة وهي حرة الرجل الذي يحل له وطؤها . ويقال للمرأة زوج ايضاً بغير هاء في الموضع الذي لا يلتبس بالذكر ، والظلال الستار عن وهج الشمس وسيمومها ، فاهل الجنة في مثل ذلك الحال في الطيبة من الظلال الذي لا حر فيه ولا برد . وقيل : الظل الكن وجمعه ظلال . وقيل هو جمع ظلة وظلال ، مثل قلة وقلال ، ومن قرأ ظلل ، فعلى وزن ظلمة وظلم ، وقلة وقلل . والارائك جمع أريكة وهي الوسادة ، وجمعها وسائد ، ويجمع أيضاً أرك كقولهم سفينة وسفن وسفائن ، وهذه جلسة الملوك العظاماء من الناس . وقيل الارائك الفرش ، قال ذو الرمة :

خدوداً جفت في السير حتى كأنما يباشرن بالمعزاء مس الارائك (٢)

وقال عكرمة وقتادة : الارائك الحجال على السرر ﴿ متكئون ﴾ فتكى . مفتعل من توكتأت ، إلا أن الواو أبدلت تاء . ثم قال ﴿ لهم فيها ﴾ في الجنة ﴿ فاكهة ، ولهم ما يدعون ﴾ أي ما يتمنون . وقال ابو عبيدة : يقول العرب : ادع على ما شئت أي تمن ما شئت ، وقيل : معناه إن من ادعى شيئاً فهو له بحكم الله تعالى ، لأنه قد هذبت طباعهم ، فلا يدعون إلا ما يحسن منهم . وقوله ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ معناه ولهم سلام قولاً من رب رحيم

(١) محاز القرآن ٢ / ١٦٤

(٢) محاز القرآن ١ / ٤٠١ و ٢ / ١٦٤

يسمعونه من الله تعالى ويؤذنبهم بدوام الأمن والسلامة ودوامهما مع سبوغ النعمة والكرامة . ثم يقول للعصاة ﴿ أمتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ ومعناه انفصلوا معاصر العصاة وامتازوا ، الذين اجترموا وارتكبوا من المعاصي من جملة المؤمنين ، وقال قتادة : معناه اعتزلوا معاصر العصاة عن كل خير ، يقال تميز الشيء تميزاً وميزته تمييزاً ، وانماز انميازاً .

ثم حكى ما يقول تعالى لهم فانه يقول لهم ﴿ ألم اعهد اليكم يا بني آدم ﴾ يعني على لسان أنبيائه ﴿ ان لا تعبدوا الشيطان ﴾ فجعل عبادتهم للآوثان بأمر الشيطان عبادة له ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ أي ، وقلت لكم أن الشيطان لكم عدو مبين أي ظاهرة عداوته لكم .

قوله تعالى :

﴿ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٦٥) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ ابن كثير وحمة والكسائي وخلف ورويس ﴿ جبلا ﴾ بضم الجيم والباء خفيفة اللام . وقرأ نافع وابو جعفر وعاصم بكسر الجيم والباء مشددة . وقرأ ابو عمرو وابن عامر بضم الجيم ساكنة الباء خفيفة . هذه كلها لغات

والمعنى واحد . قال النوري يقال : **جَبَلًا** و**جِبَلًا** و**جِبَلًا** و**جِبَلًا** . وحكى غيره التشديد .

لما حكى الله تعالى ما يقوله الكفار يوم القيامة ويواقفهم عليه من انه عهد اليهم أن لا تعبدوا الشيطان وانه عدوهم ، حكى انه كان أمرهم أيضاً بأن يعبدوا الله وأن عبادته صراط مستقيم ، فوصف عبادته تعالى بأنه طريق مستقيم من حيث كان طريقاً مستقيماً إلى الجنة ، وانه لا تخليط فيه ولا تعريج . ثم قال ﴿ ولقد أضل منكم ﴾ يعني أضل عن الدين الشيطان منكم ﴿ جبلاً كثيراً ﴾ أي خلقاً كثيراً وإضلاله إياهم هو إغواؤه لهم ، كما أضل السامري قوم موسى لما دعاهم إلى عبادة العجل ، فكان الاضلال على هذا الوجه قبيحاً ، فأما إضلال الله تعالى للكفار عن طريق الجنة إلى طريق النار او إضلالهم بمعنى الحكم عليهم بالاضلال ، فهو حسن . وأمر الشيطان بالاضلال الذي يقع معه القبول إضلال كما يسمى الأمر بالاهتداء الذي يقع عنده القبول هدى .

وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة في إرادة الله اضلالهم ، لان ذلك اضر عليهم من إرادة الشيطان واشد عليهم في إيجاد العداوة قبل أن يكفروا . و (الجبل) الجمع الذين جبلوا على خليقة ، وجبلوا أي طبعوا . وأصل الجبل الطبع ومنه جبلت التراب بالماء إذا صيرته طيناً يصلح أن يطبع فيه ، ومنه الجبل لأنه مطبوع على الثبات ﴿ افلم تكونوا تعقلون ﴾ أنه يغويكم ويصدكم عن دين الحق فتنتبهون عليه ، فهو بصورة الاستفهام ومعناه الانكار عليهم والتبكيث لهم .

ثم يقول الله لهم ﴿ هذه جهنم التي كنتم توعدون ﴾ بها في دار التكليف جاضرة تشاهدونها ﴿ اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ معناه الزموا العذاب

بها ، وأصل الصلوة اللزوم فنه المصلي الذي يجي . في أثر السابق للزومه أثره والصلوان مكتنفان ذنب الفرص للزومها وموضعها . وقولهم : صلى على عاداتها للزومه الدعاء ، وسميت الصلاة صلاة اللزوم الدعاء فيها . وقوله ﴿ بما كنتم تكفرون ﴾ أي جزاء على كفركم بالله وجحدكم لوحدايته وتكذيبكم انبياءه . ثم اخبر تعالى بأنه يختم على افواه الكفار يوم القيامة فلا يقدرون على الكلام والنطق « وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » قيل : في معنى شهادة الأيدي قولان :

أحدهما - إن الله تعالى يخلقها خلقة يمكنها أن تتكلم وتنطق وتعترف بذنوبها والثاني - انه يجعل الله فيها كلاماً ونسبه اليها لما ظهر من جهتها ، وقال قوم : انه يظهر فيها من الامارات ما تدل على ان اصحابها عصوا وجنوا بها أقبح الجنايات فسمى ذلك شهادة ، كما يقال : عيناك تشهد لسهرك ، وقال الشاعر :

امتلاً الحوض وقال قطني مهلا رويداً قد ملأت بطني (١)

وغير ذلك مما قد بيناه في ما تقدم ، وكل ذلك جائز ، وقال آخر :

وقالت له العينان سمعاً وطاعة وحدّرتا كالدر لما يثقب (٢)

قوله تعالى :

﴿ وَكَوْا نَشَاءَ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى

يُبْصِرُونَ ﴾ (٦٦) وَكَوْا نَشَاءَ لَمْ سَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا

مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَنْ نَعَمَّرُهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ
 (٦٨) وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ
 مُبِينٌ (٦٩) لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)

خمس آيات بلاخلاف .

قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿مكاناتهم﴾ على الجمع . الباقر على التوحيد ،
 لأنه يدل على القليل والكثير . وقرأ عاصم وحمة ﴿نكسه﴾ بضم النون
 الأولى وفتح الثانية وتشديد الكاف . الباقر بفتح النون الأولى وتخفيف الثانية
 وتخفيف الكاف ، وهما لغتان تقول : نكست ونكست مثل رددت ورددت غير
 أن التشديد للتكثير ، والتخفيف يحتمل القليل والكثير ، وقال أبو عمرو
 بالتشديد إن ترك الرجل من دأبه ، وبالتخفيف أن يرده إلى أرذل العمر ، ففرق
 بينهما . وقرأ نافع وأبو جعفر والداخوني عن هشام والنقار ويعقوب ﴿أفلا
 تعقلون﴾ بالتاء . الباقر بالياء ، والأول على الخطاب ، والثاني على الخبر
 عن الغائب . وقرأ أهل المدينة وابن عامر «لتنذر» بالتاء . الباقر بالياء .

يقول الله تعالى مخبراً عن قدرته على إهلاك هؤلاء الكفار الذين جحدوا
 وحدانيته وعبدوا سواه وجحدوا رسله إنا ﴿لو نشاء لطمسنا على أعينهم﴾
 قال ابن عباس : معناه إنا لو شئنا أعميناهم عن الهدى . وقال الحسن وقتادة :
 معناه أتركناهم عمياً يترددون والطمس محو الشيء حتى يذهب أثره ، فالطمس
 على العين كالطمس على الكتاب ، ومثله الطمس على المال : إذهابه حتى لا يقع
 على إدراكه ﴿فاستبقوا الصراط﴾ ومعناه طلبوا النجاة . والسبق إليها ولا بصر

لهم ﴿ فإني تبصرون ﴾ وقيل : معناه فاستبقوا الطريق إلى منازلهم فلم يهتدوا إليها . وقال ابن عباس : معناه طلبوا طريق الحق وقد عموا عنها . والطمس على العين إذهاب الشق الذي بين الجفنتين ، كما تطمس الريح الأثر يقال أعمى مطموس ، وطمس أي عمي ﴿ فاستبقوا ﴾ معناه فابتدروا ، وهذا بيان من الله أنهم في قبضته ، وهو قادر على ما يريد بهم ، فليحذروا تنكيهه بهم . ثم قال زيادة في التحذير والارهاب ﴿ ولو نشاء لمسخناهم على مكائهم ﴾ والمسخ قلب الصورة إلى خلقه مشوهة كما مسخ قوماً قردة وخنازير ، والمسخ نهاية التنكيل . وقال الحسن وقتادة : معناه لمسخناهم على مقعدهم على أرجلهم والمكانة والمكان واحد ، ولو فعلنا بهم ذلك ﴿ فما استطاعوا مضياً ﴾ أي لما قدروا أن يذهبوا أصلاً ولا أن يجيئوا ثم قال ﴿ ومن نعمه ننكسه في الخلق ﴾ معناه إن من طولنا عمره نصيره بعد القوة إلى الضعف وبعد زيادة الجسم إلى النقصان وبعد الجدة والطراوة إلى البلى والخلافة . وقيل معناه : نصيره وزده إلى حال الهرم التي تشبه حال الصبي وغروب العلم وضعف القوى ذكره قتادة .

وقوله ﴿ افلا تعقلون ﴾ يعني ما ذكرناه بأن تفكروا فيه فتعرفوا صحة ما قلناه .

ثم اخبر تعالى عن نبيه ﷺ فقال ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ ومعناه ما علمناه الشعر لأننا لو علمناه ذلك لدخلت به الشبهة على قوم في ما أتى به من القرآن وأنه قدر على ذلك لما في طبعه من الفطنة للشعر . وقيل : لما لم يعط الله نبيه العلم بالشعر وإنشائه لم يكن قد علمه الشعر ، لأنه الذي ﴿ ج ٨ م ٦٠ من التبيان ﴾

يعطي فطنة ذلك من يشاء من عباده . ثم قال ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ يعني ليس الذي أنزلناه عليه شعراً بل ليس إلا ذكر من الله ﴿ وقرآن مبين لتندر به ﴾ يعني واضح ، وفعلنا ذلك وغرضنا أن تنذر به أي تخوف به من معاصي الله ﴿ من كان حياً ﴾ قيل : معناه من كان مؤمناً ، لأن الكافر شبهه ومثله بالأموات في قوله ﴿ أموات غير أحياء ﴾ (١) ويقويه قوله ﴿ ويحق القول على الكافرين ﴾ ويجوز أن يكون أراد من كان حياً عاقلاً دون من كان جماداً لا يعقل ، ويحق القول على الكافرين إذا لم يقبلوه وخالفوا فيه . ومن قرأ بالتاء وجه الخطاب إلى النبي ﷺ لأنه الذي يخوف . ومن قرأ بالياء معناه إن الله الذي يخوفهم ويرهبهم بالقرآن ، لأنه الذي أنشأه ، ويجوز أن يكون القرآن هو الذي ينذر من حيث تضمن الإنذار .

قوله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالٌ لَّكُونِ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يَنْصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ (٧٦) خمس آيات بلاخلاف .

يقول الله تعالى منبهاً لخلقه على الاستدلال على معرفته ﴿ او لم يروا ﴾

ومعناه أو لم يعلموا ﴿أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً﴾ ومعناه إنا عملناه من غير أن نكله إلى غيرنا ، فهو بمنزلة ما يعملُه العباد بأيديهم في أنهم تولوا فعله ولم يكلوه إلى غيرهم ، وتقديره أنا تولينا خلق الانعام لهم بأنفسنا . والأنعام جمع النعم ، وهي الأبل والبقر والغنم ﴿فهم لها ما لكون﴾ معناه لو لم نخلق ذلك لما صح ملكهم لها ، وكذلك سائر أملاك العباد بهذه الصفة فهو المنعم على عباده بكل ما ملكوه ، وبحسب ما ينتفعون به يكون حاله حال المنعم . واليدفي اللغة على أربعة أقسام : أحدها - الجارحة . والثاني - النعمة ، والثالث - القوة . والرابع - بمعنى تحقيق الاضافة . تقول : له عندي يد بيضاء أي نعمة ، وتلقى قولي باليدين أي بالقوة والتقبل ، وقول الشاعر :

دعوت لما نابني مسوراً فلبى فلبى يدي مسور

فهذا بمعنى تحقيق الاضافة . وتقول هذا ما جنت يدك ، وما كسبت يدك أي ما كسبت أنت .

وقوله ﴿وذللناها لهم﴾ فتذليل الانعام تسخيرها بالانقياد ورفع النفور لان الوحشي من الحيوان نفور ، والانسي مذلل بما جعله الله فيه من الانس والسكون ، ورفع عنه من الاستيحاش والنفور . وقوله ﴿فمنها ركوبهم ومنها يأكلون﴾ قسمة الانعام ، فان الله تعالى جعل منها ما يركب ومنها ما يذبح وينتفع بلحمه ويؤكل ، فالركوب - بفتح الراء - صفة ، يقال : دابة ركوب أي تصلح للركوب ، والركوب - بضم الراء - مصدر ركبت . وقرأت عائشة ﴿فمنها ركوبتهم﴾ مثل الحلوبة . وقوله ﴿ولهم فيها منافع ومشارب﴾ فمن منافعها لبس اصوافها وشرب ألبانها واكل لحومها وركوب ظهورها إلى غير ذلك من أنواع المنافع الكثيرة فيها . ثم قال ﴿أفلا تشكرون﴾ الله علي هدم

النعم المختلفة المتقنة .

ثم اخبر عن حال الكفار فقال ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لهم ينصرون ﴾ يعبدونها لكي ينصروهم . ثم قال تعالى ﴿ فلا يستطيعون نصرهم ﴾ يعني هذه الآلهة التي اتخذوها وعبدوها لا تقدر على نصرهم والدفع عنهم ما ينزل بهم من عذاب الله ﴿ وهم لهم جند محضرون ﴾ ومعناه إن هذه الآلهة معهم في النار محضرون ، لأن كل حزب مع ما عبد من الأوثان في النار ، كما قال ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ إلا من استثناه بقوله ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون ﴾ (١) فاما الاصنام فان الله تعالى يجعلها مع من عبدها في النار ، فلا الجند يدفعون عنها الاحراق بالنار ولا هم يدفع عنهم العذاب . وقال قتادة : يعني وهم لهم جند محضرون أي وهم يغضبون للأوثان في الدنيا .

قوله تعالى :

﴿ فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنََّّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (٧٦)
أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧)
وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا

أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوْ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ثمان آيات بلا خلاف

قرأ رويس ﴿ يقدر ﴾ بالياء وجعله فعلا مستقبلا . وقرأ الكسائي وابن عباس ﴿ فيكون ﴾ نصبا عطفاً على ﴿ أن نقول فيكون ﴾ الباقي بالرفع بتقدير ، فهو يكون .

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ على وجه التسليية له عن تكذيب قومه إياه ، فقال ﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ وضم الياء نافع ، وحزن وأحزن لغتان . والحزن ألم القلب بما يرد عليه مما ينافي الطبع ، ومثله الغم ، وضده السرور والفرح . والمعني في صرف الحزن عن النبي ﷺ في كفر قومه هو أن ضرر كفرهم عائد عليهم ، لانهم يماقبون به دون غيرهم . ثم قال ﴿ انا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ أي ما يظهرونه وما يبطنونه فنجازي كلا منهم على قدره لا يخفى علينا شيء منها . ثم قال منبهاً لخلقهم على الاستدلال على صحة الاعداد والنشأة الثانية ، فقال ﴿ أولم ير الانسان ﴾ ومعناه أولم يعلم ﴿ انا خلقناه من نقطة فاذا هو خصيم مبين ﴾ ومعناه انا نقلناه من النقطة إلى العلقه ومن العلقه إلى المضغة ومن المضغة إلى العظم ومن العظم إلى أن جعلناه خلقاً سوياً وجعلنا فيه الروح وأخرجناه من بطن أمه وربناه ونقلناه من حال إلى حال إلى أن كمل عقله وصار متكلماً خصيماً عليماً ،

فمن قدر على جميع ذلك كيف لا يقدر على الاعداد ، وهي أسهل من جميع ذلك ؟ ! ولا يجوز أن يكون خلق الانسان ولا خالق له ، ولا أن يكون واقعاً بالطبيعة ، لانها في حكم الموات في أنها ليست حية قادرة ، ومن كان كذلك لا يصح منه الفعل ولا أن يكون كذلك بالاتفاق لان المحدث لا بد له من محدث قادر وإذا كان محكماً فلا بد من كونه عالماً .

وفي الآية دلالة على صحة استعمال النظر ، لان الله تعالى أقام الحجة على المشركين بقياس النشأة الثانية على النشأة الأولى ، وأنه يلزم من أقر بالأولى أن يقر بالثانية ،

ثم حكى تعالى عن بعض الكفار انه ﴿ ضرب لنا ﴾ أي ضرب لله ﴿ مثلاً ونسي خلقه ﴾ كيف كان في الابتداء ﴿ فقال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ فقال قتادة ، ومجاهد : كان القائل أبي بن خلف . وقال سعيد بن جبير : هو العاص بن وابل السهمي . وقال ابن عباس : هو عبد الله بن أبي ابن سلول . وقال الحسن : جاء أمية إلى النبي ﷺ بعظم بال قد بلي ، فقال يا محمد أتزعم ان الله يبعث هـذا بعد ما بلي ! . قال : نعم ، فنزلت الآية . والرميم هو البالي ، فقال الله تعالى في الرد عليه ﴿ قل ﴾ يا محمد لهذا المتعجب من الاعداد ﴿ يحييها الذي انشأها أول مرة ﴾ لأن من قدر على الاختراع لما يبقى من غير تغيير عن صفة القادر ، فهو على اعداته قادر لا محالة ﴿ وهو بكل خلق عليم ﴾ أي عالم بكل جنس من أجناس الخلق . ثم وصف نفسه فقال ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون ﴾ فيبين أن من قدر على ان يجعل في الشجر الاخضر الذي هو في غاية الرطوبة نارا حامية مع تضاد النار للرطوبة حتى إذا احتاج الانسان حك بعضه ببعض وهو

المرح والعفار وغير ذلك من انواع الشجر فيخرج منه النار وينقدح ، فمن قدر على ذلك لا يقدر الاعداء ؟ ! ثم نبههم على دليل آخر فقال ﴿ او ليس الذي خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم ﴾ ومعناه من قدر على اختراع السموات والارض كيف لا يقدر على أمثاله ؟ ! وقد ثبت أن من شأن القادر على الشيء أن يكون قادراً على جنس مثله وجنس ضده . ودخول الباء في خبر (ليس) لتأكيد النفي .

ثم قال تعالى مجيباً عن هذا النفي فقال ﴿ بلى وهو الخلاق العليم ﴾ أي هو خالق لذلك عالم بكيفية الاعداء .

ثم قال تعالى ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ والمعنى بذلك الاخبار عن سهولة الفعل عليه وانه إذا اراد فعل شيء فعله بمنزلة ما يقول للشيء . كن فيكون في الحال ، وهو مثل قول الشاعر :

وقالت له العينان سمعا وطاعة
وحدرتا كالدر لما يثقب (١)

وإنما اخبر عن سرعة دمه دون ان يكون قبولا على الحقيقة . ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ﴾ ومعناه تنزيهاً له عن نفي القدرة على الاعداء وغير ذلك مما لا يليق به الذي يقدر على الملك ، وفيه مبالغة ﴿ واليه ترجعون ﴾ يوم القيامة الذي لا يملك فيه الأمر والنهي سواه ، فيجازيكم على قدر اعمالكم من الطاعات والمعاصي بالثواب والعقاب .

٣٧- سورة الصافات

مكية في قول مجاهد وقتادة والحسن وهي مئة واثنان وثمانون آية في
المدنيين وإحدى وثمانون في البصري وليس فيها ناسخ ومنسوخ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ
ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) إِنَّا زَيْنًا أَلَمْ نَكُنْ لَكُمْ
الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسْمَعُونَ
إِلَى الْمَلَائِكَةِ إِلَّا عَلَى وَیْقَذُفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ
وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠)
عشر آيات بلاخلاف .

ادغم ابو عمرو - إذا أدرج - التاء في الصاد ، والتاء في الزاي ، والتاء
في الذال في قوله ﴿والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا﴾ لقرب

مخارجهما إذا كانا من كلمتين ، وافقه حمزة في جميع ذلك . الباقون بالاظهار لأن قبل التاء حرفاً ساكناً ، وهو الالف ، لأن مخارجها متغايرة . وقرأ ابن كثير ونافع و ابو عمرو وابن عامر ﴿ بزينة الكواكب ﴾ ولذلك كان يجوز أن يقرأ برفع الكواكب غير أنه لم يقرأ به أحد ، ولو قرئ به لجاز . وقرأ ابو بكر عن عاصم ﴿ بزينة ﴾ منوناً ﴿ الكواكب ﴾ نصباً على معنى تزييننا الكواكب . الباقون ﴿ بزينة ﴾ منوناً ﴿ الكواكب ﴾ خفضاً على البدل ، وهو بدل الشيء من غيره ، وهو بعينه ، لأن الزينة هي الكواكب ، وهو بدل المعرفة من النكرة ، ومثله قوله ﴿ لنسفعا بالناسية ناصية ﴾ (١) فابدل النكرة من المعرفة . وقرأ الكسائي وحمزة وخلف وحفص عن عاصم ﴿ لا يسمعون ﴾ بالتشديد ، وأصله لا يتسمعون ، فأدغم التاء في السين . الباقون بالتخفيف لان معنى سمعت إلى فلان وتسمعت إلى فلان واحد . وإنما يقولون تسمعت فلاناً بمعنى أدركت كلامه بغير (إلى) . ومن شدد كرر ، لثلاث يشبهه . قال ابن عباس : كانوا لا يتسمعون ولا يسمعون .

هذه اقسام من الله تعالى بالأشياء التي ذكرها ، وقد بينا أن له تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه ، وليس لخلقه أن يحلفوا إلا بالله . وقيل إنما جاز أن يقسم تعالى بهذه الأشياء ، لأنها تنبئ عن تعظيمه بما فيها من القدرة الدالة على ربها . وقال قوم : التقدير : ورب الصفات ، وحذف لما ثبت من أن التعظيم بالقسم لله . وجواب القسم قوله ﴿ إن الحكم لواحد ﴾ وقال مسروق وقتادة والسدي : إن الصفات هم الملائكة مصطفون في السماء

(١) سورة ٩٦ العلق آية ١٥

﴿ ج ٨ م ٦١ من التبيان ﴾

يسبحون الله . وقيل : صفوف الملائكة في صلاتهم عند ربهم - ذكره الحسن - وقيل : هم الملائكة تصف أجنحتها في الهواء وافقة حتى يأمرها الله بما يريد ، كما قال ﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ (١) وقال أبو عبيدة : كل شيء من السماء والأرض لم يضم قطريه فهو صاف ، ومنه قوله ﴿ والطير صافات ﴾ (٢) إذا نشرت أجنحتها ، والصفات جمع الجمع ، لأنه جمع صافة . وقوله ﴿ فالزاجرات زجرًا ﴾ قال السدي ومجاهد : هم الملائكة يزجرون الخلق عن المعاصي زجرًا يوصل الله مفهومه إلى قلوب العباد ، كما يوصل مفهوم اغواء الشيطان إلى قلوبهم ليصح التكليف ، وقيل : إنها تزجر السحاب في سوقها . وقال قتادة : ﴿ الزاجرات زجرًا ﴾ آيات القرآن تزجر عن معاصي الله تعالى ، والزجر الصرف عن الشيء لحوف الذم والعقاب ، وقد يكون الصرف عن الشيء بالذم فقط على معنى أنه من فعله استحق الذم . وقوله ﴿ فالتايات ذكرًا ﴾ قيل فيه ثلاثة أقوال :

أحدها - قال مجاهد والسدي : هم الملائكة تقرأ كتب الله .

وقال قتادة : هو ما يتلى في القرآن . وقال قوم : يجوز أن يكون جماعة الذين يتلون القرآن . وإنما قال ﴿ فالتايات ذكرًا ﴾ ولم يقل تلوا ، كما قال ﴿ فالزاجرات زجرًا ﴾ لأن التالي قد يكون بمعنى التابع تقول : تلوت فلاناً إذا تبعته بمعنى جئت بعده ، ومنه قوله ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ (٣) فلما كان مشتركاً ، بينه بما يزيل الإبهام ، وكل هذه أقسام على أن الآله الذي يستحق العبادة واحد لا شريك له . وقوله ﴿ رب السموات والأرض وما

بينهما ورب المشارق ﴿ معناه إن إلهكم الذي يستحق العبادة واحد وهو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما من سائر الاجناس من الحيوان والنبات والجماد ﴾ ورب المشارق ﴿ ومعناه ويملك التصرف فيها، والمشارق هي مشارق الشمس ، وهي مطالعها بعدد ايام السنة ثلاثمائة وستون مشرقاً وثلاثمائة وستون مغرباً ، ذكره السدي .

ثم اخبر تعالى عن نفسه ، فقال ﴿ إنا زينا السماء الدنيا ﴾ والتزيين التحسين للشيء وجعله صورة تميل اليها النفس ، فالله تعالى زين السماء الدنيا على وجه يتمتع الرائي لها ، وفي ذلك النعمة على العباد مع ما لهم فيها من المنفعة بالفكر فيها والاستدلال على صانعها . والكواكب هي النجوم كالبدر والسماء بها زينة قال النابغة :

بانك شمس والملوك كواكب
إذا طلعت لم يبق منهن كوكب

وقوله ﴿ وحفظاً من كل شيطان مارد ﴾ معناه وحفظاً لها حفظاً . والحفظ المنع من ذهاب الشيء ، ومنه حفظ القرآن بالدرس المانع من ذهابه . والمارد الخارج إلى الفساد العظيم ، وهو وصف للشياطين وهم المردة ، واصله الانجراد ، ومنه الأمرد ، والمارد المتجرد من الخير . وقوله ﴿ لا يسمعون ﴾ من شدد أراد لا يسمعون وأدغم التاء في السين ، ومن خفف أراد ايضاً لا يسمعون في المعنى ﴿ إلى الملاء الأعلى ﴾ يعني الملائكة الذين هم في السماء وقوله ﴿ ويقذفون من كل جانب ﴾ معناه يرمون بالشهب من كل جانب إذا ارادوا الصعود إلى السماء للاستماع ﴿ دحوراً ﴾ أي دفعاً لهم بعنف ، يقال: دحرت دحراً ودجوراً ، وانما جاز أن يريدوا استراق السمع مع علمهم بأنهم لا يصلون ، وانهم يحرقون بالشهب ، لانهم تارة يسلمون إذا لم يكن من

الملائكة هناك شيء لا يجوز أن يقفوا عليه ، وتارة يهلكون كراكب البحر في وقت يطعم في السلامة .

وقوله ﴿ ولهم عذاب واصب ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد : معناه إن لهم مع ذلك ايضاً عذاباً دائماً يوم القيامة ، ومنه قوله تعالى ﴿ وله الدين واصباً ﴾ (١) أي دائماً قال ابو الأسود :

لا ابتغي الحمد للقليل بقاءه يوماً بذم الدهر اجمع واصباً (٢)
اي دائماً . وقوله ﴿ إلا من خطف الخطفة ﴾ لما اخبر الله تعالى أن الشياطين لا يستمعون الى الملائكة الأعلى ولا يصفون اليهم أخبر انهم متى راموا رموا من كل جانب دفعاً لهم على اشد الوجوه . ثم قال ﴿ إلا من خطف الخطفة ﴾ أي استلب السماع استلاباً ، و الخطفة الاستلاب بسرعة ، فمتى فعل أحدهم ذلك ﴿ اتبعه شهاب ثاقب ﴾ قال قتادة : والشهاب كالعمود من نار ، وثاقب مضى كأنه يثقب بضوئه يقال أثقب نارك واستثقت النار إذا استوقدت وأضاءت ، ومنه قولهم : حسب ثاقب أي مضى شريف ، قال ابو الأسود :

أذاع به في الناس حتى كأنه
بعلياء نار اوقدت بثقوب (٣)
أي بحيث يضيء ويعلو .

قوله تعالى :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ

(١) سورة ١٦ النحل آية ٥٢ (٢) مر في ٦ / ٣٩٠

(٣) مجاز القرآن ١ / ١٣٣ و ٢ / ١٦٧

طِينٍ لَّا زَبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا
لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنَّا
هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ
دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩)
وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) عشر آيات بلاخلاف .

قرأ أهل الكوفة إلا عاصم ﴿بل عجبت﴾ بضم التاء . الباقون بفتحها .
قال أبو علي : من فتح التاء أراد : بل عجبت يا محمد من إنكارهم البعث أو من
نزول الوحي على قلبك وهم يسخرون . ومن ضم قال : معناه إن إنكار
البعث مع بيان القدرة على الابتداء وظهور ذلك من غير استدلال عجيب
عندك . وقال قوم : إن ذلك اخبار من الله عن نفسه بأنه عجيب ، وذلك
كما قال ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم ﴾ (١) . وهذا غير صحيح ، لأن الله
تعالى عالم بالاشياء كلها على تفاصيلها ، وإنما يعجب من خفي عليه اسباب
الاشياء ، وقوله ﴿ فعجب قولهم ﴾ معناه عندهم . وقرأ ابن عامر ﴿ إذا ﴾ على
الخبر . الباقون على الاستفهام على أصولهم في التحقيق والتخفيف والفصل
وقرأ ﴿ إنا ﴾ على الخبر أهل المدينة والكسائي ويعقوب . وقرأ الباقون
بهمزتين على أصولهم في التحقيق والتليين والفصل . وقرأ أهل المدينة وابن

عامر ﴿ او آباؤنا ﴾ بسكون الواو - هنا وفي الواقعة - إلا أن ورشاً على اصله في إلقاء حركة الهمزة على الواو. الباقون بفتح الواو .

وهذا خطاب من الله تعالى لئنبيه يأمره بأن يستفتي هؤلاء الكفار وهو أن يسألهم أن يحكموا بما تقتضيه عقولهم ، ويعدلوا عن الهوى واتباعه ، فالاستفتاء طلب الحكم ﴿ أهم اشد خلقاً أم من خلقنا ﴾ يعني من قبلهم من الأمم الماضية والقرون الخالية ، فانه تعالى قد أهلك الأمم الماضية الذين هم اشد خلقاً منهم لكفرهم ، ولهم مثل ذلك إن أقاموا على الكفر . وقيل : المعنى أهم اشد خلقاً منهم بكفرهم ، وهم مثل ذلك أم من خلقنا من الملائكة والسموات والارضين ، فقال : أم من خلقنا ، لأن الملائكة تعقل ، فغلب ذلك على ما لا يعقل من السموات ، والشدة قوة القتل وهو بخلاف القدرة والقوة . وكل شدة قوة ، وليس كل قوة شدة ، واشد خلقاً ما كان فيه قوة يمنع بها فتله إلى المراد به .

ثم اخبر تعالى انه خلقهم من طين لا زب . والمراد انه خلق آدم من طين ، وإن هؤلاء نسله وذريته ، فكأنهم خلقوا من طين ، ومعنى ﴿ لا زب ﴾ لازم فأبدلت الميم باء ، لأنها من مخرجها ، يقولون : طين لازب وطين لازم قال النابغة :

ولا يحسبون الخير لا شر بعده ولا يحسبون الشر ضربة لازب (١)

وبعض بني عقيل يبدلون من الزاي تاء ، فيقولون : لاتب ، ويقولون : لزب ، ولتب ، ويقال : لزب يلزب لزوباً . وقال ابن عباس : اللازب الملتصق من الطين الجراحييد . وقال قتادة : هو الذي يلزق باليد . وقال مجاهد : معناه لازق . وقيل :

معناه من طين علك خلق آدم منه ونسب ولده اليه . وقوله ﴿ بل عجبت ويسخرون ﴾ فمن ضم التاء اراد أن النبي ﷺ أمره الله أن يخبر عن نفسه انه عجب من هذا القرآن حين أعطيه ، وسخر منه أهل الضلالة . قال المبرد : وتقديره قل بل عجبت . ومن فتح التاء اراد ان الله تعالى خاطبه بذلك . والعجب تغير النفس بما خفي فيه السبب في ما لم تجر به العادة ، يقال : عجب يعجب عجباً وتعجب تعجباً . والمعنى في الضم على ما روي عن علي عليه السلام وابن مسعود ليس على انه بعجيب كما يعجب ، لأن الله تعالى عالم بالاشياء على حقائقها ، وإنما المعنى انه يجازي على العجب كما قال ﴿ فيسخرون منهم سخر الله منهم ﴾ (١) ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ (٢) ويجوز أن يكون المعنى قد حلوا محل من يعجب منهم . والفتح على عجب النبي ﷺ ﴿ ويسخرون ﴾ معناه يهزؤون بدعائك إياهم إلى الله . والنظر في دلائله وآياته . ﴿ وإذا ذكروا ﴾ بآيات الله وحججه وخوفوا بها ﴿ لا يذكرون ﴾ أي لا يتفكرون ، ولا ينتفعون بها ﴿ وإذا رأوا آية ﴾ من آيات الله تعالى ﴿ يستسخرون ﴾ أي يسخرون وهما لغتان . وقيل : معناه يطلب بعضهم من بعض أن يسخروا ويهزؤا بآيات الله ، فيقولون ليس هذا الذي تدعونا اليه من القرآن وتدعيه أنه من عند الله ﴿ إلا سحر مبين ﴾ أي ظاهر بين .

وحكى انهم يقولون ايضاً ﴿ آئذا متنا وكنا تراباً وعظاما أئنا لمبعوثون ﴾ بعد ذلك ومحشورون ومجازون؟ ! ﴿ أو آباؤنا الأولون ﴾ الذين تقدمونا بهذه الصفة ، واللفظ لفظ الاستفهام والمراد بذلك التهزي والاستبعاد لأن يكون

هذا حقيقة وصحيحاً . فمن فتح الواو فلائها واو العطف دخل عليها ألف الاستفهام ، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ قُلْ لَهُمْ ﴾ ﴿ نَعَمْ ﴾ الامر على ذلك ، فانكم تحشرون وتسالون وتجازون على اعمالكم من الطاعات بالجنة والثواب ، وعلى المعاصي بالنار والعقاب فيها ﴿ وانتم داخرون ﴾ أي صاغرون أذلاء - وهو قول الحسن وقتادة والسدي - وقيل : الداخر الصاغر الدليل اشد الصغر والصاغر الدليل لصغر قدره .

ثم قال ايضاً وقُلْ لَهُمْ ﴿ فانما هي زجرة واحدة ﴾ فقال الحسن : يعني النفخة الثانية . والزجرة الصرفة عن الشيء . بالخافة ، فكأنهم زجروا عن الحال التي هم عليها إلى المصير إلى الموقف للجزاء والحساب ﴿ فاذا هم ينظرون ﴾ أي يشاهدون ذلك ويرونه . وقيل : معناه فاذا هم أحياء ينظرون ما ينزل بهم من عذاب الله وعقابه ، ويقولون معترفين على نفوسهم بالعصيان ﴿ يا ويلنا هذا يوم الدين ﴾ أي يوم الجزاء والحساب . و (الويل) كلمة يقولها القائل إذا وقع في الهلكة ، ومثله يا ويلتي ، ويا حسرتي ، ويا عجبا . وقال الزجاج : والمعنى في جميع ذلك ان هذه الأشياء حسن نداءها على وجه التنبيه والتعظيم على عظم الحال ، والمعنى يا عجب اقبل ويا حسرة اقبلي فانه من اوانك واوقاتك ، ومثله قوله ﴿ يا ويلتي الد وانا عجوز ﴾ (١) وقوله ﴿ يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله ﴾ (٢) .

قوله تعالى !

﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ (٢١) أَحْشُرُوا

الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ
 فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤)
 مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ
 بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ
 الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا
 عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَآغِينَ ﴿ (٣٠)

عشر آيات في الكوفي ، والمدنيين عدوا قوله ﴿ وما كانوا يعبدون ﴾ رأس
 آية . والبصريون لم يعدوها ، فهي عندهم تسع آيات .

لما أخبر الله تعالى عن الكفار أنهم إذا حشروا وشاهدوا القيامة وقالوا
 ﴿ يا ويلنا هذا يوم الدين ﴾ يعني الجزاء حكى ما يقول الله لهم فانه تعالى يقول
 لهم ﴿ هذا يوم الفصل ﴾ بين الخلائق والحكم وتميز الحق من الباطل على
 وجه يظهر لجميعهم الحال فيه ، وانه تعالى يدخل المطيعين الجنة على وجهه
 الاكرام والاعظام ، ويدخل العصاة النار على وجه الالهانة والاذلال ﴿ هذا
 هو يوم الفصل ﴾ وهو اليوم ﴿ الذي كنتم ﴾ معاشر الكفار ﴿ به تكذبون ﴾
 وتجحدونه وتقابلون من أخبر عنه بالتكذيب وتنسبونه إلى ضد الصدق .

ثم حكى ما يقول الله للملائكة المتولين لسوق الكفار إلى النار ، فانه

يقول لهم « أحشروا الذين ظلموا » أنفسهم بارتكاب المعاصي بمعنى اجمعوهم من كل جهة ، فالكفار يحشرون من قبورهم إلى أرض الموقف للجزاء والحساب ، ثم يساق الظالمون مع ما كانوا يعبدون من الأوثان والطواغيت إلى النار وكذلك أزواجهم الذين كانوا على مثل حالهم من الكفر والضلال وقال ابن عباس ومجاهد وابن زيد : معنى « وأزواجهم » أشباههم ، وهو من قوله « وكنتم أزواجاً ثلاثة » (١) أي اشكالا واشباها . وقال قتادة : معناه وأشياعهم من الكفار . وقيل : من الاتباع . وقال الحسن : يعني « وأزواجهم » المشركات . وقيل : اتباعهم على الكفر من نسائهم .

وقوله « فاهدوهم إلى صراط الجحيم » إنما عبر عن ذلك بالهداية من حيث كان بدلا من الهداية إلى الجنة ، كما قال « فبشرهم بعذاب الأليم » (٢) لهذه العلة من حيث ان البشارة بالعذاب الأليم وقعت لهم بدلا من البشارة بالنعيم ، يقال : هديته الطريق أي دلتته عليها وأهديت الهدية .

ثم حكى الله تعالى ما يقوله للملائكة الموكلين بهم فانه يقول لهم « وقفوهم » أي قفوا هؤلاء الكفار أي احبسوهم « انهم مسؤولون » عما كفهم الله في الدنيا من عمل الطاعات واجتناب المعاصي هل فعلوا ما أمروا به أم لا ؟ على وجه التقرير لهم والتبكيك دون الاستعلام ، يقال : وقفت انا ووقفت الدابة بغير الف . وبعض بني تميم يقولون : اوقفت الدابة والدار . وزعم الكسائي انه سمع ما اوقفك ههنا ، وانشد الفراء :

ترى الناس ما سرنا يسرون خلفنا وإن نحن اومأنا إلى الناس اوقفوا
بالف . ويقال لهم ايضا على وجه التبكيك « مالكم » معاشر الكفار

« لا تناصرون » بمعنى لا تتناصرون ، ولذلك شدد بعضهم التاء ، ومن لم يشدد حذف إحداها ، والمعنى لم لا يدفع بعضكم عن بعض ان قدرتم عليه .
ثم قال تعالى انهم لا يقدرّون على التناصر والتدافع لكن « هم اليوم مستسلمون » ومعنا مسترسلون مستحدثون يقال : استسلم استسلاماً إذا التى بيده غير منازع في ما يراى منه . وقيل : معناه مسترسلون لما لا يستطيعون له دفعاً ولا منه امتناعاً .

وقوله « واقبل بعضهم على بعض يتساءلون » اخبار منه تعالى إن كل واحد من الكفار يقبل على صاحبه الذي اغواه على وجه التأنيب والتضعيف .
له يسأله لم غررتني ؟ ويقول ذاك لم قبلت مني .
وقوله « قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين » حكاية ما يقول الكفار لمن قبلوا منهم إنكم : كنتم تأتوننا من جهة النصيحة واليمن والبركة ، فلذلك اغتررنا بكم والعرب تتيمن بما جاء من جهة اليمين . وقال الفراء : معناه إنكم كنتم تأتوننا من قبل اليمين ، فتخذعوننا من أقوى الوجوه . واليمين القوة ومنه قوله « فراغ عليهم ضرباً باليمين » (١) أي بالقوة ثم حكى ما يقول اولئك لهم في جواب ذلك : ليس الأمر على ما قلتم بل لم تكونوا مصدقين بالله ولم يكن لنا عليكم في ترك الحق من سلطان ولا قدرة فلا تسقطوا اللوم عن أنفسكم فانه لازم لكم ولا حق بكم . وقال قتادة : أقبل الأنس على الجن يتساءلون بأن كنتم أنتم معاشر الكفار قوماً طاعين أي باغين ، تجاوزتم الحد إلى افش الظلم ، واصله تجاوز الحد في العظم ومنه قوله « إنالمنا طغى الماء حملناكم في الجارية » (٢) وطغيانهم كفرهم بالله ، لأنهم تجاوزوا في ذلك الحد

إلى أعظم المعاصي ، وقال الزجاج : معنى لاتنصرون مالكم غير متناصرين فهو نصب بانه حال .

قوله تعالى :

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ (٣١) فَأَعْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَأَنَّا لَكَ آلهَتْنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تَجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿ (٤٠) عشر آيات .

هذا تمام ما حكى الله عن المغاوين للكفار يوم القيامة بأنهم إذا قالوا لهم لم يكن لنا عليكم من سلطان ، وإنما أنتم كنتم قوماً طاعين ، أخبروا أيضاً وقالوا « فحق علينا » أي وجب علينا « قول ربنا » بأننا لانؤمن ، ونموت على الكفر او وجب علينا قول ربنا بالعذاب الذي يستحق على الكفر والاعواء « إنا لذائقون » العذاب يعني إنا ندركه كما ندركه المطعوم بالذوق ، ثم يعترفون على انفسهم بأنهم كانوا غاوين ، أي دعوناكم إلى الغي وقيل : معناه خيبناكم بطرق الرشاد فغويونا نحن أيضاً وخيبنا ، فالاعواء الدعاء

إلى الغي ، والغني نقيض الرشد ، وأصله الخيبة من قول الشاعر :
 فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لأمماً (١)
 ويكون (أغوى) بمعنى خيب ، ومنه قوله « رب بما أغويتني » (٢)
 أي خيبتني .

ثم اخبر تعالى انهم في ذلك اليوم مشتركون في العذاب ، ومعنى اشتراكهم
 اجتماعهم في العذاب الذي هو يجمعهم .

ثم اخبر تعالى فقال إن مثل فعلنا بهؤلاء نفعل بجميع المجرمين . وبين
 أنه إنما فعل بهم ذلك ، لأنهم « كانوا إذا قيل لا إله » معبود يستحق
 العبادة « إلا الله يستكبرون » عن قبول ذلك ، وطلبوا التكبر ، وهذه لفظة
 ذم من حيث استكبروا عن قول الحق . وحكى ما كانوا يقولون إذا دعوا
 إلى عبادة الله وحده فانهم كانوا « يقولون إنا لتاركوا آلهتنا » ومعنى ذلك
 إنا نترك عبادة آلهتنا « لشاعر مجنون » يدعونا إلى خلافه ، يعنون بذلك
 النبي ﷺ يرمونه بالجنون تارة وبالشعر أخرى - وهو قول الحسن وقتادة -
 لفرط جهلهم حتى قالوا هذا القول الفاحش الذي يفضح قائله ، لأن المعلوم
 انه ﷺ كان بخلاف هذا الوصف ، والجنون آفة تغطي على العقل حتى يظهر
 التخليط في فعله ، وأصله تغطية الشيء : جن عليه الليل إذا غطاه ، ومنه المجن
 لأنه يستر صاحبه ، ومنه الجنان الروح ، لأنها مستورة بالبدن ، ومنه الجنة
 لأنها تحت الشجر .

ثم اخبر تعالى تكذيباً لهم بأن قال ليس الأمر على ما قالوه « بل »

(١) مر في ٢/٤٣١٢ و ٣٩١/٥ و ٥٤٨/٦ و ٣٣٦/٧ و ١٣٦/٨ و ٢١٨/٣٦

(٢) سورة ١٥ الحجر آية ٣٩

النبي ﷺ « جاء بالحق » من عند الله وهو ما يجب العمل به « وصدق » مع ذلك « المرسلين » جميع من أرسله الله قبله . ثم خاطب الكفار ، فقال « إنكم لذائقوا العذاب الأليم » يعني المؤلم الموجه جزاء على تكذيبكم بآياتنا . وليس « تجزون إلا » على قدر « ما كنتم تعملون » من المعاصي ثم استثنى من جملة المخاطبين « عباد الله المخلصين » وهم الذين أخلصوا العبادة لله واطاعوه في كل ما أمرهم به ، فانهم لا يذوقون العذاب وإنما ينالون الثواب الجزيل .

قوله تعالى:

﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۖ (٤١) فَوَٰكِهِ وَهُمْ مُّكْرَمُونَ ۚ (٤٢) فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ۚ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ۚ (٤٥) بَيْضَاءَ لَّدَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ۚ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ۚ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ۚ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۚ (٤٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۚ (٥٠) عَشْرَ آيَاتٍ ۚ (٥٠) ﴾

قرأ حمزة والكسائي وخلف « ينزفون » بكسر الزاي على اسناد الفعل اليهم .
الباقون بفتح الزاي - على ما لم يسم فاعله - ومن فتح فانه مأخوذ من
نزف الرجل ، فهو منزوف ونزيف ، إذا ذهب عقله بالسكر ، وانزف فهو
منزف به إذا فميت خمره . ويقال أنزف أيضاً إذا سكر .

لها استثنى الله تعالى من جملة من يعاقبهم من الكفار المخلصين الذين

أخلصوا عبادتهم لله وحده ، بين ما أعد لهم من أنواع الثواب ، فقال « أولئك لهم رزق معلوم » يعني عطاء جعل لهم التصرف فيه وحكم لهم به في الأوقات المستأنفة في كل وقت شيئاً معلوماً مقدراً . ثم فسر ذلك الرزق ، فقال ذلك الرزق « فواكه » وهي جمع فاكهة وهي تكون رطباً ويابساً يتفكهون بها وينتفعون بالتصرف فيها « وهم » مع ذلك « مكرمون » أي معظمون مبدلون ، وضد الأكرام الإهانة وهي الانتقام وهم مع ذلك « في جنات النعيم » أي بسايتين فيها أنواع النعيم التي يتنعمون بها « على سرر » وهو جمع سرير « متقابلين » يستمتع بعضهم بالنظر إلى وجوه بعض « يطاف عليهم بكأس من معين » أي بكأس من خمر جارية في أنهار ظاهرة للعيون - في قول الحسن وقتادة والضحاك والسدي - والكأس اناء فيه شراب . وقيل : لا يسمى كأساً إلا إذا كان فيه شراب وإلا فهو اناء ،

وقوله « معين » يحتمل ان يكون (فعيل) من العين ، وهو الماء الشديد الجري من أمعن في الأمر إذا اشتد دخوله فيه . ويحتمل ان يكون وزنه (مفعولاً) من عين الماء لانه يجري ظاهراً لا عيناً .

ثم وصف الخمر الذي في الكأس ، فقال « بيضاء » ووصفها بالبياض لانها تجري في انهار بكاشف الشراب ، وهي خمر فيها اللذة والامتع فترى بيضاء صافية في نهاية الرقة واللطافة مع النورية التي لها والشفافة ، لأنها على احسن منظر ومخبر . وقال قوم : بيضاء صفة للكأس ، وهي مؤنثة . واللذة نيل المشتى بوجود ما يكون به صاحبه ملتذاً . والشراب مأخوذ من الشرب . وقوله « لافيها غول » معناه لا يكون في ذلك الشراب غول أي فساد يلحق العقل خفياً ، يقال : اغتاله اغتيالاً إذا أفسد عليه أمره ، ومنه الغيلة

وهي القتل سرّاً . وقال ابن عباس « لافيهـا غول » معناه لا يكون فيها صـدا ع ولا أذى ، كما يكون في خمر الدنيا ، وقال الشاعر :

وما زالت الكأس تغتالنا ونذهب بالاول الاول (١)

هذا من الغيلة أي نـصر ع واحد بعد واحد « ولا هم عنـها ينزفون » أي لا يسكرون والنزيف السكران ، لانه ينزف عقله ، قال الأبرد الرياحي :
لعمرى لئن أنزفتم اوضـحوتـم لبئس التـداني كنـتم آل البحرا (٢)
فالبيت يدل على ان أنزف لغة في نزف إذا سكر ، لأنه جعله في مقابلة الصحو . ومن قرأ بالسكر فعلى معنى : إنهم لا ينزفون خمرهم أي لا يفنى عندهم .
وقوله « وعندهم قاصرات الطرف عين » معنى قاصرات الطرف تقصر طرفهن على أزواجهن - في قول الحسن وغيره - وقال بعضهم : معنى قاصرات راضيات من قولهم : اقتصرت على كذا ، ومعنى « عين » الشديدة كـبياض العين الشديدة سوادها - في قول الحسن - والعين النجل وهي الواسعة العين .

وقوله « كأنهن بيض مكنون » شبهن ببيض النعام يكن بالريش من الريج والغبار - في قول الحسن وابن زيد - وقال سعيد بن جبـير والسـدي : شبهن ببطن البيض قبل ان يقشر وقبل أن تمسه الأيدي ، والمكنون المصون يقال : كننت الشيء إذا صنته ، واكننته إذا سترته من كل شيء . قال الشاعر :
وهي زهراء مثل لؤلؤة الغـواص مـيزت من جوهر مكنون (٣)

(١) مجاز القرآن ٢ / ١٦٩ (٢) اللسان (نزف) وتفسير القرطبي

١٥ | ٧٩ والطبري ٢٣ | ٣١ ومجاز القرآن ٢ | ١٦٩

(٣) مجاز القرآن ٢ | ١٧٠ وتفسير القرطبي ١٥ | ٨١ والطبري ٢٣ | ٣٤

ثم قال « فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » يعني ان اهل الجنة يقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن احوالهم وما تفضل الله عليهم من انواع الكرامات قوله تعالى :

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ إِنَّكَ كَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا إِنََّّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَأَلَّهَ إِنَّ كُنْتَ كَاثِرِينَ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَبِيتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٦٠) عشر آيات

لما حكى الله تعالى أن اهل الجنة يقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن اخبارهم وأحوالهم ، ذكر أن قائلاً منهم يقول « إني كان لي قرين » في دار الدنيا أي صاحب يختص بي إما من الانس - على ما قال ابن عباس - او من الجن - على ما قال مجاهد - « يقول » لي على وجه الانكار علي والتهجين افعلي « ائتلك لمن المصدقين » بيوم الدين بان الله يبعث الخلق بعد أن يصيروا تراباً وعظاماً وانهم يحشرون بعد ذلك ويحاسبون ويجازون إن هذا لبعيد ، فألف الاستفهام دخلت - ههنا - على وجه الانكار ، وإنما دخلت ألف الاستفهام للانكار من حيث أنه لا جواب لقائله إلا ما يفتضح به ، وهؤلاء ﴿ ج ٨ م ٦٣ من التبيان ﴾

الكفار غلطوا في هذه الانكار وتوهموا أن من يقول في جواب ذلك نعم يأتي بقبيح من القول ،

وقوله « أئنا لمدينون » معناه لمجزئون مشتق من قولهم : كما تدين تدان . أي كما تجزي تجزي ، والدين الجزاء ، والدين الحساب ، ومنه الدين ، لأن جزاءه القضاء ، وقال ابن عباس : القرين الذي كان له شريكاً من الناس . وقال مجاهد : كان شيطاناً .

ثم حكى انه يقال لهذا القائل على وجه العرض عليه « هل أنتم مطلعون » أي يؤمرون أن يروا مكان هذا القرين في النار ، فيقول : نعم ، فيقال له : اطلع في النار ، فيطلع في الجحيم فيراه في سوائه أي وسطه - في قول ابن عباس والحسن وقتادة - وإنما قيل للوسط : سواء لاستوائه في مكانه بأن صار بدلاً منه ، وقد كثر حتى صار بمعنى غير ، وروى حسين عن أبي عمرو « مطلعوني فاطلع » بكسر النون وقطع الألف ، وهو شاذ ، لان الاسم إذا أضيف حذفت منه النون ، كقولك : مطلعي ، وإنما يجوز في الفعل على حذف إحدى النونين ، وقد انشد الفراء على شذوذه قول الشاعر :

وما أدري وظني كل ظن أسلني إلى قوم شراح (١)

يريد شراح ، وانشده المبرد (أسلني) وانشد الزجاج :

هم القائلون الخير والأمر دونه إذا ما خشوا من محدث الأمر معظم (٢)

وقيل : ان لأهل الجنة في توبيخ أهل النار لذة وسروراً . وقال الحسن :

الجنة في السماء والنار في الأرض ، فلذلك صح منهم . الاطلاع .

ثم حكى تعالى ما يقوله المؤمن إذا اطلع عليه وراه في وسط الجحيم

فانه يقول « تالله إن كدت لتردين » ومعنى (تالله) القسم على وجه التعجب وإنما كان كذلك ، لان التاء بدل من الواو في القسم على وجه النادر ، ولذلك اختصت باسم الله ليدل على المعنى النادر .

وقوله « إن كدت لتردين » وهي التي في قوله « إن كل نفس لما عليها حافظ » (١) إلا أنها دخلت في هذا على (فعل) ومعنى « لتردين » لتهلكني كهلاك المتردي من شاهق ، ومنه قوله « وما يغني عنه ماله إذا تردى » (٢) في النار ، وتقول ردي يردى إذا هلك وأرداه غيره إرداه إذا أهلكه ثم يقول « فلو لا نعمة ربي » علي ورحمته لي بأن لطف لي في ترك متابعتك والقبول منك « لكنك » أنا ايضاً « من المحضرين » معك في النار فالاحضار الاتيان بالشيء إلى حضرة غيره ، وقال الشاعر :

أني الطوف خفت علي الردى وكم من رد أهله ولم يرم (٣)
أي من هالك ، وقوله « أفأنا نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين » هذا تقرير لهم وتوبيخ ، لأن هذا الكافر كان يقول كثيراً ذلك في دار الدنيا ، ومثله قول الشاعر :

قالت له وبضيق ضحك لا تكثري لومي اخلي عنك
ومعناه إنها كانت تلومه على الانفاق ، فكان يقول لا تكثري لومي فاطلقك فلما انفق عبرته بذلك ووبخته وحكت ما كان يقول عند توبيخها وعذلها . وقال الجبائي : هذا يقوله المؤمن على وجه الاخبار بأنه لا يموت بعد هذا النعيم لكن الموتة الأولى قد مضت ، فتلخيص معنى الآية قولان :

(١) سورة ٨٦ الطارق آية ٤ (٢) سورة ٩٢ الليل آية ١١

(٣) الطبري ٢٣ / ٣٦

أحدهما - انه يقوله المؤمن على وجه السرور بنعم الله في أنه لا يموت ولا يعذب .

الثاني - أن المؤمن يقوله على وجه التوبيخ لقرينة بما كان ينكره .
وقوله « إن هذا هو الفوز العظيم » إخبار منه تعالى بأن هذا الثواب الذي حصل له هو الفلاح العظيم .

قوله تعالى :

﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ (٦١) أَذَلِكَ خَيْرٌ مُنْزِلًا أَمْ شَجَرَةَ الزَّقْوَمِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَكِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلَفُوا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿ (٧٠) عشر آيات .

يقول الله تعالى في تمام الحكاية عن قول المؤمن للكافر « لمثل هذا »
يعني لمثل ثواب الجنة ونعيمها « فليعمل العاملون » في دار التكليف ، ويحسن من العامل أن يعمل العمل للثواب إذا أوقعه على الوجه الذي تدعو اليه الحكمة من وجوب أو نذب ، قال الرماني : ألا ترى أنه لو عمل القبيح ليثاب على ما تدعو اليه الحكمة لاستحق الثواب إذا خلاص من الاحباط . وهذا الذي

ذكره غير صحيح ، لأن القبيح لا يجوز أن يستحق عليه الثواب على وجه وإن عرض في القبيح وجوه كثيرة من وجوه الحسن ، فانه لا يعتد بها ، فان علمنا في ما ظاهره القبيح أنه وقع على وجه يستحق فيه الثواب ، علمنا انه خرج من كونه قبيحاً . ومثال ذلك إظهار كلمة الكفر عند الاكراه عليها او الانكار لكون نبي بحضرته لمن يطلبه ليقتله فان هذا وإن كان كذباً في الظاهر فلا بد أن يوري المظهر بما يخرج به عن كونه كاذباً ، ومتى لم يحسن التورية منع الله من إكراهه عليه . وفي الناس من يقول ! يجب عليه الصبر على القتل ، ولا يحسن منه الكذب ، ومتى كان من يحسن التورية ، ولم يور كان القول منه كذباً وقبيحاً ولا يستحق به الثواب ، فاما الاكراه على أخذ مال الغير وإدخال ضرر عليه دون القتل ، متى كان قد علمنا بالشرع وجوب فعل ذلك عند الاكراه أو حسنه علمنا انه خرج بذلك عن كونه قبيحاً وإن الله تعالى ضمن من العوض عليه ما يخرج به عن كونه قبيحاً ، كما تقول : في ذبح البهائم ، ومتى لم يعلم بالشرع ذلك ، فانه يقبح إدخال الضرر على الغير واخذ ماله ، فأما إدخال الضرر على الغير ونفسه ببذل مال او تحمل خراج ليدفع بذلك عن نفسه ضرراً أعظم منه ، فانه يحسن ، لانه وجه يقع على الاثم فيصير حسناً ، وهذا باب احكمناه في كتاب الأصول ، لايحتمل هذا الموضع أكثر من هذا .

وقوله « أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم » إنما جاز ذلك مع انه لاخير

في شجرة الزقوم لامرين :

أحدهما - على الحذف بتقدير أسبب هذا الذي أدى اليه خير أم سبب أدى إلى النار ، كأنهم قالوا هو فيه خير ، لما عملوا ما أدى اليه . والنزل

الفضل طعام له نزل ، ونزل أي فضل وريع . وقيل : معناه خير نزلا من الانزال التي تقيم الابدان وتبقى عليهم الأرواح و (الزقوم) قيل : هو ثمر شجرة منكرة جداً من قولهم يزقم هذا الطعام إذا تناوله على تكره ومشقة شديدة . وقيل : شجرة الزقوم ثمرة مرة خشنه منتنة الرائحة .

وقوله « إنا جعلناها فتنة للظالمين » معناه إنا جعلنا شجرة الزقوم محنة لشدة التعب ، وقال قتادة : لما نزلت هذه الآية قال المشركون : النار تحرق الشجرة ، وكيف تنبت هذه في النار ، فكان ذلك تغليظاً للمحنة ، لانه يحتاج إلى الاستدلال على انه قادر لا يمتنع عليه أن يمنع النار من احراقها حتى تنبت الشجرة فيها . وقيل : معناه إنها عذاب للظالمين من قوله « يومهم على النار يفتنون » (١) أي يعذبون ، وقيل : هو قول أبي جهل في التمر والزبد انه يتزقه . روى أنه لما سمع هذه الآية دعا الكفار واحضر التمر والزبد وقال تعالوا نتزقم هذا بخلاف ما يهددنا به محمد . ثم قال تعالى « إنها شجرة » يعني الزقوم « تخرج في أصل الجحيم » أي تنبت في قعر جهنم « طلعتها كأنه رؤس الشياطين » قيل : في تشبيه ذلك برؤس الشياطين مع أن رؤس الشياطين لم تر قط ثلاثة أقوال :

أحدها - ان قبح صورة الشياطين متصور في النفس ولذلك يقولون شيء يستبجونه جداً كأنه شيطان . وقال امرؤ القيس :

أبقتاني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب اغوال (٢)

فشبه النصول بأنياب الأغوال ، وهي لم تر ، ويقولون : كأنه رأس شيطان وانقلب عليّ كأنه شيطان .

الثاني - انه شبه برأس حية يسميها العرب شيطاناً ، قال الراجز :

منجرد يحلف حين أحلف كمثل شيطان الحماط أعرف (١)

الثالث - انه شبه بنبت معروف برؤس الشياطين . وقيل : قد دل الله

أنه يشوه خلق الشياطين في النار حتى لو رآهم راء من العباد لاستوحش منهم غاية الاستيحاش ، فلذلك يشبه برؤسهم .

ثم أخبر تعالى أن اهل النار ليأكلون من تلك الشجرة ويملئون بطونهم منها لشدة ما يلحقهم من ألم الجوع ، والملاطرح في الوعاء ما لا يحتمل الزيادة عليه ، فهؤلاء حشيت بطونهم من الزقوم بما لا يحتمل زيادة عليه .

ثم قال « إن لهم عليها » يعني الزيادة على شجرة الزقوم « اشوبا . حميم » فالشوب خلط الشيء بما ليس منه مما هو شر منه ، ويقال هذا الطعام مشوب ، وقد شابه شيء من الفساد ، والحميم إذا شاب الزقوم اجتمعت المكار فيه من المرارة والخشونة وتن الرائحة ، والحرارة المحرقة - نعوذ بالله منها - والحميم الحار الذي له من الاحراق المهلك أدناه قال الشاعر :

احم الله ذلك من لقاء أحاد أحاد في الشهر الحلال (٢)

أي ادناه وحمم ريش الفرخ إذا نبت ، حتى يدنو من الطيران والمحوم المقترب من حال الاحراق . وقال ابن عباس : يشربون الحميم المشروب من الزقوم أي قد شيب مع حرارته بما يشتد تكرهه . والحميم الصديق القريب أي الداني من القلب .

وقوله « ثم ان مرجعهم لالى الجحيم » معناه أنهم يردون بعد ذلك إلى النار الموقدة . وفي ذلك دلالة على أنهم في وقت ما يطعمون الزقوم

بمعزل عنها ، كما قال « يطوفون بينها وبين حميم آن » (١)
ثم حكى تعالى ان هؤلاء الكفار « الفوا » يعني صادفوا « آباءهم ضالين »
عن الطريق المستقيم الذي هو طريق الحق « فهم على آثارهم يهرعون » في
الضلال أي يقلدونهم ويتبعونهم ، قال ابو عبيدة : معنى يهرعون يستحثون
من خلفهم . وقيل : معناه يزعمون إلى الاسراع ، هرع وأهرع لغتان .
قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ
مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ
الْمُخْلِصِينَ (٧٤) وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ
وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧)
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩)
إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿ (٨٠) عشر آيات .

اقسم الله تعالى انه « لقد ضل قبلهم » قبل هؤلاء الكفار الذين هم في
عصر النبي ﷺ عن طريق الحق واتباع الهدى « أكثر الأولين » من كان
قبلهم لان اللام في (لقد) هي لام القسم وتدخل على الجواب لقواك !
والله لقد كان كذا ، وقد تدخل للتأكيد . والضلال الذهاب عن الحق إلى
طريق الباطل ، تقول : ضل عن الحق يضل ضلالا . والاضلال قد يكون

بمعنى الذم بالضلal والحكم عليه به ، وقد يكون بمعنى الأمر به والاغراء كقوله « وأضلهم السامري » (١) . والأكثر هو الأعظم في العدد ، والأول الكائن قبل غيره . وأول كل شيء هو الله تعالى ، لأن كل ما سواه فهو موجود بعده .

ثم أقسم انه أرسل فيهم منذرين من الأنبياء والرسل يخوفونهم بالله ويحذرونهم معاصيه . ثم قال « فانظر » يا محمد « كيف كان عاقبة المنذرين » والتقدير ان الأنبياء المرسلين لما خوفوا قومهم فعصوهم ولم يقبلوا منهم أهلهم وأنزل عليهم العذاب ، فانظر كيف كان عاقبتهم .

ثم استثنى من المنذرين في الاهلاك عباده المخلصين الذين قبلوا من الأنبياء ، وأخلصوا عبادتهم لله تعالى ، فان الله تعالى خلصهم من ذلك العذاب ووعدهم بالثواب .

ثم أخبر ان نوحاً نادى الله ودعاه واستنصره على قومه ، وأنه تعالى أجابه ، وأنه - جل وعز - نعم المجيب لمن دعاه وتقديره فلنعم المجيبون نحن له ولما أجابه نجاه وخلصه وأهله من الكرب العظيم ، فالنجاة هي الرفع من الهلاك واصله الرفع ، فمنه النجوة المرتفع من المكان ومنه النجاة النجاة كقولهم الوحا الوحا . والاستنجاء رفع الحدث . والكرب الحزن الثقيل على القلب ، قال الشاعر :

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب (٢)

والكرب تحرير الأرض باصلاحها للزراعة . والكرب هو الذي يحمي قلب النخلة باحاطته بها وصيانتها لها . والعظيم الذي يصغر مقدار غيره عنه . وقد

يكون التعظيم في الخير والعظم في الشر والعظم في النفس . وقال
السدي : معناه نجيناه وأهله من الفرق . وقال غيره : بل نجاهم من الأذى
والمكروه الذي كان ينزل بهم من قومه ، لانه بذلك دعا ربه فأجاب . وقيل :
الذين نجوا مع نوح شيعة .

وقوله ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ قال ابن عباس وقتادة : الناس كلهم
من ذرية نوح بعد نوح . وقال قوم : العجم والعرب أولاد سام بن نوح
والترك والصقالبة والخزر أولاد يافث بن نوح ، والسودان أولاد حام
ابن نوح .

وقوله ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ قيل في معناه قولان :
قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ يعني
ذكر آجيلا ، وأثنينا عليه في أمة محمد . ومعنى (تركنا) أبقينا ، فحذف ،
فيكون ﴿ سلام على نوح في العالمين ﴾ من قول الله على غير جهة الحكاية .
الثاني - قال الفراء : تركنا عليه قولاً هو أن يقال في آخر الامم : سلام
على نوح في العالمين .

ثم قال ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ كما فعلنا بنوح من الشاء الجميل ، مثل
ذلك نجزي من احسن أفعاله وتجنب المعاصي .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (٨٢) ﴾

وَإِنَّ مِنْ شُعَيْبَةٍ لَّا بُرْهِيْمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤)

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِنْفَكَ آلِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النَّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿ (٩٠)

عشر آيات •

هذا رجوع من الله تعالى إلى ذكر وصف نوح بأنه كان ﴿ من عبادنا المؤمنين ﴾ الذين يصدقون بتوحيد الله ووعدته ووعيدته وجميع أخباره • والعباد جمع عبد ، وهو الذليل للملكة بالعبودية • والخلق كلهم عباد الله فمنهم عابد له ومنهم عابد لغيره تضييعاً منهم لحق نعمه وجهلاً بما يجب له عليهم • والمؤمن هو المصدق بجميع ما أوجب الله عليه أو ندبه إليه • وقال قوم : هو العامل بجميع ما أوجب الله عليه العامل بما يؤمنه من العقاب •

ثم اخبر تعالى انه أغرق الباقين من قوم نوح بعد إخلاصه نوحاً وأهله المؤمنين • ثم قال ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ﴾ فالشيعة الجماعة التابعة لرئيس لهم ، وصاروا بالعرف عبارة عن شيعة علي عليه السلام الذين معه على أعدائه • وقيل من شيعة نوح إبراهيم يعني إنه على منهاجه وسنته في التوحيد والعدل واتباع الحق • وقال الفراء : معناه وإن من شيعة محمد صلى الله عليه وآله لإبراهيم ، كما قال ﴿ أنا حملنا ذريتهم ﴾ (١) أي ذرية من هو أب لهم ، فجعلهم ذرية لهم وقد سبقوهم ، وقال الحسن : معناه على دينه وشريعته ومنهاجه ، قال الرماني : هذا لا يجوز ، لانه لم يجر لمحمد ذكر ، فهو ترك الظاهر • وقد روي عن اهل

البيت ﷺ إن من شيعته علي لبراهيم . وهذا جائز إن صح الخبر الروي في هذا الباب ، لأن الكناية عن لم يجر له ذكر جائزة إذا اقترن بذلك دليل ، كما قال ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ (١) ولم يجر للشمس ذكر ويكون المعنى انه على منهاجه وطريقته في اتباع الحق والعدل عن الباطل ، وكان إبراهيم وعلي ﷺ بهذه المنزلة .

وقوله ﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ معناه حين جاء إلى الموضع الذي أمره الله بالرجوع إليه بقلب سليم عن الشرك بريء من المعاصي في الوقت الذي قال لآبيه وقومه حين رآهم يعبدون الأصنام من دون الله على وجه التهجين لفعلمهم والتفريع لهم ﴿ ماذا تعبدون ﴾ أي أي شيء تعبدون من هذه الأصنام التي لا تنفع ولا تضر . وقال لهم ﴿ أنفكا آلهة دون الله تريدون ﴾ فالافك هو اشنع الكذب وأفظعه ، والافك قلب الشيء عن جهته التي هي له ، فلذلك كان الافك كذباً . وإنما جمع الآلهة مع أنه لا إله إلا إله واحد . على اعتقادهم في الالهية . وإن كان توهمهم فاسداً ، لما اعتقدوا أنها تستحق العبادة ، وكان المشركون قد اوغروا باتخاذ الآلهة إلى ان جاء دين الاسلام وبين الحق فيه وعظم الزجر .

وقوله ﴿ دون الله تريدون ﴾ معناه إنكم تريدون عبادة آلهة دون عبادة الله ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، كما قال ﴿ واسأل القرية ﴾ (٢) أي أهلها ، لأن الإرادة لا تتعلق إلا بما يصح حدوثه . وهذه الاجسام ليست مما يحدث ، فلا يصح إرادتها .

وقوله ﴿ فما ظنكم برب العالمين ﴾ قيل : معناه أي شيء ظنكم به أسوء

ظن ؟ ! وقيل معنى ﴿ فنظر نظرة في النجوم ﴾ أي انه استدل بها على وقت
حمى كانت تعتاده ﴿ فقال أني سقيم ﴾ ومن أشرف على شيء جاز أن
يقال انه فيه ، كما قال تعالى ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ (١) ولم يكن
نظره في النجوم على حسب المنجمين طلباً للاحكام ، لان ذلك فاسد ، ومثله
قول الشاعر :

اسهري ما سهرت أم حكيم واقعدي مرة لذاك وقومي
وافتحني الباب فانظري في النجوم كم علينا من قطع ايل بهيم

وقال الزجاج نظره في النجوم كنظرهم ، لانهم كانوا يتعاطون علم النجوم
فتوهوا هم أنه يقول مثل قولهم ، فقال عند ذلك ﴿ إني سقيم ﴾ فتركوه ظناً
منهم أن نجمه يدل على سقمه . وقال ابو مسلم : معناه إنه نظر فيها نظر مفكر
فاستدل بها على أنها ليست آلهة له ، كما قال تعالى في سورة الانعام ﴿ فلما
جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي ٠٠٠٠ ﴾ تمام الآيات (٢) وكان
هذا منه في زمان مهلة النظر . وهذا الذي ذكره يمنع منه سياق الآية ، لان
الله تعالى حكى عن ابراهيم أنه ﴿ جاء ربه بقلب سليم ﴾ يعني سليم من
الشرك ، وذلك لا يليق بزمان مهلة النظر . ثم أنه قال لقومه على وجه
التقبيح افعلمهم ﴿ ماذا تعبدون أنفكا آلهة دون الله تريدون ٠ فما ظنكم برب
العالمين ﴾ وهذا كلام عارف بالله مستبصر ، وكيف يحمل على زمان مهلة
النظر ٠ وقيل : في معنى قوله ﴿ إني سقيم ﴾ إني سقيم القلب مما أرى من
أحوالكم القبيحة من عبادة غير الله وعدولكم عن عبادته مع وضوح الأدلة
الدالة على توحيده واستحقاقه للعبادة منفرداً بها ٠ وقيل : إنه كان عرضت له

علة في الحال ، وكان صادقاً في ذلك . وقيل : معناه : إن عاقبتى الموت ، ومن كان عاقبته الموت جاز أن يعبر عن حال حياته بأنه مريض . وقيل : معناه : إني سأسقم في المستقبل ، وقيل : إنه أراد بقوله : سقيم مطعون ، فلذلك تركوه خوفاً من أن يتعدى إليهم الطاعون .

فأما من قال : إنه لم يكن سقيماً وإنما كذب فيه ليتأخر عن الخروج معهم إلى عيدهم لتكسير أصنامهم وأنه يجوز الكذب في المكيدة والتقية ، فقوله باطل ، لأن الكذب قبيح لا يحسن على وجه .

فأما ما يرونه من أن النبي ﷺ قال (ما كذب أبي إبراهيم الا ثلاث كذبات يحاجز بها عن ربه : قوله إني سقيم ولم يكن كذلك ، وقوله ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقوله في سارة أنها أختي وكانت زوجته) .

فأول ما فيه أنه خبر واحد لا يعول عليه . والنبي ﷺ أعرف بما يجوز على الأنبياء وما لا يجوز من كل واحد ، وقد دلت الأدلة العقلية على أن الأنبياء لا يجوز أن يكذبوا في ما يؤدونه عن الله من حيث أنه كان يؤدي إلى أن لا يوثق بشيء من أخبارهم وإلى أن لا ينزاح علة المكلفين ، ولا في غير ما يؤدونه عن الله من حيث أن تجويز ذلك ينفر عن قبول قولهم ، فإذا يجب أن يقطع على أن الخبر لا أصل له . ولو سلم لجاز أن يكون المعنى مع ظاهره مظاهر للكذب ، وإن لم يكن في الحقيقة كذلك ، لأن قوله ﴿ إني سقيم ﴾ قد بينا الوجه فيه . وقوله ﴿ بل فعله كبيرهم ﴾ بيناه في موضعه . وقوله في سارة إنها أختي معناه إنها أختي في الدين ، وقد قال الله تعالى إنما المؤمنون أخوة ، وإن لم يكونوا بني أب واحد .

وقوله ﴿ فتولوا عنه مدبرين ﴾ أخبار منه تعالى أنه حين قال لهم إني

سقيم أعرضوا عنه وتركوه وخرجوا إلى عيدهم وهو متخلف عنهم ،

قوله تعالى :

﴿ فَرَاغَ إِلَى آلِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٩١) مَا لَكُمْ
لَا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ
يَزِفُونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا
تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا أَبْنَاؤُا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧)
فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ
إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ (٩٩) رَبُّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشِّرْهُ
بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿ (١٠١) احدى عشر آية .

قرأ حمزة والفضل عن عاصم ﴿ يزفون ﴾ بضم الياء . الباقيون بفتحها ، وهما لغتان . وزفت أكثر . ويموز أن يكون المراد زف الرجل في نفسه وأزف غيره ، والتقدير فأقبلوا إليه يزفون أنفسهم .

قوله ﴿ فراغ إلى آلهتهم ﴾ معناه مال إليها بحدة ، تقول : راغ يروغ روغاناً مثل حاد يحيد حيداً وحيداناً ، والرواغ الحياض ، قال عدي ابن زيد :

حين لا ينفع الرواغ ولا ينفع إلا الصادق النحرير (١) .

وإنما مال إليها بحدة غضباً على عابديها ، وقوله ﴿ إلى آلهتهم ﴾ معناه إلى ما يدعون أنها آلهتهم أي إلى ما اتخذوها آلهة لهم ، كما تقول . للمبطل : هات حجتك مع علمك انه لا حجة له .

وقوله ﴿ فقال ألا تأكلون ﴾ إنما جاز ان يخاطب الجناد بذلك تهجيناً لعابديها وتنبيهاً على أن من لا يتكلم ولا يقدر على الجواب كيف تصح عبادتها ، فاجراها مجرى من يفهم الكلام ويحسن ذكر الجواب استظهاراً في الحجة وإيضاحاً للبرهان ، لكل من سمع ذلك ويبلغه . وقوله ﴿ ما لكم لا تنطقون ﴾ معناه تهجيناً لعابديها كأنهم حاضرون بها . وقوله ﴿ فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾ قيل في معناه قولان :

أحدهما - انه مال عليهم بيده اليمنى ، لأنها أقوى على العمل من الشمال .

الثاني - بالقسم ليكسرنها ، لأنه كان قال ﴿ وتالله لا يكذب أصدانكم ﴾ (١)

وقال الفراء : اليمين القوة ، ومنه قول الشاعر :

[إذ ما راية رفعت لمجد] تلقاها عرابة باليمين (٢)

أي بالقوة . وقوله ﴿ فاقبلوا إليه يزفون ﴾ قال ابن زيد : معناه يسرعون .

وقال السدي : يمشون . وقيل : يتسللون بحال بين المشي والعدو ، ومنه

زفت النعامة ، وذلك أول عدوها ، وهو بين العدو والمشي ، وقال الفرزدق :

وجاء فزيع الشول قبل أوانها زف وجاءت خلفه وهي زفف (٣)

ومنه زففت العروس إلى زوجها ، ومعنى يزفون يمشون على مهل ، قال الفراء : لم

أسمع إلا زففت ، قالوا لعل من قرأ بالضم أراد من قولهم طردت الرجل إذا أخسأته

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٥٧ (٢) تفسير القرطبي ١٥ / ٧٥

(٣) تفسير الطبري ٢٣ / ٤٢ والقرطبي ١٥ / ٩٥

واطرדתه جعلته طريداً . وقرأ بعضهم (يزفون) يفتح الياء وتخفيف الفاء من (وزف ، يزف) قال الكسائي والفراء : لا اعرف هذه إلا أن يكون احدهم سمعها . فلما رآهم ابراهيم عليه السلام اقبلوا عليه قال لهم على وجه الانكار عليهم والتبكيكيت لهم بفعلهم ﴿ اتعبدون ما تنحتون ﴾ فالالف ألف الاستفهام ومعناها الانكار ووجه التوبيخ انه كيف يصح أن يعبد الانسان ما يعمله بيده ! ، فانهم كانوا ينحتون الاصنام بأيديهم ، فكيف تصح عبادة من هذه حاله مضافاً إلى كونها جماداً ! . ثم نبههم فقال ﴿ والله ﴾ تعالى هو الذي ﴿ خلقكم ﴾ وخلق الذي ﴿ تعملون ﴾ فيه من الاصنام ، لانها اجسام والله تعالى هو المحدث لها ، وليس للمجبرة أن تتعلق بقوله ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ فتقول : ذلك يدل على ان الله خالق لافعالنا ، لامور :

احدها - ان موضوع كلام ابراهيم لهم بني على التقريع لهم لعبادتهم الاصنام ، ولو كان ذلك من فعله تعالى لما توجه عليهم العيب ، بل كان لهم ان يقولوا : لم توبخنا على عبادتنا للاصنام والله الفاعل لذلك ، فكانت تكون الحجة لهم لاعليهم .

الثاني - انه قال لهم ﴿ اتعبدون ما تنحتون ﴾ ونحن نعلم أنهم لم يكونوا يعبدون نحتهم الذي هو فعلهم ، وإنما كانوا يعبدون الاصنام التي هي الاجسام وهي فعل الله بلا شك . فقال لهم ﴿ والله خلقكم ﴾ وخلق هذه الاجسام . ومثله قوله ﴿ فاذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ (١) ومثله قوله ﴿ وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا ﴾ (٢) وعصا موسى لم تكن تلقف افكهم ، وإنما

(١) سورة ٢ الاعراف آية ١١٦ (٢) سورة ٢٠ طه آية ٦٩

﴿ ج ٨ م ٦٥ من التبيان ﴾

كانت تتلقف الأجسام التي هي العصا والحبال .

ومنها ان (ما) في قوله ﴿ وما تعملون ﴾ لا يخلو من ان تكون بمعنى (الذي) او تقع مع بعدها بمنزلة المصدر ، فان كانت بمعنى (الذي) فـ (تعملون) صلتها ، ولا بد لها من عائد يعود اليها ، فليس لهم أن يقدرُوا فيها ضميراً لها ليصح ما قالوه ، لان لنا أن نقدر ضميراً فيه فيصح ما نقوله ، ويكون التقدير : وما يعملون فيه ، والذي يعملون فيه هي الاجسام وإن كانت مصدرية فانه يكون تقديره : والله خلقكم وعلمكم ، ونفس العمل يعبر به عن المعمول فيه بل لا يفهم في العرف إلا ذلك ، يقال فلان يعمل الخوص ، وفلان يعمل السروج ، وهذا الباب من عمل النجار ، والخاتم من عمل الصانع ، ويريدون بذلك كله ما يعملون فيه ، فعلى هذا تكون الأوثان عملاً لهم بما يحدثون فيها من النحت والنجر ، على أنه تعالى اضاف العمل اليهم بقوله ﴿ وما تعملون ﴾ فكيف يكون ما هو مضاف اليهم مضافاً إلى الله تعالى وهل يكون ذلك إلا متناقضاً .

ومنها أن الخلق في أصل اللغة هو التقدير للشيء وترتيبه ، فعلى هذا لا يمتنع أن نقول : إن الله خالق افعالنا بمعنى أنه قدرها للشواب والعقاب ، فلا تعلق للقوم على حال .

ثم حكى تعالى ما قال قوم ابراهيم بعضهم لبعض فانهم ﴿ قالوا ابنوا له بنياناً ﴾ قيل : انهم بنوا له شبه الخليفة . وقيل مثل التنور وأججوا ناراً ليلقوه فيها . والبناء وضع الشيء على غيره على وجه مخصوص ، ويقال لمن رد الفرع إلى الأصل بناء عليه ﴿ فالقوه في الجحيم ﴾ بمعنى اطرحوه في النار التي أججوها له . والجحيم عند العرب النار التي تجتمع بعضها على بعض .

ثم اخبر تعالى ان كفار قوم ابراهيم انهم ﴿ ارادوا به كيداً ﴾ وحيلة وهو ما ارادوا من إحراقه بالنار ﴿ فجعلناهم الاسفلين ﴾ بأن اهلكهم الله ونجا ابراهيم وقيل منع الله - عز وجل - النار منه بل صرفها في خلاف جهته ، فلما أشرفوا على ذلك علموا انهم لا طاقة لهم به .

ثم حكى ما قال ابراهيم حين ارادوا كيده ، فانه قال ﴿ إني ذاهب إلى ربي ﴾ ومعناه إلى مرضات الله ربي بالمصير إلى المكان الذي أمرني ربي بالذهاب اليه . وقيل : إلى الأرض المقدسة وقيل إلى ارض الشام . وقال قتادة : معناه ﴿ إني ذاهب إلى ربي ﴾ أي بعلمي ونيتي ، ومعنى ﴿ سيهدين ﴾ يعني يهديني في ما بعد إلى الطريق الذي أمرني بالمصير اليه أو إلى الجنة بطاعتي إياه .

ثم دعا ابراهيم ربه فقال ﴿ ربي هب لي من الصالحين ﴾ يعني ولداً صالحاً من الصالحين ، كما تقول : اكلت من الطعام ، وحذف لدلالة الكلام عليه ، فأجابه الله تعالى إلى ذلك وبشره بغلام حلیم اي حلیمًا لا يعجل في الأمور قبل وقتها ، وفي ذلك بشارة له على بقاء الغلام حتى يصير حلیمًا . وقال قوم : المبشر به اسحاق وقال آخرون اسماعيل ، ونذكر خلافهم في ذلك في ما بعد .

قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ إِنِّي
أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي
إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾

وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَقَدَيْنَاهُ
بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكَنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ
عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ
عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿ (١١١) عشر آيات .

قرأ أهل الكوفة إلا عاصما ﴿ ماذا ترى ﴾ بضم التاء وكسر الراء .
الباقون بفتح التاء . من ضم التاء اراد ماذا تشير ، وقال الفراء : يجوز ان
يكون المراد ماذا ترى من صبرك وجلدك ، لانه لا يستشير في أمر الله .
واصله ترني فثقلوا كسرة الهمزة إلى الراء ، وحذفت الهمزة لسكونها وسكون
الياء . ومن فتح جعله من الرأي والرؤية ، لامن المشورة .

لما اخبر الله تعالى انه اجاب دعوة إبراهيم في طلب الولد وبشره بولد
حليم اخبر ان من وعده به ولد له وكبر وترعرع ، فلما بلغ مع ابيه السعي
يعني في طاعة الله ، قال الحسن سعى للعمل الذي تقوم به الحجة . وقال مجاهد :
بلغ معه السعي . معناه أطلق ان يسعى معه ويعينه على أموره ، وهو قول
الفراء قال : وكان له ثلاث عشرة سنة ، وقال ابن زيد : السعي في العبادة
﴿ قال يا بني اني أرى في المنام اني اذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ وكان الله
تعالى أوحى إلى ابراهيم في حال اليقظة ، وتعبده أن يمضي ما يأمره في
حال نومه من حيث ان منامات الانبياء لا تكون إلا صحيحة ، ولو لم يأمره

به في الليقظة لما جاز أن يعمل على المناملت ، أحب ان يعلم حال ابنه في صبره على أمر الله وعزيمته على طاعته . فلذلك قال له ماذا ترى ، وإلا فلا يجوز أن يوامر في المضي في امر الله ابنه ، لانه واجب على كل حال . ولا يمتنع ايضاً أن يكون فعل ذلك بأمر الله ايضاً ، فوجده عند ذلك صابراً مسلماً لأمر الله . ﴿ وقال يا أبت افعل ما تؤمر ﴾ اي ما امرت به ﴿ ستجدني انشاء الله من الصابرين ﴾ ممن يصبر على الشدائد في حب الله ويسلم أمره اليه ﴿ فلما اسلم ﴾ يعني ابراهيم وابنه اي استسلما لأمر الله ورضيا به اخذ ابنه ﴿ وتله للجبين ﴾ معنى تله صرعه . والجبين ما عن يمين الجبهة او شملها وللوجه جبينان الجبهة بينهما . وقال الحسن : معنى وتله اضجعه للجبين . ومنه التل من التراب وجمعه تلول . والتليل العنق ، لانه يتل له ، ﴿ وناديناه ان يا ابراهيم ﴾ و (ناديناه) هو جواب (فلما) قال الفراء : العرب تدخل الواو في جواب (فلما) و (حتى) و (إذا) كما قال ﴿ حتى إذا جاءوها فتحت ابوابها ﴾ (١) وفي موضع آخر ﴿ وفتحت ﴾ (٢) وفي قراءة عبدالله ﴿ فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية ﴾ (٣) وفي المصاحف (جعل) بلا واو وموضع ان نصب بوقوع النداء عليه وتقديره وناديناه بأن يا ابراهيم أي هذا الضرب من القول فلما حذف الباء نصب . وعند الخليل انه في موضع الجر ﴿ قد صدقت الرؤيا ﴾ ومعناه فعلت ما امرت به في الرؤيا واختلفوا في الذبيح . فقال ابن عباس وعبدالله بن عمر ومحمد بن كعب القرطبي وسعيد ابن المسيب والحسن في احدى الروايتين عنه والشعبي : انه كان اسماعيل وهو الظاهر في روايات اصحابنا . وجقويه قوله بعد هذه القصة وتماها

﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ فدل على ان الذبيح كان اسماعيل .
ومن قال : إنه بشر بنبوة اسحاق دون مولده ، فقد ترك الظاهر لان
الظاهر يقتضي البشارة بإسحاق دون نبوته ، ويدل ايضاً عليه قوله ﴿ فبشرناها
باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب ﴾ ولم يذكر اسماعيل ، فدل على انه كان
مولوداً قبله وايضاً فانه بشره بإسحاق وانه سيولد له يعقوب ، فكيف يأمره
بذبحه مع ذلك . واجابوا عن ذلك بأن الله لم يقل إن يعقوب يكون من ولد
اسحاق . وقالوا ايضاً يجوز أن يكون أمره بذبحه بعد ولادة يعقوب ، والاول
هو الاقوى على ما بيناه . وقد روي عن النبي ﷺ انه قال : انا ابن
الذبيحين ، ولا خلاف انه كان من ولد اسماعيل والذبيح الآخر عبد الله
ابوه . وروي عن ابن عباس وعلي وابن مسعود وكعب الاحبار انه كان
اسحاق . وروي ذلك ايضاً في اخبارنا .

وفي الناس من استدل بهذه الآية على جواز النسخ قبل وقت فعله من
حيث ان الله تعالى كمان قد أمره بذبح ولده ثم نسخ عنه قبل ان يفعله ،
ولا يمكننا ان نقول ان الوقت كان قد مضى ، لأنه لو أخره عن الوقت
الذي أمره به فيه لكان عاصياً ، ولا خلاف أن ابراهيم لم يعص بذلك ،
فدل على انه نسخ عنه قبل وقت فعله .

ومن لم يجوز النسخ قبل وقت فعله أجاب عن ذلك بثلاثة أجوبة :
احدها - ان الله تعالى أمر ابراهيم ان يقعد منه مقعد الذابح ويشد يديه
ورجليه ويأخذ المديّة ويتركها على حلقه وينتظر الأمر بامضاء الذبح على ما رأى
في منامه وكل ذلك فعله ، ولم يكن أمره بالذبح ، وإنما سمي مقدمات الذبح بالذبح
لقربه منه وغلبة الظن انه سيؤمر بذلك على ضرب من المجاز .

الثاني - أنه إنما أمره بالذبح وذبح ، وكل ما فرى جزء من حلقه وصله الله بلا فصل حتى انتهى إلى آخره فاتصل به ، وصله الله تعالى ، فقد فعل ما أمر به ولم يبين الرأس ولا انتفى الروح .

الثالث - أنه أمر بالذبح بشرط التخلية والتمكين ، فكان كما روي أنه كلما أعمد بالشفرة انقلبت وجعل على حلقه صفحة من نحاس ، وهذا الوجه ضعيف ، لأن الله تعالى لا يجوز أن يأمر بشرط ، لأنه عالم بالعواقب ، وإنما يأمر الواحد منا بشرط ذلك لأنه لا يعلم العواقب ، ولأن فيه أنه أمر بما منع منه وهذا عيب فاما قول من قال : أنه فداه بذبح ، فدل ذلك على أنه كان مأموراً بالذبح على الحقيقة ، اعتراضاً على الوجه الأول ، لأن من شأن الفداء أن يكون من جنس المفدي ، فليس بشيء . ، لأنه لا يلزم ذلك ألا ترى أن من حلق رأسه وهو محرم يلزمه ذلك ، وكذلك إذا لبس ثوباً مخيطاً أو شم طيباً أو جامع . وإن لم يكن جميع ذلك من جنس المفدي .

وقوله ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ معناه إنا جازينا إبراهيم على فعله بأحسن الجزاء . ومثل ذلك نجزي كل من فعل طاعة ، فإنا نجازيه على فعله بأحسن الجزاء .

ثم أخبر تعالى بأن هذا الذي تعبد به إبراهيم هو البلاء المبين أي الاختبار الظاهر وقيل : هو النعمة البينة الظاهرة ، وتسمى النعمة بلاء والنقمة أيضاً بلاء من حيث أنها سميت بسببها المؤدي إليها ، كما يقال لأسباب الموت هو الموت بعينه ﴿ والمبين ﴾ هو البين في نفسه الظاهر ، ويكون بمعنى الظاهر ، ويكون بمعنى المظهر ما في الأمر من خير أو شر .

ثم قال تعالى ﴿ وفديناه ﴾ يعني ولد إبراهيم ﴿ بذبح عظيم ﴾ فالفداء جعل

الشيء، مكان غيره لدفع الضرر عنه ، ومنه فداء المسلمين بالمشر كين لدفع ضرر
الاشد عنهم ، فكذلك فداء الله ولد إبراهيم بالكبش لدفع ضرر الذبح عنه .
والعظيم هو الكبير . وقيل : لان الكبش الذي فدي به يصغر مقدار غيره من
الكباش عنه بالاضافة اليه . وقال ابن عباس : فدي بكبش من الغنم . وهو
قول مجاهد والضحاك وسعيد بن جبير . وقال الحسن : فدي بوعل أهبط به عليه
جبرائيل . وقيل : إنه لاختلاف انه لم يكن من الماشية التي كانت لا إبراهيم
او غيره في الدنيا . وقيل : إنه رعى في الجنة أربعين خريفاً . وقال مجاهد :
وصفه بأنه عظيم ، لانه متقبل . والذبح بكسر الذال المهياً ، لان يذبح . وبفتح
الذال المصدر .

وقوله ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ يعني على إبراهيم في الآخرين يعني
اثبتنا عليه الشئ الحسن في أمة محمد لانهم آخر الأمم بأن قلنا ﴿ سلام على
إبراهيم ﴾ وقد بينا ما في ذلك ثم قال مثل ذلك نجزي كل محسن ، فاعل لما
أمر الله به كما جازينا إبراهيم ﷺ .

ثم أخبر تعالى ان إبراهيم كان من جملة عباده الذين يصدقون بتوحيد الله
وبجميع ما او اجه عليهم ، ومن جملة المصدقين بوعده الله ووعيده والبعث
والنشور والجنة والنار . وانما قال ﴿ انه من عبادنا المؤمنين ﴾ مع انه افضل
المؤمنين ترغيباً في الايمان بأن مدح مثله في جلالته بأنه من المؤمنين ، كما يقال
هو من الكرماء وكذلك قوله ﴿ ونبياً من الصالحين ﴾ (١) وإذا مدح بأنه يصلح
وحده فلا أنه لا يقوم غيره مقامه ويستغنى به عنه .

قوله تعالى :

﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَاكْتُلُوهُمْ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَاهُمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمْ مِمَّنْ عَبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) ﴾

احدى عشرة آية .

يقول الله تعالى بعد ان ذكر قصة ابراهيم وولده الذي اخبر الله بذبحه على ما فسرناه، بشره باسحاق ولد له آخر، نعمة عليه مجددة لما فعل من المسارعة إلى ما أمره الله به وصبره على احتمال المشقة فيه ، وبين انه نبيا من الصالحين ، وأنه بارك عليه يعني على يعقوب وعلى إسحاق وخلق من ذريتهما الخلق الكثير ، فمنهم محسن بفعل الطاعات ومنهم ظالم لنفسه بارتكاب المعاصي بسوء اختياره ، مبين أي بين ظاهر .

ثم اقسم تعالى بأنه من على موسى وهارون أي انعم عليهما نعمة قطعت عنهما

﴿ ج ٨ م ٦٦ من التبيان ﴾

كل اذية ، فأصل المُن القطع من قوله ﴿ فلهم أجر غير ممنون ﴾ (١) أي غير مقطوع ، وحبل منين متقطع والمنية الموت ، لأنها قاطعة عن تصرف الحي والبركة ثبوت الخير النامي على مرور الاوقات فبركته على إبراهيم واسحاق باللفظ في دعائهما إلى الحق ، وبالخير عن أحوال جليلة في التمسك بطاعة الله ﴿ ونجيناهما وقومهما ﴾ ومعناه إنا خلاصنا موسى وهارون ، ومن كان آمن بهما ﴿ من الكرب العظيم ﴾ أي الأذى الذي كان يؤذونهما بأن أهلك الله فرعون وقومه وغرقهم ﴿ ونصرناهم ﴾ يعني موسى وهارون وقومهما ، ﴿ فكنوا هم الغالين ﴾ لاعدائهم بالحجج الظاهرة وبالقهر ، من حيث أن الله غرق أعداءهم ﴿ وآتيناهما ﴾ يعني موسى وهارون ﴿ الكتاب المستبين ﴾ يعني التوراة الداعية إلى ما فيه من البيان بالمحسن التي تظهر منه في الاستماع ، فكل كتاب لله بهذه الصفة من ظهور الحكمة فيه ﴿ وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ يعني أرسلنا موسى وهارون ودللناهما على الطريق المؤدي إلى الحق الموصل إلى الجنة باخلاص الطاعة لله تعالى . وقال قتادة : الطريق المستقيم الاسلام ﴿ وتركنا عليهما في الآخرين ﴾ أي الثناء الجميل . بأن قلنا ﴿ سلام على موسى وهارون ﴾ كما قلنا ﴿ سلام على نوح في العالمين ﴾ (٢) .

ثم اخبر تعالى ان مثل ما فعل لهما يفعل بالمحسنين المطيعين ومجزئهم بمثل ذلك على طاعتهم ، ودل ذلك على ان ما ذكره الله كان على وجه الثواب على الطاعات لموسى وهارون ومن تقدم ذكره ، لأن لفظ الجزاء يفيد ذلك . ثم اخبر ان موسى من جملة عباده المصدقين بجميع ما اوجبه الله عليهم العالمين بذلك .

قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَانْتَبَهُ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَى إِيلَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٣٢) عشر آيات .

قرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر ﴿ الله ربكم ورب آبائكم ﴾ نصباً . الباقر بالرفع . من نصب جعله بدلاً من قوله ﴿ أحسن الخالقين ﴾ ومن رفع استأنف الكلام . وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب ﴿ سلام على آل ياسين ﴾ على إضافة (آل) إلى (ياسين) . الباقر ﴿ على ألياسين ﴾ موصولة . من أضاف أراد به على آل محمد ﷺ لأن (يس) اسم من أسماء محمد على ما حكيناه . وقال بعضهم : أراد آل الياس عليه السلام . وقال الجبائي أراد أهل القرآن ، ومن لم يضيف أراد الياس . وقال : الياسين ، لأن العرب تغير الأسماء العجمية بالزيادة كما يقولون : ميكايل وميكائين ، وميكال وميكايل ، وفي أسماعيل اسماعين قال الشاعر :

هذا ورب البيت اسرائيلاً (١)

يقول أهل السوق لما جئنا

وفي قراءة عبد الله ﴿ وإن إدريس لمن المرسلين سلام على إدراسين ﴾
وقيل أيضاً إنه جمع ، لأنه أراد الياس ومن آمن معه من قومه ، وقال الشاعر :

قدني من نصر الخبيين قدي (١)

فجعل ابن الزبير أبا خبيباً ومن كان على رأيه عدداً ولم يضيفهم بالياه
فيقول : خبيين ، فحفف في الشعر مثل الأشعرين ، وكما قالوا : سيرة العمرين
وخير الزهدين ، وإنما أحدهما زهدم والآخر كرم . وقال قوم : تقديره
على ﴿ آل ياسين ﴾ فحفف ، لأنه أراد الياساً وقومه ، كما قالوا : الأشعرون
والمهليون . قال الشاعر :

أنا ابن سعد أكرم السعدينا

وكلمهم قرأ ﴿ وإن الياس ﴾ بقطع الهمزة إلا أن أبا عامر ، فانه فصل
الهمزة وأسقطها في الدرج ، فاذا ابتدأ فتحها ، قال أبو علي النحوي : يجوز
أن يكون حذف الهمزة حذفاً ، كما حذفها أبو جعفر في قوله ﴿ إنها لاحدى
الكبر ﴾ (٢) ويحتمل أن تكون الهمزة التي تصحب لام التعريف ، وهي تسقط
في الدرج ، وأصله (ياس) .

أخبر الله تعالى أن الياس من جملة من أرسله الله إلى خلقه نبياً داعياً
إلى توحيده وطاعته حين ﴿ قال لقومه ألا تتقون ﴾ الله بترك معاصيه
وفعل طاعاته ، فاللفظ لفظ الاستفهام والمراد به الإنكار ، كما يقول القائل ألا
تتقي الله يا فلان في أن تظلم أو تزني ، وما أشبه ذلك ، وإنما يريد بذلك
الإنكار . ثم قال لهم ﴿ أتدعون بعلا ﴾ قال الحسن والضحاك وابن زيد :
المراد بالبعل - ههنا - صنم كانوا يعبدونه ، والبعل في لغة أهل اليمن هو

الرب ، يقولون من بعل هذا الثوب أي من ربه - وهو قول عكرمة ومجاهد وقتادة والسدي - ويقولون : هو بعل هذه الدابة أي ربها ، كما يقولون : رب الدار ورب الفرس ، وزوج المرأة بعلها ، والنخل والزرع إذا استقى بماء السماء فهو بعل ، وهو العنزي ، خلاف السقي . والاصل في الرب المالك فالزوج رب البضع ، لانه ماله .

ومعنى الآية أدعون بالالهية صنماً عادلين عن أحسن الخالقين ، وهذا إنكار عليهم أن يعتقدوا أن غير الله إله أو يقولون لغيره يا إلهي . وقال قتادة : الياس وهو إدريس ، وقال ابن اسحاق : هو من ولد هارون ، وهو اسم نبي وهو أعجمي ، فلذلك لم ينصرف ، ولو جعل (افعالا) من الاليس وهو الشجاع الجري . لجاز .

ثم بين لهم الذي هو أحسن الخالقين ، فقال ﴿ الله ربكم الذي خلقكم ورب آبائكم ﴾ أي الذي دبركم وخلقكم ، وخلق آباءكم ﴿ الأولين ﴾ يعني من مضى من آبائكم وأجدادكم .

ثم حكى ان قومه كذبوه ولم يصدقوه ، وأن الله أهلهم وأنهم لمحضرون عذاب النار . ثم استثنى من جملتهم عباده الذين اخلصوا عبادتهم لله وبين انه أثبت عليهم في آخر الامم بأن قال ﴿ سلام على أياسين ﴾ وآل محمد ﷺ هم كل من آل اليه بحسب أو بقراية ، وقال قوم : آل محمد كل من كان على دينه ، ولا خلاف بين النحويين أن اصل (آل) اهل فغلبوا الهاء همزة وجعلوها مدة ائلا يجتمع ساكنان ، ألا ترى أنك اذا صغرت قلت أهيل ولا يجوز أويل ، لأنه رد الى الأصل لا إلى اللفظ .

وقوله ﴿ افلا تعقلون ﴾ معناه تتدبرون وتفكرون في ما نزل بهؤلاء .

القوم وتعتبرون به لتجنبوا ما كانوا يفعلونه من الكفر والضلال . وفي قوله ﴿ لمحضرون ﴾ حذف ، لان تقديره فانهم لمحضرون العقاب واليم العذاب لتكذيبهم والجزاء بما تقتضيه الحكمة فيهم . وهذا الابهام تغليظ في الوعيد بالعذاب ، لانه اعظمه معلوم لا يخفى أمره ، ووجه الحجة عليهم في قوله ﴿ ورب آبائكم الأولين ﴾ انه اذا كان الرب واحداً وجب اخلاص العبادة لواحد ، لانه الذي يملك الضر والنفع في جميع الامور ، وذلك يبطل عبادة الأوثان .

ثم قال كما جازينا هؤلاء بهذا الجزاء وهو ان أثينا عليهم في آخر الامم مثل ذلك نجزي من فعل الطاعات واجتنب المعاصي . ثم اخبر ان الياس كان من جملة عباده المصدقين بجميع ما اخبر الله به من وعد ووعيد وغير ذلك ، العاملين بما اوجب الله عليهم .

قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمْرُونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفْلاً تَعْقِلُونَ (١٣٨) وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذَا بَقِيَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣)

كَلْبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَأَمَّا مَنْ أَمْتَعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨) ست عشرة آية •

أخبر الله تعالى أن لوطاً كان من جملة من أرسله الله نبياً إلى خلقه داعياً لهم إلى طاعة الله ومنبهاً لهم على وجه وحدانيته ، وإن قومه كذبوه وجحدوا نبوته فأهلكهم الله ونجا لوطاً وأهله اجمعين ، واستثنى من جملة اهله الناجين (عجوزاً) أهلكها الله ، لكونها على مثل ما كان قومه عليه ﴿ في الغابرين ﴾ أي في الباقيين الذين اهلكوا ، فالغابر الباقي قليلاً بعد ما مضى ، ومنه الغبار ، لانه يبقى بعد ذهاب التراب قليلاً . والتغير التلحين لانه يبقى الصوت فيه بالترديد قليلاً ، ومنه قول الشاعر :

به غبر من دأبه وهو صالح

ثم انه لما نجى لوطاً وأهله وخلصهم ، دمر الآخرين من قومه . والتدمير الاهلاك على وجه التنكيل دمر عليهم إذا غير حالهم إلى حال التشويه ، قاله تعالى اهلك قوم لوط بما أرسل عليهم من الحجارة ، وبما فعل بهم من انقلاب قراهم .

وقوله ﴿ وإنكم لتمررون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ توبيخ من الله للكفار الذين عاصروا النبي ﷺ وتعنيف لهم على ترك اعتبارهم وإيقاظهم بمواضع هؤلاء الذين أهلكهم الله ودمر عليهم مع كثرة مرورهم

عليها صباحاً ومساءً وليلاً ونهاراً . وفي كل وقت . ومن أكثر مروره
بمواضع العبرة فلم يعتبر كان الوم ممن قل ذلك منه .

وقوله ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ معناه أفلا تتدبرون فتتفكرون في ما نزل بهؤلاء
القوم من الكفر والضلال . وقيل : وجه القصص وتكريرها ، كتشويق إلى
مثل ما كانوا عليه . من مكارم الاخلاق ومحاسن الأفعال وصرف الناس
عن مساوي الاخلاق وقبائح الأفعال قال الشاعر :

تلك المكارم لا قعبان من ابن شيبا بماء فعاداً بعد ابوالا
ثم قال تعالى مخبراً عن يونس عليه السلام انه كان من جملة من أرسله الله
الى خلقه وجعله نبياً يدعو الى توحيده وخلع الانداد دونه .

وقوله ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ معناه حين هرب إلى السفن
المملوءة ، فالأبق الفرار ، فالأبق الفار إلى حيث لا يهتدي اليه طالبه يقال :
أبق العبد بأبق أباقاً فهو أبق إذا فر من مولاه . والآبق والهاب والفرار
واحد . قال الحسن : فر من قومه ﴿ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ أي المحمل
الموفر . وقوله ﴿ فَسَاهُمْ ﴾ قال ابن عباس معناه قارع ، وهو قول السدي
﴿ فكان من المدحضين ﴾ قال مجاهد : يعني من المسهومين ، والمساهمة
المقارعة ، فلما ساهم يونس قومه وقع السهم عليه ، فالتقى في البحر ، فالتقمه
الحوت ، فكان من المدحضين ، قال الحسن كان من المقروعين . وقيل :
معناه فكان من الملقين في البحر ، والدحض الزلق . لأنه يسقط عنه المار فيه .
ومنه قوله ﴿ حِجَّتْهُمْ دَاحِضَةٌ ﴾ (١) أي ساقطة ، ودحض يدحض دحضاً
فهو داحض ، وأدحضته ادحاضاً ، وقيل : كان يونس عليه السلام قد توعدهم بالعذاب

ان أقاموا على ما هم عليه ، فلما رأوا مخايل العذاب واماراته دعوا الله أن يكشف عنهم وتابوا اليه ، فكشفه . وكان يونس قد خرج قبل ان يأمره الله - عز وجل - بالخروج من بين قومه استظهاراً ، فلما كشف الله عنهم لام نفسه على الخروج ومضى على وجهه إلى ان ركب البحر . وقيل : إنما تساهموا لأنهم أشرفوا على الفرق فأروا ان طرح واحد أيسر من غرق الجميع . وقيل : لا بل لما رأوا الحوت قد تعرضت لهم ، قالوا فينا مذنب مطلوب فتقارعوا فلما خرج على يونس رموا به في البحر فالتقمه الحوت . ومعناه ابتلعه يقال التقمه التقاماً ولقم يلقم لقمًا وتلقم تلقماً .

وقوله ﴿ وهو مليم ﴾ معناه أتى بما يلام عليه ، وإن وقع مكفراً عند من قال بتجويز الصغار على الانبياء ، وعندنا قد يلام على ترك الندب ، يقال ألام الرجل إلامه فهو مليم ، وقال مجاهد وابن زيد : المليم المذنب قال لييد :

سفها عذات ولمت غير مليم وهذا قبل اليوم غير حكيم (١)
ثم قال ﴿ فلولاً أنه كان من المسبحين ﴾ قال قتادة : كان من المصلين في حال الرخاء فنجاه الله من البلاء . وقال سعيد بن جبير : كان يقول لا إله إلا انت سبحانك إني كنت من الظالمين ، والتسبيح التنزيه عما لا يليق ولا يجوز في صفته . ويقال : سبح الله يسبحاً إذا قال : سبحان الله معظماً له بما هو عليه من صفات التعظيم نافية عنه ما لا يليق به ولا يجوز عليه من صفات الخلقين والمحتاجين .

(١) مجاز القرآن ٢ | ١٧٤ والاسان (لوم)

﴿ ج ٨ م ٦٧ من التبيان ﴾

وقوله ﴿ للث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ إخبار منه تعالى أنه لو لا تسبيح
يونس لتركه إليه أي كان يبقى في بطنه إلى يوم القيامة الذي يحشر الله فيه
الخالق . وقوله ﴿ فنبذناه بالعراء وهو سقيم ﴾ إخبار منه تعالى أنه لما أراد
تخليصه طرحه بالعراء وهو الفضاء الذي لا يواريه شجر ولا غيره . قال الشاعر:
فرفعت رجلا لا أخاف عثاها ونبتت بالبلد العراء ثيابي (١)
وقال السدي : لبث في بطن الحوت أربعين يوماً ﴿ وهو سقيم ﴾ أي هو
مريض حين القاه الحوت .

ثم أخبر تعالى أنه أنبت عليه شجرة من يقطين تكنه من حر الشمس .
واليقطين كل شجرة ليس لها ساق يبقى من الشتاء إلى الصيف ، فهي يقطين
وقال ابن عباس وقتادة : هو القرع . وقال مجاهد وسعيد بن جبير كل
شجر لا يقوم على ساق كالبطيخ والدبا والقرع فهو يقطين . وهو تفعليل من
قطن بالمكان إذا أقام إقامة زائل لا إقامة راسخ كالنخل والزيتون ونحوه
والقطاني من الحبوب التي تقيم في البيت ، قال أمية بن أبي الصلت .

فأنبت يقطيناً عليه برحمة من الله لولا الله القي ضاحيا (٢)

وروي عن ابن عباس أن اليقطين كل شجرة لها ورق عريض . وقوله
﴿ وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون ﴾ قيل : أرسل الله يونس إلى أهل
نينوى من أرض الموصل - في قول قتادة - وقال ابن عباس : كانت رسالته
بعد ما نبذه الحوت ، فيجوز على هذا أنه أرسل إلى قوم بعد قوم ويجوز
أن يكون أرسل إلى الأولين بشريعة فآمنوا بها . وقيل : إن قوم يونس لما
رأوا إمارات العذاب ولم يكونوا قد بلغوا حد الاجبار واليأس من البقاء

آمنوا ، وقبل الله إيمانهم ، لأنهم لو كانوا حصلوا في العذاب لكانوا ملجئين ولما صح إيمانهم على وجه يستحق به الثواب .

وقوله ﴿ او يزيدون ﴾ قيل في معنى ﴿ او ﴾ ثلاثة اقوال :

احدها - ان تكون بمعنى الواو ، وتقديره الى مئة الف وزيادة عليهم .

الثاني - ان تكون بمعنى (بل) على ما قال ابن عباس .

الثالث - ان تكون بمعنى الابهام على المخاطبين ، كأنه قال أرسلناه الى احدى العديتين . ثم حكى تعالى عنهم أنهم آمنوا بالله وأقروا له بالوحدانية وراجعوا التوبة ، وكشف الله عنهم العذاب ومتعهم إلى وقت فناء آجالهم ، فالتمتع والامتناع هو التعريض بالمنافع الحاصلة كالامتناع بالبساتين والرياض وشهي الطعام والشراب .

قوله تعالى :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَّبِّكَ ابْنَاتٌ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا

الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهمْ لَيَقُولُونَ (١٥١)

وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى ابْنَاتٍ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣)

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ

سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا

بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨)

سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (١٦٠)

اثنتا عشرة آية •

كلهم قرأ ﴿أصطفى﴾ بفتح الهمزة إلا ورشاً واسماعيل عن نافع ،
فانهما وصلاه على الخبر ، وبه قرأ ابو جعفر قال ابو علي الفارسي : يجوز أن
يكون على تقدير لكاذبون في قولهم قالوا ؛ اصطفى ، ويجوز ان يكون اصطفى
النبات على ما يقولونه ، والوجه قطع الهمزة ، لأنه على وجه التقريع ، ويقويه
قوله ﴿أم اتخذ مما يخلق بنات﴾ قال قتادة والسدي : ان قريشاً كانت
تقول : الملائكة بنات الله تعالى ، فأمر الله نبيه ﷺ أن يستفتهم بمعنى
ان يطلب الحكم منهم في هذه القضية على وجه التقريع لهم والتوبيخ على
قولهم بأن يقول لهم أربكم البنات ؟ ! يعني كيف يقولوا لربك البنات يا محمد
ولهم البنون ؟ ومن أين علموا ان الملائكة إنائاً اشاهدوا خلق الله لهم ؟ !
فأروهم انائاً ؟ فانهم لا يمكنهم ادعاء ذلك .

ثم اخبر تعالى فقال ﴿ألا انهم من إفكهم﴾ أي من كذبهم - في
قول قتادة والسدي - هذا القول ، وهو ان يقولوا ﴿ولد الله • وإنهم
لكاذبون﴾ في هذا القول • ثم قال ﴿أصطفى البنات على البنين﴾ من قطع
الهمزة أراد الانكار بلفظ الاستفهام ، والمعنى كيف يكون هذا ، وكيف يختار
البنات على البنين • ومن وصل الهمزة اراد الاخبار بذلك ، فالاصطفاء
إخراج الصفوة من الشيء ، وهي خالصة • وإنما يصطفى الله تعالى افضل
الاشياء ، ومن اصطفى الأدون على الأفضل مع القدرة على الأعلى كان
ناقصاً • والله تعالى لا يليق بصفات النقص في اصطفاء النبات على البنين
مع استحالة اتخاذ الولد عليه ، لما في ذلك من معنى التشبيه ، لأنه إنما يتخذ

الولد من يجوز أن يكون مثل ذلك ولدآ له ، ولذلك لا يجوز أن يتخذ الشاب شيخآ ولدآ ، ولا أن يتخذ الانسان بمض البهائم ولدآ ، لما لم يكن ذلك ممكناً ، فاذا أستحال الولد عليه تعالى ، فما هو مشبه به أولى بأن يستحيل عليه . وأصل (اصطفى) (اصطفى) فقلبت التاء طاء لتعدل الحروف في الاطباق والاستعلاء بما هو من مخرج التاء ، فالطاء وسط بين الحرفين لمناسبتها التاء بالمخرج ، والصاد بالاستعلاء والاطباق .

قوله ﴿ مالكم كيف تحكمون ﴾ تهجين لهم بوضعهم الشيء في غير موضعه لأنهم وضعوه موضع الحكمة ، وليس الأمر كذلك إذ انتم على فاحش الخطأ الذي يدعو اليه الجهل . وقوله ﴿ أم لكم سلطان مبين ﴾ معناه هل لكم حجة ظاهرة وبرهان بين في ما تدعونه وتحكمون به . وسمي البرهان سلطاناً ، لأنه يتسلط به على الانكار لمخالفة الحق والصواب . والبيان إظهار المعنى للنفس .

ثم قال على وجه الانكار عليهم ﴿ فأتوا بكتابكم ﴾ إن كان معكم حجة من كتاب انزله الله اليكم فهاتوه ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في هذا القول ، فانهم لا يقدرّون على ذلك ابداً .

ثم اخبر تعالى عن هؤلاء الكفار أنهم ﴿ جعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ قال الحسن : اشركوا الشيطان في عبادة الله ، فهو النسب الذي جعلوه . وقال قوم : بل لأنهم قالوا : إنه تعالى تزوج من الجن - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - وقيل : سميت الملائكة جنة لاستتارهم عن العيون . ومعنى الآية أن هؤلاء الكفار يجعلهم الملائكة بنات الله جعلوا بينه وبينهم نسباً ، وهو قول مجاهد وقتادة .

ثم قال تعالى على وجه الرد عليهم ﴿ ولقد علمت الجنة أنهم لمحضرون ﴾

وقال مجاهد وقتادة : قال ذلك لأنهم علموا أنهم يحضرون الحساب . وقال السدي : علموا أن قائل هذا القول يحضر الحساب والعذاب . ثم نزه تعالى نفسه عن قولهم وصفتهم ، فقال ﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ إلا عباد الله المخلصين ﴿ استثنى عباده الذين أخلصوا نفوسهم فوجهوا العبادة إليه تعالى ووصفوه بما يليق به من جملة الكفار القائلين بما لا يليق به .

قوله تعالى :

﴿ فَانْكُمُ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢)
إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مَنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤)
وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِنْ
كَانُوا لَيَقُولُنَّ (١٦٧) كَوْنُكُمْ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨)
لَكِنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ (١٦٩) فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠)

عشر آياته .

قرأ الحسن ﴿ صائل الجحيم ﴾ بالرفع وهي تحتل شيئين : أحدهما . الجمع . والثاني - القلب ، كقولهم : شاك، وشائك في السلاح ، وهار وهائر . الباقون ﴿ صال ﴾ بكسر اللام على وزن (فاعل) .

هذا خطاب من الله تعالى للكفار الذين كانوا يعبدون الأصنام بأن قال لهم ﴿ فانكم وما تعبدون ﴾ فوضع (ما) نصب عطفاً على الكاف والميم ، وهو في موضع نصب بـ (أن) والتقدير إنكم يا معشر الكفار والذين تعبدونه

﴿ ما أنتم عليه بفاتنين ﴾ وقال الفراء ! تقديره ، وإنكم وآلهتكم ما أنتم عليه بفاتنين أي بمفتنين ﴿ وما أنتم عليه ﴾ أي وما أنتم على ذلك الدين بمصلين عليه وبه وله سواء في المعنى . وأهل نجد يقولون : أفتنت ، وأهل الحجاز فتنت أي لستم عليه بفاتنين ، والفاتن الداعي إلى الضلالة بزيينه له ، فكل من دعا إلى عبادة غير الله بالاغواء والتزيين فأتى ، لأنه يخرج به إلى الهلاك ، وأصل الفتنة من قولهم : فتنت الذهب بالنار إذا أخرجه إلى حال الخلاص ﴿ وفتناك فتوناً ﴾ (١) أي أخرجناك بالأمر الحق إلى حال الخلاص .

وقوله ﴿ إلا من هو صال الجحيم ﴾ أي لستم تفتنون إلا من يصلي الجحيم ، ومعناه إلا من يلزم النار ويحترق بها ، ومنه المصطلح ، وهو المستنديء بالنار ، ومنه الصلاة للزوم الدعاء فيها ، والمصلي الذي يجيء بعد السابق للزومه أثره . والمعنى أن من يقبل من هذا الفاتن وينقاد له ، فهو يصلي الجحيم وقوله ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ معناه ما منا ملك إلا له مقام ، فحذف ومعناه لا يتجاوز ما أمر به ورتب له ، كما لا يتجاوز صاحب المقام مقامه الذي حد له ، فكيف يجوز أن يعبد من هو بهذه الصفة ، وهو عبد محبوب ووصف المقام بأنه معلوم ، لأنه معلوم لله على ما تقتضيه الحكمة ، وهو محدود لا يتجاوز ما علم منه ولا يخرج منه .

وقوله ﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ قيل : صافون حول العرش ينظرون الأمر والنهي من الله تعالى ، وقيل : الصافون في الصلاة : وقوله ﴿ وإنا لنحن المسبحون ﴾ معناه المصلون من قولهم : فرغت من سبحتي أي من

صلاتي ، وسميت الصلاة تسييحاً لما فيها من تسبيح الله وتعظيم عبادته .
و (المسبحون) القائلون سبحان الله على وجه التعظيم له تعظيم العبادة ، وقوله ﴿ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ ﴾ ف (إن) هذه الخففة من الثقيلة بدلالة دخول اللام في خبرها ، كما قال ﴿ وَإِنْ رَبِّكَ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ (١) ويلزمها هذه اللام ليفرق بين (إن) الثقيلة والخفيفة التي للجحد في مثل قوله ﴿ إِنْ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ (٢) والمعنى إن هؤلاء الكفار كانوا يقولون ﴿ لو ان عندنا ذكراً ﴾ أي كتاباً فيه ذكر من كتب الأولين الذي أنزله على أنبيائه . وقيل : يعني علماً يسمى العلم ذكراً ، لان الذكر من اسبابه ، فسمى بأسمه ﴿ من الأولين ﴾ الذين تقدمونا وما فعل الله بهم ﴿ لكننا ﴾ نحن ايضاً من ﴿ عباد الله المخلصين ﴾ الذين أخلصوا العبادة له ، فجعلوا العذر في امتناعهم من الايمان أنهم لا يعرفون اخبار من تقدمهم ، وهل حصلوا في جنة او نار ، فقال الله تعالى ﴿ فكفروا به ﴾ يعني بالذكر ، لأنهم طلبوا كتاباً كما للاولين التوراة دالا على توحيد الله ، فلما جاءهم القرآن كفروا به ، وبمن جاء بالقرآن - في قول ابن عباس والسدي - فهددهم الله على هذا ، الكفر فقال ﴿ فسوف يعلمون ﴾ في ما بعد إذا عاقبناهم بعقاب النيران .

قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ

حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَدَابِنَا
يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧)
وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ
رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١)
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ (١٨٢) اثنتا عشرة آية بلا خلاف .

اقسم الله تعالى ، لأن هـ — هذه اللام لام القسم بأنه ﴿ سبقت كلمتنا
لعبادنا المرسلين ﴾ الذين بعثهم الله إلى خلقه ﴿ أنهم هم المنصرون ﴾ سينصرون
بنصرهم على أقوامهم بالحجج وإنما قدم الله تعالى الكلمة للمرسلين بأنهم
سينصرون ، لما في ذلك من اللطائف للملائكة والسماعين لها ، وسميت جملة
من الكلام بأنها كلمة لا انعقاد بعض معانيه ببعض حتى صار يلحقه صفة التوحيد
كخبر واحد وقضية واحدة . وقال السدي : النصر للمرسلين بالحجة لأن
منهم من قتل . وقال الحسن : ما غلب نبي في حرب ، ولا قتل قط .

ثم اخبر تعالى أن جنود الله للكفار لغالبون أي يقهرونهم تارة بالحجة
واخرى بالقتل . ثم قال لنبه صلى الله عليه وآله ﴿ فتول عنهم ﴾ يعني اعرض عن هؤلاء
الكفار ﴿ حتى حين ﴾ إلى أن أمرك بقتالهم ، يعني يوم بدر - في قول السدي -
وقال قتادة : إلى الموت . وقال قوم : إلى يوم القيامة . وقال قوم : إلى انقضاء
مدة الامهال .

﴿ ج ٨ م ٦٨ من التبيان ﴾

وقوله ﴿ وابصرهم فسوف يبصرون ﴾ معناه انظرهم فسوف يرون العذاب - في قول ابن زيد - وقال غيره أبصر حالهم بقليل . وقيل : ابصرهم في وقت البصر ، وفي الآية دلالة على المعجز ، لأنه تعالى وعدني به بالنصر ، فكان الأمر على ما قال .

وقوله ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ معناه الانكار عليهم بأنهم يطلبون العذاب عاجلاً قبل وقته . ثم قال ﴿ فاذا نزل ﴾ يعني العذاب ﴿ بساحتهم ﴾ أي بفنائهم فساء صباح المندرين أي بثس الصباح صباح من خوف وحذر ، فلم يحذر ، ولم يخف ، فالساحة ناحية الدار ، وهو فناؤها ، وهو الفناء الواسع فلذلك وصف بأنه نازل به العذاب لعظمه ولا يسعه إلا الساحة ذات الفناء الواسع . وقال السدي : نزل بساحتهم أي بدارهم وساء إذا كانت بمعنى بثس لا تتصرف مثل هذه . ومثل قوله ﴿ ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ (١) ولو كان بمعنى الاخبار المحض لجاز أن يقال : ساءه يسوءه سوءاً أي اوقع به ما يسوءه .

ثم قال لنبيه ﷺ ﴿ فتول عنهم حتى حين ﴾ أي اعرض عنهم الى حين وقد فسرناه . و ﴿ ابصر فسوف يبصرون ﴾ وقد مضى معناه ، وإنما كرر لانهما عذابان عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فكأنه قال وابصرهم في عذاب الآخرة وابصرهم في عذاب الدنيا .

ثم قال « سبحان ربك رب العزة عما يصفون » أي التنزيه لربك عما لا يليق به من الصفات ، ربك الذي خلقك ويملك التصرف فيك رب العزة يعني العزة التي يعز الله بها الأنبياء والمرسلين ، وهي صفة القادر الذي

لا يضام ولا يرام ، فالعزة لله - جل عز- وهو ربها ، لأنه القادر الذي لا يعجزه شيء منها ، ولا من غيرها جل وعلا « عما يصفون » يعني ما يصفه به الكفار من اتخاذ الأولاد واتخاذ الشريك « وسلام على المرسلين » الذين أرسلهم الله إلى عباده « والحمد لله رب العالمين » أي والشكر والحمد لله الذي خلق جميع العالم وملك التصرف فيهم .

٢٨- سورة ص

هي مكية في قول مجاهد وقتادة والحسن ليس فيها ناسخ ولا منسوخ وهي ثمان وثمانون آية في الكوفي وخمس وثمانون في البصري وست في المدني .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَحِينْ مَنَاصٍ (٣) وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ (٥) خمس آيات .

قرأ الحسن (صاد) بكسر الدال . وقال عيسى بن عمر بفتحها . الباقيون بالوقف ، وهو الصحيح ، لأن حروف الهجاء يوقف عليها . ومن كسر

فلا اجتماع الساكنين . وقيل : إنه جعل من المصاداة وهي المعارضة . ومن فتح فلأن الفتحة أخف من الكسرة ، ولم يعدوا (صلا) آية ، لأنه يشبه الاسم المفرد في أنه على ثلاثة أحرف في هجاء حروف المعجم ، نحو (باب ، وذات ، وناب) وإنما يعد آية ما يشبه الجملة وشاكل آخره رؤس الآي التي بعده بالردف ومخرج الحروف . وليس - ههنا - شيء من ذلك ،

واختلفوا في معنى (صلا) فقال قوم : هو اسم السورة على ما أخبرناه في ما مضى . وقال ابن عباس : هو اسم من أسماء الله أقسم به . وقال السدي : هو من حروف المعجم . وقال الضحاك : معناه صدق ، وقال قتادة : هو اسم من أسماء القرآن أقسم الله تعالى به . وقال الحسن : هو من المصاداة وهو (صلا) بالكسر أمر للنبي ﷺ أي عارض القرآن بعملك (والقرآن) قسم . فلذلك جر « ذي الذكر » قال ابن عباس : ذي الشرف ، وقال الضحاك وفتادة : ذي التذكر . وقيل : معناه ذي الذكر للبيان والبرهان ، المؤدي إلى الحق الهادي إلى الرشد الرادع عن الغي ، وفيه ذكر الأدلة التي من تمسك بها سعد . ومن عدل عنها شقي . ومن عمل بها نجا . ومن ترك العمل بها هلك .

واختلفوا في جواب القسم ، فقال قوم : هو محذوف وتقديره لجاء الحق وظهر ، لأن حذف الجواب في مثل هذا أبلغ ، لأن الذكر يقصر المعنى على وجه . والحذف يصرف إلى كل وجه فيعم . وقال قوم : جوابه ما دل عليه قوله « بل الذين كفروا » كأنه قال : والقرآن ذي الذكر ما الأمر على ما قالوا - ذكر ذلك فتادة - وقال الفراء والزجاج : الجواب (كم) وتقديره لكم أهلكنا ، فلما طال الكلام - حذف اللام وصارت (كم) جواباً للقسم

واليمين . ومثله قوله « ونفس وما سواها فألهمها » (١) فصارت « قد افلح » تابعة لقوله « فألهمها » وكفى عن جواب القسم ، وكأنه قال : والشمس وضحاها . لقد افلح ، وقال قوم : الجواب قوله « إن ذلك لحق تخاصم أهل النار » إلا أنه قد بعد عن أول الكلام .

وقوله « بل الذين كفروا في عزة وشقاق » اخبار منه تعالى أن هؤلاء الكفار قد مكنتهم واعطاهم القوة ليقووا بها على الطاعات ، فتقووا - بسوء اختيارهم - بها على المعاصي وعلى دفع الحق الذي اتاهم وصاروا في شق غير شق رسولهم الذي من قبل ربهم . ثم اخبر تعالى أنه اهلك أمماً كثيرة قبل هؤلاء الكفار حين عصاه الذين كفروا ، فلما نزل بهم العذاب نادوا واستغاثوا « ولات حين مناص » معناه لات حين فرار من العذاب . وقيل : المناص المنجاة يقال : ناص ينوص نوصاً إذا تأخر . وباص يبوص بوصاً إذا تقدم قال امرؤ القيس :

أمن ذكر ليلى ان نأتك تنوص فتقصر عنها خطوة وتبوص (٢)
ونصب (لات حين) لانها مشبة بـ (ليس) من جهة أزهانني ولا تعمل
إلا في (الحين) خاصة لضعف الشبه عن منزلة (ما) إذ كانت (ما) تشبه
(ليس) من جهة النفي والجمال قال الشاعر :

تذكر حب ليلى لات حيناً واضحى الشيب قد قطع القرينا (٣)
والوقف على (لات) بالتاء على قياس نظيرها من (ثمت ، وربت)
لان ما قبلها ساكن - وهو قول الفراء - والكسائي يقف بالهاء (لاه) يجعل الالف

في نية الحركة . ومن زعم انه (لا تحين) موصولة ، فقد غلط ، لأنها في المصحف وتأويل العلماء مفصولة . وقيل : ان (مناص) جر به (لات) وانشدوا لأبي زيد .

طلبوا صلحنا ولات اوان فاجبنا أن ليس حين بقاء (١)

وقال الزجاج : انشده ابو العباس بالرفع ، وقد روي بالكسر . وقال الزجاج : من كسر رأى ان يجعله مبنياً بمنزلة نداه ذلك الأقسام وبناءه ، فحذف المضاف اليه وكسر دون ان يضم ، لأنه نونه ، فأجراه على نظائره من المنون المبني وأراد ولات أواناً .

ثم اخبر تعالى ان الكفار عجبوا « حين جاءهم منذر » أي مخوف من جهة الله يحذرهم معاصيه ويدعوهم إلى طاعته ، وقالوا : هذا شيء عجاب ، وعجيب وعجاب وعجاب بمعنى واحد ، مثل كريم وكرام ، فعجب هؤلاء الكفار من أن الله بعث نبيهم وهو منهم ، وقالوا : كيف خص بذلك ، وليس باشرافنا ولا اغنانا . وقيل : إن أبا جهل وجماعة من أشراف قريش مشوا إلى أبي طالب وشكوا اليه النبي ﷺ وقالوا له : قد سفه احلامنا وشتم الالهة ، فدعاه ابو طالب وقال له : ما لأهلك يشكونك ، فقال النبي ﷺ أدعوه إلى كلمتين حقيقتين يسودون على العرب بها ، ويؤدي الخراج اليهم بها العجم ، فقال ابو جهل وغيره : ما هما فقال ﷺ : تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله . فقال ابو جهل : أتجعل الالهة إلهاً واحداً ؟ ! فانزل الله الآية .

قوله تعالى :

﴿ وَأَنْطَلِقَ الْمَلَائِكَةُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمَلَأَةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧) أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ (٨) أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿ (١٠)

خمس آيات في الكوفي وأربع في الباقي .

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار الذين ذكرهم أنهم انطلقوا أي ذهبوا فالانطلاق ذهاب بسهولة ، ومنه طلاقة الوجه وهي سهولة وبشر خلاف العبوس وقوله « أن امشوا » قال الزجاج : أي بهذا القول ، وتقديره بأن امشوا وقال قوم : معنى (أن) أي التي للتفسير لأنه صار انطلاقهم لدلالته على هذا المعنى بمنزلة الناطق به ، كما يقولون : قام يصلي أي أنارجل صالح . وقال بعضهم : معناه الدعاء لهم بأن يكثر ماشيتكم ، وهذا باطل لفظاً ومعنى فاللفظ لأنه لو كان كما قالوه لكانت الهمزة من (أن امشوا) إذا أمر منها مفتوحة ، لأنه من امشى يمشي إذا كثرت ماشيته والامر منه امشوا بقطع الهمزة ، والقراءة بكسرها ، قال الشاعر :

وكل فتى وإن أثرى وامشى ستسلخه من الدنيا المنون (١)

واما المعنى ، فلانه لا يشاكل ما قبله ولا ما بعده .

وقوله « واصبروا على آلهتكم » أمر منهم بعضهم لبعض أن يصبروا على عبادة آلهتهم وتحمل المشاق لاجلها . وقال مجاهد : القائل لذلك عقبة بن أبي معيط فالصبر محمود إذا كان في حبس النفس عن المحارم ، فهؤلاء الجاهل اعتقدوا أن الحق في الصبر على آلهتهم ، ولم يعلموا ان ذلك كفر . وفي ذلك دلالة على فساد قول من يقول : إن المعارف ضرورة ، قال الحسن : إن هذا يكون في آخر الزمان .

وقوله « إن هذا لشيء يراد » معناه هذا الذي يدعيه محمد ويدعوهم اليه لشيء يراد به أمر ما من الاستعلاء علينا والرياسة فينا والقهر لنا .

ثم حكى ما قالوه فانهم قالوا « ما سمعنا بهذا » يعنون ما يدعوهم اليه النبي ﷺ من التوحيد وخلع الانداد من دون الله « في الملة الآخرة » قال ابن عباس يعنون في النصرانية ، لأنها آخر الملل . وقال مجاهد : يعنون في مكة وقريش . ثم قالوا « إن هذا إلا اختلاق » قال ابن عباس ومجاهد : معناه ليس هذا إلا تخرص وكذب . ثم تعجبوا فقالوا « أنزل عليه الذكر من بيننا » يعنون كيف خص محمد بانزال القرآن دوتنا ؟ ! فقال الله تعالى « بل هم في شك من ذكري » معناه ليس يحملهم على هذا القول إلا الشك في الذكر الذي أنزلت على رسولي « بل لما يذوقوا عذاب » ثم قال « أم عندهم خزان رحمة ربك » ؟ قال الفراء : الاستفهام إذا توسط الكلام

(١) قاله النابغة الذبياني . اللسان (مشى)

(ج ٨ م ٦٩ من التبيان)

ابتدىء بألف و بـ (أم) ، وإذا لم يسبق كلام لم يكن إلا بألف او بـ (هل) .
 ووجه اتصال هذا القول بما تقدم هو اتصال الانكار لما قالوا فيه ، أي
 ذلك ليس اليهم ، وإنما هو إلى من يملك هذه الأمور . و (خزائن رحمة
 ربك) معناه مقدوراته التي يقدر بها على أن ينعم بها عليهم . وقوله « العزيز »
 يعني القادر الذي لا يغالب ولا يقهر « الوهاب » لضروب النعم « أم لهم
 ملك السموات والارض وما بينهما » فان كان لهم ذلك « فليرتقوا في
 الاسباب » وهي جمع سبب وكل ما يتوصل به إلى المطلوب - من جبل أو
 سلم أو وسيلة أو رحم أو قرابة أو طريق أو جهة - فهو سبب ، ومنه قيل :
 تسببت بكذا إلى كذا أي توصلت به اليه .

قوله تعالى:

﴿ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (١١) كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ
 قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ
 الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ
 عِقَابُ (١٤) وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا هُمْ عَنْ فَوَاقٍ (١٥)
 خمس آيات .

قرأ حمزة والكسائي « فواق » بضم الفاء . الباقون بفتحها . فالفواق بفتح
 الفاء معناه ما لها من راحة ، وإذا ضمنت الفاء ، فلامنى ما لها من فواق ناقة
 وهو قدر ما بين الحبلتين . وقيل : هو ما بين الرضعتين . وقيل : هما لغتان

مثل قصاص الشعر وقصاصه ، وحمام الماء وحمامه ، وهو الآفة ، وهو الابانة بعد الفترة و(ما) في قوله « جند ما » صلة ، وتقديره: جند هنالك ، و (هنالك) للمكان البعيد و (هناك) للمتوسط بين القرب والبعد و (هنا) للقريب ونظيره (ذا) و (ذاك) و (ذلك) ومثل (ما) في كونها صلة قولهم : لأمر ما جدد قصير أنفه . وعندى طعام ما ، قال الاعشى :

فاذهبي ما اليك أدر كني الحـ لم عداني عن ذكر كم اشغالي (١)

وقيل : إنها تقوية للنكرة المبتدأة في (ما) والجند جمع معد للحرب جمعه اجناد وجنود ، وجند الاجناد أي جيش الجيوش . ومنه قوله ﷺ (الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف) ، وقوله « مهزوم » يعني مغلوب عن أن يصعدوا إلى السماء ، والمهزوم من وقعت بهم الهزيمة ، وهي الفرار من الحرب ، ولو فرّ انسان من ضرب لم يكن ذلك هزيمة ، وكذلك من فرّ من الحبس . وقوله « من الاحزاب » معناه من حزب إبليس وإتباعه .

ثم اخبر تعالى انه كذب مثل هؤلاء الكفار ، فأنت لأنه أراد العشيرة « قوم نوح » فأغرقهم الله ، وقوم « عاد » فاهلكهم الله « وفرعون » وقوم فرعون « ذا الاوتاد » وقيل : في معناه أقوال :

منها - انه كانت له ملاعب من اوتاد يلعب له عليها ، وهو قول ابن عباس وقتادة . وقال السدي والربيع بن أنس : انه كانت له أوتاد يعذب الناس بها . وقال الضحاك : معناه ذو البنيان ، والبنيان اوتاد ،

ثم قال « وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة » أيضاً هم الأحزاب يعني

احزاب إبليس : و (الايكة) الغيضة . وقال ابو عمرو بن العلا : هي الملتفت من النبع والسدر . وقال السدي : هي الحرجة ، قال الشاعر :

افمن بكاء حمامة في أيكة يرفض دمعك فوق ظهر المحمل

يعني محمل السيف . وقوله « إن كل الاكذب الرسل » معناه ليس كلهم إلا كذبوا أنبياء الله وجمحدوا نبوتهم فاستحقوا عقابي . ثم قال « وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة » أي ليس ينظر هؤلاء إلا صيحة عذاب لا يكون لتلك الصيحة « من فواق » أي ما لها من افاقة بالرجوع إلى الدنيا وهو قول قتادة ، والسدي وقال ابن زيد « ما لها من فواق » أي من فتور كما يفوق المريض .

قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قَطْنَآ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦)
 إِصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧)
 إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ
 مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ
 وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴾ (٢٠) خمس آيات .

يقول الله مخبراً عن هؤلاء الكفار الذين وصفهم بأنهم يقولون على وجه الاستهزاء بمذاب الله يا « ربنا عجل لنا قطنًا » أي قدم لنا نصيبنا من العذاب ، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : طلبوا حظهم من العذاب تهزأ

ينخبأ الله وشكافيه . وقال السدي : إنما سألوا أن يربهم حظهم من النعيم في الجنة حتى يؤمنوا . وقيل : إنما سألوا أن يعجل كتبهم التي يقرؤونها في الآخرة استهزاء منهم بهذا الوعيد . والقط الكتاب قال الاعشى :

ولا الملك النعمان يوم لقيته بأمته يعطي القطوط ويأفق (١)

أي كتب الجوائز ، لأنها قطع نصيب لكل واحد بما كتب . والتعجيل فعل الشيء قبل وقته الذي ينبغي أن يفعل فيه . والقط النصيب وأصله القطع من قولك قطه يقطه قطعاً مثل قده يقده قدأ . ومنه قولهم : ما رأيت قط أي قطع الدهر الذي مضى « قبل يوم الحساب » أي قبل اليوم الذي يحاسب فيه الخلق ويجازون فيه على أعمالهم على ما يتولونه فقال الله تعالى لنبيه ﷺ « اصبر على ما يقولون » أي احبس نفسك على اذام وصبرها على أقوالهم « واذكر عبدنا داود ذا الأيد » ترغيباً له في الصبر بالمأمور به وإن لك يا محمد فيه من إحسان الله إليك على نحو إحسانه إلى داود قبلك ، وأنه لو شاء لأعطاك في الدنيا مثل ما أعطى داود ولكنه دبر لك ما هو أعود لك . وقوله « ذا الأيد » قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : معناه ذا القوة ، ومنه قوله « والسماء بنيناها بأيد » (٢) أي بقوة ، وقوله « إنه إواب » قال ابن زيد : معناه تواب وبه قال مجاهد ، وهو من آب يؤب أي رجع إلى الله فلذلك مدحه .

ثم أخبر تعالى عن نعمه التي أنعم بها على داود ، فقال « إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق » ومعناه إنها كانت تسير بأمر الله معه حيث سار بالغداة والعشي فسمى الله ذلك تسبيحاً لما في ذلك من

دلالة على قدرته وغناه من خلقه وصفاته التي لا يشاركه فيها غيره ، والاشراق وقت طلوع الشمس يقال : شرقت الشمس إذا طلعت وأشرقت إذا اضاءت « والطير محشورة » وتقديره وسخرنا الطير محشورة أي مجموعة من كل ناحية اليه يعني الطير والجبال « له أبواب » أي رجاء إلى ما يريد . وقيل : مسخرة - ذكره قتادة - وقال الجبالي لا يمتنع أن يكون الله خلق في الطيور من المعارف ما تفهم به مراده وأمره من نهيه فتطيعه في ما يريد منها . وإن لم تكن كاملة العقل ، ولا مكلفة .

ثم قال « وشددنا ملكه » يعني قوينا ملكه بالجنود والهيبة « وآتيناه الحكمة » أي علمناه الحكمة « وفصل الخطاب » ومثله قول البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه أي إصابة الحكم بالحق . وقال البلخي : يجوز أن يكون المراد بتسبيح الجبال معه هو ما أعطى الله تعالى داود من حسن الصوت بقراءة الزبور ، فكان إذا قرأ الزبور أو ذكر ما هو تسبيح لله ورفع صوته بين الجبال رد الجبال عليه مثله كما يرد الصدى ، فسمى الله ذلك تسبيحاً لما تضمنه من الدلالة والأول أحسن ، قوله تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَيْكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١)
إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا
عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ
الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ
وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ

بِسُؤَالٍ نَعَجَتِكَ إِلَىٰ نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ
دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا
لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ (٢٥) خمس آيات .

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه وصورته صورة الاستفهام والبراد اخباره
بما كان من قصة داود من الحكم بين الخصمين وتنبيهه على موضع إخلاله
ببعض ما كان ينبغي أن يفعله فقال « وهل أتاك نبؤ الخصم » يعني خبره
فالنبا الخبر بما يعظم حاله « إذ تسوروا المحراب » يعني حين صعدوا اليه .
والخصم هو المدعي على غيره حقاً من الحقوق المنازع له فيه ، ويعبر به عن
الواحد والاثنين والجماعة بلفظ واحد ، لان أصله المصدر ، فتقول : رجل
خصم ، ورجلان خصم ، ورجال خصم ، ولذلك قال « إذ تسوروا المحراب »
لأنه أراد المدعي والمدعى عليه ومن أتبعهما ، فلا يمكن أن يتعلق به في أن
أقل الجمع اثنان ، لما قال « خصمان بغى بعضنا على بعض » لانه أراد بذلك
الفريقين ، والخصم من خصمته اخصمه خصماً . والتسور الاثنيان من جهة
السور ، يقال تسور فلان الدار إذا أتاها من قبل سورها ، وكانوا أتوه
من اعلى المحراب ، فلذلك فزع منهم . والمحراب مجلس الاشراف الذي
يحارب دونه لشرف صاحبه ، ومنه سمي المصلي محراباً وموضع القبلة ايضاً محراب
وقوله « إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا
على بعض » معناه إن هؤلاء حين دخلوا على داود من غير الجهة التي اعتاد

الدخول عليه منها فزع منهم ، لانه ظنهم أعداء يريدون به سوء فقالوا له (خصمان) ولم يقولوا : نحن خصمان يعني فريقان لأنهما كانا ملكين ولم يكونا خصمين ولا بغى أحدهما على الآخر ، وإنما هو على المثل « فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط » معناه ولا تتجاوز الحق ولا تجر ولا تسرف في حكمك بالميل مع أحدهما - على الآخر ، يقال أشط في حكمه إذا جار يشط فهو شط وشططت علي في السوم تشط شططاً قال الشاعر :

ألا يا لقومي قد اشطت عواذلي وبزعمن أن اودي بحقي باطلا (١)
وقال آخر :

يشط غداً دار جيراننا ولدار بعد غد بعد

وقوله « وأهدنا إلى سواء الصراط » معناه أرشدنا إلى قصد الطريق الذي هو طريق الحق ووسطه ، كما قال « قاطع فرآه في سوء الجحيم » (٢) ثم حكى تعالى ما مكن أحد الخصمين لصاحبه ، فقال « إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة » قال وهب بن منية : يعني أخي في ديني وقال أكثر المفسرين انه كنى بالنعاج عن تسع وتسعين امرأة كانت له وإن الآخر له نعجة واحدة يعني امرأة واحدة . وقال الحسن : لم يكن له تسع وتسعون امرأة وإنما هو على وجه المثل . وقال أبو مسلم محمد بن بحر الاصفهاني : أراد النعاج باعيانها ، وهو الظاهر غير انه خالف أقوال المفسرين . وقال هما من ولد آدم ، ولم يكونا ملكين وإنما فزع منهما لأنهما دخلا عليه في غير الوقت المعتاد ، وهو الظاهر غير انه خلاف أقوال المفسرين على ما قلناه .

وقوله « فقال اكفليها » معناه اجعلني كفيلاً بها أي ضامناً لامرها .

ومنه قوله « وكفلها زكريا » (١) وقال ابو عبيدة معناه ضمها اليها ، وقال ابن عباس وابن مسعود معنى اكفلنيها انزل لي عنها « وعزني في الخطاب » أي غلبني في المخاطبة من قولهم : من عز بزّ أي من غلب سلب . وقال ابن زيد : معناه قهرني . وقال ابو عبيدة : معناه صار أعزمني ، فقال له داود « لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه . وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض » ومعناه إن كان الامر على ما تدعيه لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، فاضاف السؤال إلى المفعول به وهي للنعجة وإن أضيف اليها . ثم اخبر ان كثيراً من الشركاء والخلطاء ليبغي بعضهم على بعض فيظلمه . وقال أصحابنا : كان موضع الخطيئة أنه قال للخصم لقد ظلمك من غير ان يسأل خصمه عن دعواه وفي آداب القضاء ألا يحكم بشيء ولا يقول حتى يسأل خصمه عن دعوى خصمه ، فما أجاب به حكم به . وهذا ترك الذنب في ذلك ، وفي ذلك قول آخر ، وهو إن في الناس من قال : إن ذلك كان صغيرة منه وقعت مكفرة ، والشرط الذي ذكرناه لا بد فيه ، لانه لا يجوز ان يخبر النبي ان الخصم ظلم صاحبه قبل العلم بذلك على وجه القطع ، وإنما يجوز مع تقرير الشرط الذي ذكرناه . ثم استثنى من جملة الخلطاء الذين بعضهم يبغي على بعض الذين آمنوا بالله وعملوا بما يوجب عليهم ، فانهم لا يفعلون ذلك . ثم قال وقليل الذين كذلك ، فروي أن الملكين غابا من بين يديه فظن عند ذلك أن الله اختبره بهذه الحكومة وابتلاه . وقرئ (فتناء) بالتخفيف بمعنى أن الملكين فتناء بها . وقال قوم الظن العلم كأنه قال ؛ وعلم داود ذلك

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٣٧

(ج ٨ م ٧٠ من التبيان)

وقال آخرون : إنما ظن ظناً قوياً وهو الظاهر . وقوله « فاستغفر ربه » . معناه سأل الله المغفرة والستر عليه « وخر راكعاً وأتاب إليه » أي رجع إليه بالتوبة .

ثم اخبر تعالى انه أجاب دعوته وغفر له ذلك ، وأخبر ان له مع المغفرة عند الله لزافى ، والزافى القربة من رحمة الله ، وثوابه في جنته « وحسن مآب » فالآب والمرجع والمصير والمآل واحد . ومن قال ان ذلك كان صغيرة وقعت مكفرة يقول : معنى قوله « فغفرنا له » بعد الانابة ، وإن كانت الخطيئة غفرت في الدنيا . وقيل : انه خطب امرأة كان اوريا ابن حيان قد خطبها فدخل في سومه ، فاختاروه عليه فعاتبه الله على ذلك ، لان الانبياء يتنزهون عن ذلك ، وإن كان مباحاً لأنه مما ينفر على بعض الوجوه . وقيل : بل انفذ به إلى غزوة ، وكان يحب ان يستشهد ليتزوج امرأته لأنهما كانا تحاكما اليه . فوقعت امرأته في قلبه واشتهاها شهوة الطباع من غير أن يحدث أمراً قبيحاً . وأولى الوجوه ما قدمناه انه ترك النذب في ما يتعلق بأدب القضاء ، لأن باقي الوجوه ينبغي ان ينزه الانبياء عنها لانها تنفر في العادة عن قبول أقوالهم ، فأما ما يقول بعض الجهال من القصص أن داود عشق امرأة أوريا ، وأنه امره بأن يخرج إلى الغزو ، وأن يتقدم امام التابوت وكان من يتقدم التابوت من شرطه ألا يرجع إلى أن يغلب او يقتل ، فخير باطل موضوع ، وهو مع ذلك خبر واحد لا أصل له ولا يجوز أن تقبل اخبار الآحاد في ما يتضمن في الانبياء ما لا يجوز على ادون الناس ، فان الله نزههم عن هذه المنزلة واعلى قدرهم عنها . وقد قال الله تعالى « الله يصطفي من

الملائكة رسلا ومن الناس » (١) وقال « ولقد اخترناهم على علم على العالمين » (٢) فكيف يختار تعالى من يتعشق نساء اصحابه ويعرضهم للقتل من غير استحقاق ولا يجوز مثل هذا على الانبياء إلا من لا يعرف مقدارهم ولا يعتقد منزلتهم التي خصهم الله فيها نعوذ بالله من سوء التوفيق .

وقد روي عن علي عليه السلام انه قال : لا أوتى برجل يقول إن داود ارتكب فاحشة إلا ضربته حدين احدهما للكدف والآخر لأجل النبوة . وقرأ ابن مسعود « تسع وتسعون نعمة » اثني ، قال النحويون : هذا تأكيد ، كما قال النبي : ابن لبون ذكر . وكما قال « طائر يطير بجناحية » وقال ابن جرير : معناه تسع وتسعون نعمة اثني أي حسناء ، قال ابن خالويه هذا حسن جداً .

قوله تعالى :

يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ
النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ
يُضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)
وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ
كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٧٥

(٢) سورة ٤٤ الدخان آية ٣٢

الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا
آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ أربع آيات .

قرأ يحيى عن أبي بكر « لتدبروا » بالتاء وتقديره لتتدبروا من التدبر
خذف تاء الفعل وبقي تاء المضارعة ، وتقديره : لتتدبر أنت يا محمد والمسلمون
ومن قرأ بالياء ، فعلى ليتدبر المسلمون فيتقرر عندهم صحتها وتسكن أنفسهم
إلى العلم بها .

لما أخبر الله تعالى عن داود أنه رجع إليه وتاب واستغفر ربه عن
التقصير الذي وقع منه في الحكم ، وأنه تعالى غفر له ذلك وأجاب دعوته ،
ووعده بالزلفى عنده والقربة من ثوابه ناداه أيضاً فقال له « يا داود إنا
جعلناك خليفة في الارض » والخليفة هو المدير للأمور من قبل غيره بدلا
من تديره ، فداود لما جعل الله إليه تدبير الخلق فكان بذلك خليفة ، ولذلك
يقال : فلان خليفة الله في أرضه إذا جعل الله إليه تدبير عباده بأمره . وقيل :
معناه جعلناك خليفة لمن كان قبلك من رسلنا . ثم أمره فقال « فاحكم بين
الناس » ومعناه افصل بين المختلفين من الناس والمتنازعين « بالحق » بوضع
الاشياء مواضعها على ما أمرك الله « ولا تتبع الهوى » أي ما يميل طبعك
إليه ويدعوك هواك إليه إذا كان مخالفاً للحق ، فلا تمل إليه « فيضلك عن
سبيل الله » ومعناه أنك متى اتبعت الهوى في ذاك عدل بك الهوى عن
سبيل الله الذي هو سبيل الحق .

ثم أخبر تعالى « إن الذين يضلون عن سبيل الله » يعني يعدلون عن العمل
بما أمرهم الله به « لهم عذاب شديد » يعني شديد ألمه « بما نسوا يوم الحساب »

وقيل في معناه قولان :

أحدهما - لهم عذاب شديد يوم الحساب بما تركوا طاعاته في الدنيا ، فعلى هذا يكون يوم الحساب متملقاً بـ (عذاب شديد) وهو قول عكرمة والسدي : الثاني - قال الحسن « لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » أي بما عرضوا عنه ، صاروا بمنزلة الناسي ، فيكون على هذا العامل في (يوم) قوله « نسوا » .

ثم أخبر تعالى أنه لم يخلق السماء والأرض وما بينهما باطلاً ، بل خلقهما وما بينهما بالحق لغرض حكيم ، وهو ما في ذلك من إظهار الحكمة وتعريض أنواع الحيوان للمنافع الجليلة وتعريض العقلاء لمنافع الثواب ، وذلك يفسد قول المجبرة الذين قالوا : إن كل باطل وضلال من فعل الله . وقوله « ذلك ظن الذين كفروا » معناه إن خلق السماء والأرض وما بينهما باطلاً ظن من يكفر بالله ويحجد وحدانيته وحكمته . ثم توعد من هذه صفته فقال « فويل للذين كفروا من النار » ثم قال على وجه التوبيخ والتقريع للكفار بلفظ الاستفهام « أم نجعل الذين آمنوا . . . » معناه هل نجعل الذين صدقوا بالله وأقروا برسله و عملوا الصالحات مثل الذين أفسدوا في الأرض وعملوا بالمعاصي؟! أم هل نجعل الذين اتقوا معاصي الله خوفاً من عقابه كالنفجار الذين عملوا بمعاصيه وتركوا طاعته؟! فهذا لا يكون أبداً . وكيف يكون كذلك وهؤلاء يستحقون الثواب بطاعتهم وأولئك يستحقون العقاب بمعاصيهم . وقال أبو عبيدة : ليس لها جواب استفهام فخرج الوعيد . وقال الزجاج : تقديره ، أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالنفجين في الأرض أم نجعل المتقين كالنفجار ، فهو استفهام بمعنى التقرير .

ثم خاطب نبيه ﷺ فقال « كتاب انزلناه اليك مبارك » أي هذا كتاب انزلناه ، يعني القرآن الذي أنزله الله عليه ، ووصفه بأنه مبارك ، لان به يستديم الناس ما أنعم الله عليهم به ، وبين أن غرضه تعالى بانزال هذا القرآن « ليدبروا آياته » بأن يتفكروا في أدلته « وليتذكر أولو الالباب » يعني أولو العقول .

وفي الآية دلالة على بطلان مذهب الجبرة في خلق القبايح من حيث بين الله أنه يعاقبهم جزاء بما نسوا طاعاته في الدنيا .
وقوله « ذلك ظن الذين كفروا » يدل على فساد قول من يقول :
ان المعارف ضرورة ، لانهم لو كانوا عارفين ضرورة لما كانوا ظانين .
قوله تعالى :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (٣٠) إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فِطْفَقَ مَسْحًا بِالْسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ

بَنَاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا
فَإَمْنٌ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ
مَآبٍ (٤٠) إحدى عشرة آية .

قرأ ابن كثير وحده « بالسوق » مهموزة . وقال ابن مجاهد : الرواية
الصحيحة عنه « بالسوق » على فعول ، ولما ضمنت الواو همزها . مثل وفيت
وأفيت ، فهذه رواية قنبل . وقرأ البزي « بالسوق » مثل أبي عمرو ، جمع
ساق مثل باح وبوح . والباحة والصرح والعرصة والفناء واحد ، ومثله
قارة وقور للخيول الصغير . ومن همز سوق فعلى لغة من قال : (أحب المؤمنين
إلى موسى) ، فهمز أنشده أبو الحسن لابي حبة النميري ، ولأنه لما لم يكن
بينها وبين الضمة حاجز صار كأن الضمة عليه فهمز .

أخبر الله تعالى أنه وهب لداود سليمان . فقال « نعم العبد » كان سليمان
« انه اواب » أي رجاع الى طاعة الله وطلب ثوابه . وقوله « إذ عرض »
يجوز أن يتعلق بقوله « نعم العبد » أي نعم العبد حين عرض عليه ، ويجوز
ان يكون العامل فيه واذكر يا محمد إذ عرض على سليمان « بالعشي » يعني آخر
النهار ﴿ الصافنات الجياد ﴾ والصافنات جمع صافنة ، قال ابن زيد : صفن
الخيول قيامها على ثلاث مع رفع رجل واحدة . يكون طرف الحافر على الارض
وقال مجاهد : صفون الفرس رفع احدى يديه حتى يكون على طرف الحافر
صفت الخيل تصفن صفوناً إذا وقفت كذلك قال الشاعر :

الف الصفون فما يزال كأنه مما يقوم على الثلاث كسيرا (١)

وقال الزجاج والفراء وغيرهما : كل قائم على ثلاث صافن ، والجساد السراع من الخيل فرس جواد كأنه يجود بالركض ، كأنه جمع جود ، كما يقال : مطر جود إذا كان مدراراً ونظيره سوط وسياط . والعرض إظهار الشيء . بحيث يرى ليميز من غيره ، ومنه قوله ﴿ وعرضوا على ربك صفاً ﴾ واصله الاظهار قال عمرو بن كلثوم :

واعرضت اليمامة واشمخرت
كأسياف بأيدي مصلتينا (١)
أي ظهرت وأعرض عني معناه أظهر جفوة بتولييه عني ، وعرض الشيء إذا صار عريضاً .

وقوله تعالى ﴿ إني أحبيت حب الخير ﴾ قال قتادة والسدي المراد بالخير - ههنا - الخيل والعرب تسمي الخيل الخير ، وبذلك سمي (زيد الخيل) أي زيد الخير . وقيل في ذلك وجهان :

أحدهما - أنه أراد أحبيت الخير ، ثم اضاف الحب إلى الخير .
والثاني - أنه أراد أحبيت اتخاذ الخير ، لأن ذوات الخير لا تراد ولا تحب فلا بد من شيء يتعلق بها ، والمعنى آثرت حب الخيل على ذكر ربي ويوضع الاستحباب موضع الايثار . كما قال تعالى ﴿ الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ﴾ (٢) أي يؤثرون ، وقوله ﴿ عن ذكر ربي ﴾ معناه إن هذا الخيل شغلني عن صلاة العصر حتى فات وقتها ، وهو قول علي رضي الله عنه وقاتدة والسدي ، وروي أصحابنا أنه فات الوقت الأول ، وقال الجبائي : أنه لم يفته الفرض ، وإنما فات نفل كان يفعله آخر النهار ففاته لاشتغاله بالخيل . وقوله ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ معناه توارت الشمس بالحجاب يعني بالغيوبة

وجاز الاضمار قبل الذكر ، لأنه معلوم قال ليبيد :

حتى إذا لقت يدًا في كافر وأجن عورات الثغور ظلامها (١)

وقال ابو مسلم محمد بن بحر وغيره : وذكر الرماني أن الكناية عن الخيل وتقديره حتى توارت الخيل بالحجاب بمعنى أنها شغلت فكره إلى تلك الحال .

ثم قال لأصحابه ﴿ ردّوها عليّ ﴾ يعني الخيل فلما ردت عليه ﴿ يطفق

مسحاً بالسوق والاعناق ﴾ وقيل : ان الخيل هذه حربها من غنيمه جيش

فتشغل باعتراضها حتى غلبت الشمس وفاتته العصر ، قال الحسن : كشف

عراقيها وضرب اعناقها ، وقال لا تشغلني عن عبادة ربي مرة اخرى . وقيل :

انه إنما فعل ذلك على وجه القربة إلى الله تعالى بأن ذبحها ليتصدق

بلحومها لا لعقوبتها بذلك . وإنما فعل ذلك لأنها كانت أعز ماله فاراد بذلك

ما قال الله تعالى ﴿ ان تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ (٢) وقال ابو عبيدة :

يقولون : مسح علاوته أي ضربها . وقال ابن عباس : جعل يمسح أعراف

الخيول وعراقيبها حباً لها . وقال ابو مسلم محمد بن بحر : غسل اعرافها وعراقيبها

إكراماً لها ، قل : لان المسح يعبر به عن الغسل من قولهم : تمسحت للصلاة .

ثم قال تعالى على وجه القسم ﴿ واقد فتنا سليمان ﴾ ومعناه اختبرناه

وابتليناه وشددنا المحنة عليه ﴿ والقينل على كرسیه جسدآ ﴾ قال ابن عباس :

القي شيطاناً اسمه صخر على كرسیه . وقال مجاهد : كان اسمه أصف . وقال

السدي : كان اسمه خفيق وكان ملكه في خاتمه يخدمه الجن والشياطين ما دام

في يده ، فلما أذن سليمان نزع الله منه الخاتم وجعل مع الجني فاجتمعت

(١) اللسان (كفر)

(٢) سورة ٣ آل عمران آية ٩٢

﴿ ج ٨ م ٧١٤ من التبيان ﴾

عليه الجن والشياطين . وقيل : انه كان ذنبه انه وطىء في ليلة عدة كثيرة من جواريه حرصاً على كثرة الولد . وقيل : كان ذنبه انه وطىء امرأته في الحيض .

وقوله ﴿ ثم اناب ﴾ يعني تاب إلى الله من خطيئته ، فرد الله عليه الملك لان الجنى لما اخذ خاتمه رمى به في البحر فرده عليه من بطن سمكة - ذكر ما قلناه المفسرون - والذي قاله المفسرون من أهل الحق ومن نزه الانبياء عن القبايح ونزه الله تعالى عن مثل ذلك هو انه لا يجوز أن يمكن الله تعالى جنياً ليمثل في صورة نبي لما في ذلك من الاستبعاد . وإن النبوة لا تكون في الخاتم وانه تعالى لا يسلب النبي نبوته ، وليس في الآية شيء من ذلك ، وإنما قال فيها انه ألقى على كرسيه جسداً . وقيل في معنى ذلك الجسد اقوال :

منها - إن سليمان قال يوماً في مجلسه وفيه جمع كثير لاطوفن الليلة على مئة امرأة تلد كل امرأة منهن غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله ، وكان له في ما يروى عدد كثير من السراري ، فاخرج الكلام على سبيل المحبة لهذا الحال ، فنزله الله عما ظاهره الحرص على الدنيا ، لئلا يقتدى به في ذلك ، فلم يحمل من نسائه إلا امرأة واحدة ولداً ميتاً ، فحمل حتى وضع على كرسيه جسداً بلا روح ، تنبيهاً له على انه ما كان يجب ان يظهر منه ما ظهر ، فاستغفر الله وفزع إلى الصلاة والدعاء على وجه الانقطاع ، لاعلى أن ذلك كان صغيرة . ومن قال من حيث انه لم يستثن مشيئة الله في ذلك ، فقوله فاسد ، لأنه وإن لم يذكر مشيئة الله لفظاً فلا بد من تقديرها في المعنى وإلا لم يأمن أن يكون خبره كذباً ، وذلك لا يجوز على الانبياء عند من جوز الصغار عليهم . قال الحسن وغيره لا يجوز على الانبياء .

ومنها - انه روي ان الجن لما ولد سليمان ولد قالوا : لنلقين منه ما لقينا من سليمان ، فلما ولد له ولد اشفق منهم ، فاسترضعه في الزن ، فلم يشعر إلا وقد وضع على كرسيه ميتاً تنبياً على ان الحذر لا ينفع مع القدر .
ومنها - انه ذكر انه ولد لسليمان ولد ابتلاه بصبره في إماتة ولده على كرسيه . وقيل : انه أماته في حجره ، وهو على كرسيه ، فوضعه من حجره .
ومنها - ما ذكره ابو مسلم فإنه قال : يجوز ان يكون الجسد جسد سليمان وأن يكون ذلك لمرض امتحنه الله به ، وتقديره والقينا منه على كرسيه جسداً لشدة المرض ، كما يقولون : فلان لحم على وضم إذا كان ضعيفاً ، وجسد بلا روح تغليظاً للعلة ، وقوة الضعف .

ثم حكى ما قاله سليمان حين أناب إلى الله ، فانه سأل الله تعالى وقال ﴿ رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ أي لا تسلبه كما سلبته في الدفعة الاولى ، وقال ابو عبيدة معنى (لا ينبغي) لا يكون ، وانشد لابن احرر :

ما ام غفر على دعاء ذي علـق
تنفي القراميد عنها الاعصم الوقل
في رأس خلقاء من عنقاء مشرفة
لا ينبغي دونها سهل ولا جبل (١)

وقال ابو عبيدة : أي لا يكون فوقها سهل ولا جبل احصن منها .

فان قيل : أليس ظاهر هذه الآية يقتضي الشح والضم لان له لم يرض بأن سأل الملك ، حتى اضاف إلى ذلك ألا يكون لأحد بعده مثله ؟ ! قلنا قد ثبت أن الانبياء لا يجوز أن يسألوا بحضرة قومهم ما لم يأذن الله لهم في ذلك ، فعلى هذا لم لا يجوز ان يكون الله تعالى أعلم سليمان أنه إن سأل ملكاً لا يكون

لغيره كان لطفاً له في الدين ، وأعلمه أن غيره لو سأل ذلك لم يجب إليه ،
لأنه يكون مفسدة لغيره ولا صلاح له فيه ، ولو أن احداً صرح بمسألة بهذا
الشرط بأن يقول : اللهم اجعلني أيسر أهل زماني وارزقني ما لا يساويني
فيه أحد إذا كانت المصلحة لي في ذلك لكان هذا جائزاً حسناً ، ولم يكن
منسوباً إلى بخل ، فلا يمتنع أن يسأل النبي أيضاً مثل ذلك .

وقيل : انه لا يمتنع أن يسأل النبي مثل هذه المسألة من غير إذن إذا
لم يكن بمحضر من قومه بعد ان يكون الشرط فيه مقدراً .

وقيل فيه وجه آخر ، وهو انه ﷺ إنما سأل ان يكون ملكه معجزة
لنبوته يبين بها من غيره ممن ليس بنبي . وقوله ﴿ لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾
معناه لا ينبغي لأحد غيري ممن أنا مبعوث إليه ، ولم يرد من بعدي إلى يوم
القيامة من النبيين .

وقيل : انه لا يمتنع ان يكون المراد انه سأل ملك الآخرة وثواب الجنة
الذي لا يناله المستحق إلا بعد انقطاع التكليف . ومعنى ﴿ لا ينبغي لأحد
من بعدي ﴾ لا يستحقه بعد وصولي إليه أحد من حيث لا يصح أن يعمل
ما يستحق به الثواب لا انقطاع التكليف .

ثم بين بعد ذلك انه اعطاه ما سأله فقال ﴿ فسخرنا له الريح ﴾ أي
ذلّلناها له ، والتسخير التذليل ﴿ تجري بأمره ﴾ يعني الريح تتوجه إلى حيث
شاء ﴿ رخاء ﴾ قال قتادة معناه طيبة سريعة ، وقال ابن زيد : أئنة . وقال ابن
عبّاس : مطيعة ، وبه قال الضحاك والسدي والرخاء الريح : الأئنة وهو رخاوة
المرور سهولته ووصفت باللين ، لأنها إذا عصفت لم يتمكن منها ، وإذا
لأنت أمكنت .

وقوله ﴿ حيث أصاب ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي :
 معناه حيث أَرَارَ ، يقول القائل : أصاب الله بك الرشاد أي اراد الله ، والمعنى
 انها تنطاع له كيف أراد ، وقال الحسن : كان يغشوا من أيله ، ويقيل
 بغزوين ويبيت بكابل . والاصابة لحاق البغية ، يقال أصاب الهدف بالسهم
 يصيبه إصابة ، ومنه الصواب إدراك الحق بالميل اليه ، وقوله ﴿ والشیاطین ﴾ نصبه
 بالعطف على مفعول ﴿ فسخرنا ﴾ وتقديره وسخرنا له الشیاطین کل بناء وغواص
 ونصب (كل) على البدل من الشیاطین وهو بعضه فالغواص هو الذي يغوص
 في الماء أجي ينزل فيه تقول : غاص يغوص غوصاً فهو غائص وغوصه تغويصاً
 وكل الشیاطین يغوصون له في البحار وغيرها من الانهار بحسب ما يريد منهم
 ويبنون له الابنية العجيبة التي يعجز الناس عن مثلها . وقال قتادة : كانوا
 يغوصون في البحار يستخرجون له الحلي منها ، وغير ذلك ﴿ وآخرین مقررین
 في الاصفاد ﴾ الاصفاد واحداً صفاً ، وهو الغل وجمعه اغلال . وقال
 السدي : السلاسل تجمع الیدین إلى العنق والصفد الغل . والصفد العطاء ،
 وبعضهم يقول : اصفدني قال الاعشى :

[تضيفته يوماً فقرب مقعدي] واصفدني على الزمانة قائداً (١)

وذلك انه ارتبط من شكره بمثل الغل ، و﴿ مقررین ﴾ هم الذين قرن بعضهم
 إلى بعض بالسلاسل .

ثم قال تعالى ﴿ هذا عطاؤنا فامنن او امسك بغير حساب ﴾ قال الحسن :
 معناه هذا الملك الذي اعطيناك ، فاعط ما شئت وامنع ما شئت . وقال قتادة
 والضحاك : معناه لا نحاسب على ما تعطي ونمنع منه يوم القيامة ليكون اهنأ لك

ومعناه ليس عليك تبعة . وقيل : معناه بغير مقدار يجب عليك إخراجـه
من يدك ، ويكون بغير حساب ، فامنن او أمسك . وقال الزجاج : المعنى
سخرنا لك الشياطين عطاء لك منها فاطلق منهم من شئت واحبس من شئت
فلا حساب عليك منه .

ثم قال تعالى ﴿ وَإِنْ لَهُ ﴾ يعني سليمان ﴿ عِنْدَنَا لُزَافِي ﴾ أي لقربي زيادة
على ما أعطيناه في الدنيا ﴿ وَحَسَنَ مَّآبٍ ﴾ أي وحسن مآل في العاقبة .
قوله تعالى :

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ
بِنُصَبٍ وَعَذَابٍ (٤١) أُرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ
وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا
لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخَذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ
إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (٤٤) أربع آيات .

قرأ أبو جعفر ﴿ بنصب ﴾ بضم النون والصاد . وقراءة يعقوب بفتحهما .
الباقون بضم النون وإسكان الصاد ، وهي لغات أربع . وقراءة هيرة بفتح
النون وإسكان الصاد .

يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ واذكر ﴾ يا محمد ﴿ عبدنا أيوب إذ
نادى ربه ﴾ فقال يا رب ، لان النداء هو الدعاء بطريقة يا فلان ومتى قال
اللهم افعل بي وارزقني وعافني كان داعياً ولا يكون منادياً ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ

الشيطان ﴿ (أني) في موضع نصب لان تقديره انه نادى بهذا القول ، وتقديره
 بأنني مسني فلما حذف الياء نصب (أني) و ﴿ مسني الشيطان ﴾ أي وسوسني
 وذكرني ما كنت فيه من نعم الله في الأهل والولد والمال ، وكيف زال ذلك
 كله وما حصل فيه من البلية طمعاً فيه لينزله بذلك ويجد طريقاً إلى اضلاله
 وتضجره وتبرمه ، فوجده صابراً عند ذلك مسلماً لأمر الله تعالى . وقيل :
 انه كان وسوس إلى قومه أن يستقذروه ويخرجوه من بيتهم ولا يتركوا
 امرأته التي تخدمه أن تدخل عليهم ، لان فيه برصاً وجذاماً ربما عدا اليهم
 وكان أيوب ينادي بذلك ويألم به . والنصب والوصب والتعب نظائر ، وفيه
 لغات اربع على ما حكيناه نصب ونصب مثل حزن وحزن ورشد زرشدورشد ،
 وعدم وعدم ، ثم تسكن الصاد مع فتح النون تخفيفاً وتضم النون والصاد اتباعاً لما
 قبله . ونقيض النصب الراحة وأصله ألا نصاب يقال انصبي أي عذبي ، وبرح
 بي ، ومنهم من يقول : نصبي قال بشر بن أبي حازم :
 تمناك نصب من أميمة منصب

وقال النابغة :

كليني لهم يا أميمة ناصب وإليل أقاسية بطى الكواكب (١)
 و ﴿عذاب﴾ اراد به ما كما يدخل عليه من ألم الوسوسة ، فاجاب الله تعالى
 صاه وقال ﴿ اركض برجلك ﴾ أي ادفع برجلك الارض ، فالركض الدفع
 بالرجل على جهة الاسراع ، ومنه ركض الفرس لاسراءه إذا دفعه برجله .
 يقال: ركضت الدابة وركضتها أنا مثل جبر العظم وجبرته أنا ، وحزن وحزنته
 أنا ، وفي الكلام حذف وتقديره فركض برجله وظهر عين ماء ، فقال الله

له ﴿ هذا مغتسل ﴾ أي ماء مغتسل ﴿ بارد وشراب ﴾ وقال الحسن وقتادة: نبعت له عينان ، فاغتسل من أحدهما وشرب من الأخرى ، فلما غسل موضع الاغتسال . وقيل : كل ماء يغتسل فيه فهو مغتسل وغسول ذكره ابو عبيدة . وفي الكلام حذف ، وتقديره . إن أيوب اغتسل من تلك العين ، فلزال الله تعالى عنه جميع ما كان فيه من الامراض .

ثم اخبر بما من عليه زيادة على صلاح جسمه ، وزوال ألمه فقال ﴿ ووهبنا له أهله ﴾ لأنه لما رد عليه أهله كان ذلك هبة منه مجددة ﴿ ومثاهم معهم ﴾ وتقديره ووهبنا له مثل أهله دفعة أخرى . وقد ذكرنا اختلاف المفسرين في ذلك - في سورة الانبياء - وأن فيهم من قال اعطاه بكل امرأة امرأتين وبكل ولد ولدين في دار الدنيا . ومنهم من قال ذلك اخبار عما يهبه الله له في الآخرة . وقيل : إن الله تعالى أمطر عليه جراداً من ذهب . وقوله ﴿ رحمة منا ﴾ معناه فعلنا ذلك لرحمتنا إياه ، فهو نصب على انه مفعول له ، ويجوز ان يكون نصباً على المصدر ﴿ وذكرى لاولى الالباب ﴾ أي وليتذكر به ويعتبر ذووا العقول فيصبروا كما صبر .

ثم حكى ما قال له فانه قال له ﴿ خذ بيدك ضعفاً فاضرب به ولا تحنث ﴾ فالضعف ملء الكف من الحشيش او الشمار يخ وما أشبه ذلك قال عوف بن الجزع : وأسفل مني فهدة قد ربطتها والقيت ضعفاً من حبال متطيب أي تطيبت لها . وقيل إنه كان حلف على امرأته لا امرأته أنكره من قولها لئن عوفي ليضربنني مئة ، فقيل له ﴿ خذ ضعفاً ﴾ بعدد ما حلفت ، فاضرب به دفعة واحدة ، فانك إذا فعلت ذلك ، فقد بررت قسمك ، ولم تحنث ، وهو قول قتادة والضحاك ،

وقوله ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ نهي له عن الحنث .

ثم اخبر تعالى عن حال ايوب وعظم منزلته ، فقال ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَلْباً﴾ ،
لبلائنا مسلماً لامرنا . ثم أثنى عليه فقال ﴿نَعَمْ الْعَبْدَانِهُ أَوَابُ﴾ أي رجاع
إلى الله منقطع اليه ، وعندنا ان من حلف ان يضرب غيره مئة فضر به
بشمر اخ فيه مئة طاقه ، فقد بر في يمينه ، وفيه خلاف بين الفقهاء .

قوله تعالى :

﴿وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِيَ الْأَيْدِي
وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ
عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ
وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (٤٨) هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ
لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتٍ عِدْنٍ مُمْتَعَةٍ لَهُمْ فِيهَا الْأَنْبُيَاءُ (٥٠) مُتَكَبِّرِينَ
فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ
الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ
هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ (٥٤) عشر آيات .

قرأ ابن كثير ﴿واذكر عبدنا ابراهيم﴾ على التوحيد . والباقون على
الجمع . وقرأ نافع ﴿بخالصة ذكرى الدار﴾ مضافاً . الباقر بالتثنية . من
﴿ج ٨ م ٧٢ من التبيان﴾

نون جعل ﴿ ذكرى ﴾ بدلا من (خالصة) وموضعه جر ، ويجوز أن يكون نصباً باضمار (اعني) او يكون معمول خالصة - في قول ابي عبيدة - ويجوز أن يكون رفعاً باضمار هي ذكرى ، كما قال ﴿ قل أفأنبئكم بشر من ذلك النار ﴾ (١) اي هي النار ، قال ابو علي : (الدار) يحتمل ان يكون الدنيا ويحتمل أن يكون الآخرة أي باخلاصهم ذكرى في الدنيا ، فاذا حملت على دار الآخرة ، فعلى تقدير إخلاصهم ذكرى الدار . ويكون ذكرهم لها وجل قلوبهم منها ومن حسابها ، كما قال ﴿ وهم من الساعة مشفقون ﴾ (٢) فالدار عندهم على هذا مفعول به ، وليست كالوجه المتقدم . فأما من اضاف فانه يكون قد اضاف إلى المفعول ، كأنهم باخلاصهم ذكرى الدار والخوف منها اخلصوا ذكرها والخوف منها لله تعالى ، ويكون على اضافة المصدر إلى الفاعل وتقديره بأن خلصت لهم ذكرى الدار .

وقرأ اهل الكوفة إلا عاصماً ﴿ واليسع ﴾ بلامين . الباقون بلام واحدة من قرأ بلامين ادخل على اللام الالف واللام ، ثم ادغم احداها في الأخرى كما قال الشاعر :

وجدنا الوليد بن يزيد مباركاً شديداً بأعباء الخلافة كاهله (٣)
لانه قدره تقدير النكرة ، وقرأ ﴿ هذا ما يوعدون ﴾ بالياء ابن كثير وابو عمرو ، وفي سورة ق ابن كثير وحده . الباقون بالتاء . من قرأ بالياء فللغيبة ، ومن قرأ بالتاء فعلى الخطاب ، ومن قرأ (عبدنا) على التوحيد يجوز ان يكون خص به ابراهيم بكونه عبداً له كما خصه بالخلة ، ويجوز أن يكون

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٧٢ (٢) سورة ٢١ الانبياء آية ٤٩

(٣) مر في ٤ / ٢٠٨ و ٧ / ٣٥

لان لفظه يدل على القليل والكثير . ومن جمع فلانه ذكر جماعة .
يقول الله تعالى مخاطباً لنبيه ﴿ واذكر ﴾ يا محمد ﴿ عبادنا ابراهيم واسحاق
ويعقوب ﴾ فن قرأ بالجمع فلانه ذكر جماعة . ومن قرأ بالتوحيد فلان لفظة
(عبد) لفظ جنس يقع على القليل والكثير ، ثم وصفهم فقال ﴿ اولي الايدي ﴾
يعني اولي القوة على العبادة ﴿ والابصار ﴾ الفقه في الدين - في قول ابن عباس
ومجاهد وقتادة - وقيل : ﴿ اولي الايدي ﴾ معناه اولي الاعمال الصالحة ، وقيل
معناه اولي النعم في الدين ، قال الشاعر :

فاعمل لما يعلو فمالك بالـ - ذي لا تستطيع من الأمور تدان

ثم اخبر تعالى عن حال هؤلاء الذين وصفهم ، فقال ﴿ انا أخلصناهم ﴾
فالاخلاص إخراج كل شائب من الشيء ليس من شكله ، فهؤلاء الابرار قد
اخلصهم الله لنعيم الجنان بلطفه في ما لازموه من الاحسان . وقوله ﴿ بخالصة ﴾
ذكرى الدار ﴾ معناه انا اخلصنا ابراهيم واسحاق ويعقوب بخلة خلصت
لهم . ثم قال ﴿ ذكرى الدار ﴾ بدلا من (خالصة) اي يذكرون بدار الآخرة
ويزهدون في الدنيا ، ويجوز ان يكون المعنى انهم يكثرون ذكر الآخرة
والرجوع إلى الله ، ومعنى ﴿ أخلصناهم ﴾ اصفيناهم ، قال الطبري : معناه
اخلصناهم بأفضل ما في الآخرة ، هذا على قول من اضاف ، وهو قول ابن
زيد . ومن نون فالمعنى الخالصة التي اخلصناهم بها هي ذكرى الدار للعمل لها
فناهيك بها من خالصة ادت اليها وهي الجنة .

ثم قال ﴿ وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار ﴾ والاصطفاء إخراج الصفوة
من كل شيء . فهم صفوة وغيرهم كدر ، فالله تعالى اصطفى هؤلاء الانبياء
بأن اختارهم لنبوته بحسب ما سبق في علمه انه يكون منهم من القيام باعباء

النبوة والمسارة إلى الخير والتبرز في الفضل . والذكر الذي يحتاج اليه على وجهين : ذكر ما يجب بالرغبة فيه والدعاء اليه وذكر ما يتقى بالرهبة منه والتحذير منه . وفي ذلك تمام الداعي والصارف للذين تقتضيها الحكمة .

و ﴿ الاخير ﴾ جمع خير على وزن (أموات) جمع (ميت) وهو من يفعل الأفعال الكثيرة الحسنة . وقيل هو جمع (خير) . ومثله (الابرار) جمع (بر) وصفوا بالمصدر : وقال مجاهد وقتادة : ﴿ ذكرى الدار ﴾ دار الآخرة وقال ابن زيد : هي دار الجنة . كما قال تعالى ﴿ ولنعم دار المتقين ﴾ (١) قيل : إنهم كانوا يذكرونها للعمل لها ودعاء الناس اليها . وقيل : ذكرى الدار بالثناء الذي ليس لغیرهم من أجل قيامهم بالنبوة . وقيل : الاصطفاء الاختصاص بمدحهم بأنهم هم الصفوة . وقيل : إنما خاطب الله النبي ﷺ أن يذكرهم بصبرهم وفضلهم ليسلك طريقهم ثم قال له ﷺ وادكر ﴿ أيضاً ﴾ اسماعيل واليسع وذا الكفل ﴿ بمثل ذلك ﴾ ثم اخبر عنهم بأنهم كلهم من الاخير . وقيل ذو الكفل ذو للضعف من الثواب . وقيل كان اسمه ذلك . وقيل : سمي بذلك لأنه تكفل بأمر انبياء خلصهم الله من القتل به . وقيل تكفل بعمل صالح فسمي به .

ثم قال تعالى ﴿ هذا ذكر ﴾ ومعناه إن ما اخبرنا عنهم ذكر أي شرف لهم وذكر جميل وثناء حسن يذكرون به في الدنيا ﴿ وإن للمتقين لحسن مآب ﴾ يعني حسن المرجع في الآخرة ، لأنهم يرجعون إلى الجنة . ثم بين ذلك المآب ، فقال ﴿ جنات عدن ﴾ وهو في موضع جر على البدل من (مآب) والجنات جمع جنة وهي البستان التي يحنها الشجر ﴿ عدن ﴾ يعني موضع إقامة وخلود ﴿ مفتحة لهم الابواب ﴾ قيل تنفتح من غير كلفة ، قال الحسن . تكلم : انفتحي

انغلقي ، ورفعت (الابواب) لان تقديره مفتحة لهم ابوابها ، فدخلت الالف واللام بدلا من الاضافة ، كما يقولون : مررت برجل حسنة عينه قبيح أنفه يريدون قبيح الانف - ذكره الفراء - وقال الزجاج : تقديره مفتحة لهم الابواب منها ، ولو نصب (الابواب) لجاز ، كقول الشاعر :

فما قومي بتغلبة بن سعد ولا بفزارة الشعث الرقابا

هذا على شبه المفعول . ثم وصف تعالى للذين يحصلون في الجنة فقال ﴿ متكئين فيها على الارائك ﴾ فالائتك. الاستناد الى المساند ، ومنه الوكاه لانه يستمسك به ما في الوعاء ﴿ يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب ﴾ أي يستدعون الفواكه للأكل والشراب للشرب ﴿ وعندهم قاصرات الطرف اتراب ﴾ يعني قصرن على ازواجهن فما لهن في غيرهم بغية ، فالقاصر نقيض الماد ، يقال هو قاصر طرفه عن فلان وماد عينه إلى فلان قال امرؤ القيس : من القاصرات الطرف لودب محول من الذر فوق الاتب منها لأثرا (٢) والاطراب الأقران على سن واحد ليس فيهن هرمة ولا عجوز . قال الفراء : لا يقال الاثراب إلا في الأنث ، ولا يقال في الذكران قال ابن أبي ربيعة :

ابرزوها مثل المهمة تهادى بين عشر كواعب اتراب (١)

والترب اللذة وهو مأخوذ من اللعب بالتراب . وقيل : اتراب على مقدار سن الأزواج من غير زيادة ولا نقصان . ثم قال تعالى ﴿ هذا ما توعدون ﴾ فمن قرأ بالتاء فعلى انه يقال لهم ويخاطبون بهذا القول . ومن قرأ بالياء فعلى الخبر عن حالهم ﴿ ليوم الحساب ﴾ يعني يوم الجزاء . ثم قال تعالى ﴿ إن

هذا ﴿ يعني الذي وصفته من الجنة وما فيها من أنواع اللذات ﴾ ﴿ لزرقنا ماله من نفاد ﴾ يعني من انقطاع لأنه على سبيل الدوام ، وهو قول قتادة .

قوله تعالى :

﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَمَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ كُنَّا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ (٦٠) ست آيات بلا خلاف .

لما وصف الله تعالى أهل الجنة وما أعدّه لهم من أنواع النعيم فيها وصف ما أعدّه لأهل النار والعصاة من أنواع العقاب ، فقال ﴿ هذا ﴾ يعني هذا ما ذكرنا لأهل الجنة . ثم ابتداءً فقال ﴿ وإن للطاغين ﴾ وهم الذين طغوا في معاصي الله ﴿ لشر مآب ﴾ يعني شر مرجع . ثم بين ذلك المرجع فقال ﴿ جهنم يصلونها فبئس المهاد ﴾ وإنما وصف جهنم بأنها مهاد لما كانت عوضاً لهم عن المهاد ، فسميت باسمه ، كما قال ﴿ فبشرهم بعذاب اليم ﴾ (١) وقال قوم : هو على تقدير بئس موضع المهاد ، والمهاد الفراش الموطأة تقول : مهدت له تمهيداً كقولك وطأت له توطئة ، ومنه مهد الصبي ، لأنه يوطأه .

ثم قال ﴿ هذا فليذوقوه حميم وغساق ﴾ وتقديره هذا عذاب جهنم

فليذوقوه حميم وغسان . ويجوز أن يجعله مستأنفاً كأنك قلت هذا فليذوقوه .
ثم قلت منه حميم وغساق .

أمرهم الله بذواق الحميم ، لأن الذواق ابتداء إدراك الطعم على طلبه
بالفم ، ولذلك يقال : ذقته فلم يجد له طعماً لما فيه من طلب إدراك الطعم بالفم .
ومن طلب إدراك الشيء كان أشد احساساً به . والحميم الحار الشديد الحرارة ،
ومنه الحمى لشدة حرارتها وحم الشيء إذا دنا وأحمره لهذا أي ادناه قال الشاعر :
أحم الله ذاك من لقاء أحاداً حاد في الشهر الحلال (١)

والغساق ما يسيل من صديد أهل النار . وقال ابن عمر : هو القيح
الذي يسيل منهم يجمع فيسقونه ، وقال كعب الأحبار : الغساق عين في جهنم
يسيل اليها سم كل ذات حمة من عقرب وحية . وقيل : هو قيح شديد النتن ،
يقال : غسقت القرحة تغسق غسوقاً . والتشديد والتخفيف لغتان . وقيل :
الغساق الزمهرير - في قول ابن مسعود - فلهرده يحرق كما تحرق النار ،

ثم قال ﴿ وآخر من شكله أزواج ﴾ معناه أنواع آخر من شكل
العذاب أزواج أي أمثال . وقال الحسن : ذكر السلاسل والأغلال ونحوه ،
ثم قال ﴿ وآخر من شكله ﴾ مما لم ير في الدنيا . والشكل - بفتح الشين -
الضرب المشابه . والشكل - بكسر الشين - النظير في الحسن ، ومن قرأ
﴿ وآخر ﴾ أراد الواحد . ومن قرأ ﴿ وآخر ﴾ أراد الجمع ﴿ أزواج ﴾
معناه أشكال . ثم قال ﴿ هذا فوج مقتحم معكم ﴾ قال الحسن يعني به بني
إبليس ، والآخر بنو آدم يقتحمون معكم النار وعذابها ﴿ لا مرحباً بهم ﴾
أي لا اتسعت لهم أماكنهم ﴿ إنهم صالوا النار ﴾ أي لازموها . قال الفراء :

هي الأمة بعد الأمة تدخل النار . وقوله ﴿ لا مرحباً بهم ﴾ من قول أهمل النار ، كما قال ﴿ كلما دخلت أمة لعنت اختها ﴾ (١) وقيل هم اتباع الرؤساء في الضلالة قيل لهم لا مرحباً بهم ، وهو نصب على المصدر ﴿ قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار ﴾ حكاية مما يردون عليهم من الجواب فانهم يقولون : بل أنتم لا اتسعت عليكم أما كنكم قدمتموه لنا فبئس القرار الذي استقررنا عليه ، وهو مثل قوله « ربنا إنا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتتهم ضعفين من العذاب وللعنهم إنا كبراً » (٢) وقرأ حمزة والكسائي وخلف (غساق) - بالتشديد - للباقون بالتخفيف وها لغتان . وقرأ أبو عمرو وابن كثير ﴿ واخر ﴾ مضمومة الالف على الجمع . الباقون ﴿ وواخر ﴾ بفتح الالف ممدودة على التوحيد . ومن قرأ على الجمع ، فلحقوله ﴿ ازواج ﴾ وهما لا ينصرفان ، لان (آخر) وزنه افعل ولما أخر فلأنه معدول عن الالف واللام ، لانه لا يستعمل في الجارية الكبرى والبرأة الأخرى إلا بالالف واللام ، فلما عدلوه وعرفوه تركوا صرفه مثل (سحر) إذا أردت سحر يوم بعينه تركت صرفه لأنه معدول عن الالف والسلام في السحر .

قوله تعالى:

﴿ قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار ﴾ (٦١)
وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار (٦٢) أتتخذناهم

سَخِرَ يَأْمُ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ
أَهْلِ النَّارِ (٦٤) قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنِّي إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ
الْقَهَّارُ (٦٥) خمس آيات .

قرأ أبو عمرو وحمة والكسائي اتخذناهم موصولة على وجه الاخبار . الباقون
بقطع الهمزة على الاستفهام . وقرأ نافع وحمة والكسائي ﴿سَخِرَ يَأْمُ﴾ بضم السين .
الباقون بكسرها .

حكى الله تعالى عن الكفار الذين اتبعوا غيرهم في الضلال وانقادوا
لرؤسائهم فيه انهم يقولون يوم القيامة إذا حصلوا في عذاب جهنم يا ﴿ربنا من
قدم لنا هذا﴾ أي من سبب لنا هذا العذاب ودعانا إلى ما قد استوجبنا به
ذلك « فزده عذاباً ضعفاً » أي مثلاً مضاعفاً إلى مثل ما يستحقه « في النار »
أحد الضعفين لكفرهم بالله تعالى والضعف الآخر لدعائهم إيانا إلى الكفر .

ثم حكى عنهم أيضاً انهم يقولون « ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من
الاشرار » قال مجاهد نزات في أبي جهل والوليد بن المغيرة وذويهما انهم
يقولون مع قرنائهم : ما لنا لا نرى عماراً وخباباً وصهيباً وبلالا الذين كنا
نعدهم في الدنيا من جملة الأشرار الذين يفعلون الشر والتقيح ولا يفعلون
الخير . وفي تفسير أهل البيت إن هذا حكاية عما يقوله اعداء أهل الحق ،
فانهم لا يرون أهل الحق يوم القيامة لكونهم في الجنة وكون اعدائهم في النار
وكانوا يعدونهم في الدنيا من الأشرار .

ثم حكى عنهم يقولون أيضاً « اتخذناهم سَخِرَ يَأْمُ » فمن قطع الهمزة أراد
﴿ج ٨٠ م ٧٣ من التبيان﴾

الاستفهام الذي معناه التعجب والتوبيخ ، ومن وصل أراد الاخبار ، يعنون الذين كنا نعدهم من الاشرار « اتخذناهم سخرى » فمن كسر السين جعله من الهزة أي كنا نسخر منهم في الدنيا ، ومن ضم السين جعله من السخرة أي كنا نسخرهم ونستندلهم « أم زاغت عنهم الابصار » ومن قطع الهمزة جعل (أم) معادلة ومن وصلها جعل (أم) بمعنى بل ، قال مجاهد والضحاك « أم زاغت عنهم الابصار » أي ابصارنا ، فلا ندري اين هم . وقال الحسن ؛ كل ذلك قد مثلوا بهم اتخذوها سخرى وزاغت عنهم ابصارهم محقرة لهم . ثم اقسم تعالى ان الذي حكاه من تخاصم اهل النار ومجادلة بعضهم لبعض « لحق » أي كائن لا محالة .

ثم أمر نبيه ﷺ فقال « قل » يا محمد « إنما أنا منذر » أي مخوف من معاصي الله ومخذر من عقابه « وما من إله » أي وليس من يحق له العبادة « إلا الله الواحد » الفرد « القهار » لجميع خلقه المستعلي عليهم بسعة مقدوره لا يقدر احد على الخلاص من عقوبته إذا اراد عقابه ، ومن اختار وصل الهمزة في قوله « اتخذناهم » قال لأنهم علموا انهم اتخذوهم سخرى في دار الدنيا وإنما اعترفوا بذلك يوم القيامة ، يقولون اتخذناهم سخرى بل زاغت عنهم ابصارنا محقرة لهم . ومن قطع الهمزة قال : هذا على وجه التوبيخ لنفوسهم والتبكيك لها . ثم قال ذلك أي ثم يقولون بل زاغت عنهم ابصارنا فلا نراهم . قوله تعالى :

﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) ﴾

﴿ قُلْ هُوَ نَبِيُّ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِي مِنْ

عَلَّمَ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنَّ يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا
نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) أربع آيات •

قرأ أبو جعفر « إنما أنا نذير مبين » بكسر الهمزة • الباقر بفتحها •
لما وصف الله تعالى نفسه بأنه الواحد القهار وصفها أيضاً بأنه « رب
السموات والارض » أي مالكهما ومدبرها ومدبر ما بينهما « العزيز »
الذي لا يغالب لسعة مقدوراته « الغفار » لذنوب عباده إذا تابوا •
ثم قال قل لهم يا محمد « هو نبأ عظيم » قال مجاهد والسدي يعني القرآن
« هو نبأ عظيم » أي الخبر العظيم وقال الحسن : هو يوم القيامة •
ثم خاطب الكفار فقال « انتم » معاشر الكفار « عنه معرضون » عن هذا
النبأ العظيم لا تعلمون بما يوجب مثله من اجتناب المعاصي وفعل الطاعات •
ثم أمر نبيه ﷺ أن يقول أيضاً « ما كان لي من علم بالملاء الأعلى إذ
يختصمون » يعني بالملأ الأعلى الملائكة اختصموا في آدم حين قيل : لهم
« إني جاعل في الارض خليفة » في قول ابن عباس وقتادة والسدي ، فما
علمت ما كانوا فيه إلا بوحي من الله تعالى • وقيل : كان اختصام الملائكة في
ما كان طريقه الاجتهاد • وقيل : بل طريقه استخراج الفائدة ، ولا يجوز أن
يختصموا في دفع الحق •

وقوله « إن يوحى إليّ إلا أنما أنا نذير مبين » قيل في معناه قولان :
احدهما - ليس يوحى إلي إلا لآتي أنا نذير مبين أي مخوف من المعاصي
مظهر للحق •

الثاني - ليس يوحى إليّ إلا الانذار البين الواضح •

قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١)
فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢)
فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ
مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ
بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ (٧٥) خمس آيات .

يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ قل يا محمد « ما كان لي من علم بالملائكة
الأعلى » من الملائكة « إذ يختصمون ٠٠٠٠٠ » إذ قال ربك للملائكة اني خالق
بشرًا من طين » يعني آدم عليه السلام ، لأن الله تعالى خلقه من طين ، فالخلق
فعل الشيء على تقدير وترتيب وكان جعل آدم على مقدار ما تقتضيه الحكمة
واصل الخلق التقدير . والبشر مأخوذ من البشرية ، وهي الجلدة الظاهرة ،
والانسان مأخوذ من الانس ، لأنه يأنس بمثله في ما يؤنس به ، فجرى عليه
الاسم ، لأن هذا من شأنه « فإذا سويته » أي سويت خلق هذا البشر
وتممت أعضائه وصورته « فقعوا له ساجدين » أي اسجدوا له . وقد بينا
في ما مضى أن السجود كان لله تعالى وعبادة له وفيه تفضيلا لآدم على الملائكة
وقوله « ونفخت فيه من روحي » فالروح جسم رقيق هوائي بها يتم كون
الحي حياً لتخرقه في مخارق الانسان وهو مشتق من الريح ، ومنه الراحة
والاستراحة من الكد للخرة على النفس كلريح ، ومنه الأريحية ، والراحة كف

الانسان لما يتراوح الناس اليها في العمل ، ومنه الرواح إلى المنزل للاستراحة ومعنى « ونفخت فيه من روحي » أي توليت خلقها من غير سبب كالولادة التي تؤدي اليها ، لان الله تعالى شرف آدم بهذه الحال وكرمه . وفي الكلام حذف وتقديره إن الله خلق آدم الذي وعدهم بخلقهم ثم إن الملائكة سجدت بأجمعها له إلا إبليس الذي أمتنع ، وقد بينا اختلاف الناس في أن إبليس هل كان من جملة الملائكة ، ومن قبلهم او كان في جملتهم يتناول الأمر له بالسجود فلا نطول باعاده فن قال لم يكن منهم ، قال (إلا) بمعنى (لكن) وتقديره : لكن إبليس استكبر وتجرأ وامتنع من السجود له ، وكان بذلك الآباء والمخافة من جملة الكافرين .

ثم حكى ما خاطب الله تعالى إبليس به حين امتنع من السجود لآدم « ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي » على وجه التقرير له والتهجين لفعله ، وإنما قال « بيدي » على وجه تحقيق الاضافة لخلق الله تعالى ، لا انه أمر به او كان على سبب أدى اليه تعالى ، والتثنية أشد مبالغة ، كما قال الشاعر :

دعوت لما نابني مسورا فليبي فليبي يدي مسورا (١)

لتحقيق اضافة المبالغة الى مسور ، ومثله قولهم : هذا ما كسبت يداك أي ما كسبته أنيت قال الشاعر :

أيها المبتغي فناء قريش بيد الله عمرها وفناء

فوحده لتحقيق الاضافة . ثم قال له بلفظ الاستفهام والمراد به الانكار « استكبرت » يا إبليس أي طلبت التكبر بامتناعك من السجود له « أم كنت من العالمين » الذين يعلمون على الخلق تجبراً وتكبراً . وقرئ في الشواذ « بيدي

أستكبرت « على وصل الهمزة • وروي ذلك عن مجاهد عن شبل ابن كثير اجترأ بـ (أم) عن الف الاستفهام • ويحتمل أن يكون على اليمين ، كأنه أقسم فقال بنعمتي الدينية والدنياوية تكبرت بل كنت من العالين بهذا الفعل فتكون على هذا (أم) منقطعة وعلى الأول وهو المعروف تكون معادلة لهمزة الاستفهام :

قوله تعالى :

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (٧٦)
 قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَتَّبِعُكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلِتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ •

ثلاث عشرة آية في الكوفي واثننا عشرة آية في ما عداه عد الكوفي

﴿ فالحق أقول ﴾ ولم يعده الباقون .

قرأ عاصم إلا هيرة وخلف وحمزة «قال فالحق» بالرفع «والحق» بالنصب .
 الباقيون بالنصب فيهما ، من رفع تقديره فأنا الحق ، ويجوز على تقدير فالحق لأملأن
 كما تقول : عزيمة صادقة لا تينك ، ويجوز على تقدير حذف الخبر ، وتقديره :
 فالحق مني لأملأن . ومن نصب فعلى فالحق لأملأن على القسم ، كما تقول : والله
 لأفعلن ، ويجوز في مثله حقاً لأملأن ، ويكون (والحق أقول) اعتراضاً
 بين الكلامين ، ويجوز أن يكون النصب على تقدير اتبعوا الحق ، أو أقول
 الحق . وقال أبو علي : من نصب (الحق) الأول فعلى اضمار (فعل) نحو ما
 ظهر في قوله «ليحق الحق» (١) وفي قوله «ويحق الله الحق» (٢) .

لما حكى تعالى ما قال لابليس على وجه الإنكار عليه «استكبرت أم
 كنت من العالين» حكى ما أجاب به إبليس ، فانه قال «انا خير منه خلقتني
 من نار وخلقته من طين» وقيل إن الله تعالى خلق الملائكة من الريح فسموا
 بذلك روحانيين ، وخلق آدم من الطين وخلق إبليس من النار ، فظن
 إبليس إن النار أشرف من الطين لما فيها من النور ، ولما يكون بها من
 الانضاح لأكثر ما يحتاج اليه ومن الاحراق الذي يقع به الزجر من العقاب
 فدخلت عليه الشبهة بهذا ، وظن أنه افضل منه من حيث كان أصله افضل
 من اصل آدم ، وكيف يجوز أن يفضل آدم ﷺ عليه . وهذا يدل على ان
 السجود لآدم كان على وجه التفضيل له على جميع من أمر بالسجود له ، وإلا
 لم يكن يمتنع من ذلك ، ولم يعلم إبليس أن الله تعالى إنما أمرهم بالسجود
 لآدم عبادة له ، وإن كان تفضيلاً لآدم وإن لهم في ذلك لطفاً في تكليفهم
 فذلك أمرهم الله بالسجود له ، ولو أنعم النظر في ذلك لزال شبهته . فقال

الله تعالى له « فخرج منها » قال الحسن : يعني من السماء . وقال غيره : من الجنة « فانك رجيم » أي مرجوم إن رجعت اليها بمثل الشهب التي ترمي به الشياطين . وأصل الرجيم المرجوم ، وهو المرمي بالحجر « وإن عليك لعنتي » يا إبليس ابعلدي لك من رحمتي « إلى يوم الدين » يعني يوم القيامة الذي هو يوم الجزاء . فقال إبليس عند ذلك يا « رب فانظرنى » أي اخرنى « إلى يوم يبعثون » أي يوم يحشرون للحساب ، وهو يوم القيامة فقال الله تعالى له « فانك من المنظرين » أي من المؤخرين « إلى يوم الوقت المعلوم » أي اليوم الذي قدر الله فيه اماتتك ، فعلى هذا لا يلزم أن يكون إبليس مغرّياً بالقبائح لعلمه بأنه يبقى ، لأنه لا وقت إلا وهو يجوز أن يحترم فيه ، ولا يقدر على التوبة فالزجر حاصل له . ومن قال إنه اجابه إلى يوم القيامة يقول : كما أعلمه أنه يبقى إلى يوم يبعثون ، أعلمه أيضاً أنه من أهل النار لا محالة ، وأنه لا يتوب . وصح مع ذلك تكليفه ، لأنه يلزمه بحكم العقل أن لا يفعل القبيح من حيث أنه متى فعله زاد عقابه ، ويضاعف على ما يستحق له . وتخفيف العقاب عن النفس واجب بحكم العقل ، كما يجب اسقاط العقاب جملة .

ثم حكى تعالى ما قال إبليس فانه أقسم وقال « فبعزتك » يا الهى « لأغوينهم أجمعين » فالعزة القدرة التي يقهر بها غيره من القادرين ، و (الاغواء) التخييب ، وإبليس يغوي الخلق بأن يزين لهم القبيح ويرغبهم فيه . والغى خلاف الرشد ، وهو الخيبة ، يقال : أغواه يغويه إغواء ، فهو مغوي إذا دعاه إلى ما فيه الخيبة .

ثم استثنى من جملة من يغويهم « عباد الله المخلصين » مع حرصه على اغواء الجميع من حيث أنه يؤس منهم من حيث علم انهم لا يقبلون منه ولا

ينقادون لاغوائه ، وانه ليس له عليهم سلطان إلا بالاغواء ، فاذا علم أن منهم من لا يقبل منه عرف ذلك عنه ليأسه منه . ومن فتح اللام من « المخلصين » أراد إن الله تعالى اخلصهم بما فعل لهم من اللطف الذي امتنعوا عنده من القبائح . ومن كسر اللام أراد انهم اخلصوا عبادتهم لله ، لم يشركوا معه غيره .

ثم حكى تعالى ما أجاب به - عز وجل - لابلis ، فانه قال له « فالحق والحق اقول لأملأن » فمن رفع الأول اراد ، فأنا الحق او فالحق لاملان واقول الحق . ومن نصب فعلى تقدير . فالحق لأملأن ، كما تقول حقاً لأملأن ، ويكون « والحق اقول » اعتراض بين الكلامين ويكون العامل في (الحق) الثاني قوله « اقول » « لاملأن جهنم منك » يا ابليس « ومن تبعك منهم اجمعين » أي من تابعتك على دعائك إلى المعاصي .

ثم خاطب النبي ﷺ فقال « قل » يا محمد « ما أسألكم عليه من اجر » أي ليس أسألكم أجراً على دعائكم إلى الله « وما أنا من المتكلفين » أي ولست ممن يتعسف في طلب الأمر الذي لا يقتضيه العقل ، وصفة (متكلف) صفة تجري مجرى الدم ، فلذلك قال « وما أنا من المتكلفين » ، لانه لا يدعو إلا إلى الأمر الجميل الذي يقتضيه الحق .

ثم قال « إن هو الاذكر للعالمين » أي ليس هذا القرآن إلا شرف للعالمين « ولتعلمن نبأه بعد حين » قال الفراء : معناه ولتعلمن خبر القرآن وانه حق او خبر محمد أنه صادق بعد حين ، قال الحسن : عند الموت يأتيك الخبر

القين ٠ وقال ابن زيد : يوم القيامة « والحين الوقت » وقال عكرمة : هو كقوله
« تؤتي أكلها كل حين باذن ربها » (٦) وذلك حين تصرم النخلة إلى حين تطلع
سته أشهر وهو مثل ما رواه أصحابنا سواء ٠

(١) سورة ١٤ ابراهيم ٢٥ آية

تم المجلد الثامن من التبيان
ويليه المجلد التاسع وأوله
اول سورة الزمر

طبع في مطابع النعمان
في النجف الاشرف
في شعبان سنة ١٣٨٢ هـ
وفي كانون الثاني سنة ١٩٦٣ م

فهرس المبكر الثامن من النباه

١- فهرس "الاماريث"

الصفحة	
٦٧	عن النبي ﷺ : أيكم يؤازرنى على هذا الأمر يكن وزيرى ٠٠٠٠
١١٩	عن عليّ عليه السلام : أنه سئل عن الدابة التي تكلم الناس فقال : والله ما لها ذنب وإن لها حية .
٢٠٤	عن النبي ﷺ : أهل القرآن هم أهل الله وخاصته .
٢٢٨	عن النبي ﷺ : زيدوهم في الخطر واسيزيدوا في الاجل .
٢٤٧	عن النبي ﷺ : كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ٠٠٠٠
٣٠٢	عن النبي ﷺ - في وصف ما أعده الله - هو ما لا عين رأت ولا ... ٠٠٠
٣٠٣	عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام - في قوله تعالى « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » الآية متناولة لمن يقوم إلى صلاة الليل ٠٠٠٠
٣٠٦	عن جعفر بن محمد عليه السلام : العذاب الأدنى هو القحط والأكبر خروج المهدي عليه السلام بالسيف .
٣١٤	عن جعفر الصادق عليه السلام : ما جعل الله لرجل من قلوبين يحب بهذا قوماً ويحب بهذا أعداءهم .
٣٢٠	عن النبي ﷺ : قولوا : اللهم استر عورتنا وأمن روعتنا .
٣٣٢	عن النبي ﷺ في حكم سعيد في بني قرظة : حكم فيهم بحكم الله ،

الصفحة	
٣٣٤	عن النبي ﷺ : اللهم احيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني
٣٣٩	حديث الكساء عن أم سلمة عن النبي ﷺ .
٣٤٩	عن النبي ﷺ : من حلف على يمين كاذبة
٤٤١	عن علي (عليه السلام) : إن الله سمى النبي ﷺ في القرآن بسبعة أسماء
٤٥٠	عن النبي ﷺ : لا عدوى ولا هامة ولا صقر ولا غول .
٤٦٤	عن النبي ﷺ : هي ثلاث نفحات : نفخة الفزع ونفخة
٥١٨	عن النبي ﷺ : أنا ابن الذبيحين .
٥٤٣	عن النبي ﷺ : أدعوهم إلى كلمتين حقيقتين يسودون على العرب بها ويؤدي الخراج لهم بها العجم : تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله .
٥٤٧	عن النبي ﷺ : الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتاف و
٥٥٥	عن علي (عليه السلام) : لا أوتي برجل يقول ان داود (عليه السلام) ارتكب فاحشة إلا ضربته حدّين احدهما للقذف والآخر لاجل النبوة .

٢ - فهرس الردود ، والتهجوة ، والادلة

الصفحة

- ٨٣ رد على من يدعي أن الانبياء لا يورثون المال .
- ٩٦ رد على من يقول : القدرة تتبع الفعل .
- ١٢٠ ، ٢٣٤ استدلال على صحة الرجعة .
- ١٢٥ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢٩٣ ، ٤٠٧ ، ٥١٣ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ردود على المجبرة
- ١٥٢ دليل على أن كثرت الاتباع لأمر لا يدل على صحته .
- ١٥٩ دليل على وجوب اللطف .
- ١٧٢ ، ٢١٣ ، ٢٤٣ ، ٤١٥ ، ٥٤٥ ، ٥٥٨ ردود على اصحاب المعارف .
- ١٩٩ دليل على أن المؤمن لا يئأس من رحمة الله .
- ٢١٤ دليل على حسن المجادلة ورد على من يدعي نسخ « ولا تجادلوا » .
- ٢١٦ رد هلى من يستدل على ان النبي ﷺ لم يكن يحسن الكتابة بقوله تعالى « ولا تخطه يمينك اذا لارتاب المبطلون »
- ٢٣٨ ، ٤٧٨ دليل صحة القياس العقلي والنظر ، دون القياس الشرعي .
- ٢٧٣ رد على من يفسر « بلا عمد ترونها » بأن السماء لها عمد لا يرى .
- ٢٧٩ دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - مع المشقة -
- ٢٩٠ رد على البلخي حول ما اختص الله به من علم .
- ٣١٤ حوار حول القليين في انسان واحد .

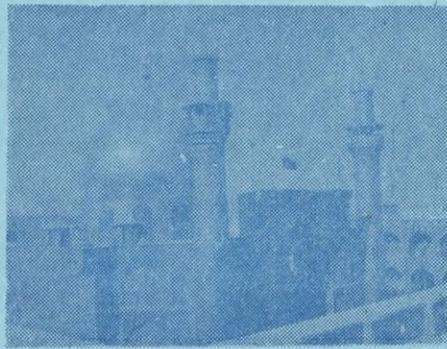
الصفحة	
٣١٨	رد على من يورث مع النبت أو الأم احد من الأخوة .
٣٤٠	استدلال على عصمة أهل البيت وعلى صواب ما أجمعوا عليه .
٤١٢	جواب من يسأل اذا كان الجناحان يكفيان ما معنى خلق الثلاثة فاكثر
٤٢٥	دليل على انه لا احد الا وقد بعث الله اليهم رسولا وقد اقام الحجة على الجميع .
٤٦٦	جواب من يتوهم ان تعجب الكفار من البعث يوم القيامة ينافي القول بعذاب القبر .

- ٣ المباحث اللغوية

الصفحة	الصفحة
٣٢٧ في (هلم)	١٢ في (عمر)
٣٩١ في (فزع)	٢٢ الفرق بين الحار والحذر
٤٠٨ في (التناوش ، التناوش)	٤٧٠، ٥٨٨ في (جبلة ، جبل)
٤١١ في (مثنى وثلاث)	٨٦ في (مباء)
٤٣٩ الفرق بين التحويل والتغيير والتصيير	٩٦ في (عفرية)
٤٦٦ في (الصور) و (الاجداث)	١١٤ في (ردف)
٤٦٨ في (ظلال) و (ارائك)	١٤٨ في (ذاتك)
٤٧٢ في (نكس)	١٥٠ في (رده)
٤٧٥ في (ركوب)	١٥٢ الفوق بين (لو) و (لما)
٤٨٦ في (لارب)	١٥٣ في (الآجر)
٤٩٥ في (معين) و (غول)	١٥٥ الجعل وأقسامه
٤٩٦ في (ينزفون)	١٧١ الفرق بين (كمن) و (أكنن)
٥١٢ في (يزفون)	١٩٤ في (بدأ) و (انشأ)
٥٢٥ في (آل)	٢٢١ في (عنكبوت)
٥٤٢ في (لات) و (مناص)	٢٢٩ في (الغلب ، الغلبة)
٥٤٤ الفرق بين مشى وامشى	٢٦٤ - ٣٣٥ في (ضعف ، ضاعف)
٥٦٧ في (نصب)	٣٠٩ في (جرز)

٤- فهرس المراضيع

رقم الصفحة	سورة الشعراء	رقم السورة
٣	سورة الشعراء	٢٦
٧٣	سورة النمل	٢٧
١٢٧	سورة القصص	٢٨
١٨٥	سورة العنكبوت	٢٩
٢٢٧	سورة الروم	٣٠
٢٦٥	سورة لقمان	٣١
٢٩١	سورة ألم السجد	٣٢
٣١١	سورة الأحزاب	٣٣
٣٧٤	سورة سبأ	٣٤
٤١٠	سورة فاطر	٣٥
٤٤٠	سورة يس	٣٦
٤٨٠	سورة الصافات	٣٧
٥٤٠	سورة ص	٣٨



١٠٠٠ قرش لبناني